فتى الجهاد

مذكرات

عبد الرحمن البنان

البصائر
للبحوث والدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

نحسب صاحب هذه المذكرات -والله حسيبه- من هؤلاء المؤمنين؛ فقد كـان -بحق- من رجال الجهاد الذين إذا قيل لهم: ﴿ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٨]، هبوا ملبين يتمنون الشهادة في سبيل الله، فخرج مع كتائب الإخوان للجهاد في فلسطين وهو ابن السادسة عشرة، ولما رده الإمام الشهيد لصغر سنه احتال على الأمر وسافر مع كتائب الجهاد دون إذنٍ من أهله، أو موافقةٍ من الإمام الشهيد حسن البنا.

ولما علم أهله بذلك طلبوا من الإمام الشهيد أن يعيده من الميدان، فأعيد منه، وما لبث أن احتال للعودة للجهاد مرة أخرى، وما هي إلا أيام حتى استطاع أن يعود إلى ميدان الجهاد في فلسطين مرة أخرى، يقاتل الصهاينة ويدافع عن دينه ووطنه وأمته.

وبعد معاهدة رودس أعادته الحكومة المصرية من ميدان الجهاد وكافأته بالاعتقال في الهايكستب ثم الطور، ويفرج عنه مع إخوانه بعد إقالة حكومة إبراهيم عبد الهادي، فلم يندم على جهاده؛ لأنه كان يجاهد من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

ويدخل كلية الآداب وما هي إلا شهور معدودة حتى ينادي منادي الجهاد لحرب الإنجليز في القناة فيشارك في القتال ويقوم بأكبر عمليات المقاومة في ذلك الوقت، وهي القيام بنسف القطار الحربي الإنجليزي في عملية من أجرأ عمليات المقاومة، وكانت نسبة النجاة فيها شبه معدومة، إلا أن الله يريد أن يشاهد الناس عمليًا أنه وحده هو الذي يملك الموت والحياة، فينجو عبد الرحمن البنان بأعجوبة

بعدما ظن إخوانه أنه استشهد، ليواصل العمل والجهاد، فيشارك في نسف أحد الكباري بعدها.

ويواصل العمل مع إخوانه فيدخل السجن مره أخرى، ولكن في عهد الثورة فيدفع من عمره أربعة عشر عامًا في سجون عبد الناصر ثمنًا لطلبه الحرية، فيدفعها مع غيره صابر محتسبًا لا يسأل الناس أجرًا، ولا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا.

وعند خروجه من السجن يتمكن من السفر إلى الخارج فارًا بدينه من عسف وظلم عبد الناصر ورجاله، وذلك في عام ١٩٦٨م، ويستمر في هجرته حتى عام ١٩٨٥م.

وعند عودته يجد الأحوال قد تغيرت فيبني بيتًا بناحية المعادي يخصص دوره الأول وحديقته دارًا لتربية النشء تعاونه فيها وتشاركه العمل السيدة الفاضلة زوجته، فهو صاحب دعوة ورجل فكرة، كبرت سنه ولا يستطيع أن يدافع عن دعوته بسيفه، فيربي عليها النشء في كبره حتى يكونوا امتداد لها.

ورغم هذه الحياة الحافلة بالعطاء والجهاد والتضحية مع ما ابتلى الله أخانا به من حرمان من نعمة الأولاد، إلا أن من يلقاه يجده صابرًا محتسبًا، هادئ البال، رحب الصدر، ساكن الفؤاد، راضيًا بقضاء الله وقدره، مواصلاً العمل مع إخوانه.

وكان من آخر أعماله قبل مرضه إقامة حفل للمرشد ونواب الإخوان لتكريمهم بمناسبة فوزهم في انتخابات ٢٠٠٥م، ودعا إليه لفيفًا من أصحاب الرأي في منطقته حتى يسمع المرشد ونواب الإخوان ماذا يريد الناس من الإخوان.

وهكذا ظل البنان عاملاً لدينه، وفيًا لدعوته.

فندعو الله أن يبلغه منازل الشهداء وإن مات على فراشه.

شركة البصائر للبحوث والدراسات

* * *

جولة في أعماق النفس

اليوم، وقد عدت إلى أرض الوطن مع زوجتي بعد غربة دامت سبعة عشر عامًا خارج وطني، وأربعة عشر عامًا أخرى داخل الوطن في غياهب سجون الطاغية، أي أكثر من ثلاثين عامًا من عمري، لا بل من أجمل فترات العمر وأثرها.

كان إحساس غريب يلفني، إحساس بالفرحة والشوق، والحيرة والخوف، كأنه شعور بحار عجوز عاد أخيرًا إلى الشاطئ بعد أن قضى سنوات طويلة متجولاً في عرض البحار السحيقة مع العواصف والأمواج، وليس عنده بصيص أمل في رؤية الأرض، وأخيرًا وبعد أن فقد الأمل رست به سفينته على شاطئ الأمان، قليل من الناس من يحس هذا الإحساس بعد طول الغياب؛ فهو من أعماق النفس التي أحبت الوطن كل الحب، وعشقته أعظم العشق، وضحت من أجله بالنفس مع من ضحى، وإذا بطاغية ظالم عاتٍ لا يعرف معنى للإنسانية ولا للرحمة يظهر فجأة في أفق بلدنا الحبيب الجميل الحر، ويحوّل الحب إلى كراهية، والجميل إلى قبيح، والحرية إلى مشانق وسجون وآلات تعذيب، وكنت أحد ضحايا هذا الطاغية مع عشرات الآلاف غيري من شباب مصر الأحرار.

كنت حينذاك فتى صغيرًا في العشرين من عمري، أدرس الفلسفة وعلم النفس بالجامعة، وإذا بالطوفان وعواصف الحقد الأسود تملأ سماء مصر الصافية، وتدمر كل شيء، وتحول الأمان إلى خوف وهلع، وقضيت في سجون الطاغية ومعتقلاته، وفي جحيم أحقاده وتعذيبه أربع عشرة سنةً كاملةً، متعرضًا لكل ألوان الظلم والحرمان حتى أتى الله بالفرج من عنده بعد أن زال الكابوس البشع عن أرض مصر الغالية، وكان درسًا عظيمًا لي ولكل من كان معي، وهو أن الجبار المتكبر والظالم الجاني لا بدّ أن يبطش به جبار السموات والأرض، ويحطمه ويذله، كما حطم وأذل عباد الله دون ذنب أو جريرة إلا أنهم قالوا: ربنا الله.

وقرَّرت الهجرة من وطني الذي أعشقه لأحس بنسيم الحرية الذي افتقدته وافتقدته مصر كلها طيلة حكم الطاغية، وذهبت إلى الكويت ذلك البلد الطيب المضياف المملوء حريةً وأمنًا وسلامًا، وعملت فيه، وأتممت دراستي الجامعية.

بعد عودته من الخارج

وأخيرًا وبعد سبعة عشر عامًا كاملةً، وبعد أن أحسست بأن نسائم الحرية بدأت تنعش جو مصر من جديد قررت أنا وزوجتي العودة إلى الوطن، وفي بيتنا الجميل الهادئ في ضاحية بعيدة من ضواحي القاهرة بدأ حوار بيني وبين زوجتي الوفية المخلصة في أن أكتب ذكرياتي، وأسجل فيها كل ما مر بي في هذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر، ورفضت مرات، وصبرت على رفضي، ولكنها كانت أكثر مني صبرًا، فقد أقنعتني أخيرًا أن أكتب هذه الذكريات؛ علها تكون شمعة صغيرة أوقدها على درب الحرية.

* * *

الفصل الأول

من المهد إلى المعركة

طفولتي

سألتني زوجتي -وحق لها أن تسأل- عن طفولتي من الميلاد وحتى قبل دخول المدرسة، وإنني على اقتناع تام أن فترة الطفولة هي التي تشكل شخصية الإنسان وتلازمه طوال عمره.. ولدت في حي مصري قديم حي شعبي تعبق منه رائحة البخور والعطارة، وتملأ سماءه بين الحين والحين أصوات ندية توحِّد الله وتصلي على نبيِّه المصطفى، وتتردد أصوات المؤذنين العذبة معلنةً الأذان بصوت رخيم عذب، وأصوات الباعة تكاد تغني معلنةً عن «البسبوسة الساخنة» و«البليلة» باللبن الحليب، ودقات رتيبة لبائع «العرقسوس» بأطباقه النحاسية، وبائع «الدندورمة» ببوقه الشجي، والذي كنا نحس -ونحن أطفال صغار- أن أبناء الحي جميعًا أسرة واحدة يحترم الصغير الكبير، ويملأ الود والحنو قلوب الجميع، ويشيع الصفاء والنقاء جو الحارة.

في الطفولة

كان بيتنا الكبير ذو الثلاثة طوابق مملوءًا دائمًا بالخيرات تسكن جدتي لأبي في الطابق الأول، ويسكن عمي الشاب في الطابق الثاني مع عروسه، ونسكن نحن في الطابق الثالث.. أبي محمد أفندي أو (سي محمد) كما كانت تدعوه أمي بكلِّ احترام وتبجيل- يعمل رئيس قسم في النيابة العامة؛ مما يجعله محط احترام أهل الحارة وإجلالهم، وكذلك لطيبة نفسه وتواضعه، ولكونه موظفًا مرموقًا في ذلك الحين ممدود القامة، وسيمًا، أنيقًا؛ ذا وجه جميل مشرب بحمرة خفيفة، له هيبة ظاهرة؛ ما إن يذهب في الصباح الباكر إلى الديوان حتى تدب الحركة، ويعلو صياحنا -نحن الأطفال- حتى يملأ البيت، وتبدأ أمي الحبيبة تلك الملاك الجميل، الباسم الوجه، المشرقة، المحبة -يومها بعد صلاة الفجر بتجهيز طعام الإفطار الشهي، وإيقاظ النائمين، ثم تبدأ في أعمال البيت بكلِّ همة ونشاط.

أمي مثال للطيبة ورضا النفس، لا تعرف معنى للشر ولا السوء، ولا تعرف إلا

الخير وحب بيتها وأولادها والناس جميعًا.. وجهها مشرق مبتسم دائمًا لم نرها أبدًا غاضبة، ولم نسمع منها أبدًا كلمة جافية، كانت أقسى كلمة نسمعها منها حين يشتد صخب الأولاد، يقلبون عالي البيت سافله بشقاوة الأطفال- «طيب يا أولاد، سأخبر أباكم حينما يعود من الديوان»؛ ولهذه الكلمة سحرها السريع، فيهدأ الجميع تحسبًا وتخوفًا، ولكن لدقائق معدودة ننسى بعدها ذلك الإنذار بإبلاغ الوالد بشقاوتنا؛ لأننا على يقين أنها لم تبلغه من قبل، ولن تبلغه أبدًا، وتعود الابتسامة الحانية إلى وجهها بعد أن نرجوها ألا تبلغ الوالد.

أما إخوتي، فقد كنا في تلك الفترة أربعة إخوة: «فاطمة» (الأخت الكبرى)، ثم «علي» (شقيقي الأكبر)، ثم أنا، ثم الشقيق الأصغر «عبد العزيز»، أما شقيقتي «فاطمة»، فكانت تلازم أمي باستمرار في أعمال المنزل، وتحملت المسئولية منذ الصغر، وكنا نعتبرها أمًّا ثانيةً صغيرةً بوجهها السمح وضفيرتها الكثيفة التي تسترخي على ظهرها.

كانت المسكينة تنظف المنزل وترتبه، وما هي إلا لحظات حتى يعود كل شيء كما كان، وتشكو إلى أمي وتهددنا هي الأخرى بإبلاغ الوالد، ولكننا نحن الأولاد لا نأخذ تهديدها بمحمل الجد، فهي صغيرة مثلنا، ولا تجرؤ أن تكلم الوالد وتشكونا إليه.

الكُتَّاب والرؤية الصالحة

مرت فترة الطفولة جميلة رائعة استمتعنا فيها بكلِّ لحظةٍ، فقد كان لكلِّ شيءٍ فرحة حيث يحيط بنا الحنان والعدل والحزم أيضًا، فلم نحس أبدًا بالتدليل ولا بالحرمان، ومرت الأيام سهلة حالمة، ولقد كانت هناك أيام مميزة لها فرحة أكبر وأعظم من غيرها، كالاستعداد لرمضان، والأعياد، والذهاب إلى الكُتَّاب، ثم التعرف على هذا العالم الجديد من أطفال الحارة، والانضباط والالتزام بحفظ القرآن والحساب ومبادئ اللغة أول تعرُّف لي على العالم الخارجي، وكم كان رحبًا وجميلاً حينذاك، وكانت أول معاناة وألم أحس به حينما مرضت مرضًا شديدًا، وأنا في سن الرابعة، وكنت أحس بالآلام الشديدة في كلِّ جسدي، وكانت أمي لا تنام الليل

سهرًا في خدمتي، وإذا اشتد بي الألم تحملني وتدور بي في غرفة نومي، وكنت أرى وجهها الجميل والألم يكسوه ودموعها الحارة تسقط على رأسي، وغفوت بين يديها، واستيقظت لأقص عليها حلمًا غريبًا، استمعت إليه بكلّ انتباهٍ، فقد قلت لها: إنني رأيت السيدة زينب، وكانت ترتدي ملابس بيضاء، وإنها وضعت يديها الطاهرتين على رأسي، وقالت لي: قل لأمك أن تسقيك ماءً حارًّا، وما كادت أمي تسمع هذه الكلمات حتى ظهر السرور والنور في وجهها، ووضعتني على السرير، وذهبت فورًا ودفأت كوبًا من الماء في إناء القهوة، ثم أفرغته لي في كأس، وسقته لي.

وبعد مرور هذه السنين الطويلة ما زالت هذه الرؤيا ماثلةً في مخيلتي، وما زال طعم الماء برائحة البن في فمي، وصورة وجه أمي الذي أشرق بعد طول ألم وحزن، ثم نمت نومًا عميقًا، واستيقظت، وقد تفصدت[1] عرقًا شديدًا، وزال كل الألم عني، وحل الشفاء والصحة والحيوية في كلّ جسدي، إن أمي تذكرني دائمًا بهذه الرؤيا، وتحكيها متعجبةً.

إنني حتى اليوم لا أجد تفسيرًا لها، ولكني سعيد بها غاية السعادة، فقد رأيت في طفولتي المبكرة هذه السيدة الشريفة من نسل رسولنا الكريم، وكان شفائي على يديها الطاهرتين.

حادثة الراديو

من الأحداث التي أذكرها جيدًا -رغم صغر سني حينذاك- حادثة «الراديو»، فقد أحضر لنا أبي صندوقًا ضخمًا يحمله اثنان من الرجال بحرص شديد، ووضعوه على منضدة مرتفعة بحرص وحذر، والتففنا -نحن الأطفال- حوله، وكأن على رءوسنا الطير، ننظر بدهشة وفرحة وانبهار إلى تلك الأعجوبة التي قال لنا عنها والدنا: إنها تتكلم وتقرأ القرآن وتغني في الوقت نفسه، ووضع والدي الأسلاك وأدار المفتاح، فإذا بخشخشة وأصوات غريبة تصدر عنه، وأخيرًا استقر الصوت،

---

(١) انْفصدَ الشيءُ، وتَفَصَّدَ: سال، [تاج العروس، (فصد)].

فإذا هي أغنية عذبة وموسيقي جذابة، وأدار والدي الزر، فارتفع الصوت ثم انخفض، كانت نظراتنا المنبهرة وقلوبنا الصغيرة تقفز من الفرح والاندهاش! كيف يتكلم هذا الصندوق الكبير! وأين يجلس الرجال فيه؟! وأين الآلات التي نرى أصواتها؟! وأخذنا ننظر بفرح من الفتحات فيه، فلا نجد ما كنا نتوقع، وسألنا والدنا ووالدتنا: هل الرجال صغار، وليسوا كبارًا مثلنا؟! وهل يأكلون ويشربون مثلنا؟! وكيف ينامون؟! وكيف؟! وكيف؟!

فأخبرنا والدنا أن هناك عالمًا صغيرًا داخل هذا الجهاز المسمى بـ«الراديو»، وفي الصباح الباكر استيقظنا مبكرين على صوت رائع شجي يقرأ القرآن الكريم، ويخرج صوته من شباك منزلنا لتسمعه الحارة جميعًا، فقد كان حينذاك الراديو العجيب أول جهاز يدخل الحارة، وكان الجيران مندهشين هم أيضًا، وكان الجميع يباركون لمحمد أفندي ويهنئونه على هذا الإنجاز العظيم، ويمصمصون شفاههم قائلين: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، «لا تحرمنا -يا محمد أفندي- من صوت الشيخ رفعت»، ويقول آخر: «من جاور السعيد يسعد، ارفع صوته يا محمد أفندي حتى يسمعه أهل الحارة جميعًا»، كنا نمتلأ فخرًا بهذا الصندوق العجيب، ونحلم بالعالم الساحر بداخله، ونتساءل كيف يسع هذا الصندوق كل هذا العالم الذي يتكلم ويقرأ القرآن ويغني؟! لقد عاملنا جميعًا هذا الراديو بحرص شديد، ولم يكن يفتحه أو يغلقه إلا أبي حتى والدتي تخشى أن تقترب منه.

عشنا أيامًا سعيدةً نحن وأهل الحارة جميعًا على سماع القرآن والموسيقي وغناء «صالح عبد الحي» و«أم كلثوم» و«عبد الوهاب»، وحتى جاء اليوم الموعود ذهب أبي إلى الديوان بعد أن أغلق الراديو وغطاه بمفرش جديد زيادة في حفظه وصيانته، وجلسنا جميعًا حول أمنا لتناول الإفطار، وتسلل أخي الكبير «علي» إلى غرفة الوالد وأغلقها عليه، أخذت أبحث عنه لألعب معه، وفتحت غرفة الوالد فوجدت أخي «عليًا» صاعدًا على كرسي، وقد فتح صندوق الراديو من الخلف، وقد أخرج اللمبات والأسلاك ووقفت منبهرًا بجانبه أبحث عن الشيخ رفعت وعن الرجال والنساء وآلات الموسيقي، فلا أجد في هذا العالم الخيالي شيئًا، فكلها أسلاك جافة

ولمبات فضية اللون وخواء، أين العالم البهيج الذي كان يصوره لنا خيالنا لا شـيء، لا شيء إلا الفـراغ، وسمعنـا صـوت الوالـدة تبحـث عنـا، فأسـرع أخـي «علـي» بالخروج متخفيًا، فقـد أفـاق لـسوء العاقبـة، وعلـم أن فعلـه سيجر عليـه الويـل، ودخلت الوالدة الغرفة فوجدتني متلبسًا أمام الراديو الجريح، وقد أخرج «علي» كل جوفه على المنضدة باحثًا عن الناس الذين فيه.

لم أستطع الهروب أو حتى النطق، عرفـت أن العاقبـة وخيمـة لقـد فـسد هـذا الصندوق السحري، وأنا متهم الآن بإفساده، فـلا يوجـد غـيري في الغرفـة أمامـه، واستطعت أن أفلت من يدي والدتي وأهرب تحت سرير والدي مختفيًا مرعوبًا مـن سوء العاقبة أخذت والدتي الطيبة تؤنبني قائلةً: «ليه يا ابني تعمل كده، أنت عـارف الردايو ده بكام، ده بالشيء الفلاني، ماذا سيقول والدك؟! وماذا سيفعل بك وبنا؟! ليه يا ابني كده، اطلع ولا تخف».

ولكني كنت تحت السرير في مـأمن مؤقـت والخـوف يمـلأ قلـبي الـصغير، وإذا بالنعاس يغلب على عيني فأنام وأستيقظ مرعوبًا على صـوت والـدي: «اخـرج يـا ولد، لِمَ فعلت هذا؟»، لقد كان في استطاعتي أن أبرئ نفسي، وأقول: إن عليًّـا هـو الذي أفسده، ولكن أبي وأمي علّمانا ألا نفتن، وأن الفتنة أشد من القتل، فـصمتُ ولم أتكلم، وكرَّر الوالد عليَّ سؤاله، فأجبته والـدموع في عـيني: إنـني فتحتـه لأرى الناس الذين بداخله يا أبي، فقال: وماذا رأيت؟ قلت: لم أرى إلا أسلاكًا ولمبات يا أبي، وكانت علقةً كبيرةً وحرمانًا من المصروف، ولم يكلمني والدي ثلاثة أيام عقابًـا لي على جرم لم أرتكبه، ولكنني كنت بـداخلي سـعيدًا؛ لأنـني لم أفـتن علـى أخـي، واعترف بما فعله، وأخذت بدلاً منه ذلك العقاب الإليم.

حادثة الثعبان

من الحوادث التي لا يمكن أن تنسى من ذاكرتي تلـك الحادثـة الغريبـة «حادثـة الثعبان»، فقد كنت في الخامسة من عمري أو أقل، ولم أذهـب إلى الكُتَّـاب في ذلـك اليوم، ولم يكن أحد بالمنزل إلا والداتي وشقيقتي، وكانـا مـشغولين بنظافـة المنـزل، ولقد كان المكان المفضل عندي هو البلكونة، والتي كانت نافذتنا على الدنيا الرحبـة

أمامنا، كنت سعيدًا وأنا أتفرج على الرايحين والغادين، وعم سلطان البقال، والذي يسيل الحلوياته لعاب الأطفال جميعًا، وعم حسين بائع الدندرومة، وبائعة البطاطا المشوية، والتي تصل رائحتها الذكية إلى أنفي.

كان العالم صوبي جميلاً بديعًا بكلّ ما فيه، وكانت أصوات الباعة تطربني وصيحات الأطفال في الحارة، وهم يمرحون يجعلني في شوق للخروج للعب معهم، ولكن كان ذلك ممنوعًا بالنسبة لنا؛ فقد كان والدي لا يحب لنا الاختلاط بكلّ من «هب ودب»، وكان ذلك لا يرضينا كأطفال، ولكننا لا نملك المخالفة، ولا نقدر عليها.

وفجأة أخرجني من هذا الجو الصاخب المرح من حولي - ذلك الشيء الأسود الغريب الذي يزحف على الجدار نحوي.. إن شكله كالحبل الأسود، ويتلوى ببطء بهرني منظره الغريب، ولكنني لم أخف منه؛ لأنني لم أكن أعرف خطره الشديد، وببراءة الأطفال وسذاجتهم أخذت أتطلع إليه بشغف، وأخذ الحبل الأسود يتقدم نحوي حتى اقترب مني، وأصبحت المسافة بيني وبينه قليلة جدًّا، ومددت يدي الصغيرتين لأمسكه، ورأيت له عينين صغيرتين كخرزتين لامعتين، ووقف ذلك الحبل الغريب المتحرك ورفع رأسه حتى ساوت رأسي، وفجأة جذبتني يد أمي نحوها بعنف شديد حتى كادت تخلع كتفاي، وصرخت صرخةً مدويةً؛ سألتها، وقد أفزعني خوفها وهلعها: لِمَ ذلك يا أمي؟ وجاءت أختي مسرعةً صارخةً تمسك المكنسة في يدها، ولكن ذلك الحبل الأسود الغريب ذهب في طريقه هاربًا، ونظرنا إليه وهو يدخل في شق كبير في المنزل من خارجه.

كانت أمي في حالة هلع شديد تتحسس جسدي، وتسألني: هل لمسك الثعبان أو أذاك يا بني؟ أقول لها ضاحكًا: أبدًا يا أمي، إنه طيب لم يؤذني أبدًا، وأخذت تقرأ آيات القرآن الكريم، والدموع في عينها حتى إذا جاء الوالد أخبرته بقصة الثعبان، وأنها لا تستطيع أن تعيش في بيت فيه ثعابين، وأنها خطر على أولادها، وجاءت جدتي لوالدي على الهرج والمرج، وقالت لأمي بثقة لا حد لها: «لا تخافي يا بنتي دول حراس البيت لا يؤذون أحدًا أبدًا، أحنا طول عمرنا عايشين وشايفنهم رايحين جايين».

وابتسم والدي وطمأن أمي، وهدأ من روعها، أما أنا، فقد كنت سعيدًا جدًا بهذه المغامرة التي لم أكن أحس بخطرها إلا من كلام أمي وخوفها عليَّ، وأخذت كل يوم أتسلل وأنتظر الحبل الأسود الذي عرفت أن اسمه الثعبان، ولكنه لم يظهر لي بعد ذلك؛ لعله غضب من تصرفنا نحوه وخوفنا منه، رغم أنه لم يؤذنا.

وفاة جدتي

إنني أذكر تمامًا جدتي لأبي، فقد كانت تؤثرني بحبها واهتمامها.. كانت عجوزًا ولكنها كانت صاحبة عافية القوام، وعلاقتها بأمي جيدة كانت تأخذني كل ليلة معها في شقتها لأبيت معها، وتقص عليَّ كل ليلة حكاية خيالية بديعة تجعلني دائمًا في شوق لسماع البقية.

كانت العائلة جميعًا تسهر في شقة الوالد، ثم نتناول العشاء سويًا، ثم أبدأ في الإلحاح على جدتي في النزول إلى شقتها لتقص عليَّ قصة المساء، وأغني لها أغنية أقول لها فيها: «يالا ننزل للحكاية، يالا ننزل للمخالفة»؛ فتضحك جدتي، وتأخذني بيدي وأنا في غاية السعادة لأنام على حكاياتها الشجية العذبة، وأذهب في نوم عميق لأكمل في أحلامي ما بدأته في اليقظة.

وفي يوم من الأيام حدث ما لا أستطيع أن أنساه، والذي هزني من الأعماق، وأحسست فيه لأول مرة في حياتي بالألم يعتصرني، والحزن الشديد يغشاني، والدهشة والحيرة تنتابانني، وهو أنني سمعت في الصباح ضجة غير عادية، وبكاءً مكتومًا من والدتي ووالدي وعمي، حاولت أن أسأل عن الخبر، فأبعدوني وإخوتي في غرفة في الطابق العلوي، وأخذنا نتساءل نحن الأطفال عما حدث، ما هذه الضجة؟! وقال شقيقي «علي» بلهجة العالم ببواطن الأمور: «جدتي ماتت»، وأخذت أختي «فاطمة» تنهره؛ حتى لا يخبرني بشيء، ولكنني سألت أخي: ماتت؟! ماتت ماذا تعني؟! قال لي: لقد ذهبت إلى السماء، قلت: وهل لن نراها بعد الآن؟ قال: نعم، لن نراها أبدًا؛ فأجهشت أختي بالبكاء، وقالت لي وعيناها الصغيرتان الجميلتان مملوءتان بالحزن والدموع: «لا تصدقه، إنها لن تموت».

قضينا يومًا كئيبًا حزينًا، كنا نسمع أصواتًا عالية ورجالاً ونساءً يصعدون وينزلون ويروحون ويغدون، وصوت بكاء مكتوم، حتى إذا أتى المساء الحزين، سألت أبي عن جدتي فنهرني، وسألت أمي عنها فبكت، فقلت لها: «ألم أنزل معها لتقص عليَّ حكايتها، إنها لم تكملها لي، وقد وعدتني أن تكملها الليلة، فأخذتني

أمي في أحضانها، وأجهشت بالبكاء، وقالت لي: سأكمل أنا لك القصة يا بني، فقلت لها غاضبًا: لا.. لا.. لا أريد إلا جدتي، أنا أريد جدتي، وأخذت أبكي بكاءً مرًا، كان أول حزن في حياتي، أحسست لأول مرة أن الحياة ليست كلها هناءً وسعادةً، بل إن بها أيامًا أمر من العلقم، وليالي كئيبة سوداء لا نهاية لها، وأن الفراق وفراق الأحباب مكتوب علينا في هذه الدنيا الغريبة.

ولقد كان من عجائب القدر أن يولد لنا أخ جديد سمّي «محمد» على اسم أبي، وذلك بعد ثلاثة أيام من وفاة جدتي، ولقد تحولت الأنظار إلى المولود الجديد الجميل الوجه لينسنا الله فداحة الخسارة في وفاة جدتي الغالية، وكما أحسست بألم الفراق والموت، اهتز قلبي الصغير فرحًا وغبطةً لأخي الجديد المشرق الوجه.

على أعتاب السياسة

ومن الأحداث اللاصقة في ذاكرتي منذ الطفولة تلك الجلسات التي كان يعقدها والدي في سطح المنزل مع أصدقائه المقربين، فكنت أحضر لهم أطباق الفاكهة وفناجين القهوة التي تصنعها أمي بإتقان، وكان يحلو لي أن أجلس في ركن أستمع إلى حوارهم في السياسة والحزب والإنجليز وهتلر[١] وموسوليني[٢] وتشرشل[٣]، كان حديثهم ونقاشهم يفتح أمامي آفاقًا جديدة ساحرة على العالم الخارجي بعيدًا عن عالم الحارة الضيقة، والتي كنت أظنها العالم بأسره.

(١) **أدولف هتلر** [٢٠ أبريل ١٨٨٩م - ٣٠ أبريل ١٩٤٥م]: زعيم ألمانيا النازية من الفترة (١٩٣٣- ١٩٤٥م)، كان يشغل منصب «مستشار ألمانيا»، وكان خطيبًا مفوّهًا، وذا جاذبية وحضور شخصي قويين، ويعزى له الفضل في انتشال ألمانيا من ديون الحرب العالمية الأولى، وتشييد الآلة العسكرية الألمانية التي قهرت أوروبا، وبسقوط العاصمة برلين في نهاية الحرب العالمية الثانية، أقدم هتلر على الانتحار.

(٢) **بينيتو موسوليني** [١٨٨٣- ١٩٤٥م]: هو ديكتاتور إيطاليا ما بين (١٩٢٢ و١٩٤٣م)، ومن مؤسسي الحركة الفاشية الإيطالية وزعمائها، سمّي بـ«الدوتشه»، أي: القائد، أعدمته جبهة التحرير الشعبية شنقًا في يوم ٢٩ أبريل ١٩٤٥م.

(٣) **ونستون ليونارد سبنسر تشرشل** [٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٧٤ - ٢٤ يناير/ كانون الثاني ١٩٦٥م]: رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، ولد ونستون تشرشل في ٣٠ نوفمبر ١٨٧٤م في قصر بكينهام في مقاطعة أكسفورد شاير، تولى الوزارة عام ١٩٤٠م لمواجهة الخطر النازي بعد استقالة تشامبرلين من رئاسة الوزراء، وهو الذي رفع معنويات شعبه أثناء الحرب، حتى تم لهم النصر.

كان والدي وصديقان معه يؤيدون هتلر واليابان وموسوليني، ويتمنون أن ينتصروا على الإنجليز المحتلين لمصر، وكان متعاطفًا مع انتصاراتهم وسعيدًا بهزيمة الإنجليز والحلفاء، أما أحمد أفندي وهو شخصية طريفة محببة -وكيل محامي متحزلق- يتكلم بهدوء ورصانة وهو قريب لوالدي -زوج خالته- فقد كان يتزعم الجانب المؤيد للإنجليز والحلفاء، وكان يدافع عن انتصاراتهم، وكان النقاش يدور حاميًا كلٌّ يدافع عن وجهة نظره.

فتحت هذه النقاشات آفاقي على هذا العالم الكبير الذي يتصارع، وعلمت لأول مرة أن مصر يحتلها عدو لنا اسمه الإنجليز، وشعرت لأول مرة بالكراهية لهذا العدو البغيض الذي يحتل بلدنا.

حرصت على حضور هذه الجلسات، وكنت أقاطعهم أحيانًا بأدب لأسأل أو أستوضح، وكان والدي سعيدًا باستيعابي لحديثهم، وفهمي لهذه الأمور المعقدة التي لا يتحدث فيها ولا يفهمها إلا الخاصة، فقد كان يشرح لي ببساطة كيف كان العالم الإسلامي الكبير وحدة واحدة، وكيف أن الإنجليز حطموا الخلافة، وقسموا بلاد المسلمين واحتلوها.

كان الحديث يدور أحيانًا عن «سعد زغلول» الزعيم الوطني، وعن «مصطفى كامل»، وعن وطنيتهما وتضحيتهما، وأن الاستقلال لا بدَّ له من رجال وأبطال يفدون بلادهم بأرواحهم.. كان هذا الحديث يقشعر له جسدي الصغير، وأتمنى أن أكبر سريعًا كي أستطيع أن أحارب هؤلاء الأعداء، وأفدي بلدي بحياتي، وأخذت أتتبع الأخبار في الجرائد اليومية، وأقرأ العناوين المثيرة عن تقدم الألمان وانسحاب الإنجليز أمامهم في طبرق والعالمين في الحدود المصرية، وكنت فرحًا لهزيمتهم، وكنت أتمثل حكمة والدي الذي يرددها: «إن عدو عدوي صديقي»، وأتمنى من كلِّ قلبي أن يهزم الألمان الإنجليز.

أما أحمد أفندي والذي كان يؤيد الحلفاء، فقد كان دائمًا يقول: إن الألمان لو هزموا الإنجليز؛ فإننا نستبدل احتلالاً باحتلال، وأن الألمان لهم فظائعهم وإجرامهم مع الشعوب التي احتلوها، فنحن نستبدل بالشر الأشر منه، وكان رد والدي أنهم

لو صاروا كذلك لثار المصريون عليهم، كما ثاروا على الإنجليز، فإننا لا نريد أن نستبدل احتلالاً باحتلال، ولكننا نريد أن نطرد المستعمر أيًا كان، وإننا لو ساعدنا الألمان لحفظوا لنا الجميل وكنا لهم أصدقاء.

كان هذا الحوار العميق والنقاش الحاد والبحث عن الحلول يغلي في صدري، ويجعلني أفكر وأنا منفردًا بكلِّ ما يدور حولي.

كان سني حينذاك حوالي العاشرة، ولكن هذا السن الصغير يستطيع أن يستوعب كل ما يدور حوله لم أكن بالطبع أشاركهم في النقاش، ولكنني كنت أستمع إليهم بتفهم شديد، وتدور أفكارهم في عقلي الصغير، وكان رأي والدي هو الذي يبهرني عن كلِّ الآراء التي كنت أسمعها، لا لأنه أبي، بل لعمق أفكاره وتجردها وصدقها.

مع أحمد أفندي

لقد كانت شخصية أحمد أفندي -زوج خالة والدي- شخصية فكهة مرحة، وكان كثيرًا ما يمكث معنا لتناول طعام الغداء أو العشاء، وتحلو السهرة بوجوده بيننا، ولقد كنا نحن الأولاد نلتف حوله ليروي لنا الطرف والنوادر التي نضج لها سرورًا وضحكًا، وكان قصير القامة بالنسبة لوالدي الفارع الطول، يرتدي نظارة سميكة من طراز قديم، وحلة، وصديرى، لا يغيرهما أبدًا حتى أنه حينما يغفو بعد أكلة دسمة -وهو خبير بصنوف الطعام كخبرته بالسياسة أو تزيد- كان يغفو ببدلته ونظارته لا يخلعهما أبدًا حتى جعلنا -نحن الأطفال- نتندر ونتضاحك قائلين: إنه ينام بالنظارة حتى يرى الأحلام جيدًا، ولقد كان والدي أيضًا يحب الفكاهة والضحك مع أصدقائه ومقربيه، وإن كان يبدو أمامنا دائمًا جادًا رصينًا.

ولقد كان يتبادل مع أحمد أفندي المقالب الظريفة المرحة، والتي كانت تضج بها السهرة المسائية بعد الحديث في السياسة للتخفيف من حدتها، فلقد أراد والدي أن يعمل -مقلبًا- أو مزحة مع أحمد أفندي، والذي يدعي الخبرة والمعرفة بكلِّ شيء وخاصةً في أصناف الطعام وأنواعه، فلقد دعا والدي أحمد أفندي في يوم جمعة على أكلة يحبها، وهي الملوخية بالدجاج، ولقد حضر أحمد أفندي مع والدي بعد صلاة

الجمعة، وكانت روائح الطعام الشهي تفوح في أرجاء المنزل فرائحة الدجاج البلدي المحمر بالسمن البلدي -كان له في الماضي رائحة شهية لا تجدها في هذه الأيام- ودخل والدي المطبخ، وسمعته يهمس في أذن والدتي بأمر لم أتبينه، ولكني سمعت اسم أحمد أفندي يتردد، فأحسست أن في الأمر مقلبًا يدبره أبي لأحمد أفندي.

أخذ أحمد أفندي يتشمم رائحة الطعام، ويقول لوالدي بصوته الجهوري: إننا نشم رائحة جميلة، ولا نجد طعامًا، هل هذه الرائحة عند الجيران يا محمد أفندي، وأخيرًا جاءت بشائر الطعام الفاخر الشهي (الدجاج المحمر، والأرز المفلفل، والملوخية الفاخرة) يتصاعد البخار والروائح التي يسيل لها اللعاب، وبدأنا جميعًا في الطعام، ووضع والدي صحنًا عميقًا مملوءًا بالملوخية أمام أحمد أفندي، وقال له: هذا خاص بك وحدك يا أحمد أفندي، فبدت السعادة على وجه أحمد أفندي؛ لأنه يعشق الملوخية.

كان الطعام شهيًا جدًّا، وزاد من شهيتنا حكايات أحمد أفندي ونوادره، ولقد كان الخير كثيرًا والطعام طيبًا والنفوس متفتحةً، وأحمد أفندي يعشق الطعام الشهي وبعد أن شبع شرب ما تبقي من صحن الملوخية الخاص به، ورفعت المائدة والأطباق جميعًا فارغة، وجاءت الفاكهة بكميات كبيرة تدل على كرم الوالد والوالدة، ثم القهوة، وما هي إلا نصف ساعة من تبادل الحديث مع أحمد أفندي حتى شعرنا أن صوته بدأ ينخفض، وأن حديثه بدأ يقل، ووضع يده على بطنه، وبدت على وجه والدي ابتسامة مرحة، وخرج من الغرفة لا يكاد يمسك ضحكاته التي كادت تنفجر، وسمعته يهمس لوالدتي أن «السلاميكي» بدأ يعمل مفعوله - والسلاميكي هو نوع من الأعشاب يسبب إسهالاً شديدًا لمن يتعاطاه- ويبدو أن والدي قد أضاف شراب السلاميكي إلى صحن الملوخية التي تناولها أحمد أفندي، وها هي آثارها قد بدأت تظهر.

لقد فهمت من همسات والدي الأمر كله، وأخذت أتتبع بتقلصات وجه أحمد أفندي، والذي يكتم فيها آلام معدته، وأخذ ينادي على والدي -والذي ترك الغرفة ليداري ضحكاته: يا محمد أفندي، الحمام.. الحمام، ولكن والدي تباطأ في الرد

عليه، ثم ردَّ عليه أن الحمام مشغول، وتركه والألم يكاد يقطع أمعاءه، ولكن والدي لم يكن قاسيًا معه، وقاده إلى الحمام، وسمعنا -نحن الأولاد- أصواتًا تصدر من الحمام كأنها غارة جوية من غارات الألمان التي كنا نعايشها يوميًا، وما إن خرج أحمد أفندي من الحمام حتى أطلقت صفارة الأمان، وكأن الغارة قد انتهت، وضج الجميع بالضحك، ولقد فهم أحمد أفندي المقلب جيدًا، وقال لوالدي: لك هذه يا محمد أفندي، ولكن ردي عليها سيكون كرد مونتجمري على الألمان وروميل.

على أعتاب الموت

كانت الأيام تمر بنا سعيدةً هانئةً، وخاصةً في جو الأسرة الدافئ الحميم وسهراتها، أو في سهرات السياسة والحرب التي كنت أعشق الاستماع إليها وتتبع أخبارها، ورغم الغارات الجوية شبه اليومية، والتي كانت في أول أمرها تشيع الرهبة والانبهار عندنا نحن الأولاد -رغم ذلك- لم نشعر بالخوف الحقيقي إلا في هذه الليلة التي لا تنسى؛ كانت ليلة قمرية، مشرقة، البدر فيها مكتمل الاستدارة يشع حوله وحولنا نورًا فضيًا جميلاً، أخذت والدتي تقلبنا في ضوء القمر، وتقرأ آيات قرآنية، وتضع يدها الحانية على رءوسنا، وتدعو لنا بالسلامة والخير، وبدأت أختي «فاطمة» تجهز طعام العشاء، وتصعد به إلى السطح لنتناوله في ضوء القمر، واجتمع شمل الأسرة في حب ووئام حول الطعام، وأخذنا -نحن الأولاد- نسأل الوالد والوالدة في كلِّ شيءٍ -فهم مثلنا الأعلى وغزارة المعلومات الخبيئة بالنسبة لنا- وفجأة أطلقت صفارات الإنذار، وسمعنا أصوات حراس الليل ينادون بصوتهم الجهوري: «أطفئوا الأنوار»، واستمرت جلستنا حول الطعام، وكأن شيئًا لم يحدث، فقد تعودنا على مثل هذه الغارات الجوية المتكررة، وكنا نسمع أصوات القنابل والمدافع، ولكنها كانت بعيدة عنا، ولكن يبدو أن هذه المرة كانت غارة غير عادية؛ فقد سمعنا أزير الطائرات، ورأيناها على ضوء القمر الساطع، وعلى ضوء الكشافات الضخمة، والتي كانت تدور وتدور لتضع الطائرات في مرمى المدافع، وانطلقت أصوات المدافع، ودوت القنابل قريبًا جدًا منا، واهتز المنزل هزات عنيفة جعلت الوالد والوالدة يأخذونا في أحضانهم، وينزلون بنا في الدور الأول لنكون أكثر أمانًا، أخذت الوالدة تقرأ آيات القرآن الكريم، وتدعو الله أن يبعد عنا الشر

والسوء، وتدعو على الألمان والإنجليز معًا، وتقول بفطرتها الصافية: «ما لنا نحن وهذه الحرب بين الكفرة بعضهم في بعض، لماذا لا يتحاربون في بلادهم ويتركونا في سلام؟ مصر يا ولدي محروسة بعناية الله، فيها أولياء الله الصالحين، فيها سيدي الحسن والحسين، والسيدة زينب، لن نرى مكروهًا أبدًا بإذن الله، وسيكون الدمار على رءوس الكفرة بإذن الله».

وتسللت إلى السطح لأرى هذه الأهوال التي أسمع ضجيجها ودويها، ورأيت لأول مرة في حياتي دمارًا وحرائق في كلِّ مكان، والمدافع تنطلق منها القذائف، ورأيت طائرة تهوي محترقة، ثم سمعت انفجارها، كان كل ذلك بالنسبة لي شيئًا فوق قدراتي، لِمَ كل هذا الدمار؟! ولماذا لا يتقاتل هؤلاء الكفرة في بلادهم، كما تقول والدتي؟! ولأول مرة كرهت هؤلاء الألمان أيضًا، رغم أني كنت متعاطفًا معهم، ورددت من كلِّ قلبي الدعاء الذي كنت أسمعه من أمي: «اللهم اضرب الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين»، وفجأة سمعت صوت شيء ثقيل يسقط بجانبي ورأيته على ضوء القمر، واتجهت نحوه، فإذا هو قطعة كبيرة من الحديد المذيب، فأمسكت بها فوجدتها ساخنة وأخذتها بيدي حذرًا، وأسرعت بها إلى والدي لأريه إياها، فقال متعجبًا: إنها شظية مدفع مضاد للطائرات! من أين جئت بها يا ولدي؟ قلت له بخوف: من فوق السطح يا أبي، كنت أتفرج على الطائرات وهي تسقط، فنهرني الوالد بشدة، وقال لي: انظر، إنها لو سقطت عليك لذبحتك ذبحًا، أخذتني الوالدة في صدرها لتحميني من غضب الوالد، وأخذت تعاتبني بحنو شديد، وتتحس جسدي خشية أن أكون قد جرحت من هذه الحديدة المذيبة، وقالت أمي، وهي تدعو لنا: «محروسين دائمًا بعناية الله».

ونمت ليلتها نومًا عميقًا، وكانت أحلامي في هذه الليلة كلها مدافع وقنابل، وكنت أرى نفسي في الحلم أركب طائرة، وألقي قنابل على الألمان والإنجليز معًا.

الانتقال إلى حمامات القبة

لقد كان الانتقال إلى حمامات القبة من المنعطفات الهامة في طفولتي -أو قُلْ في صباي المبكر؛ فقد كنت حينذاك في العاشرة من عمري تقريبًا- ذلك الانتقال أو قُلْ

والسوء، وتدعو على الألمان والإنجليز معًا، وتقول بفطرتها الصافية: «ما لنا نحن وهذه الحرب بين الكفرة بعضهم في بعض، لماذا لا يتحاربون في بلادهم ويتركونا في سلام؟ مصر يا ولدي محروسة بعناية الله، فيها أولياء الله الصالحين، فيها سيدي الحسن والحسين، والسيدة زينب، لن نرى مكروهًا أبدًا بإذن الله، وسيكون الدمار على رءوس الكفرة بإذن الله».

وتسللت إلى السطح لأرى هذه الأهوال التي أسمع ضجيجها ودويها، ورأيت لأول مرة في حياتي دمارًا وحرائق في كلِّ مكان، والمدافع تنطلق منها القذائف، ورأيت طائرة تهوي محترقة، ثم سمعت انفجارها، كان كل ذلك بالنسبة لي شيئًا فوق قدراتي، لِمَ كل هذا الدمار؟! ولماذا لا يتقاتل هؤلاء الكفرة في بلادهم، كما تقول والدتي؟! ولأول مرة كرهت هؤلاء الألمان أيضًا، رغم أني كنت متعاطفًا معهم، ورددت من كلِّ قلبي الدعاء الذي كنت أسمعه من أمي: «اللهم اضرب الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين»، وفجأة سمعت صوت شيء ثقيل يسقط بجانبي ورأيته على ضوء القمر، واتجهت نحوه، فإذا هو قطعة كبيرة من الحديد المذيب، فأمسكت بها فوجدتها ساخنة وأخذتها بيدي حذرًا، وأسرعت بها إلى والدي لأريه إياها، فقال متعجبًا: إنها شظية مدفع مضاد للطائرات! من أين جئت بها يا ولدي؟ قلت له بخوف: من فوق السطح يا أبي، كنت أتفرج على الطائرات وهي تسقط، فنهرني الوالد بشدة، وقال لي: انظر، إنها لو سقطت عليك لذبحتك ذبحًا، أخذتني الوالدة في صدرها لتحميني من غضب الوالد، وأخذت تعاتبني بحنو شديد، وتتحسس جسدي خشية أن أكون قد جرحت من هذه الحديدة المذيبة، وقالت أمي، وهي تدعو لنا: «محروسين دائمًا بعناية الله».

ونمت ليلتها نومًا عميقًا، وكانت أحلامي في هذه الليلة كلها مدافع وقنابل، وكنت أرى نفسي في الحلم أركب طائرة، وألقي قنابل على الألمان والإنجليز معًا.

الانتقال إلى حمامات القبة

لقد كان الانتقال إلى حمامات القبة من المنعطفات الهامة في طفولتي -أو قُلْ في صباي المبكر؛ فقد كنت حينذاك في العاشرة من عمري تقريبًا- ذلك الانتقال أو قُلْ

الجميل، ولقد رأيناه مرارًا في زياراتنا لجدتي وخالتي، ورأينا «فيلتهم» الجميلة، وحديقتها الواسعة، ولعبنا وبهرنا بالطيور والديوك الرومية والحمام والأوز، إنها كانت بالنسبة لنا عالمًا سحريًا جميلاً، ولم يكن لنا أصحاب كثيرون من أهل الحارة؛ لأن والدتنا كانت تمنعنا من الاختلاط بأحد، فأخذنا نلتف حول الوالد ونستحلفه بالله وبالنبي أن يوافق على انتقالنا إلى ذلك العالم السحري الجميل، فوافق الوالد على مضض، وقال: «ربنا يسهل»، ونحن نعرف معنى هذه الكلمة، فهي ليست رفضًا تامًا، ولا موافقة نهائية، فسعدنا بهذه الخطوة من الوالد، وأخذنا نقبّل جدتي وخالتي وأمي، وكانت فرحتنا غامرة؛ مما جعل جدتي وخالتي تبكيان فرحًا، فقد كانت أمي بالنسبة لهما غالية جدًا؛ لأنها الشقيقة الوحيدة لخالتي، وكنا -نحن الأطفال- نحس بمكانتنا أيضًا عندهما، وبتنا هذه الليلة في أحلام جميلة ننتظر هذه النقلة الساحرة إلى عالم الخيال والسحر.

لقد كانت فرحتنا جميعًا غامرة؛ فقد قبل الوالد أخيرًا مبدأ الانتقال، حيث وجدت الوالدة حلاً أراح الوالد كثيرًا وأرضى كرامته وكبرياءه، كرجل شهم، نشأ في حي شعبي للكرامة فيه تقديس كبير، فلقد كان عنده غضاضة في أن يسكن في منزل حماته، وبالطبع لن يقبلوا منه إيجارًا، ولقد كان تردده لهذا السبب على الأرجح، ولكن والدتي عرضت عليه حلاً جديدًا، فلقد كانت لها ابنة خال، ونشأتا سويًا في بيت واحد، وكانت أيضًا ابنة عمتها، وكانت تسكن وزوجها وأبناؤها الثمانية في منزل جميل، ذي ثلاثة طوابق، وحديقة كبيرة، بجوار منزل خالتي وجدتي؛ فقد عرضت على والدتي بكلّ حب وترحيب أن يعطونا الدور الأول من مسكنهم، وبإيجار أيضًا حتى يرضى محمد أفندي، ولا يعارض، ولقد اتفق الوالد والوالدة على أن يبقى هو وأخي «علي» -الذي كان قد التحق بالمدرسة الثانوية في المناصرة- ويحضروا إلينا في أجازة آخر الأسبوع؛ ليقضوا معنا الخميس والجمعة، وذهبت الوالدة وأختي لتجهزا الشقة الجديدة لنا، وكنا على شوق شديد، وكل يوم نسأل الوالد عن يوم الانتقال، وأخيرًا جاء هذا اليوم الذي لا ينسى، فقد عادت أختي «فاطمة» لتأخذنا إلى عالم السحر والخيال.

بالنسبة لنا كان يومًا مشرقًا جميلاً، وكأننا كنا في بئر عميق، وخرجنا منه إلى

ضوء الشمس المشرقة، وركبنا الترام، وكان أعجوبة بالنسبة لنا، ورأينا السيارات والمحلات التي نادرًا ما كنا نراها، ثم ذهبنا إلى محطة كوبري الليمون، هذه المحطة الكبيرة الهائلة، التي بها هذه القطارات البخارية الضخمة، والتي أراها لأول مرة في حياتي، وكنت منبهرًا بكلِّ ما حولي، هل الدنيا واسعة هكذا؟! وهذه القطارات الضخمة إلى أين تسير؟! لقد كانت الحارة بالنسبة لي هي كل دنياي، وكنت سعيدًا وراضيًا بها، ولكنني الآن ذاهب إلى دنيا جديدة فرحًا ومتشوقًا لمعرفتها واكتشافها، وبعد محطات ثلاث، كنت أقرأ لافتاتها لأول مرة في حياتي (الدمرداش، ثم منشية الصدر، ثم كوبري القبة)، ثم حمامات القبة حلمي المنتظر، لقد كنت أحسبها آخر الدنيا، ولكني رأيت القطار يسير، ويبتعد رويدًا رويدًا حتى تلاشى عن ناظري، وقادتنا أختي بفخر شديد، وكنا نتعجب في أنفسنا: كيف عرفت كل هذه الشوارع وطرق المواصلات، ولم تَتُه، ومشت بنا في شوارع نظيفة مملوءة بالأشجار اليافعة، التي لم نرها في الحارة أبدًا، وشممنا الرائحة المعطرة للورود والزهور، وخاصةً زهور البرتقال والليمون، والتي ما زلت أعشقها؛ لأنها تذكرني بهذا اليوم الجميل، وصلنا إلى «فيلا» جدتي وخالتي، وقابلنا ابن خالتي «عبد المنعم»، وكان شابًا وسيمًا، حيث رحَّب بنا أجمل ترحيب، وفرحت جدتي وخالتي وأمي، وأخذن يقبلوننا ويرحبون بنا.

جلسنا في حديقة «الفيلا» غير مصدقين: هل حقًا سنعيش في هذا الحي الجميل، وهذه الحدائق الغناء؟! وسمعت صوت العصافير تزقزق، وتطير من حولي، وأصوات الدجاج والديوك تؤذن، كان كل شيء بديعًا رائعًا جعلني أعيش واقعًا كالحلم، بل أجمل من كلِّ الأحلام، وبعد غذاء فاخر مرتب شهي، وبعد أن لعبنا في الحديقة حتى تصبب العرق منا، دعتنا الوالدة لنغير ملابسنا المتسخة من طين الحديقة حتى نذهب إلى شقتنا الجديدة عند ابنة خالها، حتى يتم بناء الدور الخاص بنا في «فيلا» جدتي، وذهبنا جميعًا، وكانت الشوارع هادئة، وكان منزل «آل دياب» قريبًا جدًا، وأخيرًا وصلنا، فوجدنا رب العائلة الأستاذ «يوسف دياب» في انتظارنا مع أسرته -رجل في الأربعين من عمره، أحمر الوجه، منسق الشارب، يرتدي «شورتًا» قصيرًا وقميصًا رياضيًا، وخالتي «حكمت» وأولادهم الثمانية -أربع بنات

وأربعة أولاد- في نضارة ظاهرة، وملابس جميلة نظيفة -قابلونا جميعًا بترحاب وحب وود أزال عنا هيبة اللقاء الأول، وأحسسنا بفطرتنا أنها ستكون صحبة طيبة مع هؤلاء الأولاد الوجهاء، ودخلنا شقتنا الجديدة في الدور الأول، وكانت مطلة على حديقة جميلة بها أشجار الجوافة، وثمارها الشهية الناضجة تطل علينا، وكأنها تدعونا لقطفها، وكان الأثاث بسيطًا، لكنه جديدًا، والشقة متسعة، منيرة، والخضرة تحيط بنا من كلّ مكانٍ.. أين هذه الجنة البديعة من الحارة الضيقة التي لا تكاد نرى الشمس فيها إلا إذا صَعدنا إلى سطح المنزل، وهذه النضارة الظاهرة على أبناء خالتي «حكمت هانم»، أين هي من وجوه أبناء الحارة الشاحبة؟!

وأحسست أن الشمس والحدائق والجو النقي هو الذي يخلق النضارة والإشراق في كلّ مكان حولنا، السعادة كلمة غير معبرة عما كان في قلوبنا، وأخذ قلبي الصغير يرقص من الفرحة بهذا التغيير الجميل، وأردت أن أنطلق إلى الحديقة، وأتسلق الأشجار، وأقطف من هذه الثمار اليانعة، ولكن والدتي منعتني، بقولها: «إنها ليست ملكنا، يا بني، إننا نجلس فيها فقط، ونستمتع بجمالها وجوها»، بالطبع لم أقتنع بهذا الكلام أبدًا نظرت من النافذة، ورأيت أولاد خالتي الأربعة في الحديقة، ودعونا للعب معهم، وترددت في أول الأمر، ودعوت أخي الصغير «عبد العزيز» أن يخرج معي، ولكنه رفض، فخرجت معهم على استحياء. كان أكبرهم «محمد» في حوالي الخامسة عشرة من عمره، أما «علي»، ففي الرابعة عشرة، وأما «عبداللطيف»، فقد كان مثل سني، و«مصطفي» يصغرني بعام تقريبًا.

أخذت أتفرج عليهم، وأتعجب لما يفعلون، فقد لبسوا في أقدامهم أحذية بسيورها عجلات صغيرة، وأخذت أتعجب من حركاتهم الرشيقة بها يغدون ويروحون ويستديرون ويجرون أحيانًا على قدم واحدة، ويرفعون الأخرى، إنها أول مرة أراها في حياتي.

تقدم مني «عبد اللطيف»، وجذب يدي، وقال لي: «هيا يا عبد الرحمن، العب معنا، قلت له: لا أعرف، قال: سأعلمك، إنها سهلة جدًا، وخلع السيور من قدميه، ووضعها في رجلي -إنهم يسمونها (الاسكيتنج)، وأخذ بيدي يساعدني، ولكنني انزلقت على الأرض، ولم أتحكم في توزاني، وضج الجميع بالضحك، فتمالكت

نفسي، ولم أظهر لهم الآلام التي في جسدي، أما «عبد الطيف»، فقد دعاني من جديد، وعلمني كيف أوازن نفسي، وأستند على الحائط أولاً، وما هي إلا دقائق حتى تعلمت كيف أصول وأجول مثلهم، وكان أخي «عبد العزيز» يراقبني من النافذة مفتونًا، ولكنه لا يظهر إلا نصف وجهه حتى لا يراه أحد، ونظرت إلى الدور العلوي، وإذا بخالتي والأستاذ دياب وبناتهم الأربع يراقبوننا بسعادة، ويشجعوني مما جعلني أعمل حركات استعراضية صعبة زادت من تشجيعهم لي، مما أطربني كثيرًا، ولأول مرة أحس بوجودي في مجتمع غريب عني يتجاوب معي، أحسست بالزهو البريء يملأ قلبي، وسألوني عن «عبد العزيز» و«فاطمة» و«محمد» ووالدتي، وأخبرتني خالتي «حكمت» أن أبلغ والدتي أننا مدعوون عندهم للغذاء غدًا، فرحت كثيرًا؛ لأنه سيقربني من هذه الأسرة الطيبة التي أحببتها كثيرًا، وأحسست معهم لأول مرة بالمعاملة الطيبة والصداقة البريئة الطاهرة، وجاء موعد الغذاء، ونزل صاحبي «عبد اللطيف» يدعونا بأدب وذوق للتفضل للغذاء، صعدنا جميعًا (أمي، وأختي فاطمة، وأنا، وأخي عبد العزيز، وأخي الصغير محمد)، فاستقبلنا رب الأسرة «الأستاذ يوسف دياب» بترحاب كبير، ورحَّب بنا بصوته الجهوري القوي، ونادى كلا منا باسمه، مما أسعدني كثيرًا؛ لأنني أصبحت معروفًا عند هذا الرجل العظيم، كان قريبًا فاضلاً ورب أسرة بمعنى الكلمة، رياضي، ضحوك، يهتم بكلِّ صغيرة وكبيرة ببيته وأولاده.

أما خالتي «حكمت» -وكنا ندعوها بـ«تيزه حكمت»؛ فقد تربت مع والدتي، كما قلت في بيت عز واحد، رحبت بنا كثيرًا، وقالت: «اجلسوا يا أولاد»، فجلست بجانب «عبد اللطيف»، وجلس أخي «عبد العزيز» بجوار «مصطفى»، وجلست أختي «فاطمة» بجوار ابنتهم الوسطى «عفاف»، وجلست والدتي بجوار «تيزه حكمت»، أما أخي الصغير «محمد»، فقد أجلسته والدتي بجوارها، كانت المنضدة ضخمة استوعبتنا جميعًا، وضع أمام كل منا طبق كبير، وشوكة، وملعقة، وسكينة، وأخذنا نتناول الطعام الشهي على فطرتنا، أما عائلة دياب، فقد أخذوا يأكلون بالشوكة والسكينة، وبطريقة هادئة غير طريقة أهل حارتنا، أخذت البنات ينظرن إلينا باستغراب وابتسامات مرحة، وقالت لي والدتي: «حاول أن تأكل بالشوكة، يا عبد الرحمن»، فقلت لها ضاحكًا: «هذا أفضل وأسرع يا أمي»، فضج الجميع

بالضحك، وقالت لها خالتي «حكمت»: «اتركيهم على راحتهم، يا «إحسان»؛ بكرة يتعلموا»، ولكنني لم أحب أن أتعلم هذا «الإتيكيت» أبدًا، وما زلت آكل طعامي بطريقة أهل حارتي البسطاء، وأحيا حياتي بكلِّ البساطة، ولا أحب المظاهر ولا التعقيد أبدًا، وانتهى الطعام الشهي، وقد تناولته بيدي وبالملعقة فقط، أما الشوكة والسكينة، فقد نحيتها جانبًا، وقلت ضاحكًا: «هؤلاء لا يلزمونني أبدًا».

وتجولنا في ذلك البيت البديع المرتب، ورأيت لأول مرة «البيانو»، وسمعت البنات يعزفن عليه بخفة ورشاقة، ورأيت لأول مرة أيضًا الثلاجة، وقد كنا في حارتنا نسعد بماء القلة الذي يروينا، ورأيت البوتجاز، والذي تخرج منه شعلة النار زرقاء من غير دخان أو رائحة كريهة، أين هو من موقد الغاز المزعج في حارتنا، ولعبنا سويًا ألعابًا جماعيةً بديعةً بهرتنا بجوها الهادئ، الذي يحتاج إلى تفكير وتدبر، لا إلى هرج ومرج، وأخبرني «عبد اللطيف» أن عندهم سيارة خضراء في الجراج الخاص بهم، وأنه سيريني إياها.

كان كل شيء جديدًا وجميلاً ومدهشًا بالنسبة لي، هذه الصحبة الطيبة، وهذا المنزل الجديد الجميل، وهذه الحديقة الواسعة، وهذه الألعاب الجماعية التي كانت تجمعنا، ثم أخيرًا هذه السيارة الخضراء، والتي كنت فرحًا بها، كأنها ملكي، فهي على الأقل ملك أقاربي وأصحابي، أحسست أن الدنيا بالنسبة لي جميلة رائعة، ولم أكن أدري في هذه الأيام ما يخبئه لي القدر، ولقد جمع شمل الأسرة بعد أن جاء الوالد مع أخي «علي» نهائيًا.

المدرسة وأول مراحل كره اليهود

بعد أن دخل أخي «علي» المدرسة الثانوية بالقبة، محولاً من المدرسة الخديوية، ودخلت أنا وأخي «عبد العزيز» المدرسة الابتدائية بالزيتون مع «عبد اللطيف» و«مصطفي»، سارت حياتنا سعيدة، ولقد كان الذهاب إلى المدرسة متعة جميلة، فلقد كنا نتكدس -نحن الأولاد الذاهبون إلى المدرسة الابتدائية- في تلك العربة الكبيرة الخضراء بعد أن تأخذ وقتًا طويلاً في تشغليها، وخاصةً في الشتاء، حيث يوصلنا الأستاذ «يوسف دياب» إلى مدرستنا، ثم يعود إلى مدرسة القبة، الذي كان يعمل بها مدرسًا أولاً للغة الإنجليزية، حيث يدرس شقيقي «علي» و«محمد دياب» و«علي

دياب»، أما البنات، فقد كان أتوبيس المدرسة يحضر لتوصيلهن، وعندما تتعطل السيارة عن العمل -وكثيرًا ما يحدث هذا- فإن فرحنا يكون كبيرًا؛ لأننا سنذهب سيرًا على الأقدام في هذا الطريق الممتد والمزروع بالأشجار، حيث يحلو الحديث البريء والتعليقات الطفولية والأحلام عن الحاضر والمستقبل المشرق.

لقد كان مستوى التعليم في هذه الأيام عاليًا، ولقد كان للأساتذة احترامهم وتقديرهم لعلمهم الغزير، ولشخصيتهم المميزة المهابة، فلم نكن نحتاج إلى دروس خاصة، كما يحدث هذه الأيام، فلقد كان عدد الطلبة في الفصل لا يزيد على العشرين إلا قليلاً؛ مما يجعل الصلة بين الأساتذة والطلبة أشد وثوقًا وأعمق تأثرًا.

كان حبي للمدرسة يتعمق يومًا بعد يوم؛ لأنها عالم رحب فيها العلم الذي يفتح العقول، وفيها صور مشرقة، وقدوة صالحة من أساتذة عظام، وفيها صداقات جديدة بريئة مع صبية من عمري، وفيها أيضًا ألعاب شائعة في الفسحات، وخاصة فسحة الغداء، التي تستمر حوالي الساعة تقريبًا، حيث يحلو اللعب والجري والانطلاق، ولقد كانت المدرسة منضبطة جدًا، وإنني ما زلت أذكر أبا المجد أفندي -ضابط المدرسة- والذي نراه بيننا في كلِّ وقت يستمع إلى أية شكوى، ويعاقب المسيء بحزم وعدل، وكنا -نحن الأولاد- نعمل له ألف حساب لتواجده الدائم بيننا، ولخرزانته الطويلة التي تعاقب المسيء بغير هوادة بلسعاتها المؤلمة، ولقد كان للعودة من المدرسة بنهاية اليوم الدراسي في حوالي الثالثة عصرًا فرحة وبهجة أيضًا، وخاصةً الحصة الأخيرة تكون مملة بعد هذا المجهود الكبير الذي نبذله في الدارسة واللعب معًا، وما إن يدق الجرس حتى يسرع الجميع إلى أبواب المدرسة، وينتظر بعضنا بعضًا، ولنذهب بعد أن يجتمع شملنا جميعًا، وكانت شلتنا تزيد يومًا بعد يوم بانضمام أصدقاء جدد يسكنون بجوارنا، أو في الطريق إلى منزلنا، وما إن نعود إلى بيتنا بفرح حتى نحس بحنان الأمومة الدافقة يستقبلنا، ولكن لا بدَّ من الحمام أولاً، ثم الصلاة، ثم نجلس جميعًا بعد عودة الوالد والشقيق على سفرة الغذاء.

لقد كان جو المدرسة رائعًا وجو الأسرة أكثر دفئًا وقربًا، ومرت أيام الدراسة

الابتدائية طيبة راضية سعيدة، كونت خلالها صداقات حميمة طيبة، وكنا -نحن الصبية- نتشاجر أحيانًا أوقات اللعب، ولكننا سريعًا ما نتصافى ويعود الود بعد دقائق معدودة، ولكن ظهر بين التلاميذ صبي أحمر الوجه، صغير العينين، كان دائم التحرش بي، فكنت أتجنبه أحيانًا، وأرد عليه أحيانًا أخرى، استمر هذا الحال أسابيع طويلة، وكل يوم يزداد تحرشه بي بدون أدنى سبب، فسألت زملائي عنه، فقالوا لي: ألا تعرفه، إنه (ليتو اليهودي)، وهذه هي طباعه وأخلاقه مع الجميع، ولكنني قلت لهم: إنه يتحرش بي أكثر من كلّ التلاميذ، ما سبب ذلك؟ فقالوا لي: إنه يحقد عليك؛ لأنه يرى حبنا لك، فقلت لهم: ولماذا لا تحبوه أيضًا حتى نطفئ نار حقده؟ فأجابوا أن قلبه أسود وخلقه سيئ، وفي المساء، سألت والدي: ما معنى يهودي، يا أبي؟ إن عندنا في المدرسة ولدًا يهوديًا، اسمه (ليتو)، وهو يكرهني جدًا، يا والدي، ودائمًا يضايقني، ويتحرش بي، قال لي والدي: إن هذا الخلق ليس جديدًا عليهم، يا بني، إنهم ورثوه أبًا عن جد، ولقد كانت معاملاتهم السيئة هذه مع رسول الله ﷺ، وحاولوا قتله أكثر من مرة، وخانوه بعد أن تعاهد معهم، وحاربوه، وحقدوا عليه وعلى الإسلام والمسلمين طيلة القرون السابقة، ولقد كانت أخلاقهم سيئة رديئة حتى مع أنبيائهم، إن سيدنا موسى لاقى الأمرين منهم، يا بني، إننا نقرأ في الصحف هذه الأيام عن وعد بلفور -وهو وزير خارجية الإنجليز- فقد وعدهم بوطن لهم في فلسطين، حيث بيت المقدس الشريف.

سألت والدي: ومن يقطن فلسطين يا أبي؟ يقطنها -يا ولدي- عرب مسلمون مثلي ومثلك، سألت متعجبًا: ولماذا يتفق الإنجليز واليهود على حربنا وطردنا من بلادنا؟ قال لي: إن الكفر ملة واحدة، يا بني، هؤلاء هم أعداء الإسلام، وكل رجائهم هو القضاء علينا. قلت: وما الحل يا أبي؟ ليس هناك حل إلا التمسك بديننا، وأن نقوي أنفسنا ونتحد، وبدون ذلك لا فائدة، حاول، يا بني، أن تقرأ وتعرف تاريخ اليهودية ومؤامراتهم، واقرأ عن الحروب الصليبية، واقرأ عن الأبطال المسلمين الذين دافعوا عن ديار الإسلام، مثل: الظاهر بيبرس، وصلاح الدين الأيوبي، وكيف ردوا الصليبيين عن ديار الإسلام، وكيف جمعوا الأمة صفًا واحدًا، سأعطيك كتابًا بسيطًا للأولاد؛ لتتعرف على تاريخنا العظيم، يا بني.

لقد وضع أبي أول بذرة لحب القراءة في عقلي الصغير الذي كان اللعب شاغله الأول، وفي فسحة اليوم التالى، وبينما كنا نلعب في فناء المدرسة بحماس كبير، وإذا بذلك الفتى اليهودي يتحرش بي، ويسقطني على الأرض، وقد جرحت ركبتاي وجبهتي، وسال الدم مني، فوجدت نفسي بدون شعور -بل بقوة هائلة، لم أدر كيف جاءت لي- أهجم عليه، وأستمر في ضربه ولكمه بيدي ورجلي ورأسي حتى أسقطه على الأرض، وجثمت فوقه، مستمرًا في عقابه عن كلّ ما فعله طيلة هذه الأسابيع، ولقد هلل كل أصحابي سعداء بما فعلته فيه، فقد كان يتباهى بقوته على الجميع، ويسيئ إلى الكثير، وجاء مدرس اللغة الإنجليزية «جرجس أفندي»، ورفعني من فوق الصبي اليهودي، وحاول أن يلطمني، ولكني تفاديت لطمته، وصحت به: لقد اعتدى عليَّ أولاً، انظر إليَّ، الدم في وجهي، وركبتاي، ولقد أيدني الصبية جميعًا، وقالوا بصوت واحد: «نعم يا جرجس أفندي، لقد اعتدى «ليتو» على عبد الرحمن أولاً»، ودق الجرس يعلن انتهاء الفسحة، وطلب مني بغلظة أن أتبعه إلى الفصل، وبرقة شديدة، قال لخصمي «ليتو اليهودي»: اذهب أنت يا «ليتو» إلى فصلك، وسأعاقب هذا الولد؛ حتى يتعلم الأدب، ذهبت معه إلى الفصل، وأنا في حالة شديدة من الغيظ والألم من هذا الأستاذ الذي كنت أحبه من قبل، الا يسألني أو يسأل الأولاد عن سبب إصاباتي، قال لي جرجس أفندي أمام طلبة فصلي، وبغلظة شديدة: «افتح يدك»، وكان ممسكًا بيده عصا غليظة، قلت له: «يا أستاذ لقد اعتدى عليَّ هو أولاً، واسأل التلاميذ»، قال لي بغلظة أشد: ما اسمك؟ فقلت له: اسمي عبد الرحمن محمد، قال لي بحقد شديد: «لم أفهم سببًا له، افتح يدك، وإلا كسرت العصا على رأسك»، ظننت أنه والد هذا الطالب «ليتو» أو عمه أو قريبًا له؛ لأنني أحسست بالتحامل الشديد، ورفع يده وانهال بالعصا على رأسي، ولكني تحاميت منه بقفزة سريعة حتى كاد يسقط على الأرض مع ضحكات الأولاد المكتومة، حاول مرة أخرى أن يضربني، ولكنني أسرعت بالخروج من الفصل -وأكاد أتميز من الغيظ، والدموع مكتومة في عيناي، وفمي مر كالعلقم من قسوة هذا الأستاذ الذي كان واجبًا عليه أن يسأل قبل أن يحكم هذا الحكم القاسي، ويتحيز لطالب، لعله قريب له.

ضاقت الأرض بي، أين أذهب؟ ذهبت إلى ضابط المدرسة «أبي المجد أفندي»، وقصصت عليه ما حدث، فربت على كتفي، وقال: اطمئن، سأحقق في الموضوع، وسنعاقب المخطئ أيًا كان، اذهب إلى فصلك الآن.. لم أستطع بالطبع الذهاب إلى الفصل، وأنا بهذه الحالة؛ فقفزت من السور لأول مرة في حياتي، وكان السور مرتفعًا، وذهبت إلى المنزل وأنا أكاد أزحف من شدة الألم والغيظ معًا، وأخذت أتباطأ؛ حتى أعود إلى المنزل في موعدي، رغم شدة آلامي، وأخيرًا وصلت إلى المنزل، وقابلتني أمي بلهفة على حالتي وملابسي الممزقة، ولكنني تحاملت، وقلت لها محاولاً أن أبتسم: «إنني سقطت من فوق الشجرة يا أمي، حيث كنت ألعب مع رفاقي»، فقالت لي بحنان، وقد صدقتني: «متى تهدأ من شقاوتك هذه يا عبدالرحمن، كان المفروض أن تكون قردًا، وليس تلميذًا، اذهب إلى الحمام، واغتسل، وغيِّر ملابسك؛ حتى لا يراك والدك بهذه الصورة المزرية».

المدرسة الثانوية

انتهت السنة الدراسية، وانتظرنا نتائج الامتحانات متلهفين، ونجح الجميع من غير استثناء، وعمت الفرحة أرجاء المنزل بطوابقه الثلاثة، وأنهيت أنا وعبد اللطيف المرحلة الابتدائية، واستعددنا بفخر لدخول مدرسة القبة الثانوية القريبة لمنزلنا مع الكبار محمد دياب وعلي دياب وأخي علي البنان، كنا فخورين جدًا بهذه النقلة من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة المبكرة، فالمدرسة الثانوية بالنسبة لنا أمل كبير، ولقد انتهى عهد البنطلون القصير، وبدأت الوالدة تجهز لنا ملابس السنة الجديدة، والبنطلونات الطويلة الرمادية، و«الجاكتة الكحلية اللون» والقمصان البيضاء و«الكرافتة» التي لم أكن قد ارتديتها من قبل، أما الطرابيش التي كنا نرتديها في الابتدائية، فقد ألغيت في المدرسة الثانوية، وسررنا لإلغائها كثيرًا، فقد كانت دائمًا غير نظيفة؛ لأن الأولاد كانوا أحيانًا يتقاذفونها كأنها كرة.

في المرحلة الثانوية

وإنني أذكر ذلك اليوم الذي خطفت فيه حدأة جارحة طربوش من على رأسي ظنًّا منها أنه لحم أحمر، ويبدو أنها كانت جائعة، ورجعت إلى البيت بدون الطربوش، وأخذوا يتندرون عليَّ ويقولون: لو لم يكن الطربوش واسعًا على رأسك؛ لكنت الآن أنت والطربوش في عش الحدأة.

إن الأجازة الآن أربعة أشهر كاملة، أجازة طويلة حقًّا، كان عمري حينذاك حوالي ثلاث عشرة سنة، ولم أكن أعلم أنني بدأت في دخول سن المراهقة، ولكنني بدأت أحس بتغيير داخلي متزايد، أنني لست طفلاً، واهتماماتي بدأت تتغير، ولقد كنت في السنين السابقة ألعب مع البنات، ولا أجد غضاضة في ذلك، ونجري في الحديقة، وأشاركهم حياتهم، وأدخل عليهم حجراتهن، أما الآن، فقد بدأت أبتعد تدريجيًّا عنهن، وأحس أنه من العيب الكبير أن أنظر إليهن، أو أقف معهن، أو أدخل عليهن حجراتهن، رغم أنهن اعتبرن هذا تصرفًا غريبًا مني، وبدءوا يلحون عليَّ في الاستمرار في لعبي معهن، ومشاركتهن ألعابهن.

بدأت في هذه الفترة أحب الوحدة كثيرًا، وأجلس وحدي متأملاً متفكرًا في الحياة والكون والوجود والموت، وما بعده، وأسأل نفسي أسئلة كثيرة لا أجد لها جوابًا شافيًا.. كنت كثيرًا ما أخرج وحدي أو مع «عبد اللطيف» متجولين خارج المنزل، سائرين في الشوارع الهادئة، نتكلم ونتساءل عن كلِّ شيء، بالطبع، لم تكن حالة التأمل والجدية تأتي طيلة الوقت، ولكننا كثيرًا ما نحنُّ إلى شقاوة الصبيان من تسلق للأشجار، وقطف ثمار التوت والجميز والجوافة، وكثيرًا ما كنا نأخذ سندوتشات العشاء، ونتناولها فوق الأغصان العالية لشجر الجوافة في حديقة منزلنا، وكثيرًا ما صنعنا النبل بأيدينا لصيد العصافير التي تهجم علينا.

كانت فترة انتقال تتذبذب بين رغبات صبيانية، ما زالت في أعماقنا وأفكارنا، وتغيرات نحو رجولة مبكرة وأحلام وآمال، حقًّا إنها كانت فترة حرجة في حياتي،

وكان الذهاب إلى مدرسة القبة الثانوية فرحة كبيرة، واعترافًا واقعيًا بانتقالنا إلى مرحلة الرجولة المبكرة، فقد كان الطلبة في المدرسة الثانوية رجالاً طوالاً ذوي شوارب غليظة حقًا، لم أكن قد وصلت لهذه الصورة، ولكن في سن الرابعة عشرة يتغير كل شيء في حياة الإنسان ابتداءً من تفكيره وتصرفاته، وانتهاءً بشكله وهيكله، فقد امتد جسدي، وأصبح طويلاً فارعًا، وأصبح صوتي رجوليًا خشنًا بعض الشيء، وبدأت أزاول بعض الرياضيات العنيفة؛ حتى تبرز عضلاتي، وكنت سعيدًا جدًا بهذا التغيير والعجلة يومًا بعد يوم.

ولقد اختلف جو المدرسة الثانوية كثيرًا عن جو المدرسة الابتدائية، من حيث معاملة الأساتذة لنا بنوع من التساهل والحرية النسبية، وقد كانوا يذكروننا دائمًا - إذا صدر منا خطأ - أننا الآن أصبحنا رجالاً؛ مما يزيدنا فخرًا وسرورًا، وبدأت بشائر الأخبار تنبئ بانتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد سمعنا من أستاذ التاريخ - ذلك الرجل العظيم، المملوء وطنية وثورية، والذي يمزج الماضي بالحاضر، ويبث فينا من أفكاره، والتي يدعونا إلى أن نكون فداءً لوطننا وأمتنا - ومن أخبار الجرائد أن ألمانيا قد هزمت، واستسلمت بعد أن شن الحلفاء هجومًا قويًا من نورماندي[1]، حيث أنزلوا قوات ضخمة جعلت ألمانيا تحارب في جبهتين الجبهة الروسية والجبهة الأوربية، وبدأ الروس يزحفون غربًا والحلفاء، وقد عززتهم القوات الأمريكية بالضغط عليها شرقًا، وبدأ الألمان ينسحبون من روسيا حتى وصلوا إلى برلين (عاصمة ألمانيا)، وضغط الحلفاء شرقًا حتى وصلوا هم أيضًا إلى برلين، والتقوا مع الروس، وقسمت العاصمة الألمانية قسمين: قسم مع الروس، وقسم مع الحلفاء، وسمعنا عن انتحار «هتلر»، ولكن أخبارًا أخرى ترددت أنه اختفى، وسيظهر فجأة ليحارب من جديد.

لم نفرح أبدًا بانتصار الحلفاء؛ لأنهم يحتلون بلادنا، وما زالوا يحتلونها، وكنا نسمع عن بطولات اليابان، وأنهم رغم استسلام ألمانيا، ومن قبلها إيطاليا، إلا أنها استمرت في الحرب مع أمريكا، وفعلت بجنودها الأفاعيل، ولكننا فوجئنا بعد

---

(١) الساحل الفرنسي الذي أنزلت قوات الحلفاء عليه.

أسابيع قليلة بإلقاء أمريكا قنابل ذرية على مدينتي «هوروشيما» و«نجازاكي»، قتلت ودمرت المدينتين تدميرًا كاملاً، وقتلت عشرات المئات، وسمعنا لأول مرة عن ذلك السلاح الذري الرهيب، وكاد الألمان يستعملونه ضد الحلفاء، وبعد هزيمة ألمانيا، استولت أمريكا على سر صناعته من علمائهم، واستعملوا هذا السلاح الرهيب ضد الشعب الياباني المكافح العظيم، والذي رأى من الحكمة أن يوقع معاهدة صلح مع أمريكا؛ حتى لا تتدمر اليابان نهائيًا بهذا السلاح الرهيب.

المراهقة وأفق جديدة

انتهت التشطيبات النهائية في شقتنا بفيلة خالتي وجدتي التي وعدانا ببنائها لنا في الدور الثاني من فيلتهما بحمامات القبة بعد سنوات خمس، وذلك بسبب مرض ابن خالتي الوحيد الأستاذ «عبد المنعم» مرضًا شديدًا أفضى به إلى الموت، وكانت مأساة رهيبة بالنسبة لخالتي بالذات، فقد كان في ريعان شبابه وفتوته، وكان جميل الخلقة والخلق، وكان كل أملها في الحياة، كما كانت تعد لعرسه، واختارت له عروسه، ولكن الموت اختطفه منها ومنا جميعًا، فاهتز كيان خالتي، وامتنعت عن الطعام والنوم أيامًا طويلةً، وكانت في بكاء مستمر تتأثر له القلوب والأكباد.

لقد هزتني هذه المأساة من أعماقي، وعاشت صورته في خيالي شهورًا طويلة، أتصوره أمامي في ميعة الصبا والشباب والصحة، ثم تأتي صورة الموت الكئيبة بصورة هيكل عظمي بارد مخيف مجوف، ينظر إليّ من المجهول، لم أستوعب فكرة الموت في هذه الأيام؛ إنها أسئلة محيرة بدون جواب، لماذا نخلق؟ ثم لماذا نموت؟ ونهان هذه الإهانة في باطن الأرض؟ حيث نتساوى مع الكلاب والقطط والفئران؟! لم أبال بالحياة التي تنتهي بهذه النهاية المأساوية، والتي لم يهدني تفكيري لأسبابها في هذه الأيام، وإن انكشفت لي حكمتها بعد ذلك.

كنت أدعو الله في أعماق الليل لخالتي المسكينة، وأحاول أن أتقرب إليها؛ لأخفف عنها، ولكن هيهات أن تنطفئ نيران أحزانها ببحار الدنيا جميعًا، ولكن الخالق الجبار الذي خلق الموت والحياة يمنحنا مع المصائب نعمة النسيان؛ حتى تستمر الحياة، ولا تتوقف؛ فقد رزق الله خالتي الثكلى نعمة الإيمان العميق، والتسليم المطلق لله، وبعد شهور من اليأس كانت فيها على حافة الكفر، تحولت إلى

ملاك متحرك لا يعرف إلا العبادة وقراءة القرآن، وكانـت تكمـل سـعادتها حينمـا تقرأ لها والدتي في كتب الدين والتصوف.

أما نحن الشباب؛ فقد جرفتنا الحياة في تيارها، وبعد شبح الموت عن أعيننا رويدًا رويدًا، حتى كاد أن يختفي، ويصبح نقطة صغيرة في أفق الحياة، واستقر بنا الحال في شقتنا الجديدة في الدور الثاني بجوار محطة القطار، وأمامنا سور حديقـة قـصر القبـة بحدائقه الفناء، وبدأت أتعرف على أصـدقاء جـدد في الحـي الجديـد، وكـانوا نوعًـا جديدًا من الأصدقاء، أبناء «باشوات» و«بهوات» و«لواءات» في الجيش، وكان حيًّـا أرستقراطيًّا بمعنى الكلمة؛ فتوجد به فيلات، وحدائق، وعربات فارهة، ويسكن بـه علي باشا فهمي، ومندور باشا، ومختار بك.

كان أصدقائي الجدد صورة تختلف كلية عن أبناء عائلة دياب الطيـبين، هـادئي الطبع، أصحاب الخلق والقيم، وفي الحقيقـة لم ينـسني أبـدًا أصـحابي الجـدد عائلـة دياب، وصديقي الذي أحبه عبد اللطيف؛ فقـد كنـت أخـصص يومًـا في الأسـبوع لزيارتهم، واسترجاع الأيام الحلوة الطيبـة البريئـة، والـتي كونـت جانبًـا كـبيرًا مـن شخصيتي وخلقي، كانوا وما زالوا مثالاً للأسرة فـوق المتوسـطة الـتي نحـس معهـم بدفء الأسرة المصرية وأخلاقها الحلوة الفاضلة.

لقد جمعتنا الكرة مع أصحابنا الجدد، وكانت أمامنا عدة أراضٍ فضاء كنا نعدها كملاعب لهذه اللعبة المحببة، ولقد قربني إتقاني لهذه اللعبة من الشلّة الجديدة، وكان كل لاعب يحاول ضمي لفريقه، ولقد تعرفت بأنواع جديدة من البـشر لم أرهـا مـن قبل، كان فيها الشرير، وفيها الكذاب، وفيها المتكبر، وفيها المتحلل الخلق، وفيها من يشرب الخمر أحيانًا خلسةً، ومن يدخن، ومن له علاقة حب ببنـات في مثـل سـنه، وكان فيها أيضًا صاحب الخلق القويم، وكنا بعد انتهاء المباراة نجلس سـويًا نتحـاور فيما حدث من أخطاء في المباراة، ثم يدور الحديث هنا وهناك.

كان منا من يتحدث عن مغامراتـه، وأنـا أسـتمع إلى الجميـع لم يكـن حـديثهم يطربني؛ لأنه مغاير لما ربيت عليه، ولكنه كان يثير اهتمامي، ويفتح عيني على عـالم جديد غريب لم أسمع عنه من قبل، حاولت أن أعرّف صديقي «عبد اللطيف» على

هذه «الشلة» الجديدة، ولكن طبيعته نفرت منها، ولم يرتح لها، وابتعد عنها، وتوثقت معرفتي واختلاطي بهؤلاء الشباب، فكنا جميعًا في سن متقاربة بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، وهي أخطر سن في حياة الشباب، فالحياة أمامنا متفتحة، حيث الشباب والصحة والفراغ، وخاصة في الأجازات الطويلة التي كانت تجمعنا معظم الوقت، فكنا نذهب جميعًا بعد المبارات، وبعد أن نبدل ملابسنا، ونلبس ملابسنا النظيفة، إلى مصر الجديدة مشيًا على الأقدام، وكانت مصر الجديدة في هذه الأيام يقطنها كثير من الأجانب، ولم تكن طباعهم كطباعنا، فكانوا متحررين من كلُ شيء، ولقد كان مظهر البنات الصغار بملابسهن القصيرة الضيقة، وشعورهن المرسلة، وشقاوتهن وتحررهن من كل القيود يثير مشاعري وعواطفي المتأججة، وكانت رحلتنا اليومية إلى مصر الجديدة انفتاحًا على عالم مبهر عجيب لم أره بالطبع في الحارة، ولم أره أيضًا في حمامات القبة، تلك الضاحية الأرستقراطية المحافظة، أما مصر الجديدة في هذه الأيام، فقد كانت قطعة من أوربا ببهرجتها وأنوارها وشبابها وبناتها، فيها شباب يسير مع شابات يضعوا أيديهم في أيديهن، أو يسيرون متأبطين خصرهن، أما في النوادي الرياضية، فكانت الحالة أكثر تحررًا، ولقد انتشرت في هذا الوقت أيضًا الصور الخليعة، والمجلات الجنسية، والكتب الإباحية التي يتداولها الشباب والطلبة سرًّا، مما يثير الشهوات، ويحرك الغرائز، ولقد كانت الخلفية الأسرية والقيم التي تربيت عليها عاملاً مؤخرًا للانحراف والانزلاق، ولكن إلى متى أستطيع المقاومة؟ علم ذلك عند ربي.

كان «جلال البطراوي» -من أصداقائي الجدد- فتى وسيمًا، ومن عائلة ثرية، ولقد كان منزلهم الفاخر الضخم يقابل منزلنا، وكان نمطًا آخر من الشباب، حيث إنه كان قليل الكلام، نادر الضحك؛ وأعجبني فيه هدوءه وسماته.

كان يومًا من أيام شهر رمضان، وكنت فيه صائمًا، وبالطبع لم يمنعني صيامي عن اللعب العنيف بالكرة، حتى حل بنا جميعًا التعب، وقفنا بجوار منزلنا نتسامر، وعلم جلال مني أنني صائم، وأنني في غاية العطش، فدعاني للصعود إلى منزله، فاعتذرت له؛ لأن ملابسي لم تكن تناسب، وخاصة بعد هذه المباراة العنيفة، ووعدته أن أزوره بعد جولتنا المسائية بعد الإفطار، ولكنني تعجبت من إلحاحه على

دعوتي -أنا وحدي- دون الأصدقاء جميعًا، وأمام إلحاحه ذهبت معه، وكانت شقته فاخرة وثيرة، والسجاجيد تغوص فيها الأقدام، والصور واللوحات الضخمة تزين الجدران، كان كل شيء حولي يوحي بالثراء الفاحش، والغنى العريض، ودخلت والدة جلال وحيتني برقة، ولكن بتحفظ الأثرياء وكبريائهم، والذي لم يعجبني، وسألتني عن والدتي وإخوتي، وقالت لي: لماذا لم يزورونا؟ فوجدت أنها فرصة لأخفض قليلاً من هذا الكبرياء، فقلت لها، وأنا أنظر إلى عينها بكلّ جرأة: «لقد كان الواجب أن تزورونا أنتم؛ فلقد سكنا جواركم منذ شهور ستة»، فهزت رأسها لجرأتي، وقالت: لقد صدقت، وسنزوركم قريبًا، ودخل صديقي جلال، وهمس في أذن والدته، فخرجت وأصبحنا وحيدين في هذا الجو الغارق في الفخامة والعز، وأخذنا نتناقش، ولقد أحسست بفجيعة من نقاشي مع جلال، فلقد سمعت منه كلامًا غريبًا، لم أسمعه من أحد من قبل، وخاصة من في مثل سنه.

بدأ يكلمني عن الحياة، والبعث، والله، والخلق، فقد كان ينكر البعث، والحساب، والآخرة، وينكر وجود الله أيضًا، فقلت له بحزم شديد: ومن خلق هذه الدنيا التي نعيش فيها، ومن خلق السموات والنجوم، وكل هذه المخلوقات، يا جلال؟ قال: إنها من صنع الطبيعة، ثم قال ببرود أجوف: إنها خلقت صدفة، أجبته ونفسي قد تعززت من هول كلماته: إن هذا كلامًا يخالف العقل والمنطق، وأشرت إلى الأثاث الفاخر، وإلى السجاجيد، وإلى اللوحات، وصحت فيه: هل هذه الأشياء وجدت صدفة، هل وجدتها في الشارع، أم أن صناعها صنعوها وأتقنوا صنعها؟! وأنت يا جلال، كيف وجدت في هذه الحياة، هل وجدت صدفة أيضًا؟! قال ببرود أشد: لقد التقت أمي بأبي صدفة، وتزوجا، وهذا كل ما في الأمر، وسألته مغتاظًا حسنًا، والموت والحساب والآخرة والجنة والنار، أتنكر كل هذه أيضًا؟ قال لي بصوت بارد ميت: بالطبع أنكر كل هذا تمامًا؛ فالموت هو نهاية كل شيء في هذه الحياة، قلت له صائحًا: وأين العدالة إذًا، هذا قاتل، وهذا مقتول، وهذا سارق، وهذا مسروق منه، وهذا ظالم وهذا مظلوم، وهذا غني متخم وهذا فقير معدم، هل تنتهي الحياة، ويغلق الموت، وتنتهي كل هذه التناقضات، إذًا أين العدالة؟! قال لي مبتسمًا ابتسامةً صفراء: الطبيعة صمّاء، والموت نهاية لكلّ مآسي الحياة، قلت له وقد احتقرته في أعماق نفسي: إذًا قد ساويت نفسك مع القطط والكلاب، وكل

الحيوانات والحشرات، وأين فائدة العقل الذي زود به الله الإنسان، ليتعرف بهذا العقل إلى سر خالق الوجود ومبدع الكون؟ قال لي ساخرًا: إن كل ما تقوله أوهام تربينا عليها منذ الصغر، ولكنك لم تقرأ لكبار الفلاسفة والمفكرين، وستغير رأيك العنيف هذا بعد أن تقرأ وتتطلع، قلت له بثقة نابعة من أعماقي: والله لو قرأت كتب الأرض جميعًا لما تغير ما بقلبي من إيمان بوجود خالق عظيم مدبر لهذا الكون، وأن هذا الإله عادل، وأنه سيحاسب كل نفس بما عملت، إن شرًا فشر، وإن خيرًا فخير.

وهنا دخلت خادمة تحمل صينية كبيرة بها أكواب من الشراب والفاكهة، ووضعتها على المنضدة، ثم انصرفت، وقمت مستأذنًا للذهاب، ولكنه أقعدني، وأصر على استبقائي، وقال لي بابتسامة خبيثة: إنك تهرب من النقاش، يا عبدالرحمن، وهذا اعتراف منك بالهزيمة، إننا سنكمل نقاشنا بعد أن نأكل الفاكهة، ونشرب شراب المانجو هذا، قلت له صائحًا: ألا تعلم يا جلال أنني صائم؟! قال لي بهدوء بارد: لا تغضب يا عزيزي، وكن هادئًا لنستطيع النقاش، قل لي: ما معنى هذا الصوم؟ وما فائدته؟ ولماذا تعذب نفسك هذا العذاب؟ قلت له بثقة وإيمان بما أقول: أولاً لأحس بإحساس الفقير المحروم، ثانيًا لأتعود على الصبر، فالحياة ليست سهلة لينة على الدوام، نظر إليّ، ولم يستطع الرد، وقد أفحم أو كاد، ولكنه أخذ طبق الفاكهة الفاخرة بيديه، وقدمه إليّ قائلاً: إنك متعب اليوم، وجائع، وعطشان طوال اليوم، كُلْ الآن وصم غدًا، قمت من مكاني، وانتصبت، وهممت بالخروج، قائلاً له: لا لا يا جلال، لم أكن أظنك هكذا أبدًا، قال لي باسمًا: على كل حال، فكر فيما قلت لك كثيرًا بينك وبين نفسك، وسأعطيك بعض الكتب لتقرأها، وسنلتقي دائمًا لنتحاور بقلب مفتوح.

خرجت من عنده، ورأسي يتوهج غيظًا وكمدًا؛ لأني لم أستطع أن أرد عليه، كما ينبغي، وقررت أنني لا بدَّ أن أقرأ، وأن أطلع؛ حتى أستطيع أن أناقش أمثاله، دخلت منزلنا، فوجدت الجميع ينتظرون مدفع الإفطار، والوالدة وشقيقتي فاطمة يسارعون بتجهيز المائدة، والروائح الشهية تملأ البيت، فأسرعت إلى الحمام لأتوضأ وأغير ملابسي، وأسرعت لصلاة العصر، وقد كاد أن يضيعه عليَّ جلال بمناقشاته الكئيبة السوداء.

صليت العصر بصدر منشرح، وما هي إلا دقائق حتى أطلق مدفع الإفطار، واجتمع الوالد والوالدة وجميع إخوتي في جو جميل دافئ، وقال والدي بصوت كله إيمان ويقين: «اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وقنا عذاب النار، اللهم لك صمت وعليك توكلت وعلى رزقك أفطرت»، فرددت وراء والدي دعاءه من أعماق قلبي، وحمدت الله على نعمه ودفء اليقين.

عبد الله إمام

من الأنماط الغريبة التي تعرفت عليها في حينا الجديد «عبد الله إمام»، كان نحيفًا، أسمر الوجه، طويل القامة، لاعبًا ممتازًا للكرة، صاحب نكتة وفكاهة، وكان يسكن في «فيلا» قريبة من منزلنا، وبعد نهاية المباراة اليومية، أخذنا نتسامر كعادتنا، ثم أوصلنا «عبد الله إمام» إلى فيلته، ووقفنا نضحك ونمرح، ولكننا فوجئنا بصديقنا عبدالله يصفر وجهه ولا يضحك كعادته، بل رجانا ألا نرفع أصواتنا؛ لأن غرفة والده مضاءة، ويخشى أن يسمعنا فيثور، تأثرت متعجبًا من قوله؛ كنا نعلم أن والده ضابطًا برتبة كبيرة في الجيش، وأنه صارم في معاملته لهم، ولكن ليس إلى درجة هذا الرعب الذي نشاهده على وجه صاحبنا عبد الله.

استأذننا في الانصراف، وخلع حذاءه، وتسلل إلى مواسير المياه، وصعد عليها، ودخل من النافذة بين تعجبنا وحيرتنا، إنه دخل كما يدخل اللصوص بيتًا غريبًا لسرقته، وسمعنا صيحات جهورية لوالد عبد الله، ويبدو أنه قد علم بحضوره متسللاً؛ فعمل له كمينًا، كما يفعل في الجيش، وانزوينا بجانب السور -أنا وأصدقائي- وسمعنا صرخات صديقنا عبد الله، وأصوات كرباج أو عصا غليظة وتأوهات وآهات، لم نستطع أن نتحملها، وكنا في حيرة: هل ندخل لإنقاذ صاحبنا؟ ولكن ليس لنا هذا الحق، وكيف نتصرف؛ هل ندق جرس الباب، فيخرج ليفتح لنا، وينصرف عن تعذيبه لابنه وصديقنا عبد الله، ولكن يعلم الله مغبة ذلك التصرف، فقد ينالنا من غضبه وثورته أكثر مما أصاب صديقنا، فانصرفنا ونحن في حيرة وألم؛ هل هناك أب يعامل أولاده هذه المعاملة القاسية، ما أعظمك يا أبي، أيها الملاك الطيب، لم نعرف منه إلا الحنو والعطف، نعم، لقد كان حازمًا، ولكن بحب وشفقة.

وفي اليوم التالي حرصت على أن أقابل صديقي عبد الله؛ لأطمئن عليه، ولقد أحسست نحوه بعطف شديد؛ كيف يبدو أمامنا فرحًا ضاحكًا، وهو يعيش هذه العيشة البائسة؟! لم أجرؤ أن أدق الجرس، كما كنت أفعل من قبل، ولكني وقفت من بعيد أراقب «الفيلا»، وحينما رأيت أخاه الصغير «زكريا» طلبت منه بصوت منخفض أن يرسل لي أخاه عبد الله، وجاء عبد الله، وليس عليه أي أثر للضرب أو الجراح، هل كل ما سمعنا بالأمس كان وهمًا أو «تمثيلية» في الراديو؟! وخرج إليَّ عبد الله، فترددت في سؤاله وإخباره بما سمعنا، ولكنني لم أستطع أن أكتم ما بداخلي؛ فقلت له: ماذا فعل بك والدك ليلة أمس؟ قال باسمًا: «العلقة اليومية، علقة تفوت ولا حد يموت»، قلت له: ولكني لا أرى عليك آثار هذه «العلقة» يا عبد الله؟ فكشف لي عن كتفه، فلم أستطع أن أكرر النظر، قلت له: لا تحزن يا عبدالله، إنها سنين قليلة، وتتخرج من الجامعة، وتستقل بحياتك، قال لي ساخرًا: ومن قال لك أنني سأكمل تعليمي، إنني ساعمل أي عمل لأهرب من هذا الجحيم، ومرت السنون، وعمل «عبد الله» كمسريًا، وأصبح يتعاطى المخدرات، إنه ضحية لهذا الأب الشاذ القاسي، سامحه الله!!

إن مما يدعو للعجب حقًا ذلك التناقض الكبير بين عبد الله، والجو القاتم القاسي الذي يعيش فيه، وبين صديقي، محمد ومدحت، أو ميمي وتوتو، كما كان الجميع يدعوهم.

كانت «فيلا مختار بك» تقع شرق منزلنا، ومختار بك كان لواءً في الجيش، وترك أرملته الشابة، وهذين الابنين المدللين، كانا في مثل سننا تقريبًا، وكانا منعزلين لا يخرجون من فيلتهم إلا قليلاً، وكان وجههما الأبيضان المتوردان ينبئان بالعز والنعيم الذي يعيشان فيه، وكانت والدتهم سيدة فاضلة، ولم تتزوج بعد والدهما، بل تفرغت لتربية ولديها، ولكنها أعطتهم رعاية زائدة، وكانت بالنسبة لهم الأب والأم والمرجع الأول والأخير، حتى كانا لا يتصرفان في شيء أو يبرمان أمرًا حتى يأخذا رأيها، حاولت التعرف بهما، ولكنهما نفرا مني في أول الأمر، ولكني حاولت ثانية؛ لأنهما جيراني، وأحسست أنهما يحتاجان إلى من يمد لهما يده ليخرجهما من عزلتهم هذه، قلت لهما: مرحبًا، ما رأيكم أن تنضموا لفرقة الكرة، وتابعت محاولاً

جذبهما: على الأقل تتفرجان علينا، وأعرفكما بشلتنا، قالا بدون خجل: لا بدَّ أن نستأذن والدتنا أولاً، وهي لن تقبل، وفي هذه اللحظة خرجت والدتهما إلى شرفة «الفيلا»، ونادت عليهما: ميمي، توتو، هيا ادخلا، لماذا تقفان في الخارج، وحيتني؛ فهي تعرفني جيدًا، وقالت: «تفضل يا عبد الرحمن، ادخل»، فقلت لها مستأذنًا: هل من الممكن أن يلعبا معنا الكرة في ذلك الملعب القريب؟ فقالت لي بإشفاق: «إنني أخاف عليهما من هذه اللعبة العنيفة أن تكسر قدماهما، ثم إنني أطمئن لك يا عبدالرحمن؛ فأنتم جيراننا، ولكن الآخرين لا نعرفهم»، فطمأنتها قائلاً: «إنها ساعة واحدة، ونحن في أجازة، والملعب قريب منكم، تستطيعين الاطمئنان عليهما من سطح فيلتكم»؛ وافقت قائلة: «حسنًا يا عبد الرحمن، سأشتري لهما ملابس للكرة وحذاء خاصًا وكرة، وليعلبا معكم غدًا، بإذن الله.

أخبرت شلتي بانضمام محمد ومدحت إلى شلتنا، وسمعت تعليقات ساخرة: «إنهما ميمي وتوتو، إنهما كعرائس الحلاوة»، وقال آخر: «ضمهم أنت إلى فرقتك؛ فهم لن يجديا نفعًا»، وجاء الغد، وذهبت إلى فيلتهم؛ لأصحبهما إلى الملعب، وأعرفهما بالفريق، فإذا بهم يلبسان ملابس جديدة مقلمة، وشورتًا خاصًا بالفرق الكبيرة، ثم حذاءً غاليًا للكرة، كنا جميعًا نلبس ملابس عادية قديمة خاصة باللعب، وأحذية عادية، أما هذه الملابس المميزة، فقد كانت مدعاة لدعابات عبد الله وأمثاله الذين يلعبون بدون أحذية، توفيرًا لها، وعرفتهم بالصديقين الجديدين، وكان وجههما أحمران متوردان من الخجل، ولكن سرعان ما اندمجا في اللعب، وتآلفا معنا، وأصبحا من اللاعبين الجيدين، ورويدًا رويدًا زال عنهما الخجل، والعزلة والنطواء بعيدًا عن الناس، كانا حينما نجلس سويًا لنتسامر بعد اللعب، يجلسان بجوار عبد الله، أتعجب من حكمة القدر، وأقارن بين معيشة عبد الله القاسية، وبين معيشة هؤلاء المرفهة والرعاية والحنان والحب التي تحيط بهما، وأقول في نفسي: لك في ذلك حكمة يا صاحب الأمر.

ولقد كان لأخي عبد العزيز شلته الخاصة به (أحمد صالح، وفاروق صالح، ومحمود الأخرس، وغيرهم)، وكان محمود هذا شخصية غريبة الأطوار؛ كانت أمه

تركية، وأبوه ضابطًا في الجيش، مات وترك بنتًا وثلاثة أبناء، كـانوا يملكـون عمـارة قريبة منا، ويعيشون في معزل عن النـاس، فـالأم لا تـستطيع أن تـتكلم العربيـة إلا قليلاً، والأخت الكبرى فاتها قطـار الـزواج؛ فانعزلـت عـن النـاس، وانتحـر الأخ الأكبر، وكان لانتحاره دوي ورعب، أصابنا جميعًا، فقد سمعنا صرخة عاليـة قـرب الفجر، وصوت اصطدام جسده الضخم بالأرض، فقد سقط مـن الـدور الخـامس محدثًا دويًا كبيرًا، ورأينا منظرًا تقشعر منه الأبدان، لقد تهشم نهائيًـا، وسـالت دمـاء كثيرة من حوله، وتهشمت نظارته الطبية، ولقد ترددت إشاعات كـثيرة عـن سـبب موته: فمن قائل: إنه انتحر؛ بسبب حب فاشل، ومن قائل: إنهم ألقوه مـن النافـذة وهو نائم انتقامًا منه؛ لأنه استولى على ميراث أبيه، وكثرت الأقوال في سبب موته، وكنت أتحاشى أن أمر على هذه العمارة؛ حتى لا أتذكر هذا المنظر وبشاعته، وتردد بين الأولاد أن عفريته يظهر بعد منتصف الليل.

ولقد كان «محمود الأخرس» هو الأخ الأوسط له، ولقـد ولـد أخـرس، وكـان شرس الخلق، كثيرًا ما يلقي علينا الحجـارة، ونحـن نلعـب الكـرة أمـام منـزلهم، أو يتحرش ببعضنا إذا كان فردًا، وكان لا بدَّ من تأديبه حتى يكف عنا، وقد كان يسير وحده، فصادفناه مرة وبصعوبة تغلبنا عليه، فقد كان يهجم علينا بالحجارة والرمـال وكل ما تصل إليه يداه حتى استسلم أخيرًا، وأفهمناه بالإشارات أنه لو لم يكف عن بذاءته؛ سيكون هذا هو عقابه دائمًا.

حاولت أن أربت على كتفيه، وأطلب منه بالإشارات أيضًا أن ينضم إلى فرقتنا، ولقد كان لهذه المبادرة أثر كبير في أن يكف أذاه عنا، وبدأ يقـف قريبًـا منـا، يتفـرج على اللعب، وأخيرًا انضم إلينا، وأصبح عضوًا مهمًا في شلتنا، ولقـد كـان الكـلام معه متعة، فقد عوَّضه الله عن فقده للكلام بذكاء حاد؛ فقد كان يفهم إشاراتنا إليـه بسهولة، وعرف حديثنا من حركة شفاهنا، ولقد كنا نجلس معه طويلاً ليقص علينـا فيلمًا سينمائيًا رآه أو حادثًا حدث له، ولقد تكونت صداقة حميمة بينـه وبـين أخـي «عبد العزيز» استمرت حتى هذه الأيام، وما زال يملك محل خياطة لا بأس به حتى اليوم.

ولقد عرّفنا «محمود» بصديق له أخرس أيضًا اسمه «عادل»، وكان «عادل» هذا نوعًا آخر، فله قوة خارقة، ولكنه هادئ الطبع، مسالم، فهو من أسرة طيبة، أبوه ضابط في الجيش، وله أخ أكبر منه، وأخت كانت آية في الجمال والفتنة، ولقد فجع الجميع بفقدها منتحرة بمسدس والدها، ولقد سمعنا من يؤكد أنها انتحرت بعد انتحار أخي محمود الأخرس، فقد تقدم للزواج بها، ولكن أباها رفضه، فانتحر ملقيًا بنفسه من الشرفة، وما هي إلا شهور قليلة حتى تبعته إلى الموت.. لقد هزتنا هاتين الفاجعتين كثيرًا، وخاصة بعد انتحار هذه الشابة الجميلة، وكنا نلوم -في أنفسنا- هؤلاء الآباء الذين يقفون في طريق سعادة الأبناء، بل ويدفعونهم إلى الانتحار والموت.

ولقد كانت «عائلة مرعي» من أكرم العائلات التي سعدنا بجوارها، فهي أسرة عريقة طيبة تعرف ذلك من أول لقاء مع أحد أفرادها، توفي عميد الأسرة -كان قاضيًا معروفًا- وترك زوجة كريمة عظيمة الخلق، وخمسة أبناء، فعكفت الأم على تربيتهم أعظم تربية، ولقد ربطت علاقة الجيرة والصحبة بين والدتي وهذه الأم العظيمة، وكان الأبناء بنتين وأولاد ثلاثة (ممدوح، وحازم، وبهير)، ولقد تعرفنا على هؤلاء الإخوة الثلاثة، فوجدنا منهم الرقة في الطبع، وطيب الخلق، وسماحة النفس، ولقد استمرت صداقة إخوتي (عبد العزيز ومحمد) لهم جميعًا حتى الآن.

وأصبح ممدوح مستشارًا كبيرًا، وحازم مهندسًا يعمل خارج مصر، وبهير ضابطًا في البحرية، ولقد كنت أحس في هذه الأيام أن هذه الأسرة أقرب الأسر إلى نفسي، وأن هؤلاء الأبناء هم إخوتي بحق، ولم يحدث انسجام بين هؤلاء الإخوة الطيبين وبين «شلتنا» التي تجمع كل «من هب ودب من عفاريت البشر»، ولكن جمعتهم صحبة كبيرة بأخي «عبد العزيز» وأخي «محمد»، فقد كانوا أصغر سنًا منا وأكثر ميلاً للهدوء.

أما «أنور محجوب»؛ فلقد كان نوعًا يختلف كل الاختلاف عن الجميع، فلقد كان أنيق المظهر، مصفف الشعر، ذا لسان حلو، ولكن مظهره هذا يخفي نفسًا أنانية شريرة، لقد فرض نفسه علينا فرضًا، وبدأ يزوال نشاطه بيننا، ويحاول أن يوقع بين

الأصدقاء، فكان يتنحى جانبًا ويخبر أحدنا سرًّا أن فلانًا يقول عنه كذا وكذا كذبًا وزورًا، ويتحدث مع أصدقائه بالسوء، ويغمز هذا، ويلمز ذاك، فكان أنانيًا في كلّ شيء؛ ففي لعبة الكرة يستأثر بها وحده، ولا يناولها لأحد زملائه، حتى يكون له وحده النصر، وكان كثيرًا ما يمد قدمه أمام لاعب من الفريق الآخر -بل وفريقه أيضًا- ليوقعه على الأرض، ويظهر للجميع أنه غير قاصد ما فعله، بل يكون أول من يمد يد العون لمن أسقطه أرضًا، ولقد نفر الجميع من تصرفاته، ولكن بعد وقت طويل أفسد فيه علاقات كانت قوية، وأساء لصداقات متينة، وأخيرًا واجهناه بحقيقة نفسه؛ فهاجمنا جميعًا، وأخبرنا أننا جميعًا لسنا من مستواه، وأنه أخطأ خطأ كبيرًا في تكرمه باللعب معنا، وتركنا «أنور» هذا، وتنفسنا جميعًا الصعداء؛ فلقد كان كالكابوس الثقيل على هذه الصداقات البريئة التي كانت لا تعرف معنى للأنانية والخبث والحقد والحسد، ولقد كنا نتعجب ونتساءل عن سر حقده وحسده وأنانيته، فأخبرنا محمود الأخرس -بإشاراته التي فهمناها حينئذ- أن سبب سوء أخلاقه هو وجوده مع زوجة أب قاسية أذاقته الأمرين؛ فنشأ حاقدًا على الناس جميعًا، ولقد استطاع محمود الأخرس تفسير هذا السر الذي حيَّرنا جميعًا؛ فسبحان الله الذي يسلب من الإنسان بعض الحواس، ويعوِّضه عنها ذكاءً وفطنةً وقوة ملاحظة.

ما كنت قد رأيت «باشا» من قبل عن قرب؛ كنت دائمًا أراهم عن بعد، يركبون سياراتهم الفارهة، والتي ينزل منها سائق يلبس ملابس مزركشة، ويضع على رأسه كابًا، مثل رجال الإسعاف، ويسرع ليفتح باب السيارة مع انحناءة كبيرة، و«الباشا» دائمًا مقطب الوجه، رافع الرأس، وفي الغالب ذو شوارب مبرومة، ووجه أحمر منتفخ، وقد كنت أحسب أن هذه لوازم ضرورية «للباشاوات» حتى رأيت «باشا» عن قرب، فرأيت صورة مختلفة تمامًا عن هذه الصورة التي يظهرون بها أمام الناس.

فقد كان يسكن في «فيلا» في آخر شارعنا -هي في الحقيقة لم تكن «فيلا» كـ«فيلتنا» أو «فيلة مختار بك»، بل كانت ضخمة، كأنها قصر صغير، كان علي باشا فهمي يقطن هذه «الفيلة» أو القصر الصغير، وكان ابنهم علي طالبًا معنا في القبة الثانوية، وأيضًا في فريق الكرة، وكان عليٌّ هذا يمتاز بالطيبة الزائدة، وكان بسيطًا

متواضعًا جدًّا طلب مني راجيًا أن أراجع معه دروسه في اللغة العربية؛ فقد كان يعرف أنني متفوقًا فيها، وكان يرى أستاذ اللغة العربية يوقفني أمام الفصل؛ لأقرأ عليهم موضوع الإنشاء، والذي كان يعطيني فيه الدرجة النهائية، فذهبت إلى «فيلا» علي باشا فهمي، ودققت الجرس، ففتح لي البواب باب الحديقة، وفتح بابًا حديديًّا ضخمًا مغطى بالزجاج الملون البديع، وخرج منه خادم آخر يرتدي ملابس مزركشة، كأنه موظف في فندق كبير، فقلت له: عندي موعد مع صديقي علي، فسألني عن اسمي، ودخل، ثم عاد مرحبًا، وأدخلني في غرفة صالون رحبة جدًّا وفاخرة جدًّا، أليسوا «باشاوات» لا بدَّ أن كل هذه التحف والصور من خارج مصر؛ لأنني لم أر مثلها من قبل، ودخل زميلي عليّ مرحبًا، ودخل «الباشا» يرتدي روبًا فخمًا مزركشًا، وعرّفه ابنه بي، قائلاً: زميلي عبد الرحمن، أحسن طالب في اللغة العربية، سيراجع معي الدروس، رحَّب بي «الباشا» بكلِّ بساطة وتلقائية، وجلس معنا، وبدأ حديثًا عن أحوالنا في المدرسة، ثم انتقل إلى مجال عمله، وبدأ يتباسط معنا، كان شخصية مختلفة تمامًا عما كنت أراه عن بعد، بسيطًا، طيبًا، مضيافًا، صاحب ذوق وتواضع كبير، قال لي: «لقد حدثني عليٌّ عنك كثيرًا، ونشكرك لتعاونك معه».

ثم دخلنا غرفة مكتب زميلي علي، فإذا بها أفخم من غرفة ناظر المدرسة (مكتب فاخر، وكراسي وثيرة، وسجاجيد غير عادية، كل شيء جديد ولامع وفاخر)، وبدأت مع زميلي علي مراجعة منهج اللغة العربية، والتي كنت أعشقها، ولقد صبرت كثيرًا معه؛ لأنه كان لا يعرف حتى المبادئ البسيطة في النحو، ورويدًا رويدًا، ومع الأيام وصبري، أحب علي اللغة العربية، ونجح فيها هذه السنة، وقد زودته بروايات المنفلوطي، والتي كنت أعشقها كثيرًا، وبدأ يهوى القراءة منذ ذلك الحين.

وبترددي على صديقي علي؛ رأيت صورة عادية وبسيطة جدًّا لهؤلاء «البشوات»؛ فإنهم أولاً وأخيرًا بشر، أما هذه المظاهر المحيطة بهم، فإنها غشاء سطحي رقيق يظهرون به أمام الناس.

عبد العزيز وكسر ساقه

في هـذه الـسن الحـساسة، سـن المراهقـة، تتكـون في داخـل الإنـسان مـشاعر وأحاسيس جديدة وقوية، فهي فترة انتقال من الطفولة التي يأخذ، ويتعلم فيها ممـن حوله، أما فترة المراهقة هذه، فتتفتح شخصية جديدة تحب أن تفـرض نفـسها علـى من حولها، وتقول: أنا لست طفـلاً أنـا لـي شخـصيتي المستقلة، وكيـاني المـستقل؛ اسمعوا لآرائي، كما سمعت طويلاً لآرائكم، انتبهوا لما أقول، فلم أعد طفلاً أتلقى وأتلقى فقط.

في هذه السن يبدأ المراهق بفرض شخـصيته علـى مـن حولـه، وفي الغالـب لا يقبل الكبار هذا التطاول، وأغلـبهم لا يعلمـون أنهـا دوافـع ونـوازع خارجـة عـن إرادته، بل هي إرادة الخلق يضعها الخالق -جلَّ وعلا- في مخلوقاته لتتجـدد الحيـاة وتستمر، ومن هذا المنعطف الهام والخطـير تتجـدد شخـصية الإنـسان، فـإذا كبـت المراهق، وأحبط دائمًا ممن حوله يتحول إلى شخصية منزوية منطوية تهـاب اقتحـام الحياة، وإذا أهمل كلية، وترك لنزواته وشطحاته يمكن أن يتحول إلى إنسان منحرف يدمر ما يشاء بغير رادع أو ضمير، والطريقة المثلى هي التي ذكرهـا رسـول الله ﷺ أن نصاحبه سبع سنين، وذلك من سن الرابعة عشرة حتى الواحـدة والعـشرين أن ينسى الآباء أنهم أطفال، بل هـم بـراعم لرجـال ونـساء، فـلا بـدَّ مـن مـصادقتهم ورعايتهم من بعيد دون قيـود. فمعـاملاتهم يجـب أن تكـون هـي الـصحبة والـود والاستماع والإنصات لكلِّ ما يقولون، ثم التصحيح الهادئ والـواعي لأخطـائهم، وتركهم يخطئون أحيانًا، ويجربون بأنفسهم ليتعلمـوا مـن أخطـائهم، ثـم بالـصداقة والود يعطونهم من خبراتهم بالحياة وبالناس.

ولقد أحسست في كثير من الأحيان -وفي هذه الفترة الحرجة من حياتي- بهذه الصحبة والود من أبي وأمي، أما إخوتي الكبار، فبطبيعة الأمر أنهم كانوا يرفضون تصرفاتي الجديدة عليهم، ويعتبرون هذا تمردًا وعصيانًا، وكـان لا بـدَّ مـن الـصدام لأحرر شخصيتي من قيود الطفولة وسن الصبا.. وأخيرًا، وبعد قليـل مـن الـصدام الساذج والعناد والعصيان سلموا بالأمر الواقع على مضض، وبدأت أشعر بالحرية

دون مساءلة إخوتي الكبار -علي وفاطمة- ولقد كان من الأجدر بي، وقد نلت حريتي ألا أفرض وصايتي على إخوتي الصغار، ولكن هذا لم يحدث، فقد بدأت في هذه السن أفرض آرائي وأوامري على إخوتي الصغار (عبد العزيز، ومحمد).. محمد الصغير، قد سعد بوصايتي لصغر سنه، فأحببته كثيرًا جدًا، أما عبد العزيز، فقد رفض وصايتي الصبيانية عليه، وحاولت أن أفرض ذلك بقوة عضلاتي الفتية التي بدأت تظهر بوضوح، ولكنه كان يدافع عن حريته، كما دافعت أنا عن حريتي، وبدأت أبتعد عنه ولا أحبه، حتى حدثت له هذه الحادثة، فتحول عدم انسجامي معه إلى حب وعطف شديدين عليه.

لقد كان عبد العزيز له شلته الخاصة به، وفي عصر يوم من أيام الصيف -وقد كان أصدقاؤه يلعبون بعمود تليفون خشبي ضخم كان ملقى على الأرض، فرفعوه جميعًا، ووضعوا أسفل وسطه حجرًا كبيرًا، وبدءوا يستعملونه كـ«مرجيحة» تعلو وتهبط بهم، وهم جد سعداء بهذه اللعبة التي صنعوها بأنفسهم، وما هي إلا لحظات حتى انفلت العمود الضخم من فوق الحجر، وتدحرج العمود الخشبي الضخم، وسقط على ساق أخي «عبد العزيز» فكسرها، لم أكن موجودًا في هذا الوقت، ولكن شقيقي الكبير «عليًا» كان موجودًا بالمنزل، وتلقى هذه الصدمة الكبيرة، واتصل بالإسعاف، وذهب مع شقيقي «عبد العزيز» إلى المستشفى؛ حيث جبروا له ساقه المكسورة، ورجعت إلى المنزل مساءً، فوجدت شقيقي «عبد العزيز» في حالة سيئة من الألم، والجميع حوله، وأمي تبكي وتخفي دموعها، وعلمت القصة، وانفجرت ينابيع الحب الأخوي من قلبي، وهجمت عليه وقبّلته، وأخذت أتقرب إليه، وبعد أسابيع قليلة عادت ساقه إلى حالتها بحمد الله، وعاد إلى قلبي الصفاء والود لأخي «عبد العزيز»، وتعلمت أن المحن والأيام الصعبة تقرب الناس بعضهم إلى بعض، وتزيل الجفاء، وتطمئن القلوب.

هواجس الموت

لقد رزقت الأسرة بضيف جديد طفل جميل، سمّاه أبي «محمود»، لقد جاء هذا الأخ الجديد بفرحة لنا غامرة، وكان لعبتنا جميعًا، وأضفى عليه الكل الرعاية والحب

والاهتمام، ولكن لم تستمر سعادتنا به طويلاً، فقد مرض هو وأخي محمد بالدفتيريا، ذلك المرض اللعين الذي توفي به ابن خالتي الشاب «عبد المنعم»، وكان سببًا لانزعاجنا، وخاصةً الوالدة، فلم يكن لهذا المرض علاجًا حاسمًا، وكان يفضي دائمًا إلى الموت، أو يترك عاهة لمن يفلت من الموت، ولقد انتزع الموت تلك الزهرة الجميلة «محمود» الذي أحبه الجميع، وعشق حركاته وسكناته وضحكاته، وعمَّ الحزن والسكون أسرتنا لأيام طويلة، ولم يخرجنا من هذه المحنة إلا الالتفاف حول أخي محمد برعاية زائدة واهتمام مركز حتى شفاه الله من هذا المرض، ولم يترك معه بفضل الله أي أثر جانبي.

ولقد جعلتنا هذه الأيام الصعبة أكثر حبًّا وتماسكًا، فهذا الموت الرهيب لا يترك بيتًا إلا زاره، واختطف منه عزيزًا أو قريبًا، لا يعرف معنى للسن أو الشباب أو الطفولة، ولكنه قدر محتوم، مكتوب على الإنسان أن يتجرعه، ولا بدَّ من أن يعد نفسه لهذا اليوم، ولكن كيف يكون ذلك؟ سؤال أحببت أن أجد له ردًّا عند والدي، ولكن منعني حيائي وخوفي الشديد على أبي من أن يقتطفه منا بذلك الزائر الرهيب.

تجرعت الآلام صامتًا لعلي أهتدي في يوم من الأيام إلى حكمة الحياة والموت، وأجد جوابًا شافيًا لنفسي المتعطشة، وتمضي الأيام بنا، وتجرفنا الحياة، وننسى كل الآلام، وحتى شبح الموت القائم تزول صورته الكئيبة من أمام بصيرتنا مع الأيام.

أما والدتنا، فلا تستطيع أن تنسى أبدًا، ويتحول حزنها إلى صمت هادئ؛ حتى تجعلنا نعيش حياتنا، ونعرف ذلك منها، ونحاول إخراجها من حزنها ذلك، ونقول لها ضاحكين: «نحن بفضل الله كثيرون، ألا يكفيك وجودنا حولك، وحبنا لك»؛ فتعود البسمة الحلوة على وجهها المشرق، لترضينا وتدعو لنا بالصحة والعافية والسلامة، وتقرأ لنا القرآن الكريم ليحفظنا.

أما أبي، فقد كان يخفي حزنه، ويتصبر ويصبر، ولا يبدو عليه أبدًا أية علامة من علامات الأسى أو الحزن، وكان يبث عواطفه في كتابة قصائد شعرية مؤثرة أخفاها عنا طويلاً تسجل الأحداث والأحاسيس العميقة، فلقد كان وقته مقسمًا

بين القراءة والاطلاع وكتابة الشعر ونسخه بخطه الجميل، وبين حفظ القرآن الكريم حتى حفظه كاملاً، وكان يشجعنا بتلاوته قبل صلاة الفجر وبعدها حتى يستيقظ الجميع، وتدب الحركة في المنزل، وتعد الوالدة وشقيقتي فاطمة طعام الإفطار، ونتناوله مسرعين ليذهب كل منا إلى مدرسته.

في رحاب الحياة

لقد توسعت دائرة أصدقائي بتعارفي بـ«عائلة فايد»، وكانت لي بهم صلة قرابة، فهم من عائلة زوج خالتي -مغاربة نزحوا منذ سنين طويلة من المغرب هربًا من اضطهاد الاستعمار الفرنسي للمجاهدين هناك، واستوطنوا مصر، وأنشئوا تجارة ناجحة للسجاجيد والبطاطين والأقمشة في «حي الغورية»، وكانت لهم عمارتان كبيرتان تجمعان الأسرة الكبيرة -كل ولد في شقة مستقلة به، وكان تعارفي على هذه العائلة صدفة؛ فقد رافقت خالتي ووالدتي لزيارتهم يومًا، وتعرفت بفتيان في سني وسرعان ما تركنا السيدات والبنات يتسامرون، وذهبت للعب معهم في حديقتهم، وتعرفت بـ«علي فايد» و«حسين فايد» و«إسماعيل» و«نور»، ولقد كان لهم طابع خاص أعجبني، فأصلهم مغربي، وولدوا في مصر، ولكن الطابع المغربي القبلي كان غالبًا على طباعهم، فلقد كان للحاج إبراهيم فايد -عميد العائلة- هيبة كبيرة عند الجميع يبجلونه، ويحترمونه، وكان الشباب يخافونه، ويسرعون في الاختفاء عن نظره عند ظهوره.

توثقت صلتي بـ«عائلة فايد»، فقد زاروني مرارًا، ودعوني للعب معهم في منازلهم وحدائقهم الواسعة، وكانوا يحبون المرح والضحك والنكت والمقالب المرحة، ولقد كنت أتبادل مع صديقي «علي فايد» المقالب البريئة، ولكنه كان دائمًا يتفوق عليَّ بمقالبه المحكمة، وقررت أن أعمل به مقلبًا كبيرًا؛ لأرد على مقالبه المتكررة نحوي، فلقد كان لهم أعمام ما زالوا يقطنون بلاد المغرب، ويحضرون إلى مصر في زيارات نادرة، ويحضرون معهم أحمالاً ضخمة من هدايا بلاد المغرب، ولقد علمت من حديثي مع «علي فايد» أنهم ينتظرون زيارة كبيرة من عائلتهم، وأنهم سيصلون خلال أيام، وكانت هذه فرصتي لأدبر مقلبًا كبيرًا لصديقي «علي»،

بين القراءة والاطلاع وكتابة الشعر ونسخه بخطه الجميل، وبين حفظ القرآن الكريم حتى حفظه كاملاً، وكان يشجعنا بتلاوته قبل صلاة الفجر وبعدها حتى يستيقظ الجميع، وتدب الحركة في المنزل، وتعد الوالدة وشقيقتي فاطمة طعام الإفطار، ونتناوله مسرعين ليذهب كل منا إلى مدرسته.

في رحاب الحياة

لقد توسعت دائرة أصدقائي بتعارفي بـ«عائلة فايد»، وكانت لي بهم صلة قرابة، فهم من عائلة زوج خالتي -مغاربة نزحوا منذ سنين طويلة من المغرب هربًا من اضطهاد الاستعمار الفرنسي للمجاهدين هناك، واستوطنوا مصر، وأنشئوا تجارة ناجحة للسجاجيد والبطاطين والأقمشة في «حي الغورية»، وكانت لهم عمارتان كبيرتان تجمعان الأسرة الكبيرة -كل ولد في شقة مستقلة به، وكان تعارفي على هذه العائلة صدفة؛ فقد رافقت خالتي ووالدتي لزيارتهم يومًا، وتعرفت بفتيان في سني وسرعان ما تركنا السيدات والبنات يتسامرون، وذهبت للعب معهم في حديقتهم، وتعرفت بـ«علي فايد» و«حسين فايد» و«إسماعيل» و«نور»، ولقد كان لهم طابع خاص أعجبني، فأصلهم مغربي، وولدوا في مصر، ولكن الطابع المغربي القبلي كان غالبًا على طباعهم، فلقد كان للحاج إبراهيم فايد -عميد العائلة- هيبة كبيرة عند الجميع يبجلونه، ويحترمونه، وكان الشباب يخافونه، ويسرعون في الاختفاء عن نظره عند ظهوره.

توثقت صلتي بـ«عائلة فايد»، فقد زاروني مرارًا، ودعوني للعب معهم في منازلهم وحدائقهم الواسعة، وكانوا يحبون المرح والضحك والنكت والمقالب المرحة، ولقد كنت أتبادل مع صديقي «علي فايد» المقالب البريئة، ولكنه كان دائمًا يتفوق عليَّ بمقالبه المحكمة، وقرَّرت أن أعمل به مقلبًا كبيرًا؛ لأرد على مقالبه المتكررة نحوي، فلقد كان لهم أعمام ما زالوا يقطنون بلاد المغرب، ويحضرون إلى مصر في زيارات نادرة، ويحضرون معهم أحمالاً ضخمة من هدايا بلاد المغرب، ولقد علمت من حديثي مع «علي فايد» أنهم ينتظرون زيارة كبيرة من عائلتهم، وأنهم سيصلون خلال أيام، وكانت هذه فرصتي لأدبر مقلبًا كبيرًا لصديقي «علي»،

فاتصلت به تليفونيًا، وقلدت صوت عمه الكبير «إبراهيم فايد»، وقد كان صديقي «علي» يقلده دائمًا أمامي بلهجة خاصة أتقنها، وطلبته في التليفون، وأخبرته بلهجة عمه أن الضيوف سيصلون اليوم من المغرب، وأمرته أن يبلغ العائلة أن يجهزوا غذاءً خاصًا ضخمًا، ويذبحون الدجاج والأوز، والذي كانوا يربونه بكثرة في حديقتهم، ولقد بدا صديقي «عليٌ» مضطربًا، وأنا أكلمه في التليفون مقلدًا عمه الكبير، وكنت أخشى أن يعرفني، ولكن الحيلة انطلت عليه، ووضعت سماعة التليفون وقلبي يدق خوفًا من بطش هذا العم الشديد، وذهبت إلى منازل «عائلة فايد»، وكان في نيتي أن أخبر صديقي «عليًا» بهذا المقلب حتى أوقف هذه الملهاة التي لا أدري عواقبها، ولكني رأيت المنزل مقلوبًا رأسًا على عقب وأصوات الدجاج والأوز، وهو يصرخ وقد جمعه الخدم، وأخذوا في ذبحه، ووجدت صديقي عليًا وإخوته وأبناء عمه رايحين غادين، فسألتهم عن هذه الضجة، فأخبروني أن أعمامهم سيحضرون اليوم من المغرب، وأن عمهم الكبير اتصل، ازدادت ضربات قلبي حتى خشيت أن يسمعوه، ووجدت أن الأمر قد خرج من يدي، ولن أستطيع أن أبوح لصديقي عليٍ بالمقلب الكبير الذي دبَّرته له، وما كنت أحسب أن يصل الأمر إلى هذا الحد الذي لا يعلم مداه إلا الله.

وامتنعت عن الذهاب إلى منازل عائلة آل فايد أسبوعًا كاملاً، ولكن حب الاستطلاع جذبني لزياراتهم على حذر، واخترت وقتًا تيقنت بعدم وجود العم الكبير الحاج «إبراهيم فايد» فيه؛ حتى تكون الزيارة في أمان كامل، وقابلت صديقي، ولكنه لم يتكلم عن هذا الموضوع الذي جئت من أجله، فحاولت أن أسأله من بعيد، ولكنه بذكائه الحاد وقف فجأة صائحًا: «أنت يا عبد الرحمن صاحب المكالمة التليفونية، أليس كذلك؟» ولم أستطع التمثيل أكثر من ذلك، وانفجرت ضاحكًا، فنادى والدته وإخوته وأخبرهم أنني صاحب المقلب الكبير الذي أقام الدنيا وأقعدها، والذي تسبب في أخذ علقة (لم يأخذها لص في مولد)، كما عبَّر عن ذلك، ولكن والدته وإخوته استغرقوا في الضحك بمرح، وشهدوا لي أن هذا المقلب في الحقيقة عوضني عن كلِّ المقالب التي عملها علي فيَّ، وأنهم في الحقيقة أكلوا في هذا اليوم دجاجًا وأوزًا لم يأكلوا مثله من قبل، وإن كان صديقي

عليٍّ تلقى علقة لم يذق مثلها من قبل أيضًا، ولكن عليًا قال لي، وقد نسي ما حدث له، بمرح وبروح رياضية، مصافحًا يدي: «لقد سلمت لك أنك ملك «المقالب»، ولكن اسمح لي بمقلب واحد أرد به عليك، قلت له: افعل ما تشاء، وسأرد عليك بمثله، ولكنه قال لي مازحًا بأنه سيبلغ عمه الكبير بأنني صاحب المكالمة التليفونية فقط، فما رأيك؟ قلت له: افعل أي شيء إلا هذا يا عليّ، وأخذنا نضحك ضحكًا لم نضحك مثله من قبل، ومرت أيام وشهور، وما زال صديقي علي يهددني، كلما رأينا الحاج الكبير، أنه سيخبره، ويتجه إليه ليكلمه، ويدق قلبي خوفًا، ولكنه بأدب شديد يكلمه في موضوع آخر، أي موضوع ويتحمل توبيخه وتأنيبه مقابل أن يخوفني للحظات من ثورات هذا العم الغاضب دائمًا -رحمه الله.

فطرة مستقيمة وتربية قويمة

تعرفت في المدرسة الثانوية بمجموعة من الأصدقاء كان أبرزهم «الطفي»، وكان منافسي الأول في الدرجات، وكنت أتفوق عليه في درجات اللغة العربية والمواد الاجتماعية، ويتفوق عليٌّ في درجات الحساب والهندسة، وكان الأساتذة يشجعوننا على هذه المنافسة.

توطدت صلتي به، فقد كان يسكن في «حي منشية الصدر»، وطريقه هو نفس طريقي؛ فكنا نسير نتكلم في الدراسة والمدرسة والأساتذة والطلبة وكل شيء حتى نصل إلى منزلنا، فأدعوه أحيانًا إلى الغذاء معي، ثم يواصل طريقه إلى بيته، وتعرفت بصديقه «عبد العظيم»، وكان رياضيًا، مفتول العضلات، حلو الحديث، وعرفته بأصدقائي القدامى، ولم نكن نذاكر إلا ساعة أو أكثر قليلاً؛ لأن اعتمادنا الأساسي في هذه الأيام كان على شرح الأساتذة ومناقشتهم، وكانت الواجبات المدرسية قليلة جدًا؛ مما يتيح لنا وقتًا متسعًا للنزهة اليومية، وقد تعلمت منهما ولأول مرة في حياتي -وبعد رفض طويل مني ألا نذهب للمدرسة يوم الخميس، فهو نصف يوم دراسي، وقد أغروني أن نذهب للنزهة في هذا اليوم من كلّ أسبوع، مرة إلى حديقة الحيوانات، ومرة إلى حديقة الأندلس، ومرة نأخذ زورقًا نجدف به في النيل.

ولقد أحسست في أول الأمر برهبة شديدة لهذه المخالفة، والتي اعتبرتها شبه

خيانة للأهل وللمدرسة معًا، ولكن تهوينهم للأمر أن يوم الخميس خمس حصص فقط، منها حصة ألعاب رياضية، والأخيرة أشغال يدوية، ولغة عربية، وأنا متفوق فيها.

إن إغراءات الأصدقاء وتهوينهم الأمر لي، ثم استمتاعي بهذه النزهة البديعة، خفف عني أسبوعًا بعد أسبوع رهبة الموقف والخوف من عواقبه، ولقد ذهبنا في يوم شتوي مشمس إلى حديقة الحيوانات، ولهونا ومرحنا كثيرًا.

وأخيرًا جلسنا على الحشائش لنستريح، وأخرجنا السندوتشات التي أحضرناها معنا خصيصًا لهذا اليوم، كان الجو ممتعًا والشمس مشرقة دافئة والمناظر المحيطة بنا بديعة، وشبابنا والصحة والعافية تزيدنا سعادة وبهجة، وذهب «عبد العظيم» إلى مقصف هناك، واشترى زجاجات ثلاثة ووضعها أمامنا وفتحها، حسبتها في أول الأمر زجاجات مياه غازية، ولكني وجدتها كبيرة الحجم، لم أرَ مثلها من قبل، فسألت عبد العظيم عن كُنه هذه الزجاجات، فقال لي: إنها «بيرة»، لتنعشنا، وتكتمل الجلسة بها، قلت له وكأن عقربًا لسعني: «بيرة» يعني خمرة، أتشربون الخمرة، يا «عبد العظيم»، وأنت يا «لطفي»، أتوافقه على ذلك؟ فأجابني «لطفي» مهونًا الأمر عليَّ: إنها خمرة، ولكنها ضعيفة المفعول تنعشك، ألست رجلاً مثلنا؛ لماذا تتهيب منها، إننا نشربها دائمًا ولا يحدث لنا شيء، وانتفضت واقفًا، وقرَّرت تركهم نهائيًا، وقلت لهم، والأسف يملأ قلبي: «لقد فجعت فيكم هذا آخر لقاء بيني وبينكم»، حاولوا رضائي، وحلفوا أنهم لن يشربوها، وأخذ عبد العظيم الزجاجات، وأفرغها بين الأشجار؛ حتى قبلت الجلوس معهم على مضض، ولكني قرَّرت بيني وبين نفسي أنني لن أترك المدرسة يوم الخميس بعد اليوم، ولن أستمر في صداقتهم بعد اليوم، وتعكرت الجلسة، وإن كان لطفي وعبد العظيم حاولا أن يضحكاني ويخرجاني عن صمتي، وصاح لطفي قائلاً: انظر يا عبد الرحمن، إن الأشجار تهتز طربًا، فقد شربت زجاجات ثلاثة من «البيرة»، ولكنني كنت في وادٍ آخر، فقد ذهبت بي خواطري إلى يوم بعيد، خرجت فيه مع والدي، ومررنا على خمارة، وسألت والدي يومها عما يوجد في هذه الزجاجات الكبيرة، وما اسمها، فقال لي: إنها خمر، حرَّمها الله؛ لضررها، ووعد مَن يشربها بعذاب أليم، سألته

يومئذ ببراءة الطفولة: مما تصنع الخمر يا أبي؟ فقال لي: إنهم ينقعون الأحذية القديمة أيامًا طويلة في الماء، ثم يعبئونها في الزجاجات، ولقد صدقت ذلك يومها، وتقززت منها، وكرهتها، واستمر تقززي وكراهيتها حتى اليوم.

زالت البهجة من نفسي، وتحولت هذه الرحلة التي كنت أنتظر قدومها بشوق إلى لحظات كئيبة، وددت لو تنتهي، وعدت إلى البيت، وقد أحسست بالذنب، وقرّرت ألا أعود لترك المدرسة أبدًا، وأن أترك هؤلاء الأصدقاء، أو يتركوا هم هذا العبث.

حقًا، إن ما يعلّمه لنا الآباء في الصغر يحفر في قلوبنا، ولا يزول أبدًا، ودعاني صديقي «علي فايد» لحضور حفل زفاف ابنة عمه «الحاج إبراهيم» -عميد العائلة- فاستأذنته بدعوة الأصدقاء معي حتى تحلو السهرة، وبدأت الزينات تعلق فوق العمارتين بكميات ضخمة قبل الحفل بأيام ثلاثة، ونصبت في الحديقة خيمة كبيرة للطباخين، وكنا نرى الاستعدادت الهائلة من ذبح الخراف والديوك الرومية، والعجول الصغيرة أيضًا؛ مما أسال لعابنا، ومنينا النفس بوليمة فاخرة.

وجاء اليوم الموعود، ولبست وأصدقائي أحسن ملابسنا، ودخلنا على استحياء الصوان الخاص المنصوب في الحديقة الواسعة، وقد زُينت الأشجار بمئات المصابيح الملونة، وتحول الليل إلى نهار ساطع من أنوار الكشافات الباهرة، ونصب مسرح كبير في الواجهة، جلست عليه فرقة موسيقية تعزف أجمل الألحان، وجدنا صديقنا عليًا، فانضم إلينا، وزال عنا الخجل، وجلسنا نتفرج، ونتأمل كل هذا البزخ، ورأينا في ركن بعيد «بوفيه» ضخم ممتد لعشرات الأمتار، والطباخون، والسفرجية رايحين غادين يضعون عليه ما لذ وطاب وراء ستار، ولكن عيوننا المتشوقة كانت تتبع خطواتهم، وخاصةً صديقنا «عبد العظيم»، والذي كان شغوفًا بالطعام حتى كان لا يرى أي شيء حوله، بل كانت عيناه ناظرة دائمًا إلى «البوفيه»، ويغمز لصديقنا علي عن موعد الطعام، وهل هو قبل الحفلة أو بعدها؟ فيجيبه علي ضاحكًا: «بل هو خاص للسيدات فقط، أما الرجال أمثالك، فيكفيهم التفرج على الراقصات»، وتساءل «الطفي»: وهل ستحضرون راقصات؟ قال عليٌّ: بالطبع، سيحضر كل

راقصات مصر والمنولوجستات والمغنيات، ما عدا أم كلثوم، وكنا نحسبه مازحًا، ولكن ما هي إلا دقائق حتى سمعنا بالخارج ضجة كبيرة وتصفيق، فإذا بمجموعة ضخمة من الراقصات والمغنيات والممثلات، كنا نرى صورهم على إعلانات السينما، آتين (بلحمهم وشحمهم) بملابس فاضحة، ويمرون بجوارنا لا تفصلهم عنا إلا أمتار قليلة، واستقبلوا استقبال الفاتحين، وجلسوا في الصفوف الأولى، مكرمين مبجلين، الكلُّ يحيِّهم ويتلاطف معهم، ويتودد إليهم، وقال صديقي «الطفي» معلقًا: «ما أسوأ حظنا، لقد حضرنا، ولم يحس بنا أحد أو يحينا أحد»، ردَّ عليه «عبدالعظيم» معلقًا: يجب أن تغيِّر رأيك، وتترك أملك في كلية الطب، والتي ستجعلك تعيش وتموت مع المرضى والعاجزين، وتشق طريقك مع هؤلاء المغنيين والراقصات؛ ستتفتح أمامك الحياة على مصراعيها.

وامتلأت الحديقة بالمدعوين والمدعوات، كان الحفل مختلطًا، وكنت صامتًا، أنظر إلى كلِّ هذا الجمع الغريب، وهذا الجو الصاخب الأكثر غرابة -رجال ونساء بملابس السهرة السوداء، ونساء بملابس شفافة فاضحة، وروائح العطور تفوح كلما مرت سيدة لتأخذ مكانها.. ولفت نظري فتيات في عمر الزهور رشيقات مرحات، ورأيت بينهم فتاة رائعة الحسن في حوالي السابعة عشرة من عمرها فاتنة الجمال، تلبس ملابس بيضاء ناصعة، ولفت نظري تحشم ملابسها، ولا تضع على وجهها أية أصباغ كغيرها، فسألت صديقي عليًا عليها، فعلمت أنها قريبته من بعيد، وفاجأني عندما علمت منه أن كل هذا الحسن والجمال بكماء (لا تسمع)؛ فحزنت لها من كلِّ قلبي، ونسيت كل من حولي إلا هذه اللوحة الفاتنة الجميلة، ولاحظ أصدقائي انصرافي بالنظر إليها؛ فأخذوا يعلقون ساخرين: «إنك إن تزوجتها؛ فلا بدَّ من أن تشتري مع الجهاز ميكرفون»، وآخر يقول: «بل الحديث بالإشارة أفضل»، ويعلق «علي فايد» قائلاً: «بل إن ذلك أفضل؛ فإنك ستستريح من ثرثرتها، وستعيشون حياتكم كأفلام السينما الصامتة».

وبدأت الراقصات المشهورات يظهرن على المسرح بين صرخات الرجال وإعجابهم، ثم المغنيون والمغنيات المشهورات، واستمر الحفل حتى العاشرة مساءً، وصاحبي عبد العظيم في قلق شديد على تأخر العشاء، وأخيرًا أعلنوا عن فتح

«البوفيه» الفاخر، وتقدمت العروس والعريس في أبهى زينة، ووقف عبد العظيم، وجذب أيدينا حتى لا تفوته هذه الفرصة النادرة، وهذا الطعام العجيب في تنظيمه ووفرته (خراف مشوية كاملة، وديوك رومية كثيرة، وأفخاذ مشوية، وكل ما لذّ وطاب مما رأيته وما لم أره من قبل)، وصال صديقي «عبد العظيم» وجال، فالطعام كثيرٌ ولذيذٌ جدًا؛ إنها ليلة العمر بالنسبة لك يا «عبد العظيم»، همست في أذنيه رويدًا رويدًا: يا «عبد العظيم»، أخشى عليك أن تموت بالتخمة، فقال لي وفمه ممتلأ باللحوم: «خير لي أن أموت متخمًا من أن أموت جوعان من لي بمخلاه آخذ فيها ما لذ وطاب؛ لأن معدتي امتلأت، ولا مكان فيها لنفس هواء».

أحضر لي صديقي «علي» كأسًا مصنوعة من «الشيكولاته»، وعليها غطاء من «الشيكولاته» أيضًا، وقال لي: افتحها وتناول ما بها، إنها «شمبانيا»، إنها مخصصة لخاصة الضيوف، فسألته: ما هي «الشمبانيا»؟ فقال لي هامسًا: إنها أفضل أنواع الخمور في العالم، إنها من عصير التفاح المعتق، راودني الشيطان للحظات، إنها في غاية الإغراء (كأس من التفاح المفرغ، مكسوة بالشوكالاته المثلجة والمحببة إلى نفسي، وبها أفخر أنواع عصير التفاح المعتق، إنها جديرة بالتجربة)، وترددت للحظات، وكدت أحتسيها، ووسوسة الشيطان تهون الأمر، وتقول لي: إنها مجرد عصير تفاح و«شوكالاته» مثلجة جربها، جربها، ولكني رددتها لصديقي عليّ رافضًا إياها، ولكن «عبد العظيم»، الذي كان يسمع حوارنا، وكان ينتظر مني أن أضعف وأتناولها، خطفها بسرعة البرق وشرب ما بها، وقضمها، وقال: «هل من مزيد، أنا لها، أنا لها».

حمدت الله أنني مررت بهذه التجربة المغرية بخير، وانتهى الحفل في حوالي منتصف الليل، ورجعت إلى البيت في حالة من الكآبة، لا أحسد عليها؛ كنت أسأل نفسي عن سر هذه الكآبة، وقد كان الجو مملوءًا باللهو والغناء والضحك، ولكني أحسست أن هذا الجو ليس جوي، وأن هذه الحياة الصاخبة ليست مطلبي، ونمت وليس أمامي غير صورة الفاتنة السمراء، ذات الشعر الأسود الجميل، والمحيا الملائكي البديع، والتي ابتلاها الله بالبكم.

«البوفيه» الفاخر، وتقدمت العروس والعريس في أبهى زينة، ووقف عبـد العظـيم، وجذب أيدينا حتى لا تفوته هذه الفرصة النادرة، وهذا الطعام العجيب في تنظيمـه ووفرته (خراف مشوية كاملة، وديوك رومية كثيرة، وأفخـاذ مـشوية، وكـل مـا لـذّ وطاب مما رأيته وما لم أره من قبل)، وصال صديقي «عبد العظيم» وجال، فالطعـام كثيرٌ ولذيذٌ جدًا؛ إنها ليلة العمر بالنسبة لك يـا «عبـد العظـيم»، همـست في أذنيـه رويدًا رويدًا: يا «عبد العظيم»، أخشى عليك أن تموت بالتخمـة، فقـال لـي وفمـه ممتلأ باللحوم: «خير لي أن أموت متخمًا من أن أموت جوعان من لي بمخلاه آخذ فيها ما لذ وطاب؛ لأن معدتي امتلأت، ولا مكان فيها لنفس هواء».

أحضر لي صديقي «علي» كأسًا مصنوعة من «الشيكولاته»، وعليها غطاء مـن «الشيكولاته» أيضًا، وقال لي: افتحها وتناول ما بها، إنها «شمبانيا»، إنهـا مخصـصة لخاصة الضيوف، فسألته: ما هي «الشمبانيا»؟ فقال لي هامـسًا: إنهـا أفـضل أنـواع الخمور في العالم، إنها من عصير التفاح المعتق، راودني الشيطان للحظـات، إنهـا في غاية الإغراء (كأس مـن التفـاح المفـرغ، مكـسوة بالـشوكالاته المثلجـة والمحببـة إلى نفسي، وبها أفخر أنواع عـصير التفـاح المعتـق، إنهـا جـديرة بالتجربـة)، وتـرددت للحظات، وكدت أحتسيها، ووسوسة الشيطان تهون الأمر، وتقول لي: إنهـا مجـرد عصير تفاح و«شوكالاته» مثلجـة جربهـا، جربهـا، ولكـني رددتهـا لـصديقي علـيّ رافضًا إياها، ولكن «عبد العظيم»، الذي كان يسمع حوارنا، وكـان ينتظـر مـني أن أضعف وأتناولها، خطفها بسرعة البرق وشرب ما بها، وقضمها، وقـال: «هـل مـن مزيد، أنا لها، أنا لها».

حمدت الله أنني مررت بهذه التجربـة المغريـة بخـير، وانتهـى الحفـل في حـوالي منتصف الليل، ورجعت إلى البيت في حالة من الكآبة، لا أحسد عليها؛ كنت أسأل نفـسي عن سر هذه الكآبة، وقد كان الجو مملوءًا باللهو والغنـاء والـضحك، ولكـني أحسست أن هذا الجو ليس جوي، وأن هذه الحياة الصاخبة ليـست مطلـبي، ونمـت وليس أمامي غـير صـورة الفاتنـة الـسمراء، ذات الـشعر الأسـود الجميـل، والمحيـا الملائكي البديع، والتي ابتلاها الله بالبكم.

عمي محمود

كنت أحن كثيرًا بين الحين والحين إلى زيارة عمي «محمود»؛ فقد تربيت معه في الحارة، ولقد كان هو الذي يتولى نزهتنا والترفيه عنا، حيث كان والدي لا يحب أن نخرج من الحارة أبدًا، فلقد كان يرجو الوالد، ونحن صغار، أن يصحبنا معه لرؤية السينما، ولقد كانت أسطورة بالنسبة لنا -نحن الأطفال- في ذلك الوقت، أو إلى حديقة الحيوان، ولقد توطدت صلتنا بعمي «محمود»، ولم تنقطع أبدًا، رغم انتقالنا إلى حمامات القبة، تلك الضاحية البعيدة، وكنت كثيرًا ما أحن للذهاب لزيارة عمي «محمود»، وكان يسعد كثيرًا لزياتي إياه، ويصطحبني إلى زيارة المعالم القديمة وأصدقائه وأقاربنا (أحمد أفندي، وأنجاله: أنور، وحلمي الترزي)، وكنت أرجع من عند عمي، وقد امتلأ قلبي المتشوق بآرائه وحكمته وسداد رأيه، وكنت أتناقش معه في كلِّ الأمور بصراحة أكثر مما أتناقش مع أبي، وأعود وقد انتشيت بعبق الأحياء القديمة التي لا أشبع من الحنين إليها.

أما أمي، فقد كانت تحثنا على زيارة أخوالي وخالاتي في المعادي، ولقد كانت الزيارة لهم تنقلنا إلى جو يختلف كل الاختلاف عن جو المناصرة أو حمامات القبة.

كان لا بدَّ أن نخبرهم بزيارتنا لهم بالتليفون قبلها بأسبوع، وكنت أتعجب من هذا، وأسأل والدتي: لماذا كل هذا الترتيب المسبق؛ فإني أذهب إلى عمي في أية لحظة، وفي أي وقت، وكانت ترد عليَّ وتفهمني أنهم غيرنا، وأن عندهم ارتباطات ومواعيد، فلا بدَّ أن نخبرهم قبل ذهابنا إليهم بفترة، ليستعدوا لاستقبالنا، وبالطبع لم أكن أقتنع بهذا التكليف بين الأقارب.

كانت زيارتنا لهم في السنة مرة تقريبًا، وكنا نستعد لها بأفخر ثيابنا (بملابس العيد)، وفي الصباح الباكر نركب القطار، ثم نركب مواصلتين آخرتين حتى نصل إلى حي المعادي الفاخر؛ ما هذه الروعة المبهرة: أشجار كثيفة، وحدائق منسقة بديعة نظيفة لامعة، وحتى الأطفال الذين يلعبون في الحدائق أجانب بشعور ذهبية جميلة وعيون زرقاء ووجوه شقراء، وتسمع الموسيقى والأغاني الأجنبية تصدر من هنا وهناك، كنت أحس أننا لسنا في مصر، وأن «حي المعادي» هذا جزء من أوربا؛ في كلِّ ركن فيه لوحة جميلة بديعة.

وأخيرًا نصل إلى «فيلا» أخوالي وخالاتي، «فيلا» جميلة بها حديقة واسعة منسقة كلها زهور جميلة، ويقابلنا خالي «محمود» وخالي «طلعت»، والأستاذ «محمد المفتي» -زوج خالتي- مرحبين، إن شكلهم، وملابسهم، ووجوههم البيضاء، الموردة، وشعورهم الشقراء، وحتى لهجتهم وحديثهم- نحس منها أنهم أجانب يتكلمون العربية المنمقة، وتخرج خالتاي (صفية، وفكيهة) وتقابلانا بكلّ ترحاب وحب بملابسها الأفرنجية على أحدث طراز، والعطور تفوح منهما، ونقضي يومًا سعيدًا جدًا، نحس فيه أننا خرجنا إلى أوربا، ونسمع عزف خالتي «فكيهة» على «البيانو»، وغناء أطفالها الصغار كالزهور الجميلة، وأصواتهم الشجية كالبلابل يغنون أغاني بالإنجليزية، يصفق لها الجميع إعجابًا، وتخرج بعد الغداء الفاخر ذي الطابع الأجنبي إلى الغابة القريبة من فيلتهم، ويلتقطون لنا الصور المشتركة، ونمرح ونلعب الكرة، و«البنج بونج»، وكرة الطاولة، والتنس وهي لعبة (الذوات) في ذلك الوقت، ونعود إلى منزلنا، وقد ملأنا شعور أننا راجعون من أوروبا، وأن المعادي هي قطعة من أوربا، وأتمنى أن تكون كل أحياء بلدنا بهذا الجمال وهذه الروعة وهذه النظافة.

على مفترق الطريق

لقد ابتلاني الله بزميل يقعد معي على مقعد الدراسة، اسمه «مصباح»، ولقد كان مصباحًا بغير ضوء على الإطلاق، كما يقول زملائي؛ كان كالح الوجه، ذابل العينين، يكاد أن يكون شاردًا أغلب الوقت، حتى إذا فاجأه أستاذ بسؤال؛ وقف يكاد يترنح، وكله آذان صاغية لما ألقيه له من إجابات متقطعة يرددها بدون ترابط، ويعلم الأستاذ أنها إجابات ملقنة مني؛ فينهرني، قائلاً: اصمت يا «عبد الرحمن»، لن تستطيع تلقينه يوم الامتحان، ويأخذ الأستاذ في الاستفسار منه عن سبب سرحانه الدائم، فيقول له بصوت يتصنع فيه الأسى: هموم يا أستاذ، ولكني كنت أعرف سبب همومه وشروده، فهو ابن تاجر ثري، مشغول كل الوقت بتجارته وأمواله، ويغدق النقود على أبنائه بغير حساب، ولكن لا يعطيهم من وقته واهتمامه شيئًا، ولقد توفيت أمه منذ زمن بعيد، فلم يحس أبدًا بدفء جو الأسرة، ولا بحنان الأم، ولا باهتمام الأب، ولا بقيمة الأموال الكثيرة التي بين يديه.

بدأ يبحث عما يعوضه عن كلّ ذلك، فقاده رفقاء السوء -كما قصّ عليّ- إلى ذلك المستنقع الذي غاصت فيه قدماه، ولا يستطيع فكاكًا، إلى شارع «كلوت بك»، ولما أخبرته أن يوضح لي أكثر معنى «كلوت بك» -ولم أكن أسمع عنه من قبل- قال لي موضحًا: بيوت الدعارة الرسمية، فلما طلبت توضيحًا أكثر منه؛ نظر لي نظرة حزينة، ذات مغزى، وسألني بالله: ألا تعرف معنى بيوت الدعارة، وألم تسمع عنها من قبل؟! فأقسمت له أن هذه أول مرة أسمع عنها منك، فتعجب، وضرب كفًا على كف، وقال: ليتني كنت مثلك، وأتمنى أن أكون كذلك، قلت له: وما يمنعك لا تذهب بعد اليوم؛ ما دمت تحس أن الذهاب إلى ذلك المكان سيئ لهذه الدرجة، وتتمنى الفكاك منه، تنهد وقال: لا أستطيع أبدًا، لقد حاولت كثيرًا، ولكني كنت أجد قدماي تسوقني إليه، وأخذ يشرح لي ما يحدث في هذه البيوت، وهي ممارسة الجنس مع الفتيات بسعر رسمي محدد، وبرخص من الحكومة، ورقابة صحية عليهن، استمعت إليه بكلّ انتباه، وتخيلت أمامي الفتيات الجميلات اللاتي أراهن دائمًا في مصر الجديدة، واللاتي كنت أحس نحوهن بانجذاب وعشق شديدين، هل يزاول «مصباح» هذا مع أمثالهن الجنس، ويجلس معهن، ويلمسهن ويقبّلهن، ثم لماذا يريد الفكاك والهرب من هذا المكان، وفيه أمل كل شاب مراهق في مثل سننا، وبالطبع استحييت أن أسأله أو أفصح له عما في نفسي من شوق، لأسمع منه المزيد، ولكنه لم يحدثني بعد ذلك اليوم الذي أفضى لي بسره الكبير، ومضت الأيام، وأنا أستعيد في نومي ما حكاه لي «مصباح»، وكانت الصور تبدو لي مجسدة فاتنة مثيرة، حدثتني نفسي أن أصحب «مصباح» يومًا لأرى من بعيد ما قصه عليّ، وأتفرج فقط، ولكن لا أفعل مثله أبدًا.. الشيطان خطير يعطيك ويزين لك جرعة.. جرعة، وخطوة.. خطوة ما يضيرك أن تذهب من بعيد، ولا تتورط أبدًا، كما تورط صديقك، من بعيد فقط.

ومرت أيام وأسابيع، وما زالت كلمات «مصباح» تتراقص في أذني، ويزينها خيالي، وأتصور كل صورة جميلة لفتاة شبه عارية في المجلات التي أقرأها هي من ساكنات هذه البيوت، ويستمر الشيطان في وساوسه قائلاً: لماذا تصرح الحكومة بهذه البيوت إلا إذا كانت مفيدة؟ وهل الحكومة تسمح بشيء ضار، وأن عليها

رقابة صحية، وتذاكر، ونظام الحكومة لا يضر الناس أبدًا؟ آه من وسوسة الشيطان، وما أكثر إلحاحها، وقررت أن أسأل «مصباح» أن أصحبه لأتفرج معه من بعيد، ولكن في الحقيقة لم أجرؤ أبدًا على الطلب منه؛ فإنني في قرارة نفسي أعلم أن هذا خطأ وحرام، ولكن رد الشيطان كان حاضرًا، وكنت أسمعه في الراديو والصحف أن الحكومة تعمل لصالح الشعب، وكنت أحاول أن أجر «مصباح» في الحديث، ففهم مقصدي، وقال لي بوضوح: «سأصحبك معي غدًا، وعلى حسابي أول مرة».

وجاء الغد بعد ليلة لم أر فيها النوم، بين رفض وتسليم، وأخذ وعطاء، واستحضار لكلّ القيم والخلق والحرام والحلال، وبين الصرخات المدوية التي تهز كياني هذا، والمثيرات حولي من صور عارية، وفتيات سافرات، وأغاني تتحدث عن الحب أسمعها تتردد في كلّ مكان، وصور إعلانات السينما العابرة والقبلات المثيرة والأحضان الملتهبة، والتي أراها في السينما، والتي أصبحنا من روادها في هذه الأيام، صراع جارف لم أنم طول ليلتي، ولكني قررت في النهاية ألا أذهب مع «مصباح»، ورأيت صورته أمامي كشيطان، وذهبت إلى المدرسة والنوم يغالبني، ومصباح متهلل في ذلك اليوم، ويبدو أنه سعيد؛ لأنه استطاع أن يغري هذا الفتى الذي كان يكلمه عن الصلاة والصيام والخلق، وها هو يضعف، كما ضعف هو، وليس أحد أفضل من أحد.

وانتهى اليوم الدراسي، وأسرعت بالخروج دون أن أكلمه، وأسرعت إلى منزلي، ونمت من شدة الإرهاق النفسي والسهر في الليلة السابقة، واستيقظت بعد العصر بساعة، وإذا بجرس الباب يدق، ففتحته لأرى أمامي «مصباح» لم أدعه للدخول؛ لأنني أحسست أنه غير نظيف، وأنه يريد أن يورطني في الحرام، كما تورط هو، وهو مهتم بذلك، فأخبرته أنني سأنزل له في الشارع فنزل وأسرعت بالخروج، بعد أن استأذنت الوالد، وحاولت أن أؤجل موعدي معه، ولكنه قال مغريًا إياي: تعال انظر إلى دنيا جديدة، ولقد أخبرت «صفاء» صديقة الطلبة أمس باصطحابي لك وأنك خام جديد، فرحبت بك، وهي في انتظارنا الآن، هيا ولا تكن جبانًا، وستقضي معها لحظات لم تحلم بها من قبل، هيا بنا وذهبت معه كأني في حلم، ووصلنا إلى ذلك الحي «كلوت بك»، وكنت أسير بجانبه صامتًا، والصور التي أراها

في السينما والمجلات مجسدة أمام عيني، ووصلنا إلى حي قذر به حارات ضيقة تسمع من سراديبه تأوهات وصرخات وحشية، ويقف فتوات بعصا غليظة هنا وهناك، وتقف نساء بائسات بملابس قصيرة قذرة تبدو سيقانهن العجفاء كأعواد القصب المجوفة، وشعورهن المشعثة القذرة، وعيونهن الغائرة، ووجوههن الشاحبة الصفراء، وجذبتني إحداهن، قائلة لي بصوت أجش كأنه صاعد من أعماق القيود: «تعال أنا فاضية، أنا صديقة الطلبة»، أسرعت بالهرب، وفتوة يلاحقني، ولكني استطعت الإفلات منه، و«القرف والتقزز» يملأ جسدي، ويهزني هذا، وبجوار حائط هناك أفرغت كل ما في جوفي، وكادت أمعائي أن تخرج أيضًا من شدة «القرف والتقزز»، وذهبت إلى منزلي، ودخلت الحمام، واغتسلت، وتوضأت، وصليت ركعتين شكرًا لله على أنه أنقذني من هذه الهوة السحيقة التي لا قرار لها، وطلبت نقلي من جوار «مصباح» الذي كاد ظلامه أن يملأ حياتي كلها بالظلام والتعاسة، حمدًا لك يا ربي، فقد أنقذتني رغمًا عني، إن فضلك دائمًا عليَّ كبير عظيم.

ولقد اعتزلت فترة طويلة في منزلنا أذاكر دروسي حتى تعجب الجميع من الاجتهاد المفاجئ، وهذا العكوف على الدراسة، ولم يعلموا حقيقة ما في نفسي من كراهية لكلِّ هذه الدنيا، وكراهيتي لنفسي أيضًا؛ هل يصل بي الهوان إلى أن يتغلب الشيطان عليَّ، وأذهب بقدمي إلى هذا المستنقع من قاذورات البشر، ولولا رعاية الله لي لكنت قد انتهيت كإنسان، أين الإرادة؟ وأين الإيمان الذي غرسه الوالد في قلبي؟ وأين الطهارة التي نشأت فيها؟ ماذا كانت تفعل هذه الأم الملاك، إذا علمت ما يدور في نفسي من آلام؟ هل سيسامحني الله بعد أن ساقتني قدماي إلى وكر الشياطين، ولولاك يا رب العظيم الرحيم الكريم لانزلقت، وضعت ووهنت.

أغرقت نفسي في الكتب الدراسية، أنهيتها جميعًا، ثم بدأت أقرأ في كتب والدي القديمة، وضاع كل مصروفي الأسبوعي على شراء الكتب والقصص العالمية بجوار سور الأزبكية، وشدتني الآداب الرومانسية والروايات العالمية الطويلة حتى كنت أقرأ الكتاب الضخم في يوم أو يومين، وأتفاعل معها تفاعلاً تامًا، وخاصةً القصص العاطفية الرومانسية، والتي جعلتني أعيش خيالاً راقيًا، كله تضحية، وحب نظيف، وآلام إنسانية مضنية، كثيرًا ما أبكتني، وسهرت الليالي حزينًا على البطلة المحبوبة أو

مرض المحب الولهان، وبدأت هذه القراءات تبعدني عن أصدقائي رويدًا.. رويدًا، ولكنهم لم يتركوني، وأخذوا يصرون على أن أنزل معهم؛ لأنهم لا يعرفون سببًا لعزلتي عنهم، كنت أعطيهم بعض الكتب والروايات ليقرأوها حتى نتنافس فيها، ولكنهم لم يكونوا يحبون القراءة مثلي، ورويدًا رويدًا عدت إلى طبيعتي، وأزالت الأيام آلام نفسي، وشفيت جراح ضميري بعد أن حصنني الله بفضله من هذا المنزلق الخطير، أما زميلي «مصباح» الظلام، فقد كانت حالته تسوء يومًا بعد يوم، ويبدو أنه أصيب بمرض خطير؛ لأنه انقطع عن المدرسة، ولم أعد أسمع عنه شيئًا، وانتهى العام الدراسي، ونجحت، والحمد لله، وانتقلت إلى السنة الثالثة من المرحلة الثانوية.

الأجازة وفراغها

جاءت الأجازة الصيفية، وكان الوالد لا يدقق في حسابي على التأخر عن المنزل، وخاصةً وقد نجحت والحمد لله وأمامي شهور أربعة أسرح فيها وأمرح كما أشاء، ولقد قرأت بيتًا شعريًا كان مقررًا علينا يقول:

إنَّ الشَّبابَ وَالفَراغَ وَالجِدَه ... مَفسَدَةٌ لِلمَرءِ أيُّ مَفسَدَة[1]

ومعنى هذا البيت أن هناك ثلاثة أسباب، لو اجتمعت؛ لأفسدت الناس أي فساد: أولاً: الشباب، وهو القوة والصحة والاندفاع، وثانيًا: الفراغ، وهو الوقت الذي ليس فيه مسئوليات ولا عمل، وثالثًا: الجدة، أي الغنى والمال.

ولقد كنت أملك في هذا الوقت الشباب الغض، والفتوة الكاملة، والصحة النضرة، واندفاعًا إلى المجهول، وها هي شهور أربعة من الفراغ، أما الجدة أو المال، فلا أملك منه إلا القليل، وهو مصروفي الأسبوعي، ولكن هناك عنصرًا رابعًا لم يذكره الشاعر في قصيدته أو بيته الشعري، وهو أصدقاء السوء، وهم في رأيي السبب الجوهري في الفساد، ولقد نفرت بطبعي من أمثال هؤلاء الأصدقاء السيئين، ولكن بعض أصدقائي ما زالت لهم شطحات، وكنت أميل أحيانًا إلى شطحاتهم

---

(1) الرجز لأبي العتاهية في ديوانه من قصيدة مطلعها:

الحَمدُ لِلَّهِ عَلى تَقديرِهِ ... وَحُسنِ ما صَرَّفَ مِن أُمورِهِ

ويروى قبله: «عَلِمتَ يا مُجاشِعُ بنَ مَسعَدَه».

تلك، ولقد بدأت جوالتنا اليومية إلى مصر الجديدة، وإلى نادي الاسكيتنج؛ حيث نزاول هواية النزهة، والنظر إلى الناس، وكان يجذبنا -بالطبع كشباب مراهقين- بنات حي مصر الجديدة الرشيقات الجميلات المتحررات، وكنا نتبادل الابتسامات، وإشارة بإشارة، كنا نرجع في غاية السعادة، ولكن يومًا بعد يوم كنا نطلب المزيد، وكنا نطلب الصداقة، واللهو البريء معهن، وليس مع «خناشير» كـ«الطفي»، و«عبدالعظيم»، و«جلال»، و«عبد الله إمام»، وكان جو مصر الجديدة يشجعنا على ذلك؛ فالبنات يسرن جنبًا إلى جنب مع الشبان، يضحكون ويمرحون، ولقد كان هذا هو الأمل الذي نسعى إلى تحقيقه يومًا بعد يوم، ولقد كان «الطفي» أكثرنا جراءة، فقد تعرَّف على فتاة جميلة في نادي الاسكيتنج، ورجعنا في ذلك اليوم، وكأننا انتصرنا في معركة، وكان كل حديثنا يدور عن صديقة لطفي الحسناء، وطلبنا منه أن يعرفنا بها، ولكنه أبى؛ فاتهمناه بالأنانية وحب الذات، فوعد أن يطلب منها أن تعرفنا بصديقاتها، وتعاهدنا على ذلك، وفي الغد ذهبنا مبكرين إلى نادي الاسكيتنج، وظلت عيوننا تبحث عن صديقة «الطفي» الجديدة، ولكنها لم تحضر، وكان هذا مجالاً للسخرية من «الطفي»، والتنكت عليه، ولكن أخيرًا ظهرت الحسناء، وجاءت ناحيتنا بكلِّ جراءة، وحيت «الطفي» بحرارة، وحيتنا معه، والعرق يتصبب مني خجلاً، ووجهي يتوهج بالحرارة، إنها ليست المرة الأولى التي أصافح فيها فتاة، ولكنها المرة الأولى التي أحس فيها بهذا الإحساس، إنها تغيرات في داخلي، لا سيطرة لي عليها، وبدأت الفتاة حديثًا رقيقًا، ليس كأحاديثنا الخشنة، وبدأنا نتسامر معها برقة أيضًا، ويزول منا بالتدريج رهبة اللقاء الأول بفتاة جميلة، مثل «هناء»، وصارحها «الطفي» أن تعرفنا على صديقاتها، وتنضم إلى شلتنا، فوعدتنا خيرًا، وحيتنا وهي تنظر إلينا نظرات فاحصة، وسلمت عليَّ، ونظرت لأول مرة إلى عينيها الجريئتين الجميلتين غير مصدق، إلى اللقاء يوم الأحد القادم، كنا يوم الأربعاء، إنها أربعة أيام طويلة حتى يتم اللقاء الموعود، وعدنا إلى منازلنا، ولكننا بقينا ساعات بجوار المنزل نتحدث سعداء بالنصر الذي حققناه.

اليوم الخميس، ولم يبق إلا يومان على اللقاء مع صديقات «هناء»، لقد وعدتنا بلقائهن، يوم الأحد، كانت السعادة تملأ قلبي، والتطلع إلى ذلك اليوم المشرق الذي سنتعرف فيه على فتيات جميلات فاتنات، ترى، كيف سيكون شكل صديقتي؟ إنني لن أقبل جمالاً أقل من تلك الحسناء السمراء الجميلة التي رأيتها في عرس «عائلة

فايد»، تلك الفاتنة التي شغلتني طويلاً، وسنعيش معًا قصة حب طاهرة تنتهي بنا إلى الزواج.. الزواج، وكيف أتحمل مصاريف الزواج؟! إنه وهم كبير.. لا سأعمل بعد الثانوية العامة، وأستطيع أن أفتح بيتًا صغيرًا هانئًا مع حبيبة القلب، وسخرت من أحلامي التي لا يمكن أن تتحقق، وأنا ما زلت طالبًا في السنة الثالثة من المرحلة الثانوية، ولكن خيالي الواسع والأمل زينا لي حبًا مشرقًا جميلاً، يستمر السنين حتى أتخرج من الجامعة، ولا أستطيع أن أتقدم لأهل المحبوبة بكلِّ ثقةٍ وفخر، إنها سبع سنين ما أطولها، ولكنها ستكون مملوءة بالحب والحنان والأمل المشرق، كضوء القمر.

كنت أطير فرحًا، وأنا ابني هذه الأحلام الباسمة، وأحببت أن أحكي قصة حبي لكلِّ الناس، وهي في الحقيقة ليست قصة حب، بل أمل في قصة حب أو طيف أو خيال قصة حب، إن خيال المراهقة لا نهاية له ولا قرار.

موقف عجيب

قرَّرت الذهاب إلى صديقي وجاري وقريبي «وفيق حمودة»، وهو شابٌّ وسيمٌ، فارع الطول، رياضي، له صولات وجولات في مجال الحب؛ قررت الذهاب إليه للاستشارة، وأخذ رأيه، وكأنه خبير بأمور العشق، ولكن من فرط فرحي وسعادتي، ومن الشقاوة التي تتراقص في كياني؛ أحببت أن أذهب إليه متخفيًا حتى نسعد ونمرح، فهو يحب الضحك والفكاهة، رغم أنه مريض بالقلب في سنه هذه الغضة، انتظرت حتى غربت الشمس، وارتديت جلبابًا قديمًا من جلابيب والدي، وكان كبيرًا عليَّ؛ فشمرت أكمامها، وربطت على وسطي حبلاً، كما يفعل الجزارون، ولكن ما زال منظر وجهي ينبئ بطفولة لا تتناسب مع الجزارين، لبست طاقية كبيرة أخفت شعري الطويل المتهدل، ورسمت حواجب ضخمة وشاربًا مبرومًا، ورسمت خطوطًا سوداء هنا وهناك، حتى أبدو كبير السن، ونظرت إلى نفسي في المرآة؛ فوجدت شخصًا آخر مخيف المنظر، ورسمت «تكشيرة» على وجهي؛ حتى تكتمل الصورة، ووضعت في جيبي سكينًا خشبيًا قد أعددته من قبل، ودهنته بلون فضي.

فايد»، تلك الفاتنة التي شغلتني طويلاً، وسنعيش معًا قصة حب طاهرة تنتهي بنا إلى الزواج.. الزواج، وكيف أتحمل مصاريف الزواج؟! إنه وهم كبير.. لا سأعمل بعد الثانوية العامة، وأستطيع أن أفتح بيتًا صغيرًا هانئًا مع حبيبة القلب، وسخرت من أحلامي التي لا يمكن أن تتحقق، وأنا ما زلت طالبًا في السنة الثالثة من المرحلة الثانوية، ولكن خيالي الواسع والأمل زينا لي حبًا مشرقًا جميلاً، يستمر السنين حتى أتخرج من الجامعة، ولا أستطيع أن أتقدم لأهل المحبوبة بكلِّ ثقةٍ وفخرٍ، إنها سبع سنين ما أطولها، ولكنها ستكون مملوءة بالحب والحنان والأمل المشرق، كضوء القمر.

كنت أطير فرحًا، وأنا أبني هذه الأحلام الباسمة، وأحببت أن أحكي قصة حبي لكلِّ الناس، وهي في الحقيقة ليست قصة حب، بل أمل في قصة حب أو طيف أو خيال قصة حب، إن خيال المراهقة لا نهاية له ولا قرار.

موقف عجيب

قرَّرت الذهاب إلى صديقي وجاري وقريبي «وفيق حمودة»، وهو شابٌّ وسيمٌ، فارع الطول، رياضي، له صولات وجولات في مجال الحب؛ قررت الذهاب إليه للاستشارة، وأخذ رأيه، وكأنه خبير بأمور العشق، ولكن من فرط فرحي وسعادتي، ومن الشقاوة التي تتراقص في كياني؛ أحببت أن أذهب إليه متخفيًا حتى نسعد ونمرح، فهو يحب الضحك والفكاهة، رغم أنه مريض بالقلب في سنه هذه الغضة، انتظرت حتى غربت الشمس، وارتديت جلبابًا قديمًا من جلابيب والدي، وكان كبيرًا عليَّ؛ فشمرت أكمامها، وربطت على وسطي حبلاً، كما يفعل الجزارون، ولكن ما زال منظر وجهي ينبئ بطفولة لا تتناسب مع الجزارين، لبست طاقية كبيرة أخفت شعري الطويل المتهدل، ورسمت حواجب ضخمة وشاربًا مبرومًا، ورسمت خطوطًا سوداء هنا وهناك، حتى أبدو كبير السن، ونظرت إلى نفسي في المرآة؛ فوجدت شخصًا آخر مخيف المنظر، ورسمت «تكشيرة» على وجهي؛ حتى تكتمل الصورة، ووضعت في جيبي سكينًا خشبيًا قد أعددته من قبل، ودهنته بلون فضي.

سأذهب إلى «وفيق»، وسأدخل الرعب على نفسه، حتى أرى شجاعته التي يدعيها، وسنضحك كثيرًا، كما لو كنا لم نضحك من قبل، ثم سأذهب إلى بقية الشلة مع «وفيق»؛ لنختبر شجاعتهم، وانتهزت فرصة انشغال الوالدة في المطبخ، والوالد في القراءة، وتسللت من غرفتي خارجًا من المنزل، ووجدت بعض الأصدقاء، فمررت بالقرب منهم، ونظرت إليهم شزرًا، فلم يعرفوني، ورأيتهم يتهامسون بخوف؛ فسعدت لنجاحي في التخفي عن أقرب الأصدقاء إليَّ، وأحببت أن أرجع إليهم؛ لأعرفهم بنفسي ولآخذهم معي إلى صديقي «وفيق»، ولكني رأيتهم ينسحبون مرعبين، واتجهت إلى منزل صديقي «وفيق» متصفًا في مشيتي بمشية الجزارين، ومررت على «أبي سلطان» البقال، وعبد الله -مساعده، والذي يعرفني جيدًا، فلم يعرفاني على الإطلاق، وأخيرًا وصلت إلى بيت «وفيق»، وقد أرخى الليل سدوله، ورأيت بائع اللبن نازلاً من عندهم حاملاً قسط اللبن، وهو يعرفني؛ لأنه يحضر إلى منزلنا كل يوم، فنظرت إليه شزرًا، وضربته بكتفي متحرشًا به، فوجدته يجري مسرعًا، ناظرًا خلفه، هاربًا من هذه المصيبة التي تتحرش به، وركب دراجته مسرعًا، وصعدت الدرجات، ووجدت كل أنوار البيت مضاءة، وكانت شقتهم تحتل دورًا كاملاً بها أبواب ثلاثة، باب على اليمين، وباب على اليسار، وباب في الوسط، وكانت مصابيح كل الأبواب مضاءة، ومعنى هذا أنهم سيستقبلون ضيوفًا الليلة، فترددت في أن أطرق الباب للحظات، ولكني طرقته بعنف، ففتحت خادمتهم، وكادت تعرفني أيضًا، وقالت لي، وهي تنظر إليَّ باستغراب: نعم من تريد؟ قلت لها بصوت خشن: أحضري «وفيق»، أسرعت بإغلاق الباب، وحضر «وفيق»، ولم يفتح الباب، بل فتح «الشراعة» فقط، ونظر إليَّ متعجبًا قائلاً بخوف: ماذا تريد يا «معلم»، ورفعت السكين الخشبية اللامعة في وجهه، وقلت: افتح الباب، أسرع بإغلاق «الشراعة»، وسمعت بالداخل ضجة وحركة غير عادية، وفتحت «شراعات» الأبواب الثلاث، وأطل منها عيون خائفة لأصحاب المنزل، وللضيوف جميعًا، كنت أقفز عليهم هنا وهناك، فيغلقون الشراعات سريعًا بهلع وخوف حقيقي، لقد أحسست أن اللعبة قد خرجت عن الخط الذي رسمته لها.

ولقد تحولت الفكاهة إلى رعب حقيقي وخوف، ويا ليت الأمر بقي عند هذا الحد، فلم يعطوني فرصة لأعرفهم بنفسي؛ حتى أخرج من هذا المأزق الحرج، وأهدئ من روعهم وخوفهم، بل سمعت الصرخات والاستغاثات، وقد أطلقوها من الشبابيك و«البلكونات» يطلبون النجدات من البوابين المجاورين والمارة، وتولت الملهاة إلى مأساة فجأة، ورأيت رجالاً وبوابين يصعدون السلم مسرعين، في أيديهم عصا، وأشياء صلبة، هاجمين عليَّ، وقد ظنوني لصًّا أو قاتلاً، ولو هجموا عليَّ لقطعوني إربًا بما يحملون في أيديهم، وبدون تفكير بدأت أدافع عن نفسي، فأسرعت صاعدًا حاملاً سكيني الخشبية، شاهرها عليهم، ولقد كانت مفاجأة كبيرة لي؛ عندما رأيت هذا الجيش الصاعد المهاجم يتراجع بسرعة ويتدحرج على السلم خوفًا من السكين التي معي، ولكن شبابًا من ضيوف «وفيق» -وعرفت فيهم «وائل شاهين»- فتحوا الأبواب حاملين عصا مكنسة غليظة ليهاجموني، فأسرعت إليهم مهددًا بسكيني الخشبية، فأسرعوا وأغلقوا الأبواب، ومرة أخرى تشجع المهاجمون من على السلم، ولكن بحذر أكثر، فأقبلت عليهم هاجمًا، فتهاووا متدحرجين، واستمرت هذه الهجمات من الناحيتين لدقائق، وبدأ الخوف يدب في قلبي من نهاية مأساوية لهذه اللعبة التي تحولت إلى مصير لا يعلمه إلا الله، وبدأت أصرخ على «وفيق»، وعلى «وائل شاهين»، وعلى عمتي «خديجة»، وأخلع طاقيتي، وأقول لهم: «أنا عبد الرحمن، يا وفيق»، ولكن الهجوم من السلم يعاوده البوابون بإصرار، وتزداد شراستي في الدفاع عن نفسي، وفي نفس الوقت أسرع إلى الشراعات المغلقة، وأنادي على أقاربي؛ لأعرفهم بنفسي، وناديت «وائل»، وقلت له: «أنا عبد الرحمن، يا «وائل»، هدئهم، انظر، هذه سكين خشبية»؛ فتح «وائل» شراعات الباب، ونظر إليَّ متأملاً، وصاح: «إنه عبد الرحمن، إنني عرفته من عينيه وشعره»، وفتح لي الباب، وجذبني، وأدخلني، وأغلق أمام الجموع الصاخبة من البوابين وأصحاب الشهامة من الجيران، وأسرعت إلى الحمام لأزيل آثار الأقلام من على وجهي، وبدأ أهل البيت يطمئنون المهاجمين الذين يريدون الفتك بي، أنني قريبهم، وكنت أمزح معهم متخفيًا، ونظرت إليهم من شراعة الباب من الداخل، وقد زال المكياج من

الفصل الثاني
بين الصفوف المؤمنة

رحلة المقطم ومعرفة الإخوان المسلمين

لقد لفت نظري شخصية «وائل شاهين» المتزنة، فهو رغم مرحه ونكاته يبدو عليه أنه مثقف ثقافة جادة، وكنت أحس أن له هدفًا واضحًا محددًا في الحياة، وليس مثلنا، كزورق على سطح بحيرة يقذف به الموج هنا وهناك، تكلمنا في شتى الموضوعات، وكان هذا أكثرنا إنصاتًا، وكنا نحن نهرج مازحين، وهو يبتسم ابتسامة هادئة وديعة، وهو طالب في «إعدادي طب» لا يزيد عنا سنًّا سوى سنتين أو ثلاث سنوات، ولكن أحسست -عندما تكلم بثقة ورزانة في شتى المواضيع- أن عقله أكبر من سنه بكثير، وأننا أمامه عابثون سخفاء، كل حديثنا هراء بجوار حديثه الشيق العذب والجاد في الوقت نفسه، أعجبت بـ«وائل شاهين» كثيرًا، وشعرت بفخر؛ لأنه قريبي، وأستطيع أن أراه كثيرًا، وأسمع منه، سألني أنا و«وفيق»: كيف نقضي وقتنا؟ فأجبناه أننا نلعب الكرة، ونتمشى في الشوارع، ونقف على النواصي، وبالطبع لم نخبره بمغامراتنا مع بنات مصر الجديدة حياءً منه؛ لأننا أحسسنا أنه ليس من نوعنا، وأنه يحترمنا، قال: ألا تقرءون؟ فأجابه «وفيق»: إننا يكفينا الكتب الدراسية السخيفة، أما أنا أجبته بفخر: أنا أقرأ بالطبع، وأقرأ كثيرًا، فسألني عن نوعية قراءتي، فأجاب وفيق نيابة عني: إنه يقرأ قصص المغامرات والحب، فابتسم وائل قائلاً: إن القراءة نعمة كبيرة تفتح أمام الإنسان آفاقًا رحبة كبيرة، وهي غذاء للعقل، ولكن لا بدَّ للإنسان أن ينوع في قراءاته، ويركز على ما ينفعه في دنياه وآخرته. لفت سمعي هذه الكلمة التي قالها «وائل شاهين» بهدوئه وثقته ووجهه الوسيم الذي يشرق بالنور، فقلت له متسائلاً وبشوق كبير للمعرفة: أرشدني إلى هذه الكتب، يا وائل، فأنا متعطش لقراءتها، ابتسم لي ابتسامة كلها ود؛ فقد أحس أن قلبي يتشوق لهذا النوع من المعرفة ليريحني ويجيبني على عشرات الأسئلة الحائرة في صدري، قال لي: حسنًا يا «عبد الرحمن» سنلتقي كثيرًا أليس كذلك، وسأريك مكتبتي، واختر ما تشاء منها، ونظر إلى ساعته واستأذنا في الانصراف، وتساءل باهتمام: متى سنراكم؟ قلت له صادقًا: في أقرب وقت، فكر قليلاً، ثم قال: غدا الجمعة، بإذن الله، وسنخرج إلى رحلة مع مجموعة من الطلبة الأصدقاء، فما رأيكم لو جئتم معنا، أجبته ضاحكًا: إنه لا يوجد مكان في القاهرة لم نذهب إليه، فقال

بثقة: ولكن المكان الذي سنذهب إليه لم تره من قبل، إنه جبل المقطم، فتساءلت مستغربًا: جبل المقطم، وماذا تصنع هناك في وسط الصخور والرمال؟ أجابني سترى عالمًا غريبًا، لم تره من قبل، وستحس إحساسًا صافيًا جديدًا، لم تحس به من قبل، جرِّب هذه الرحلة مرة، وسترى أنك ستكررها كثيرًا، وقال لنا، وهو يستعد للذهاب مع أسرته: هل تعدوني بالحضور؟ قلت له بعد تردد: أعدك بهذا، وسأحضر معي بعض الأصدقاء، واتفقنا على الموعد، ومكان اللقاء، وذهبت مسرعًا إلى «لطفي» و«عبد العظيم»، وطلبت منهم مصاحبتي إلى تلك الرحلة المجهولة، إلى جبل المقطم، ترى ماذا يوجد هناك حتى يهتم به إنسان راق كـ«وائل شاهين»؟ إنه حب الاستطلاع، والوعد الذي قطعته على نفسي هو الذي شوقني إلى هذا المجهول.

وفي السابعة صباحًا سمعت صفارة «لطفي» المميزة، وفتحت نافذة حجرتي، ووجدت «لطفي» و«عبد العظيم» و«وفيق» في انتظاري، أسرعت بالنزول، ووجدتهم قد أحضروا معهم لفات بها سندوتشات، وقصب مقطع، وبرتقال، وأشياء كثيرة ثقيلة، قلت لهم: سنتقابل مع مجموعة من طلبة العباسية، ولا بدَّ من أن نثبت لهم أننا نفوقهم في كلِّ شيء؛ سألني «عبد العظيم» و«لطفي» في وقت واحد: وهل هناك حدائق في جبل المقطم؛ حتى تذهب إليها؟ وقال «لطفي» معلقًا: إننا نعلم أن هناك مقابر في المقطم، وإننا سنذهب لزيارة المقابر، وقراءة الفاتحة هناك، وردَّ عبد العظيم مكملاً: على كلِّ حال، لن نرجع بدون فائدة، فإنهم يوزعون هناك فطير الرحمة، وسأملأ هذه الشنطة بهما، أما «وفيق»، وهو مريض بالقلب، وصاحب نزهات رقيقة، وصولات وجولات في الحدائق والمتنزهات، أحب أن يرجع من أول المشوار، وقال باسمًا: «أنا ليس لي حقيقة في المقطم ولا في المقابر عن إذنكم»، ولكني قلت له: لقد وعدت بالحضور، يا «وفيق»؛ لنذهب ونرى ما وراء هذه الرحلة، وإن لم تعجبك؛ ارجع.

الشهيد عمر شاهين

ركبنا الترام إلى العباسية، وذهبنا إلى مسجد معروف هناك اسمه «القبة الفيداوية»، وهو مكان اللقاء، فلم نجد «وائل شاهين»، ولكننا وجدنا شبابًا في مثل سننا، يرتدون ملابس عسكرية، أو ملابس كملابس الكشافة (شورتات قصيرة كاكية، وقمصان كاكية أيضًا)، ويحمل البعض على ظهره جربندايه[1] كالتي يحملها الجنود على ظهورهم، والبعض الآخر كان يحمل «زمزميات» مياه، معلقة على كتفيه، وكانوا يرتدون أحذية ثقيلة كأحذية رجال الجيش، وكانوا يتحدثون بجدية ورزانة، وليسوا مثلنا نتضاحك ونتصايح بصوت مرتفع، ونعلق على كلّ شيء، وتصدر منا تعليقات على كلّ من حولنا، قال «لطفي» مازحًا: أخشى أن يكون هؤلاء الجنود هم مجموعة صديقك «وائل»، فقلت مستبعدًا: لا أعتقد، وإن كنت قد أحسست إحساسًا داخليًا أنهم هم، قارنت بين ملابسهم وملابسنا، فقد كنا نرتدي أجمل الثياب؛ قمصان بيضاء ناصعة، وبنطلونات نظيفة مكوية، وأحذية لامعة، وقارنت بين تصرفاتهم الهادئة المهذبة، وتصرفاتنا العابثة الصاخبة.

وأخيرًا قطع حبل تفكيري ظهور «وائل» ومعه شاب أصغر منه، ولكنه يشبهه، ويرتديان نفس ملابس هؤلاء الشباب (الملابس الكاكية، والأحذية الثقيلة)، حيًّانا «وائل» بابتسامته المشرقة، وعرَّفنا بأخيه «عمر شاهين»[2] طالب في السنة الثالثة من المرحلة الثانوية مثلنا، وعرَّفتهم بأصدقائي (لطفي، وعبد العظيم)، ثم عرَّفنا «وائل»

---

(١) الجربندية: هي حقيبة يحمل فيها الكشافة أدواتهم وطعامهم وأدواتهم وملابسهم وأغطيتهم.

(٢) عمر شاهين: ولد عمر شاهين عام ١٩٣١م بالقاهرة، وارتبط بدعوة «الإخوان المسلمين» في سن مبكرة، ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره، وشاركه في الارتباط بالدعوة أخواه «وائل شاهين» و«نعمان شاهين»، فكانوا من بين أعضاء شعبة الإخوان بـ«العباسية»، واشترك في المظاهرات التي كان يقوم بها الإخوان حينذاك من أجل نصرة قضية فلسطين، وتأييد مطالب مصر في الجلاء والاستقلال، حاول جاهدًا الاشتراك في حرب فلسطين غير أن صغر سنه منعه من ذلك، وفي حرب القنال ١٩٥١م سافر إلى فاقوس في التاسع من نوفمبر، وفي يوم ١٣يناير ١٩٥٢م، اندلعت معركة التل الكبير، وثبت فيها حتى استشهد، وهو ابن عشرين عامًا، وتقدم جنازته الأستاذ المرشد «حسن الهضيبي» والدكتور «عبدالوهاب مورو» رئيس جامعة القاهرة.

ببقية الزملاء بسرعة، وكانوا جميعًا طلبة، وكان بينهم بعض شباب العمال، وما هي إلا دقائق حتى وقف الجميع صفًا واحدًا منظمًا كطابور عسكري، لم نكن متعودين على هذا من قبل، بل كنا نحب الفوضى، وكنت دائمًا أردد: لذيذ الحياة ما كان فوضى...»، «ولكننا -وبعد تردد- وقفنا بجوارهم، ولم نرد أن نشذ عنهم، فكانت وقفتهم شامخة، عسكرية الطابع، وأدار وائل الطابور، ومشوا صفًا منتظمًا شمال، يمين، شمال، يمين، والأيدي منتصبة منتظمة كبندول الساعة.. أما نحن، فقد مشينا في آخر الصف، وقد بادر «لطفي» و«عبد العظيم» بالنكت، ولكن بهمس، ويضحكون، وهم يكتمون ضحكاتهم، واستمر الطابور حوالي نصف الساعة، وبدأنا نتعب، ونظرنا وراءنا، فوجدنا «وفيق» يتهادى في مشيته، وأشار إليَّ بأنه سيعود إلى المنزل، وطلب مني أن أخبر «وائل» بذلك.

وأخيرًا وصلنا إلى سطح جبل المقطم، وابتعدنا عن العمران نهائيًا، فأوقف وائل الطابور، وأعطى إشارة بالاستراحة قبل الصعود إلى الجبل، ونظرت إلى «لطفي» و«عبد العظيم»، وهما يكادان أن يلهثا من التعب، وقد جلسا أرضًا على الرمال بملابسهما النظيفة، فجلست بجوارهما، وهمست لهما: أين لسانك الطويل، يا عبد العظيم؟ وأين نكاتك، يا لطفي؟ فقال عبد العظيم: تبًا لك يا عبدالرحمن، أهذه رحلة، أم معركة حربية؟! أين هذه الجنازة الصامتة من نزهاتنا؟! وقال لطفي: كنا نذهب للخضرة والماء والوجه الحسن، أما هذه الرحلة، فلم نر فيها إلا الصفرة والعطش ووجوه أصحابك الخشنة، وأضاف «عبد العظيم» متسائلاً: اسأل صاحبك: هل سنبقى هنا، أم أنه سيجعلنا نصعد هذا الجبل الذي لا نهاية له؟ إنني لو صعدته ستكون نهايتي، وأنت المسئول عن موتي، جاءنا وائل، وجلس بجوارنا، وكان وجهه مشرقًا كعادته لا يبدو عليه أثر للتعب، وقال لنا بلطف: لا شكَّ في أنكم تعبتم؛ لأنها أول رحلة من هذا النوع، ولكنها رياضية لكلِّ الجسم، سألته: هل ستصعد هذا الجبل، قال ضاحكًا: أجل هذا الجبل، وجبال أخرى كثيرة، إننا نريد أن نبعد عن جو المدينة الصاخب إلى الهدوء، ولنرى الأرض الواسعة بغير حدود، وسأل عبد العظيم بأدب غير معهود فيه: ولكن ما فائدة كل هذا التعب؛ ألم يكن من الأفضل أن تقضي هذا اليوم في حديقة غناء أو بستان جميل؟ نظر إليه وائل مبتسمًا: إنك لن تحس بقيمة هذا التغيير إلا بعد أن نعود، وبعدها اسأل نفسك هذا

السؤال، قال عبد العظيم معلقًا: إن الكتاب يظهر من عنوانه، وإنا ما زلنا في بداية الرحلة، وقد وصل بنا الحال، كما ترى، أجابه وائل مشيرًا إلى رفاقه: انظر إلى هؤلاء الشباب، إنهم في مثل سنكم، ولكنك تراهم في غاية النشاط والقوة، إن كل شيء في أوله صعب.

ووقف وائل، وأطلق صفارته؛ فنهض الجميع صفًا منتظمًا من جديد، ووقفنا بصعوبة في نهاية الصف، وقد كنت في الحقيقة متعبًا كصديقي، ولكني كنت متشوقًا لمعرفة المزيد، وكنت أخفي تعبي وأقاومه؛ حتى لا أبدو ضعيفًا، وبدأ الجميع في صعود الجبل الرملي بخفة وسرعة، أما نحن الثلاثة، فقد غاصت أقدامنا، وملئت أحذيتنا المفتوحة بالرمال، ونال منا التعب كل منال وصلوا جميعًا إلى القمة، أما نحن، فما زلنا نحاول الصعود، وأخذ عبد العظيم يتمتم بغيظ: «طيب يا عبدالرحمن، إنه مقلب من مقالبك، ربنا يعدي هذا اليوم على خير»، أما لطفي فقد توقف، وقال لي: إنني لن أستطيع أن أكمل الرحلة معكم سأعود، فشجعته قائلاً: إنني متعب مثلك، ولكنه من العيب أن نكون أقل صبر وأضعف قوة من هؤلاء الشباب، اصبر يا لطفي لم يبق إلا القليل، كنت أخشى أن يسخر الشباب من عدم قدرتنا على مجاوراتهم، كما كنا نفعل دائمًا، بل العكس وجدنا منهم كل تشجيع، فقد هبط بعض الشباب، وحملوا عنا الأحمال التي معنا، وشجعونا بكلمات طيبة حتى أكملنا الصعود.

أخيرًا وصلنا إلى قمة الجبل، أخذ «عمر شاهين» شقيق «وائل» بيدي، أنا ولطفي، وقال لنا بأسلوب مهذب: لقد تعبنا جميعًا في أول رحلة، فهذا شيء طبيعي؛ لأننا في المدينة لا نبذل هذا المجهود الكبير، خففت كلمة «عمر» ما نحن فيه من إحباط وتعب، وجلسنا لدقائق لنستريح، وأخذ شابٌ رياضي يجمع كل الطعام من الجميع والمياه أيضًا، ويضعها في مغارة قريبة.

زال عنا التعب، ووقفنا لننظر إلى منظر رائع نراه لأول مرة، ها هي القاهرة بنيلها العظيم، ومنازلها، ومساجدها، وحدائقها، وأهراماتها، تبدو تحت الجبل بديعة، ما أبدع هذا المنظر وأجمله، وننظر خلفنا فنرى تلال المقطم بألوانها البديعة المتداخلة صفراء وحمراء وبنفسجية وخضراء، سبحان الخالق العظيم، ولقد أحسست أن الجمال ليس موجودًا في الحدائق فقط، بل هناك جمال رائع في هذه

الجبال، وهذا الامتداد، وهذا الاتساع، وهذا الجو النقي الطاهر، إننا، لا شك، نفتقده في المدينة بغرفاتها وشوارعها ومنازلها وضجيجها وهوائها غير النقي.

أنعشنا هواء الجبل النقي، وأنعشنا أكثر ذلك الطعام البسيط الذي وزع علينا بالتساوي، وتلك الرشفات من الماء، وهذا الشاي المصنوع بالطريقة البدائية على الأشواك الجافة والأخشاب، ولقد كان له مذاق رائع، وكان للطعام البسيط أثر كبير في عودة نشاطنا وحيويتنا من جديد، وبعد نصف ساعة حرة من التجوال هنا وهناك، تجمع الجميع لصفارة من وائل، وجلسنا حلقة واسعة متسعة، وحولنا مناظر الجبال الرائعة، وأمامنا مدينة القاهرة متسعة واضحة، وكأننا نراها من الطائرة، وكان الجو منعشًا، رغم أننا كنا في الصيف، ونسمة حلوة تمر حانية تزيد انتعاشنا، لكن غمزني عبد العظيم بيده، وقال لي هامسًا: هل أقول لهم نكتة جديدة لم يسمعوا عنها من قبل؟ وقلت له: انتظر يا «عبد العظيم» الآن، فليس هذا مجالاً لنكاتك الفاضحة.

وبدأ «وائل شاهين» يتحدث بوجهه المشرق، وبعد أن سمَّى وصلى على رسولنا العظيم ﷺ، تحدَّث حديثًا مختصرًا، ولكنه مركز، وقد تكلَّم عن موضوع شغلني كثيرًا، ولم أجد له جوابًا شافيًا، وكأنه يجيب بحديثه هذا عما في نفسي من تساؤلات حائرة، فلقد سأل نفسه سؤالاً عن الهدف من الحياة، فإن الإنسان يولد في هذه الدنيا بغير إرادته، ثم يعيش فيها طفلاً، ثم صبيًا، ثم رجلاً، ثم شيخًا، وعمل في حياته هذه كل الأفعال من خير أو شر، ثم يموت، فما مغزى هذه الحياة؟ وما معناها؟ وما الهدف منها؟ إنه السؤال الذي كنت دائمًا أسأله نفسي، وأجاب وائل: إن الله قد خلق هذا الخلق جميعًا لعبادته، فنحن جميعًا مؤمنون أن هناك إلهًا خالقًا عظيمًا خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلق هذه المخلوقات جميعًا منذ آدم، وحتى نهاية العالم؛ لتسبحه وتعبده، ولقد قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وفي آية أخرى قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]

إذًا نحن لم نخلق عبثًا، لنأكل ونشرب ونلهو، ثم نموت، وينتهي الأمر، كلا؛ إن رسالتنا أن نعبد الله الذي خلقنا، ووهب لنا هذه الحياة، ووهب لنا هذه الحواس من بصر وسمع وشم، وسخر لنا كل هذا العالم بكلِّ خيراته، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وإن أعظم النعم جميعًا هي نعمة العقل التي ميَّز الله بها الإنسان عن باقي المخلوقات، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ويقول المفسرون: إن الأمانة هي العقل، ويقول آخرون: إنها نعمة الإيمان، ثم بعث الله الرسل ليوضح لكثير من الناس حقيقة الإيمان بالخالق العظيم، وعبادته، وفعل الخيرات، ومحاربة الشرور، ثم أخبر الرسل الناس جميعًا أن الحياة الدنيا ليست هي نهاية الحياة، بل هي قنطرة إلى الحياة الآخرة بعد الموت، وهي إما نعيم مقيم أو عذاب أبدي دائم، ولقد كانت آخر الرسالات هي إسلامنا العظيم، وآخر الأنبياء هو محمد ﷺ، ولقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة.

وإن رسالتنا -أيها الشباب- أن نحمل النور الذي تركه لنا ربنا، وهو كتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحاديث رسولنا الكريم، والذي تشرح وتوضح، وتفصل ما في القرآن، وإننا -معشر الشباب- لا بدَّ أن نعي هذه الحقيقة، والتي يغفل عنها الكثير من الناس، ولا بدَّ من أن نخرج أنفسنا من عبث الناس ولهوهم ومجونهم، ونستيقظ من أوهام الحياة العابثة، ونعرف أن لنا هدفًا عظيمًا واضحًا هو نشر دين الله في الأرض، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا بدأنا بأنفسنا، وعرفنا رسالتنا حق المعرفة، إن رسالتنا هي عبادة الله، وعمل الخير، ونشر الإسلام الذي يحمل في طياته كل فضائل الدنيا والآخرة، وأن نعمل لليوم، فليست الدنيا هي نهاية المطاف، كما يظن العابثون، بل هي مزرعة الآخرة، فتفكروا

أيها الشباب، واجعلوا حياتكم كلها لله؛ تنالوا السعادة في الدنيا والآخرة، والسلام عليكم ورحمة الله.

هزتني هذه الكلمات من الأعماق، ولقد أجابت عن كثير من التساؤلات الحائرة في نفسي، ونظرت إلى عبد العظيم، ولطفي، ولقد كانوا في حالة من الدهشة والانتباه؛ جعلت عبد العظيم فاتحًا فاهه يحملق في الفضاء، حتى نبهته، فأفاق من دهشته، وقال مغمغمًا: معنى هذا، أننا ضعنا، ورفع يده، وسأل قائلاً: إن لي صديقًا فعل ذنوبًا كثيرة، هل له من توبة؟ قال وائل: لن أرد عليك بكلامي، بل بكلام رب العالمين: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وبدأ الشباب يسألون، ويجيبهم وائل بآيات قرآنية وأحاديث، وكأنه عالم كبير، وأسأل نفسي: كيف تسنى لطالب الطب أن يستوعب كل هذه المعلومات، لا شكَّ أنه لم يضيع وقته في النزه، والقصص الفارغة، والمجلات الفجة، لقد تعلَّم ما ينفعه في دنياه وآخرته حقًّا، واستمر الحديث والحوار والأسئلة في كلِّ الشئون (سياسية، واجتماعية، ودينية).

ولقد كان وائل آخر من يتحدث، ولكنه ينبض بأسلوبه البسيط المركز، ثم قام وقال: هيا يا شباب إلى الرياضة، إلى التكتيك العنيف، ولم أسمع عن التكتيك العنيف من قبل، ولكنها رياضة عنيفة من قفز من ارتفاعات عالية، إلى تسلق جبال، إلى مصارعة يابانية، وأخذنا وائل نحن الثلاثة برفق؛ حتى نستطيع أن نواكب هؤلاء الشباب المدرب، واستمر هذا التمرين العنيف حوالي ساعتين، حتى أخذ منا التعب كل مأخذ، وأخذنا راحة لمدة نصف ساعة، صلينا خلالها الظهر جماعة، ثم بدءوا يوزعون علينا الطعام والماء والشاي، وكان الطعام رغم بساطته لذيذ الطعم؛ فقد كانت شهيتنا مفتوحة، والجو صحيًا، والهواء عليلاً، ثم أخذنا جولة حرة لمدة نصف ساعة نتجول في الجبال حولنا، ونرى عظمة الخالق في كلِّ شيءٍ في تناسق الألوان، وتداخلها في امتداد الأفق إلى ما لا نهاية له، إلى السماء الصافية الزرقاء، والتي نادرًا ما نراها في المدينة، فهناك لا نرى إلا سقوفًا وحوائط كعلب الكبريت، أما هناك، فالفضاء متسع ينشرح له الصدر، والامتداد متسع تستريح له العين، والهواء نقي بارد، مرطب القلب، وتعارفنا على مجموعة من الشباب الناضج الفتي المهذب، دمث الأخلاق.

وجاء وقت أذان العصر، فأذن شابٌ على صخرة مرتفعة، وتردد صوته جميلاً شجيًا يدعونا للصلاة، فصليت صلاة لم أصل مثلها من قبل، ودعوت الله مخلصًا أن يشرح صدري للخير والهدى، وبعد الصلاة التففنا في حلقة واسعة، وبدأنا حفلة سمر جميلة، وضحكنا ومرحنا، ولعبنا ألعابًا كشفية مسلية، وتعارفنا بطريقة أوثق، وظهر كل منا على فطرته وبساطته، وأحسست أن هؤلاء الشباب يحملون قلوبًا طيبة نظيفة مملوءة خيرًا ونورًا، وأحسست بسعادة كبيرة لتعرفي عليهم، وقضاء هذا اليوم البديع معهم، وبدأت الشمس تقترب من الغروب بروعة وهدوء، وجمعنا وائل صفًا واحدًا، وبدأنا العودة بنظام حتى وصلنا إلى «القبة الفيداوية»، وودع بعضنا بعضًا، واتفقنا على لقاء جديد في الجمعة القادمة، ورجعت إلى البيت، وأنا في غاية الإنهاك العضلي، واستحممت، وصليت المغرب، وأحسست أن هذا اليوم الجميل قد غسلني من داخلي، وأنني أكاد أطير من على الأرض، وأنني أصبحت إنسانًا آخر، ونمت نومًا عميقًا، رأيت في نومي رؤيا جميلة حالمة، كلها خير وسعادة.

نقطة التحول

استيقظت على أذان الفجر، وكنت غالبًا أصلي الصبح بعد طلوع الشمس، وتوضأت وصليت صلاة خاشعة، طلبت فيها من الله بكلِّ خشوعٍ وضراعةٍ- أن يهدي قلبي إلى طريق الخير، وأحسست بالاطمئنان وسكينة النفس. قبَّلت والدتي ويد والدي، وقليلاً ما كنت أفعل ذلك، وتخلصت من الروايات التافهة، واستأذنت الوالد في أن أقرأ من كتبه الخاصة، ففرح بذلك كثيرًا، وقال: الآن أنت ابني بحق، فلم تكن تعجبني قراءاتك، ولم يكن يعجبني أصدقاؤك، أخبرني، ما الذي غيَّرك، قلت له: سأخبرك بعد عودتك من الديوان، بإذن الله، وها هي الروايات التي ضيعت فيها وقتي سأرميها، أجابني باسمًا وبحنو وحب قائلاً: وها هي كتبي جميعًا تحت طلبك، اختر منها ما تشاء، كلها خير ونور، وإنني أنصحك أن تبدأ بقراءة سيرة الرسول وصحابته الكرام؛ لتتعلم كيف ربَّى رسولنا العظيم أصحابه، وكيف جعل منهم رجالاً فتحوا العالم، وحطموا أكبر إمبراطورتين ظالمتين (الفرس شرقًا، والروم غربًا)، أتركك الآن، وسألقاك مساءً.

ذهب والدي إلى عمله، وأحسست -حينذاك- أنني كسبت أعظم صديق كنت قد افتقدته كثيرًا في هذه الفترة التي انشغلت فيها بصغائر الأمور، وعلمت الآن أنه

كان يعلم كل شيء عني، ولكنه يأمل أن أعود إلى جادة الصَّواب.

بدأت أتناول طعام الإفطار مع والدتي وإخوتي، ولم يكن يحدث ذلك كثيرًا؛ لأنني كنت أسرع بالإفطار وحدي؛ لأذهب للهو، أو أنكب على الروايات إياها، أما اليوم، فقد أحسست بسعادة كبيرة؛ لأني أجلس مع أمي وإخوتي، وأقص عليهم رحلة الأمس، وتعرفي بشباب لم أر مثلهم في حياتي، خلقًا وأدبًا وعلمًا، استمعت لي والدتي، وهي في غاية السعادة، فأحوالي لم تكن تعجبها، وكانت دائمة النصح لي، ولكن آذاني لنصائحها كانت لاهية، وبدأت أختار من مكتبة والدي ما أحب، وأخذت أنهل من هذه السيرة العطرة لرسولنا الكريم ما بكت له عيناي على تحمله العظيم هذه السنين الطويلة لأذى قريش؛ حتى يبلغ رسالة ربه، وكيف التف صحابته الذين آمنوا بصدقه وروعة دعوته إلى توحيد الخالق العظيم، ونبذ هذه الأصنام التي يعبدوها، ونبذ هذا الفساد والضلال والظلام الذي يعيشون فيه.

علمتني هذه الكتب كيف تكون حياة الرجال الذين يؤمنون بالحق، ويدافعون عنه وينشرونه، ويضحون في سبيله بكلِّ غالٍ ورخيص بـ(الحياة، والأموال، والزوجة، والأبناء).

إن حياة الرسول ﷺ ملحمة إنسانية لا مثيل لها، قرأتها مرات ومرات في كتب متعددة قديمة وحديثة، ورأيت فيها الأعاجيب؛ مما أيقظ في نفسي أرقى المشاعر وأنبل القيم، أين هذه الكتب القيمة من تلك الروايات التافهة، والمجلات الخليعة التي توقظ في الإنسان الغرائز الحيوانية، ولا يحس أبدًا أنه إنسان له كرامة، وله هدف عظيم نبيل يجب أن يؤديه في هذه الحياة.

وأقول الحق: لقد كانت لمقابلتي «وائل شاهين»، وهذه الرحلة، وهؤلاء الشباب، ثم هذا الحديث الطيب الذي سمعته من «وائل» -كان لكلِّ هذا أثر عميق جدًّا في تغيير خط حياتي، ولقد كان منعطفًا مهمًّا، حولني إلى الطريق الصحيح، بعد أن كدت أضل في متاهات الحياة ووحولها.

المنعطف إلى طريق الخير

جاء يوم لقائنا مع الفتيات في مصر الجديدة، تعجبت لنفسي؛ كيف كنت أفعل ذلك، وأقبله على نفسي؛ أليست لي أخت أخاف عليها؟! وهذا العبث السخيف إلى أي طريق كان سيؤدي بنا؟ إلى الهاوية والدمار بلا شك.

وتوقعت ألا يحضر «لطفي» و«عبد العظيم»، وأنهما بلا شك قد أفاقا من غفوتهما، كما أفقت، ولكنني فوجئت بمقدمهما، فصمت ولم أتكلم حتى أعرف حقيقة ما يدور بنفسيهما، سألوني باستغراب: لِمَ لِمْ تستعد لموعد مصر الجديدة؟ نراك ما زلت بملابس البيت، ماذا جرى، لقد كنت أكثرنا حماسًا ورغبةً في هذه المغامرة؟! نظرت إليهما طويلاً، وقلت: استيقظا من هذا الوهم، ألم تسمعا معي ما قاله «وائل»، إنه ليس كلامه، ولكنه كلام الله ربِّ العالمين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، هل معاكسة هؤلاء الفتيات، وضياع الوقت على نواصي الشوارع، والضحك على خلق الله -هو العبادة في نظركم؟!

سألني لطفي باستغراب: إنك لست عبد الرحمن الذي عرفناه -ضاحكًا- الذي يحب العبث واللهو، قلت له: أجل، وهل يستمر الإنسان على خطئه حتى الموت، لقد تنبهت، وأفقت، واعتقدت أنكم تنبهتم وأفقتم مثلي، فقال عبد العظيم بجدية: أنا معك يا عبد الرحمن، ولكن المثل يقول: «ساعة لقبلك وساعة لربك»، ولا يمكن أن تكون الحياة جادة على طول الخط، أجبته: «ساعة قلبك هذه لا تكون في معصية الله ومخالفة القيم والأخلاق؛ فهناك اللهو البريء، والتسلية المفيدة، والرياضة، والسباحة، والحديث الشيق، والكتب المفيدة حتى لا تكون ساعة القلب هذه فيما يغضب الله»، وتجادلنا جدالاً طويلاً أنهيته بحزم قائلاً: يا أصدقائي الأعزاء، لقد اخترت طريقًا غير طريقكم وغير الطريق الذي كنت أسلكه من قبل، وإنني أعرف طريقي جيدًا، فإذا أردتم السير معي فيه، فمرحبًا بكم، وإلا فأقول لصداقتكم وداعًا، ولا ننسى الود والعشرة القديمة، وإنني على أمل كبير في أن نلتقي على الخير، قال لطفي: إن طريقك صعب وطويل وشاق، أما طريقنا، فسهل ممهد محفوف بالحب والبسمات، أجبته قائلاً: ولكن لهذه الحياة نهاية، وحينذاك سيكون الحساب؛ ألا تؤمن بيوم القيامة والحساب؟ أجابني بسرعة: أجل أؤمن بالطبع، ولكني سأتوب قبل الموت، أجبته: وهل تضمن حياتك سنةً أو أسبوعًا أو يومًا، أين صديقنا «حسان»، ألم يمت قتيلاً تحت عجلات القطار أمام أعيننا شابًا في ريعان الشباب؟

أخذ عبد العظيم بيد لطفي قائلاً له: لا تضيع وقتك مع عبد الرحمن، فقد فقدناه، وداعًا يا حاج عبد الرحمن، وانصرفا، وأحسست بفرحة غامرة؛ فلقد تمكنت من الانتصار على نفسي في أول تجربة جادة، فلقد نجاني الله من سقطات كثيرة دون إرادتي، أما هذه المرة، فقد أعانني الله أن أقرر طريقي بإرادتي الحرة، وعزمت على أن أتحمل في هذا الطريق كل صعب وشاق.

وبدأت مرحلة جديدة في حياتي مختلفة كل الاختلاف عن الفترة السابقة في نظرتي للحياة، فقد كنت أعتبر الحياة متعة كبيرة (ضحك ومرح ومغامرات)، ولكني كنت أحس بإحباط شديد، حينما يفاجئني الموت بخطف أحد أعزائي فجأةً، وأوقن أن ما أفعله عبث لا طائل من ورائه، أما الآن، فقد أيقنت أن لحياة الإنسان هدفًا ساميًا عظيمًا هو تمجيد الله بعبادته وشكره، ثم فعل الخير في هذه الدنيا، وإثراؤها بكلِّ طيب وجميل، وأن أعيش للناس والخير، وأن أحب للناس ما أحب لنفسي، وأن أزود هذا العقل الذي وهبه الله لي كنعمة لا مثيل لها -بالعلم والمعرفة، وأن أزود هذا القلب الذي منحني الله إياه -بالحب والنور، وأن أشكر الله على نعمه: نعم الحواس، ونعم الطبيعة، ونعم الدنيا جميعًا، وألا أستعمل حواسي هذه وقواي التي منَّ الله بها عليَّ إلا في حلال وفي طيب وفي خير.

ولقد بدت الدنيا في نظري في ثوبها الجديد طيبة كريمة، وأصبح الموت لا يخيفني أبدًا؛ فهو ليس نهاية، بل هو بداية لحياة جديدة أبدية، تجد فيها ثمرة ما زرعت، وتكسب خيرًا مما قدمت، ولقد بدت فكرة اليوم الآخر والحساب تأخذ أعماقًا جديدة في نفسي، فلقد تربيت عليها منذ طفولتي، ولكن كتعليم وتلقين، أما الآن، فقد استوعبها عقلي، واقتنع بها كياني كله، ووضحت فكرة العدل الإلهي كالشمس الساطعة أمام فؤادي؛ فهناك سيأخذ المقتول حقه من قاتله، والمظلوم حقه من ظالمه، والفقير المعدم حقه من الغني المترف، وهناك سيحاسب اللاهي العابث، والزاني الفاجر، واللعان، والمتكبر، والنمام، والمغتاب، وكل من سعى في الأرض فسادًا، وكل من خرب القلوب والنفوس، وكل من ضل وأضل.

إن العدالة الإلهية العظيمة ستتجلى؛ ليأخذ كل ذي حق حقه أمام العادل الجبار

العظيم، فمرحبًا بك أيها الموت.. سأستعد لهذا اليوم بكلِّ ما يرضي الله، ودعوت الله من كلِّ قلبي أن يعينني على نفسي الأمارة بالسوء، وأن يعينني على الشيطان؛ فإنني قد وهبت حياتي التي هي منحته وفضله له؛ فهو صاحب النعم وصاحب الفضل.

الآن وقد وضحت لي الصورة وضوح الشمس في يوم مشرق، وزال الشك، وبدأ اليقين؛ فلا بدَّ من أن أبدأ حياة جديدة.

نحو الهدف

عبد اللطيف دياب

اغتسلت وصليت ركعتين شكرًا لله على أن هداني إلى طريقه المستقيم، ولأن الطريق المستقيم يحتاج إلى رفقاء خير؛ ليعاونني على السير فيه، بدأت أفكر في أصدقائي القدامى؛ لأختار منهم من يعينني على الخير، والتعاون عليه، وقد بدت صورة صديقي «عبد اللطيف دياب»، و«مصطفى دياب» مضيئة أمام ناظري، لقد نشأت وترعرعت معهما صبيًّا، وعرفت فيهما الخلق والفضيلة والخير، ولقد ابتعدت عنهما في تلك الفترة اللاهية من حياتي، أو بالأحرى هم الذين ابتعدا عن هذه الحياة التي لا تلاءم طبيعتهم الطيبة، وفكرت في غيرهم، مثل «عبد العزيز حسن»: ذلك الصديق الطيب والرفيق الخلوق، و«مصطفى صالح» وأخيه «أحمد صالح»، فـ«مصطفى صالح» كان يتميز بالرجولة المبكرة، والاندفاع، والصراحة، وهناك أيضًا «حسن سميح»، و«إسماعيل مختار»، و«وفيق حمودة»، أما «أحمد» و«مدحت مختار»، فإنهم طيبون، ولكنهم لا يستطيعون الحركة إلا بإذن والدتهم، ثم أخواي «عبد العزيز» و«محمد»، وأخذ ذهني يجول هنا وهناك بين أصدقائي الكثيرين الذين كنت أحب أن أشرح لهم طريق الخير الذي اقتنعت به؛ ذلك لأنني أحبهم وأريد لهم الخير جميعًا.

بدأت بزيارة صديقي الحميمين «عبد اللطيف» و«مصطفى»، فرحبت بي كل العائلة؛ لأنني كنت أراهم في السابق يوميًّا، حتى كدت أصير واحدًا منهم، ولقد

بشرية في هذا الجو الفاسد، هذه النماذج والمثل التي تتمسك بعقيدتها وقيمها المستمدة من ديننا العظيم الذي حكم العالم حتى القرن التاسع عشر، وكان نبراسًا للدنيا، حينما كانت أوربا تعيش في عهود الظلام، وستكون نماذج صلبة، فتكون من عقيدة سامية تمتد في جذور التاريخ أربعة عشر قرنًا كاملين، وستكون أمثلة للفضيلة والأمانة والصدق والقوة والخلق، وسنأخذ بجانب هذا بأسباب القوة المادية أيضًا، فستتعلم، ونأخذ خير ما في هذا العلم ونرفض سيئه، وسنصمم على أن نبني بلادنا التي دمرها هؤلاء الصليبيون، وستتجمع ونتوحد بإذن الله؛ حتى تكون كلمة الله هي العليا؛ لأنها آمال المسلمين، وقد يراها البعض بعيدة، ولكنها ليست مستحيلة، ولا بدَّ أن يبدأ كل منا بنفسه أولاً، فإذا أصلحها أصبح يسيرًا عليه أن يدعو الآخرين.

ووزّع علينا «وائل» كتيبًا صغيرًا اسمه «الرسائل الثلاث»، وطلب منا أن نقرأه، ثم نقول رأينا فيه، وعدنا إلى منازلنا، وقد فتح «وائل» آفاقًا جديدةً لتفكيرنا، وبدأت أقرأ في كتب التاريخ المعاصر والتاريخ القديم، وأرى كيف كنا، وكيف أصبحنا؟!

حقًّا إن الغرب الاستعماري استل سكينة وبدأ في ذبحنا، فهل رأيت أو سمعت عن مذبوح يحب ذابحه، أو مقتول يحب قاتله؟ أجل إن في هذا الزمان السيئ نقرأ كثيرًا في الصحف لبعض الكتَّاب الخبثاء الذين يمجدون في الغرب، ويسفهون في حضارتنا وتاريخنا، ويدعون إلى تقليد الغرب، ورفض التراث، كلا أيها العبيد، لن نقبل هراءكم، وسنعود إلى تراثنا، وسنتمسك بقيمنا، وفي نفس الوقت سنأخذ بأسباب القوة، ولن نقبل أبدًا أن ننظر إلى الجزار بإعجاب واحترام، ولا إلى القاتل برعب وخوف، بل سنأخذ السلاح من على رقابنا، وسنغمده في قلوبهم، ولن يكون ذلك إلا إذا فعلنا ما أمرنا به الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، سنغيِّر ما بأنفسنا من ذل وهوان، وسنرفض الواقع السيئ الذي نعيش فيه، وهذه هي البداية، ثم يأتي التغيير بعد ذلك يسيرًا.

أجل إننا الآن في الخطوة الأولى، وهي رفض كل ما حولنا من استعمار وفساد

وأي صورة من صور الاستسلام لهؤلاء القتلة الجزارين؛ أجل هذه هي البداية، وهي أول الطريق الطويل الذي يفضي إلى النور والوحدة والقوة.

وتقابلت بعد هذه الرحلة مع أصدقائي؛ لأعرف مشاعرهم فوجدتهم جميعًا متحمسين، وقد أيقظت هذه الكلمات الصادقة نبل مشاعرهم، وأحسوا أن هذا هو الطريق الصحيح، وطلبوا مني أن نتقابل مع «وائل» كثيرًا، وكان اللقاء في متنزه عام في «حمامات القبة»، حيث نتسامر ونتكلم في مواضيع جادة تمس أحوال بلادنا ومشاكل المسلمين عامة.

رحلة إلى أعماق الإخوان المسلمين

بدأ «وائل» بتدريبنا على المصارعة اليابانية والمصارعة الرومانية، وأصبحنا نقضي وقتًا ممتعًا جادًا نستزيد من كلٍّ لقاء بشيء جديد، أعلمنا «وائل» أنه ينتمي إلى جماعة اسمها «الإخوان المسلمون»، وأنه يترك لنا الحرية في الانضمام أو عدم الانضمام إلى هذه الجماعة التي تعمل في الحقل الديني والسياسي والاجتماعي، وشرح لنا «وائل» كيف أن الإسلام دين شامل يشمل كل شئون الحياة، فاقترح البعض ألا ننضم لهذه الجماعة الآن حتى ندرسها عن قرب، فلقد كان لها نشاط سياسي بارز، والبعض الآخر رأى أن السياسة في مصر لا أمان لها، واقترح أغلبنا أن نكوِّن أسرة مستقلة عن «جماعة الإخوان المسلمين»، وأن يكون نشاطنا دينيًّا ثقافيًا واجتماعيًا، ونبعد عن السياسة بقدر الإمكان.

أنا لم أكن مقتنعًا بهذا الرأي؛ لأنني على يقين -من خلال قراءتي لسيرة الرسول ﷺ، وسير الصالحين من بعده- أن الدعوة الإسلامية تمس كل جوانب الحياة، والإسلام ليس عبادة فقط، بل هو معاملات وآداب وسلوك وسياسة واجتماع وعلوم وآداب، ولكنني أحببت أن تكوَّن هذه الأسرة، والتي سمَّيناها «أسرة أبي بكر الصديق» بداية للسير على الطريق الصحيح، فكانت أسرة «أبي بكر

الصديق» هذه تجربة رائدة في حرية الرأي والفكر، والاعتماد على النفس، والتزود بالعلم والمعرفة، ومزاولة الرياضة والرحلات والصداقة والأخوة الحقة الصادقة، ولقد اخترنا بالإجماع «وائل» رائدًا للأسرة، ثم اخترنا «عبد العزيز حسن» أمينًا للصندوق يجمع اشتراكاتنا البسيطة التي نقتطعها من مصروفنا؛ لنشتري بها كتبًا وأدوات رياضية، واخترنا «عبد اللطيف دياب» مسئولاً عن الثقافة، فكان يحضر لنا كل أسبوع موضوعًا يلخصه، ثم يشرحه لنا.

سعدنا كثيرًا بمزاولتنا هذه النشاطات الجادة المفيدة، والتي هذّبت نفوسنا، فقد كنا نكتسب كل أسبوع خلقًا إسلاميًا جديدًا، نحاول أن نتمثل به ونطبقه، مثل: إتقان العمل، وحسن معاملة الوالدين والأسرة، واحترام الكبير، والعطف على الصغير، ولقد كانت أسرة «أبي بكر الصديق» بحق تجمع كل أسبوع عضوًا جديدًا نختاره من أصدقائنا القدامى ممن يستهويهم نشاطنا الجاد وعلاقاتنا الحميمة والبعيدة كل البعد عن عبث الشباب في مثل سننا.

وفي هذه الفترة بالذات، ازدادت صلتي الأسرية بعد أن كنت بعيدًا كل البعد عن إخوتي وأمي وأبي، فقد كنت لا أراهم إلا قليلاً، وإذا رأيتهم وجدتهم غاضبين مني؛ لتصرفاتي التي كانوا لا يرضون عنها، أما الآن، فقد أحسوا أنني تغيّرت كلية، ورقت مشاعري معهم، وتهذب حديثي، وزاد احترامي وتقديري لأمي وأبي، بل تكوّنت صداقة حميمة رائعة بيني وبين أبي، فكنت أتناقش معه في العلم والدين والأدب، وكان يقرأ عليَّ كل يوم قصائده الرائعة، والتي يكتبها في كلّ المناسبات، وكنت أتذوقها وأفهمها جيدًا؛ مما يدخل البهجة والسعادة على قلبه - الذي كان غير راضٍ عني فيما سبق- أما الآن، وبعد أن هذّب الإسلام تصرفاتي، فقد بدأت العلاقات الطيبة تعود كما كانت، وسعدت برضا أمي وأبي وحب إخوتي.

مواجهة مرض الكوليرا

انتشر مرض خطير في مصر في هذه السنة (١٩٤٦م)، وهو مرض الكوليرا، وكان يقتل الكثير، وعمَّ الفزع والرعب في مصر كلها؛ فقد تساقط الآلاف من ضحايا هذا المرض الشديد، وبدأنا في أسرة «أبي بكر الصديق» نشتري الصابون المطهر، والمواد المطهرة الأخرى، ونمر بها على البيوت الفقيرة في حي «سراي القبة»، حيث نوزِّعها بالمجان على سكانها، ونشرح لهم باختصار أن الوقاية من هذا المرض تكون بالنظافة الدائمة، وغسل الخضروات، وغلي الطعام، وحتى الخبز لا بدَّ من تعرضه للنار قبل تناوله، وكنا سعداء جدًّا بهذا العمل الاجتماعي الجليل.

ومرت الأيام، وزادت صلتنا وترابطنا، وزاد عدد أفراد أسرتنا، وزاد نشاطنا، وأحسسنا أننا نسير في الطريق السليم؛ حيث نجعل حياتنا للخير وللناس وللمستقبل الأفضل، وليست للشر والفوضى والفساد، كما كنا من قبل.

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث

الطريق إلى فلسطين

فلسطين والتفكير فيها

بدأ العام الدراسي الجديد، ودخلت السنة الثالثة من المرحلة الثانوية بروح جديدة، وبهدف محدد واضح، وكنت من قبل من الطلبة العابثين المثيري الفوضى والشغب في الفصل، أما الآن فأصبحت أحترم الأساتذة، معينًا لهم، منتبهًا لدروسي، أحس بالمسئولية تجاه نفسي وتجاه مدرستي وتجاه زملائي، وكنت أنهل من المعلومات بشوق وحب في الزيادة، وكنت أختار رفقائي وزملائي وأصدقائي من ذوي الأخلاق الحميدة والسلوك المتزن، ولقد لاحظ تغيري هذا كثير من أساتذتي، وشجعوني عليه، وزاد اهتمامهم بي؛ لاشتراكي الدائم في المناقشات العلمية، وانتباهي المستمر لما يقولون، وتحولت الفسحة الطويلة بعد الغذاء، التي كنت أقضيها من قبل في اللعب والمشاغبات -إلى تجمع صغير من الزملاء والأصدقاء، يدور الحديث فيه حول كل ما يفيد من أحداث سياسية أو اجتماعية، أو ما كان يدور في الصحف في هذه الأيام عن مشكلة هامة جذبت انتباهنا جميعًا هي مشكلة فلسطين، ولقد سألت عنها الوالد و«وائل» والأساتذة، وخاصةً أساتذة التاريخ، وقرأت كتابًا كبيرًا يتحدث عن أصل هذه المشكلة وأبعادها، وتتبعت كل ما يكتب في الصحف عنها، وعلمت أنه كان لهذه المشكلة جذور في الماضي القريب، ولكنها تفجرت بعد كشف النقاب عن وعد وزير خارجية بريطانيا لليهود بإعطائهم فلسطين العربية الإسلامية؛ لتكون موطنًا قوميًّا لهم، وهو إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق، وعلمت من قراءتي أن اليهود توجهوا بوفد إلى الخليفة العثماني «عبدالحميد الثاني»، وذلك قبل أن يسقط الإنجليز الخلافة الإسلامية، وطلب الوفد اليهودي من الخليفة إعطاءهم فلسطين، ليكون وطنًا لهم، فقال لهم الخليفة الإسلامي: «إن فلسطين لا يملكها الخليفة، بل يملكها ساكنوها وأصحابها من العرب المسلمين، وأنا -كخليفة- مهمتي حمايتها، وليس التفريط فيها»، فساوموه بطريقتهم المعروفة أن يسددوا له ديون الخلافة جميعًا مقابل إعطائهم فلسطين، فنهرهم، وقال لهم: «إن جميع أموال العالم لا تساوي شبرًا من أرض فلسطين المقدسة»، وطردهم من مجلسه.

ومنذ ذلك الوقت تحالف اليهود مع الإنجليز في محاربة الخلافة الإسلامية،

وقدموا إليهم فيلقًا يهوديًا ليحارب معهم، حتى إذا تحقق النصر للإنجليز على الخلافة يعطوهم فلسطين، فلما انتصر الإنجليز على الخلافة بعد حروب طويلة ساهمت فيها دول أوربا الصليبية، وبعد أن دخل اللورد اللنبي -القائد الإنجليزي- دمشق، ووقف عند قبر صلاح الدين مخاطبًا إياه، قائلاً: الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين، وبعد سقوط الخلافة، التي ساعد على إسقاطها «مصطفى كمال أتاتورك» -الحاكم الجديد لتركيا، والمشكوك تاريخيًا في نسبه- والتأكد من أنه يهودي من يهود الدونمة- وقسمت بلاد الخلافة الشاسعة على الإنجليز والفرنسيين والطليان، وكل من ساهم في إسقاطها، وبدءوا ينهبون ويسرقون ويقتلون- بعد كل هذا منح بلفور وعده اليهود.

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن المسلمين لم يرضخوا بعد سقوط الخلافة للذل، بل قامت الثورات في كلِّ مكان، فقامت ثورة في دمشق والشام، وقامت ثورة في العراق، وثورة في ليبيا، وثورة في السودان، ولكن ماذا يفعل الجسد بعد أن فصلت عنه الرأس.

لقد بدأ الاستعمار في تقسيم أوصال الجسد الإسلامي، فأخذت روسيا الولايات الإسلامية التي توصف ببلاد ما وراء النهر، واحتلت إنجلترا الهند وأذلت الحكام المسلمين هناك، كما احتلت العراق وفلسطين ومصر والسودان واليمن، واحتلت فرنسا المغرب وتونس والجزائر وسوريا ولبنان، واحتلت إيطاليا ليبيا، واحتلت هولندا أندونيسيا.

كانت هذه المشكلة الكبيرة مدار أحاديثنا، وكنا نخوض فيها لنصل إلى أعماقها الحقيقية، فإذا بنا جميعًا نتفق على أن الأصل في كلِّ هذا البلاء هي إنجلترا الصليبية التي حطمت خلافتنا، ومزقت تاريخنا وتراثنا، وها هي الآن مستمرة في ذلك التمزيق، بل تحاول إشراك أخس خلق الله (اليهود) في نهش أقدس مكان في أرضنا -فلسطين- أرض بيت المقدس، ومهبط الأنبياء، إن عدونا الأول هو الإنجليز من غير شك، ثم ها هم يغرسون عدوًا خسيسًا آخر لتحول الأنظار عنها.

وكنا نتفق دائمًا في كلِّ مناقشاتنا على أنه لا بدَّ من حرب الإنجليز واليهود معًا،

ولكن كيف؟ كان هذا هو السؤال الذي يؤرقنا، ولقد تركزت أحاديثنا وقراءاتنا واهتماماتنا في هذه الفترة التاريخية -والتي كنا نعتبر أنفسنا -نحن الشباب- مسئولين عنها، وأن الله سيحاسبنا على كلِّ تقصير فيها- تركزت على المشكلة الفلسطينية، وكيف تعد بريطانيا واليهود عدتهم لاغتصاب قطعة عزيزة من الوطن الإسلامي.

لقد اجتاحت المظاهرات العارمة كل الوطن الإسلامي -وخاصةً مصر- فلقد كان الشعور في ذلك الوقت قويًا حارًا نابعًا من القلوب، ولقد قامت مظاهرة من مدرستنا، واشتركنا فيها اشتراكًا إيجابيًا، وخرجت المدرسة عن بكرة أبيها بعلم المدرسة، واتجهنا بالمواصلات نردد من القلب هتافات تدعو إلى سقوط إنجلترا، وتبين رفضنا لوعد بلفور هذا، وأن حياتنا ودماءنا فداء لفلسطين والبيت المقدس، وكل هتاف يخرج من القلب صادقًا مدويًا يملأ الدنيا معلنًا عن فهمنا للمؤامرة، ورفضنا إياها، واتجهنا إلى ميدان الأوبرا حيث نظم «الإخوان المسلمون» و«مصر الفتاة» وكل الأحزاب الوطنية تجمعًا هائلاً هناك حيث ترى مئات الألوف من البشر متجمعين في مكان واحد، الكل يرفض المؤامرة، والكل على استعداد للتضحية.

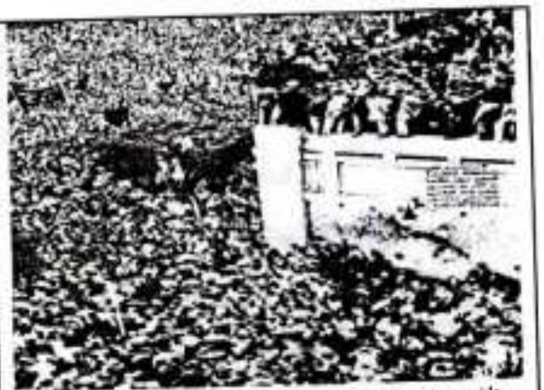

مظاهرة إخوانية بسبب قرار تقسيم فلسطين ١٩٤٧م

إنني أذكر هذا اليوم، فقد أحسست فيه بصدق مشاعر الجماهير، وأنها تستطيع أن تفعل الكثير، إذا قادها زعيم مخلص، راجح العقل، ووقف الخطباء يخطبون، وإنني أذكر منهم «أحمد حسين» -زعيم مصر الفتاة- والذي لم يقل إلا جملتين: «أيها الشباب، إنني ذاهب إلى فلسطين، فمن يريد أن يتبعني فليتبعني»، ثم رفع يده حاملاً مسدسًا ضخمًا أطلق منه طلقه، ثم انسحب، وسمعت لأول مرة حسن البنا -مرشد الإخوان المسلمين- كان هادئًا رحيبًا، تكلم كلامًا مختصرًا، ولكنه واضح، يشرح القضية وأبعادها، ويوضح أنها مؤامرة صليبية يهودية لتمزيق العالم الإسلامي بلدًا وراء بلد، وإن لم ندافع اليوم عن فلسطين، فسيأتي الغد لنجد بلدنا

يلاقي نفس المصير؛ فلا بدَّ أن نعي حقيقة المؤامرة، ثم نستعد لها بالقوة والسلاح، ثم نخطو خطوات جادة في الجهاد والحرب، ثم دعا الجميع إلى الانصراف؛ لنبدأ خطوات عملية تساعد على منع هذه المؤامرة.

عقبات على طريق الجهاد

عدنا إلى منازلنا، وقد شحنت شحنة هائلة ليس من الحماس الوقتي، بل بالاقتناع القلبي والعقلي الذي ملأ كياني كله، وهو أنه لا بدَّ من التضحية، ولا بدَّ من القتال، ولكن من أين أبدأ؟ وكيف أتطوع في الجيش؟ وبدأت أذهب إلى أقاربي الضباط، وأطلب منهم مساعدتي، فكان الجميع يعجبون لحماسي، ولكنهم في النهاية يثبطون عزيمتي أنني لست في السن المناسب للتجنيد، وإنني طالب، وأن الجيش حباله طويلة، وقال لي قريب آخر: بصراحة ابعد عن الجيش، فإنك ستصطدم، وسيزول حماسك؛ مما ستراه فيه من تحكم المربين أنصاف المتعلمين، وستمكث ستة أشهر تتعلم فيها شمال يمين، وفي النهاية قد ينقلوك سلاح الخدمات، لتعمل جندي مراسلات لأحد الضباط تخدم البيت وتشتري الخضار للعائلة، انتبه يا بني لدراستك، ولا تدفن هذا الحماس بالواقع المر الذي لا تعلم عنه الكثير.

لم يؤثر هذا الكلام في نفسي أبدًا، ولكنني اتجهت بحماس وإخلاص باحثًا عن طريق آخر يوصلني إلى أن أقدم روحي وحياتي وشبابي دفاعًا عن هذه القضية التي آمنت بها، وملأت عليَّ كياني، فلقد برزت في مخيلتي صورة أحمد حسين -زعيم مصر الفتاة- حينما وقف في ميدان الأوبرا، ولم يتكلم غير جملتين اثنتين، وأطلق مسدسًا في الفضاء قائلاً: «إنني ذاهب إلى فلسطين، فمن أراد أن يتبعني فليتبعني»، لقد قلت في نفسي: هذا هو الطريق الذي يجب أن أتبعه، لقد ذهب الرجل فعلاً ليجاهد، ولم يخطب كما خطب غيره، كيف فاتني الذهاب إلى حزب مصر الفتاة، وضيعت وقتي هنا وهناك، وذهبت لفوري إلى مكتبهم الرئيسي، وطلبت مقابلة أحد المسئولين هناك، وضاع وقت طويل من مكتب إلى مكتب، ومن مسئول إلى مسئول، ولم أجد جوابًا شافيًا لطلب التطوع للجهاد في فلسطين، ولم أحس أبدًا بأية جدية، أو أي حماس يتناسب مع جديتي وحماسي.

وأخيرًا فوجئت برؤية «أحمد حسين» -زعيم مصر الفتاة- بنفسه، فلقد صور لي خيالي أنه هناك في فلسطين يحارب، كما أعلن أمام الجماهير، فذهبت إليه، وعرفته بنفسي، وطلبت منه أن أكون مع الكتائب التي ستذهب للقتال في فلسطين، فقابلني بصدر رحب، واستمع إلى كلامي بهدوء، وكان جوابه لي: إن الإعداد للكتائب يأخذ وقتًا طويلاً وتدريبًا شاقًا مني وأموالاً طائلة، فأخبرته أنني مستعد لكلّ هذا، فطلب مني أن أترك اسمي وعنواني، وسيطلبني في الوقت المناسب، ولم أحس أبدًا بحرارة الصدق، وكيف أصدق وها هو أمامي، وقد أعلن أمام الجماهير بعد أن أطلق مسدسه في الفضاء أنه ذاهب إلى فلسطين، ومن أراد أن يتبعه فليتبعه، وها أنذاك أراه أمام عيناي لم يذهب، كما أعلن، وها أنذاك أريد أن أتبعه، كما طلب، وكلي حماس واقتناع بالقضية حاملاً روحي على كفي، فإذا بي أسمع كلامًا كله تسويف وتأجيل، لقد أصبت بإحباط شديد، هل هكذا يطلق الزعماء التصريحات، ثم لا ينفذون ما يقولون؟! هل كل هذا دعاية في الصحافة والإعلام؟!

عدت إلى منزلي حزينًا، ولكن حماسي لم يفتر أبدًا، بل زدت تصميمًا، وأخذت أناقش والدي، وأنا أخفي في نفسي ما أنوي عمله، ولكنني تناقشت معه في القضية الفلسطينية، ولقد كان والدي بحر علم، فقد تكلم معي بإفاضة عن سلسة المؤامرات التي يدبرها الإنجليز واليهود لمحاربة الإسلام، بدأ بمحاربة الخلافة، وانتهى باحتلال بلاد المسلمين، واستمراره في تمزيقنا من داخلنا، وتسليم أراضي المسلمين لليهود، ولقد قصّ عليّ والدي المؤامرات اليهودية، منذ بداية الدعوة الإسلامية، أيام رسول الإسلام العظيم ﷺ، وكيف حاول اليهود قتله، وسمَّه، وخيانته، وموالات أعدائه، وكيف كاد اليهود للإسلام على طول تاريخه، وأنهم كانوا على الدوام وراء كل المؤامرات أو الحروب أو الخيانات، وكانوا دائمًا يستترون بالظلام.

أما الآن، فقد كشروا عن أنيابهم بعد أن ساهموا في إسقاط الخلافة الإسلامية، والتي كانت درعًا وحصنًا للمسلمين، وها هي مؤامراتهم مع الإنجليز الصليبيين تظهر علنًا لإعطاء فلسطين لليهود، ولن تقف أطماع اليهود أبدًا عند ذلك، فهم يريدون بلادهم من النيل إلى الفرات، بل يريدون أكثر من ذلك، يريدون الذهاب إلى المدينة المنورة لإذلال المسلمين والانتقام منهم، إنها -يا بني- مؤامرة ضخمة كبيرة، وإذا لم نقاوم بشجاعة وقوة سيتمكنون من تنفيذها، ويا ويل المسلمين؛ إذا

تمكن اليهود من رقابهم، إنهم أخس خلق الله، ويا ويل من يقع تحت أيدهم».

لقد زاد كلام والدي حماسي وتصميمي على الذهاب للجهاد، وزاد اشتعال الشرارة في قلبي، ونذرت أمام الله نفسي دفاعًا عن ديني وأرضي، ودعوت الله أن يوفقني ويقبلني شهيدًا عنده.

كنت أذهب إلى المدرسة، ولكن كياني كله مشغول بالقضية التي ملأت عليَّ حياتي، وكنت أجلس في الفصل لا أسمع مما يقال حولي شيئًا، لا شرح المدرسين، ولا نقاش التلاميذ، ولقد لاحظ شرودي الدائم أساتذتي الذين كانوا يعرفون عني الانتباه والمشاركة والاستيعاب السريع، ولقد كلمني الكثير عن حالتي تلك، وقد حسبوها حالة نفسية لمشاكل أعيشها في المنزل أو خارج المنزل، ولكني لم أبح لأحد عما في داخلي حتى لأقرب أصدقائي وزملائي، والذين كانوا يحاولون إخراجي من صمتي ومن شرودي بنكاتهم ومرحهم، ولكني لم أستطع حتى الابتسام معهم حتى جاء ذلك اليوم الذي انفجرت فيه كبركان ثائر، وما كنت أحسب أنني أملك هذا الكم الهائل من المشاعر تجاه القضية التي أعيش من أجلها، فلقد دخل الفصل مدرس اللغة الفرنسية كان اسمه «مسيو ألبير»، وهو رجل طويل يلبس نظارة سميكة، ووجهه الأحمر وأنفه المقوسة ينبئان أنه ليس مصريًّا، حتى لكنته المصرية لم تكن سليمة، لقد بدأ حديثه بالكلام عن المظاهرات التي يقيمها الطلبة، وأنها مضيعة للوقت، وأخذ يستطرد في تسفيه هذا العمل -كنت شاردًا كعادتي- ولكنني انتبهت أشد الانتباه لكلامه، والذي أحسست أنه عدائي ومتحامل للغاية، ولما لم يرد أحد من الطلبة عليه؛ رفعت يدي بأدب لأتكلم، ولكنه تجاهلني، فوقفت وقلت له: «إن المظاهرات يا أستاذ «ألبير» تعبير منا عن الاستنكار والرفض لهذه المؤامرة التي تحدث في فلسطين»، فقال لي بتعال: «أية مؤامرة تلك التي تتحدث عنها؟» قلت له بهدوء: «مؤامرة تسليم فلسطين العربية لليهود»، فقال لي بحدة: «أوليس لليهود حق الحياة كغيرهم؟» أجبته: «إنهم يعيشون آمنين في شتى بقاع العالم، ففي مصر يهود، وفي كل البلاد الإسلامية والعربية يعيش اليهود باطمئنان كامل، بل هم يملكون البنوك والشركات وأغلب اقتصاد البلاد»، أجابني: ولكن من حقهم أن يتجمعوا في بلد واحد»، قلت له: «هل نبني سعادة اليهود على شقاء أصحاب البلاد الأصليين؟ هل تقبل أن يطردك بعض الناس من منزلك بحجة أن ليس عندهم مكان مريح

يعيشون فيه؟ هل هذا منطق يرضى به إنسان؟» قال لي بإسلوب متعـال: «اجلـس، والتفت لدورسك، ولا تتكلم في أشياء أكبر منك».

ساد الصمت الفصل، وقد تعجب زملائي من نقاشي هذا، وبعد طول صـمت وسكون، واصلت نقاشي مع «مسيو ألبير»، وقد تصورت أنه لا بدَّ أن يكون يهوديًا ليتكلم بهذا المنطق المقلوب، وبهذه الحدة وهذا الاستفزاز، قلت له: إنـني يـا أسـتاذ «ألبير» رددت على تسفيهك لتعبيرنا -بل تعبير مصر كلـها- عـن الاسـتنكار لهـذه المؤامرة بالمظاهرات الـسلمية الـتي نـرفض فيهـا مـا يحـدث، وتعجبـت مـن قلبـك للحقائق، ودفاعك عن اليهود المغتصبين، فقال لي بغضب شديد: اصمت واخـرج من الفصل فورًا، وحدث هرج ومرج في الفصل، ووقـف بعـض التلاميـذ، وقـالوا للأستاذ «ألبير» بشجاعة: إن زميلنا لم يخطئ، إنه يناقشك في أمر يهمنا جميعًا، ونحس به جميعًا، فلماذا تطلـب منـه مغـادرة الفـصل؟ احمـر وجـه الأسـتاذ، وبـدأت يـداه ترتعشان، وهاج وماج، وطلب من الزملاء الذين دافعوا عني الخـروج مـن الفـصل أيضًا، وتأزم الموقف، وأصبحت أمام أحد أمرين، إمـا أن أخـرج مـن الفـصل، وفي هذا اعتراف مني أنني مخطئ، وفيه تخلٍ عن زملائي الذين أيدوني، بـل عـن الفـصل جميعًا، والذي أحسست أن مشاعرهم كلها معي، فقلت للأستاذ بكلِّ ثقةٍ: إنـني لـن أخرج من الفصل، ولن يخرج أحد معي؛ أولاً: لأنني لم أرتكب خطأً واحـدًا، ثانيًـا: لا بدَّ أن تعتذر للفصل كله؛ لأنك سفهت مشاعرنا، وأهنت قـضية قوميـة ووطنيـة نؤمن بها جميعًا -نحن العرب- فصاح الأستاذ «ألبير» -وجسده كلـه يهتـز: «عـرب جرب، عرب جرب»، فقلت، وأنا أتمالك نفسي: «لا يقول هذا إلا عدو أو يهودي، فهل أنت يهودي يا أستاذ «ألبير»؟» فصاح خارجًا عن وعيـه: «أجـل أنـا يهـودي، اخرج يا عربي من الفصل»، وهجم عليَّ محـاولاً طـردي مـن الفـصل، فأمـسكت بالدواة المملوءة بالحبر، وهددته بهـا ليبتعـد عـني، ولكنـه اسـتمر في الهجـوم عليَّ بشراسة، فألقيت بالدواة عليه، وتحول الأستاذ «ألبير» إلى مهرج، وقد امـتلأ وجهـه وملابسه بالحبر، وضجَّ التلاميذ بالضحك، وانهار الأستاذ «ألبير»، وقد فقد هيبتـه، وأثار الضحك عليه.

تألمت كثيرًا لما فعلت؛ فلم أكن أتصور أن أفعل ما فعلت حتى مع زميل، ولكنه طعنني وطعن كل ما أقدسه بكلِّ شراسةٍ وحقدٍ، بل لو تركته لافترسني بما يحمله قلبه من غضب وكراهية.

وفجأة وجدت الفصل قد امتلأ: الناظر، والوكيل، وبعض المدرسين، وأخذوني للتحقيق، فقلت لهم: لن أتكلم حتى تسمعوا من زملائي ما حدث، واستمعوا من الزملاء كل ما حدث بصدق، ولكنهم رغم ذلك، ورغم اقتناعهم بخطأ الأستاذ - وهم يعلمون جيدًا أنه يهودي- أصبحت أنا المخطئ، وفصلت من الفصل أيامًا ثلاثة، ولكن طيب ناظر المدرسة خاطري، فأخذني إلى مكتبه، وقال لي بكلِّ صدق: إنني أكبر فيك وطنيتك وحماستك في الدفاع عن قضية نؤمن بها جميعًا أمام يهودي متعصب، وأنا أعرف تعصبه جيدًا، ولكنني آخذ عليك فقط رميه بدواة الحبر، فقد سخرت منه المدرسة كلها، وإنني أعرف عنك الهدوء والخلق الطيب بشهادة كل أساتذتك، والذين تعجبوا من ثورتك هذه، وأكدوا جميعًا أن هذه الثورة لا بدَّ وأن يكون لها أسباب قهرية، ولقد شهد جميع زملائك في صفك، وعلمت أنه تهجم عليك، ولكن أود أن أقول: إن الأستاذ -مهما حدث منه- احترامه واجب؛ أليس كذلك؟ قلت له: بالطبع، وكم تمنيت ألا ينتهي النقاش بما حدث، لولا تهجمه عليَّ، فأنا كنت في موقف الدفاع عن النفس.

وقضيت الأيام الثلاثة أبحث فيها عن طريق يوصلني إلى فلسطين، قضيتي التي أعيش من أجلها، فاتصلت بـ«وائل شاهين» مرارًا، ولم أجده، فقد اعتذر مرتين عن اجتماع أسرة «أبي بكر الصديق»، وقد علمت أن سبب انشغاله هو اشتراكه في التدريبات العسكرية، والاستعداد للذهاب إلى فلسطين، تركت له ورقة في بيته في «العباسية» أرجو منه الحضور لاجتماع عاجل لـ«أسرة أبي بكر»، وبعد أيام ثلاثة حضر «وائل» الاجتماع، وتكلمت وكان كلامي مختصرًا واضحًا، قلت: كان اجتماعنا في «أسرة أبي بكر» لنتعلم فيه الإسلام الصحيح، ولقد استفدنا كثيرًا، وها قد جاء الوقت لنترجم ما تعلمناه عمليًا بعمل جاد نافع، ولقد تعلمنا أن الجهاد فريضة، وها قد جاء وقت الجهاد دفاعًا عن أرض الإسلام، عن بيت المقدس، ونحن شباب، ويجب أن نذهب للجهاد؛ حتى لا نكون ممن قال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا

تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، وها قـد آن الأوان لنثبـت صـدق إيماننـا، ونـصدق القول بالعمل، وإنني أطلب حل الأسرة، وأن نسعى جميعًا لنتحـول إلى مجاهـدين في سبيل الله، فردَّ عليَّ بعض الأخوة قائلين: «إن الجهاد يحتـاج إلى إعـداد، وقـد قـال تعــالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]».

الشهيد محمد فرغلي بين عبد الناصر والشافعي

قلـت لـه: صـدق الله العظـيم، وإنـني أدعوكم جميعًا، وأدعو نفسي قـبلكم إلى أن نعد أنفسنا للجهاد، ونبحـث عـن الطريـق الذي يوصلنا إلى هذا الجهاد، ولا نجلس في أماكننا ننتظر، وإنني أطلب منك يا «وائـل» بحق أخوتنا أن تساعدنا على ذلـك، وإنـني أعلم أن «جماعة الإخوان المسلمين» يستعدون لإرسال كتيبـة إلى فلـسطين، فأجـابني «وائل» بكلِّ صدق: «إنني أوافقك على كلِّ ما تقول، بـل أزيـد عليـه أن للإخـوان معسكرًا للتـدريب والقتـال في «معـسكر الـبريج» في غـزة، بقيـادة الأسـتاذ «محمـد فرغلي»[(١)]، والمجاهد «كامل الشريف»[(٢)]، وأن مجموعة كبيرة قد سـافرت إلى هنـاك، ولكن السؤال الذي أسأله: هل سنكم مناسب لتحمل مشاق الجهاد والحرب؟ هذا

(١) **محمد فرغلي**: أحد الذين التحقوا بدعوة الإخوان المسلمين منذ نشأتها، وتولى مسئولية منطقة الإسماعيلية، وكان عضوًا بالهيئة التأسيسية للإخوان، ثـم أصبح عـضوًا بمكتـب الإرشـاد، وكان له بصمات ومواقـف عظيمـة في المجتمع، وتـولى قيـادة جيـوش الإخـوان في حـرب فلسطين عام ١٩٤٨م، وحرب القنال عام ١٩٥١م، وأعلن الإنجليز عن هدية خمسة آلاف جنيه لمن يأتي برأسه، حكم عليه عبد الناصر بالإعدام، ونفذ الحكم في ديسمبر ١٩٥٤م.

(٢) **كامل الشريف**: من قادة كتائب الإخوان في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، خرج من مصر عـام ١٩٥٤م، وقام عبد الناصر بسحب الجنسية منه، ولذلك تجنس بالجنسية الأردنيـة، وعيَّنـه الملك حسين وزيرًا للأوقـاف بعـد ذلـك، ولـه كتابـات أهمهـا: «المقاومـة الـسرية في قنـاة السويس»، و«الإخوان المسلمون في حرب فلسطين».

بالإضافة إلى أنك ما زلت طالبًا»، فقاطعته قائلاً: «أما بالنسبة لسني، فإنه مناسب جدًّا؛ فسني ستة عشر عامًا، وإنني والحمد لله في ريعان الفتوة والقوة، ومَنْ غير الشباب يتحمل المشاق؟ أما بالنسبة إلى أنني طالب؛ فالجهاد لا يفرق بين طالب وعامل وموظف»، صمت «وائل» طويلاً، ثم قال لي: «سأوصلك للأستاذ «حسن البنا»، ليبدي رأيه؛ لأنه حسب علمي لم يوافق على إرسال طلبة إلى فلسطين، ولكن حاول بنفسك»، وطلبت أخذ الرأي في أن نحل الأسرة لنتفرغ جميعًا للجهاد وأخذنا الرأي، ووافق الأغلبية على حلها للاستعداد للجهاد في فلسطين، واتفقت مع «وائل شاهين» على أن أقابله يوم الثلاثاء المقبل، وذلك في المركز العام للإخوان المسلمين لمقابلة مرشد الإخوان الأستاذ «حسن البنا».

اللقاء الأول بالإمام الشهيد «حسن البنا»

الإمام الشهيد حسن البنا

أحسست أني بدأت أسير على الطريق إلى فلسطين، فقد شعرت بصدق الرجل أثناء خطبته في المظاهرة الضخمة في ميدان الأوبرا، والذي تكلم فيها بإخلاص وذكر وجوب الاستعداد للجهاد، ودعوت الله أن يكون صادقًا ومخلصًا، وليس مثل الآخرين: كلام دون عمل، وجاء يوم الثلاثاء، وتوجهت للمركز العام للإخوان المسلمين، وكان بـ«الحلمية الجديدة» (منزل قديم، من طوابق ثلاثة، به حوش كبير يستعمل كمسجد تفرش فيه الحصر لأداء الصلاة، ثم ترفع، وتوضع مكانها كراسي في صفوف متراصة، ويتحول المكان في لحظات إلى قاعة محاضرات مكشوفة، كان المكان مكتظًا بالآلاف يقفون في الميدان المحاط بالمبنى والشوارع المؤدية إليه، خلط من كلّ الطبقات وكلّ الأعمار، تحس المودة والتعارف بينهم، ترى على كلّ الوجوه مسحة من السماحة والود، يتبادلون الأحاديث في مجموعات متعارفة تحس كأنهم أسرة كبيرة واحدة، وقفت بينهم وحيدًا، فأنا لا أعرف أحدًا منهم، ولكنني في نفس الوقت لا أشعر بغربة عنهم، بل أحس نحوهم

يود كبير، أخذت أبحث عن «وائل» في هذا الخضم الضخم من البشر، فلم أجده أبدًا، ويبدأ صوت مكبر الصوت يبدأ باسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وإذا بهذه الأصوات التي تشبه الدوي حولي يسودها السكون والصمت؛ ليسمعوا ما يقال، ويتكلم بعض الخطباء، وكان الموضوع الرئيسي عن فلسطين، فأنصت بكلِّ جوارحي لكلام كله صدق، وأخيرًا تكلم «حسن البنا».. كان أسلوبه ساحرًا رغم بساطته، ولكنه يجذب القلوب بصدقه، ويدخل كلامه العقل والقلب معًا، فلقد سمعت كثيرًا من الخطباء والعلماء، ولكن «حسن البنا» لم يكن حديثه كحديثهم، بل هو صادق من قلب مخلص، وعقل عبقري، ونفس شفافة، وإرادة قائد تعرف ما تريد، وعلم متعمق في كلِّ أمور الدين والدنيا، وتواضع جم، وبساطة، ووضوح في كلامه الذي يصل إلى القلوب، وتقتنع به العقول.

أحسست -وأنا أسمعه- أن هذا الرجل غير عادي، وأنه فذ لا يتكرر، وأنه زعيم مصلح يستطع أن يصنع الكثير لهذه الأمة، وانتهى حديثه الذي كان عن المؤامرة الكبرى، وعن واجب المسلمين لصدها، ولقد عمق ما كنت أحس به، بل زادني يقينًا على يقين أن حياتي هينة في سبيل الله، وفي سبيل الدفاع عن ديار الإسلام، ولقد أبرز ثواب الشهداء ومكانتهم عند الله، فهم في منزلة بعد الأنبياء، وجعلني أتمنى أن أكون شهيدًا لأنعم بهذا النعيم الدائم المقيم.

حشود الإخوان المسلمين في المركز العام

أخذت أبحث عن «وائل شاهين»؛ ليعرفني بالأستاذ «حسن البنا»، ولكن كيف أجده في وسط هذه الجموع والأفواج من البشر، ولم أتردد وتوجهت أشق طريقي بين الجموع لأصل إلى «حسن البنا» نفسه؛ لأكلمه وأطلب منه أن يقبلني متطوعًا في كتائبه التي يعدها للجهاد، وصلت إليه بعد طول معاناة؛ فقد كان أنصاره ومحبوه يقفون صفوفًا ليحيوه وليسألوه، وكان يستمع إلى

الجميع، ويحيي الجميع، ويجيب عن كل من يسأله، كنت قريبًا منه أنظر إليه، وأستمع إلى أحاديثه وإجاباته المملوءة بالعلم والصدق، إلى أن وصلت إليه، وسلمت عليه، ونظرت إلى وجهه المشرق، وعينيه الصافيتين العميقتين، وطلبت منه أن أنضم لكتائب الجهاد إلى فلسطين، فسألني عن اسمي، وقال لي: بالطبع أنت طالب يا عبد الرحمن، وسيكون الطلبة آخر من يذهبون؛ فإن تحصيل العلم نوع من الجهاد، وأحسست بطعنة في صدري، كيف عرف أنني طالب، لقد كان «حسن البنا» هو أملي الأخير، ولكنه خذلني، ولكنني لم أيأس، قعدت بصفوفه مرة أخرى إلى الصف الذي يسأله، وحاولت تغيير هيئتي أن رفعت ياقة قميصي، وقطبت وجهي، وخشنت صوتي، وتوجهت إليه مرة أخرى متقمص شخصية العمال، وقلت له بصوت خشن: أريد الذهاب إلى فلسطين، إنني من العمال، فنظر إليَّ مبتسمًا وأمسك بأذني، وقال لي: «لا تكذب يا عبد الرحمن، لقد قلت لك: إن العلم نوع من الجهاد، وسيجزيك الله على صدق مشاعرك»، احمر وجهي خجلاً، وتركته وأنا أتعجب كيف تذكر اسمي، وكيف عرفني وأمامه الآلاف يحيونه ويسألونه ويحدثونه؛ لا شكَّ في أنه إنسان غير عادي.

وأخيرًا وبعد أن خف الزحام وجدت «وائل شاهين» ينتظرني، فأخبرته بالحوار الذي دار بيني وبين الأستاذ «حسن البنا»، وكيف أنني تخفيت، وغيَّرت صوتي ولهجتي، وكيف أنه عرفني، وكشف حيلتي الساذجة؛ فانفجر «وائل» ضاحكًا، وقال لي متسائلاً: «والآن ماذا ستفعل؟» قلت له بتصميم: «لن أيأس أبدًا، وإنني بإذن الله قد نذرت نفسي لله، ولن يدخل اليأس إلى نفسي أبدًا»، ورجعت مع «وائل» في الترام، وكان حديثنا يدور عن هذا العبقري، وحكى لي «وائل» كثيرًا عنه، وعن ذكائه وألمعيته وعلمه وفقهه، وأنه بالإضافة إلى كلِّ هذا رجل دولة وسياسة، وضع أمامه أهدافًا كبيرة يعمل لتحقيقها، هذه الأهداف هي الوحدة الإسلامية، وعودة الخلافة، إنه هدف بعيد وصعب التحقيق، ولكن هذا الرجل لا يعرف المستحيل.

الخطوة الأولى نحو الجهاد

مكتب إدارة المتطوعين

لم أشعر باليأس أبدًا حقًا لقد أغلقت كل الأبواب أمامي، ولكني سأحاول وأحاول حتى أصل إلى ميدان الجهاد، داومت على الذهاب إلى المركز العام للإخوان المسلمين كل يوم ثلاثاء، وهو يوم الاجتماع العام، وكنت أذهب مبكرًا، حيث أصلي المغرب جماعة وراء الأستاذ «حسن البنا»؛ فقد شغفت بهذا الرجل، وأحببته، وأحسست بصدقه وإخلاصه؛ فكنت أداوم على الذهاب إلى مركز الإخوان؛ لعلي أقابل في يوم ما أحد المتطوعين، وأسأله عن الطريق إلى فلسطين، ولكن كيف أجد بغيتي، فإنني لا أجد حولي من يلبس الملابس العسكرية، فهم لا يحبون المظاهر والدعايات، بل كانوا يعملون لله خفية دون ترائي؛ حتى يكون عملهم خالصًا لله.

وفي أحد أيام «الثلاثاء» ذهبت مبكرًا كعادتي، فوجدت شابًا أسمر اللون يقف وحيدًا، وقد ربطت يده بأربطة طبية ومعلقة في رقبته، وكان يستمع إلى الكلمات التي يلقيها بعض الخطباء بإنصات شديد، أحسست إحساسًا خفيًا أن هذا الشاب قد يكون من المجاهدين، وقد أصيب في المعركة، وجاء للعلاج؛ فوقفت بجواره، وعندما انتهى الخطيب من حديثه، سألته عن سبب إصابة ذراعه؟ فقال لي بابتسامة هادئة: إنها إصابة بسيطة، قلت له محاولاً فتح الحديث معه: خيرًا، إنْ شاء الله، هل هي حادثة سيارة أم ماذا؟

في بداية الأمر كان يحاول إنهاء الحديث معي، ولكنه عندما وجدني شديد الاهتمام بحالته؛ قال لي: باختصار، إنها رصاصة أصابتني، والإصابة ليست خطيرة، أحسست بفرحة غامرة، فقد وجدت ضالتي، وصدق حدسي أنه أحد المجاهدين، قلت له وكلي أمل في أن يفتح لي قلبه: هل أصبت في فلسطين؟ فقال لي بهدوء: أجل، لقد أصبت في إحدى الدوريات هناك، وعولجت، وأعطوني أجازة أسبوع،

وسأسافر غدًا، بإذن الله، أحسست إحساس الغريق الذي فقد الأمل في النجاة، وإذا به فجأة يجد من يمد له يد العون لينقذه، قلت له: أحب أن أتعرف عليك، فأنا فخور جدًا أن أقابل مجاهدًا، وعرفني باسمه «عبد الله إبراهيم» -عامل، في العشرين من عمره، غير متزوج، ذهب إلى القتال منذ أسابيع ثلاثة- أخذت أسأله أسئلة كثيرة عن نوع القتال، ونوع التدريب، وأين مكانهم، أخبرته بصراحة أنني أريد التطوع، ولكنهم منعوني؛ لأنني طالب، ولقد أحس «عبدالله» بصدق لهجتي، ففتح لي قلبه، وحدثني عن كلِّ ما سألت، قلت له راجيًا: هل أستطيع أن أسافر معك غدًا؟ قال: إن ذلك مستحيل، أولاً يلزمك الملابس العسكرية، ثم لا بدَّ من وجود تصريح بالمرور من القنطرة؛ فهي منطقة عسكرية يفتشون فيها عن التصاريح، وأراني تصريحه، وبطاقة تطوعه عن طريق الجامعة العربية، وقال لي: إن الأمر ليس سهلاً؛ لأنك لا بدَّ أن تركب القطار الذاهب إلى الإسماعيلية والقنطرة، وهو قطار حربي به البوليس الحربي يدقق على كلِّ شيء، ثم لا بدَّ من المرور من جمرك القنطرة، وبعد ذلك لا توجد مشكلة؛ فسيصل بك القطار إلى خان يونس، ثم غزة، وهناك معسكر اسمه «معسكر البريج»، وقائداه الأستاذ «محمد فرغلي» والأستاذ «كامل الشريف»، ويوجد شباب في سنك، وإذا حضرت اسأل عني، وسأكون عونًا لك هناك، شكرته كثيرًا، وحييته بسعادة، وأكدت له أنني سأقابله هناك بعد أيام قليلة، دعا لي بالتوفيق، ولكنه أوصاني أن تكون كل أوراقي سليمة؛ حتى لا أتعرض لمشكلات كبيرة مع البوليس الحربي، ودعته وذهبت إلى المنزل سعيدًا جدًا بهذه المعلومات، ولم أنم تلك الليلة، فقد كنت أفكر كيف أتخلص من هذه العقبات لأصل إلى بغيتي، وأخيرًا نمت قرب الفجر، والأحلام الرائعة في ميدان القتال والجهاد تملأ عليَّ عالم الخيال.

استيقظت على صوت الوالدة توقظني لأذهب إلى المدرسة؛ فتيقنت أنني ما زلت في الواقع، وأنه ما زالت أمامي صعاب كثيرة لا بدَّ أن أتخطاها لأحقق أملي الكبير، ودعوت الله أن يوفقني، وسألت نفسي: ترى لو علمت أمي ما يدور في عقلي، ماذا كانت تفعل؟ حمدت الله أن القلب صندوق مغلق لا يعلم ما يدور فيه إلا خالقه وحده.. يا رب حقّق ما يدور في قلبي، واجعل أمي وأبي يتحملان هذه

الصدمة برفق وسكينة وصبر، تذكرت المثل الصيني الذي يقول: «إن رحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة»، ومعنى هذا أنك لن تستطيع أن تصل إلى هدفك إلا إذا بدأت في التحرك، كما تذكرت قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فإن معناها أعمق وأوثق؛ فلا بدَّ من العزيمة والإرادة أولاً، ثم الاعتماد على الله، جعلت هذه الآية نصب عيني وملء قلبي، فغايتي شريفة، والعقبات أمامي كثيرة، والإرادة والعزيمة وحدها لا تكفي؛ فلا بدَّ من عون كبير من الله.

سألت أصدقائي عن أماكن بيع الملابس العسكرية، فأرشدوني إلى مكان اسمه «وكالة البلح» فذهبت إليها، فوجدتها عالمًا غريبًا وتجارة أغرب، أشياء قديمة من مخلفات الجيش البريطاني، خيام وحبال وملابس وبطاطين تباع بالجملة وبالمفرد، بحثت عن بدلة عسكرية تناسبني، واشتريت واحدة لجندي إنجليزي كانت من الصوف الثقيل، ولم تكن نظيفة، واشتريت أيضًا حذاءً عسكريًا ثقيلاً، واتجهت بها إلى المنزل، ولكن كيف أدخل بكلِّ هذه الأشياء، والعبوة كثيرة وإخوتي وأمي وأبي من الممكن يروني، فكيف أفسر لهم وجود هذه الملابس العسكرية معي، ثم إنها تحتاج إلى غسيل، ونقع لتزول منها الآثار والروائح الكريهة.

انتظرت حتى جاء موعد العودة من المدرسة، وقد قرَّرت أن أتسلل إلى سطح المنزل بحملي الثقيل هذا -ودعوت الله ألا يراني أحد- ووصلت إلى السطح لأواري ما أحمل مؤقتًا حتى أفكر في الخطوة التالية، فإذا بي أفاجأ بوالدتي تطعم الدجاج، ألقيت حملي الثقيل بجانب كوم من الأخشاب، وذهبت إلى الوالدة، وحييتها وقلبي يدق دقات شديدة، ففوجئت بوجودي، ولكنني أخبرتها أنني جوعان جدًا، وأخذت أضحك معها؛ لأخفي اضطرابي، ونزلنا سويًا وأنا أتعهدها لأخفي هذه الملابس التي ألقيتها هناك، وحمدت الله أنها لم تلحظ شيئًا، ولكن قلب الأم أحس أنني غير طبيعي؛ فسألتني بحب وإشفاق: ما بك يا عبد الرحمن؟! آه لو علمت ما أدبر لتقطع قلبها الحنون ألمًا وحزنًا!!

نزلنا معًا، وانتهزت فرصة انشغالها في المطبخ، وأسرعت إلى السطح؛ لأخفي

الملابس العسكرية بين الأخشاب، حتى لا يراها أحد، وقلت: لقد انتهت الخطوة الأولى بسلام، كلا.. بل لم تنته، فلا بدَّ من غسل هذه الملابس؛ لأزيل عنها هذه الروائح العفنة، وهذه البقع والشحوم، وكيف يتم ذلك والعيون متفتحة، ولو استعنت بأحد إخوتي لأفشى سري للوالد والوالدة، فلا بدَّ من الاعتماد على النفس، وبدأت أتسلل كاللص مرة أخرى آخذ جردلاً مملوءًا بالماء بحجة سقي الدجاج، ومرة أخرى آخذ علبة بها الكيروسين خفية، وأصعد بها إلى السطح، وشعر الوالد بحركاتي المتكررة وصعودي المستمر إلى السطح، فسألني عن اهتمامي المفاجئ بالدجاج وبرعايته؟ فقلت له: إنني أساعد الوالدة، فقالت الوالدة: إنني لا أريد مساعدتك، التفت أنت إلى دروسك، ولا تهتم بشيء آخر يشغلك عن المذاكرة.. آه لو يعلمون حقيقة ما يدور في نفسي، وأنني لم أعد أذهب إلى المدرسة إلا لمامًا!! دخلت حجرتي وأغلقتها على نفسي حتى يبدو الأمر طبيعيًا، وكلما حاولت الصعود إلى السطح لأغسل هذه الملابس أجد الوالد والوالدة وإخوتي يجلسون ويتكلمون؛ فأعود مرة أخرى إلى غرفتي، هل أنتظر قدوم الليل وأتسلل إلى السطح بعد نومهم؟ ولكن صوت المزلاج[1] المغلق وحركاتي على السطح ستفضحني، ما العمل إذن؟ إذن، لا بدَّ أن أنتظر فرصة أخرى، ونمت نومًا متقطعًا.

وفي الصباح ارتديت ملابسي، وذهبت إلى المدرسة، ولكني لم أدخلها، وعدت إلى المنزل، وقد خرج الجميع إلا الوالدة كانت مشغولة بأعمال المنزل، فدهشت لعودتي المفاجئة، ولكني أخبرتها أنني مريض ومتعب جدًا، ولم أستطع الذهاب إلى المدرسة؛ فتحسست وجهي ورأسي، وقرأت لي سورة من القرآن، وقالت لي بحب وعطف: استرح في السرير الآن، وسأعمل لك ليمونًا ساخنًا سيجعلك سليمًا، بإذن الله، ذهبت إلى السرير بعد أن خلعت ملابس المدرسة، وقد كانت هذه فرصتي الوحيدة لتجهيز الملابس، وتنظيفها؛ حيث إن البيت خال من الأسرة إلا الوالدة المشغولة بأعمال المنزل الكثيرة، ولكن المشكلة هي كيف يترك المريض السرير، ويصعد إلى السطح؟

---

(١) المِزْلاجُ: مغلاق الباب، سمّي بذلك لسرعة انزلاجه. [لسان العرب، (زلج)].

أخذت كتابًا عن فلسطين، وبـدأت أقـرأ فيـه لـساعات طويلـة؛ حتـى تطمـئن الوالدة، وأخيرًا قلت لها: الحمد لقـد أصـبحت بخـير الآن، وأريـد أن أشـم الهـواء النقي، فعارضتني في ترك الفراش، ولكنني أخبرتها أنني لا أطيـق النـوم، وأحـب أن أذهب إلى طبيب المدرسة، أو أي مكان، وانتهـزت فرصـة انـشغالها، وصـعدت إلى السطح، ونفذت المهمة الصعبة، وغسلت هذه الملابس القذرة بالكيروسين، ثم بالماء والصابون، ثم نشرتها على السطح في ركن بعيد، ونزلت أخيرًا لأطمئنها بوجودي، وجفت الملابس، وأصبحت نظيفة، ولكنها تحولت إلى تجاعيد تحتـاج إلى كـي؛ لكـي تعود إلى طبيعتها، وعملية الكي في المنزل مستحيلة بالطبع، فأخذت الملابس ملفوفة إلى كواء بعيد عن منزلنا، واتفقت معه أنني مسافر غـدًا، وتنفـست الـصعداء؛ فقـد تمت الخطوة الأولى بخير والحمد لله حتى الآن.

أخذت الملابس من عند الكوّاء، والذي أخذ يسألني عن صاحب هذه الملابـس غير المتناسقة لونًـا ونوعًـا، فأخبرتـه أنهـا لـصديق في الجيش، فوضـعتها في كـيس لأخفيها عن العيون المتطفلة، وقرَّرت ألا أذهب بهـا إلى المنـزل مـرة أخـرى؛ فلقـد أخرجتهـا بـصعوبة كـبيرة، ولـذلك فكـرت في أن أخفيهـا مؤقتًـا عنـد صـديقي «عبداللطيف»، فهو وأفراد أسـرة «أبـي بكـر الـصديق» فقـط هـم الـذين يعلمـون استعدادي للسفر إلى فلسطين، ذهبت إلى «عبد اللطيف»، وأودعت عنـده الملابـس العـسكرية دون أن يلحظهـا أحـد، وفي حجـرة «عبـد اللطيـف» ارتـديت الملابـس العسكرية لأجربها، وأرى إن كانت مناسبة عليَّ أم لا، وارتديتها ونظـرت في مـرآة الدولاب الكبيرة فرأيت العجب، كان البنطلون طويلاً وواسعًا، أما «السويتر» فقـد كان ضيقًا قصير الأكمام، وذا لون كاكي، يختلف عن لون البنطلون، وكان منظـري عجيبًا جدًّا، جندي يلبس ملابس عسكرية، ولكن وجهـي الـصبياني لم يكـن ينبـئ أبدًا عن وجه جندي كالجنود الذين أراهم، وكان أغلبهم من الفلاحين والـصعايدة ذوي الوجوه الصلبة المميزة.

ابتسم «عبد اللطيف» لمنظري ولم يعلق، حاولت النظر في المرآة، وقطبت وجهي وحاجبي لأبدو ذا وجه صارم، وحتـى يـزول عـن وجهـي هـذا الطـابع الـصبياني

لطالب في الثالثة الثانوية ذي ستة عشر ربيعًا، وسألت «عبد اللطيف»: ما رأيك الآن ألا أبدو كالجنود الذين تراهم؟ فابتسم، وقال معلقًا: إنك تبدو كفتية الكشافة، وليس كالجنود أبدًا، وفي هذه اللحظة كم تمنيت أن أكون أكبر سنًا، وأن ينبت شاربي ولحيتي، ولكن هل ستنتظر الحرب حتى أكون في العشرين، قلت في نفسي ومخاطبًا «عبد اللطيف»: لقد كان «أسامة بن زيد» ﷺ في السابعة عشرة من عمره، وكان قائدًا لجيش من جيوش المسلمين، وإن الحرب ستصقل ملامحي، وتكسبني الجدية والصرامة، وإن هذه الحياة المرفهة المدنية التي نعيشها هي المسئولة عن مظهرنا هذا.

وجلست مع «عبد اللطيف» صديقي الوفي، والذي أئتمنه على سري، وحدثته عن الخطوات التي أنوي تنفيذها، وأخبرته أن يوم سفري سيكون بإذن الله بعد ثلاثة أيام، وسآخذ القطار العسكري المتجه إلى الإسماعيلية والقنطرة، ثم أتخطى منطقة الحدود بين القنطرة غرب والقنطرة شرق -فقد كان المصريون في هذا الوقت لا يستطيعون أيام الاحتلال التوجه إلى سيناء إلا بتصريح عسكري- فسألني «عبداللطيف»: وكيف ستتخطى الحدود دون تصريح، وهناك حراس الحدود والشرطة العسكرية؟ أجبته وقلبي مطمئن: إن الله سييسر لي في هذه المسألة، وفي كل خطواتي، قال لي «عبد اللطيف» محاورًا: لقد قال الرسول ﷺ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[1]، أجبت بكلِّ يقين، لقد طرقت كل الطرق، وحاولت في كلِّ الاتجاهات، ولم أستطع أبدًا أن أذهب بشكل رسمي لا مع الجيش، ولا مع الإخوان، ولا مع متطوعي الجامعة العربية، فلقد كان سني هو العقبة الكبرى، ولم أجد في النهاية إلا

(١) أخرجه الترمذي في «صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، ح(٢٤٤١)، من طريق أَنَس بْنِ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ، قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ». قَالَ عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ: «قَالَ يَحْيَى: وَهَذَا عِنْدِي حَدِيثٌ مُنْكَرٌ»، وقَالَ الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، لا نَعْرِفُهُ إلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَ هَذَا»، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، ح(٢٥١٧).

الالتجاء إلى الله بعد أن أصبحت مضطرًا، ولقد قال الله -تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، والله يعلم صدق نيتي وشرف هدفي، وأني قدمت حياتي وروحي لخالقي دفاعًا عن دينه وأرض الإسلام، وتصديقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، ولقد قدمت نفسي طاعة لأمره تعالى، أما هذه العقبات التي يضعها الناس من تصاريح وأوراق، فسيناء أرضنا وفلسطين أرضنا، فكيف يمنع صاحب الأرض أن يسير في أرضه متى يشاء، إنني لا أعترف أبدًا بهذه الشكليات أمام الهدف الكبير الذي أسعى إليه.

سألني «عبد الطيف» سؤالاً هزني من الأعماق، فقد قال لي: وماذا عن مشاعر والدتك ووالدك وإخوتك؟ صمت طويلاً، فقد كان هذا الموضوع يؤرقني كثيرًا، وكنت أحاول أن أخفيه، ولا أفكر فيه أبدًا؛ لأنني أعلم قلب الأمهات والآباء، وأعرف أنهم سيتعذبون لفراقي، وإن الفراق قد يكون نهائيًا فهي الحرب والاستشهاد أو الإصابة المعجزة، ولكنني كنت أناقش نفسي عقليًا، فأجبت «عبداللطيف» عن سؤاله: أليس كل من ذهب إلى الحرب له آباء وأمهات مثلي؟ أليس لهم أبناء وأحباب، وقد يعودون أو لا يعودون؟ إننا إذا فكرنا بهذا المنطق؛ لن يذهب أحد للجهاد أبدًا، وسنبقى هنا جميعًا حتى يأتي اليهود ليحتلوا بلدنا، وحينذا هل سندافع عن ديارنا، أم سنذكر الآباء والأمهات أيضًا؟! وهل اليهود الذين يحاربوننا ليس لهم أمهات وآباء؟!

إن الموت والحياة -يا «عبد اللطيف»- قدر من أقدار الله، فقد يعود الجندي من ميدان القتال سليمًا، وقد يموت من يعيش في الأمان وسلام في لحظات، ولا بدَّ أن نتحلى جميعًا بالإيمان لنعبر جسور الأحزان، ونترك المستقبل لله ﷻ، إنني مقدمٌ -يا «عبد اللطيف»- على الجهاد والعقبات تحوطني من كلِّ جانب، ولقد سلمت أمري

لله، وإنني على يقين قلبي أن الله ﷻ لن يخذلني أبدًا؛ لأنه يعلم حقيقة ما في قلبي، وإنني أطلب دعواتك لي بالتوفيق؛ فأنت طاهر القلب.

إلى فلسطين

جاء يوم السفر، وكان في شهر نوفمبر ١٩٤٨م، ولقد انتابني شعور جارف أنه لا بدَّ أن أودع أبي وأمي وإخوتي، وأقبّلهم، وأحتضنهم في صدري؛ فقد لا ألقاهم بعد ذلك أبدًا، ولكنني قاومت ذلك الشعور العنيف؛ لأنني لو فعلت ذلك لعلموا أن في الأمر شيئًا غير عادي، وكنت أنظر إليهم بعين كلها حب، وأدعو الله بألا يغضب أبي وأمي من تصرفي هذا، فإنهم لن يرضوا أبدًا أن أذهب إلى الجهاد الذي يعني بالنسبة لهم الموت، وهل يقبل أب وأم أن يقتل فلذة كبدهم؟! ولكن الجهاد فريضة، وأمر من الله للمسلمين جميعًا، ولقد لبيت أمر الله، فليسامحني أبي وأمي عن عدم استئذانهم.

البنان بزي الحرب

لبست لبس المدرسة، وودعت أبي وأمي وإخوتي بعيون كلها حب، وتجولت في كلِّ ركنٍ في المنزل، وكأني أودعه أيضًا، وكان الأمر صعبًا جدًّا بالنسبة لي، ولكنه قدري، خرجت من المنزل، وكأنني أنتزع نفسي انتزاعًا، وعيون أمي الحزينة أمامي لا تغادرني، ولكنني استعنت بالله وتوكلت عليه، توجهت إلى منزل صديقي «عبداللطيف»، وقد اتفقت معه على أن يتأخر عشر دقائق عن موعد خروج والده وإخوته جميعًا، وقفت بالقرب من المنزل حتى اطمئننت على خروج الجميع، وذهبت إلى «عبد اللطيف»، حيث ارتديت الملابس العسكرية والحذاء الضخم، ووضعت البارية على رأسي، وودعته بسرعة؛ حتى لا أؤخره عن موعد مدرسته، واتجهت إلى محطة القطار، وكانت الساعة حوالي السابعة والنصف صباحًا، ووصلت إلى محطة «كوبري الليمون»، وفي حوالي الساعة الثامنة صباحًا توجهت إلى محطة مصر، والتي سينطلق منها القطار الحربي المتجه إلى الإسماعيلية والقنطرة في حوالي الساعة العاشرة

صباحًا، بقيت ساعتان طويلتان على موعد الإقلاع، توجهت إلى بوفيه المحطة، وطلبت كوبًا من الشاي، وكانت المحطة تموج بجموع من الركاب المدنيين والعسكريين والشرطة العسكرية، والتي من حقها تفتيش أي جندي، والشيء العجيب هو أن قلبي ومشاعري كانت هادئة، ساكنة، لم أشعر أبدًا بالخوف أو بالاضطراب، رغم أنني مقدم على شيء خطير حقًا، أركب قطارًا عسكريًا، وارتدي ملابس عسكرية، ولا أنتمي إلى الجيش، ثم أتخطى كل هؤلاء الرقباء من الشرطة العسكرية المنتشرين حولي، ثم يأتي بعد ذلك الموقف الصعب في الحدود والجمارك المقامة بين بلدة القنطرة غرب والقنطرة شرقًا، ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل إن ملابسي غير المتناسقة لونًا وشكلاً، ووجهي هذا الذي لا ينبئ أبدًا بشكل جندي في الجيش.

إنني أتعجب عندما أتذكر جرأة تصرفي في هذا اليوم، وهذه السكينة والسلام والاطمئنان الذي ملأ قلبي وصدري، بل وكياني كله، لا بدَّ وأنه الإحساس العميق أني لا أفعل إلا الخير، وأن كل مخالفاتي هذه شكليات لا معنى لها بجانب الهدف النبيل الذي أسعى إلى تحقيقه.

الساعة الآن التاسعة والنصف، ووصل القطار الحربي واندفع الجنود نحوه، واندفعت معهم، وصعدت إلى القطار، وأخذت مقعدًا بجانب الجنود، وسألني الجندي الذي يجلس عن يميني عن وجهتي، ولعله تعجب من ملابسي ومظهري الصبياني، فأخبرته -بصوت حاولت أن أجعله خشنًا- أنني متطوع من الإخوان المسلمين، وأن وجهتي «معسكر البريج» في غزة؛ فقال: ولكن سنك صغير على الجهاد؟ فقلت له: إنني في الثامنة عشر من عمري، والجهاد فرض على كلّ المسلمين، وخاصة الشباب، وأنصت الجنود الذين حولي لحديثي -ويبدو أنه أعجبهم؛ لأنهم ذاهبون للحرب ليس عن رغبة أو تطوع، بل هو تكليف، وتعجبوا من أن يلقي الشباب بنفسه إلى الموت برغبة ذاتية، وتعرفت عليهم فإذا بهم من بلاد متعددة، وسرعان ما تآلفنا وأصبحنا رفقة واحدة، وأخبرتهم أنني تركت دراستي وأسرتي وكل الدنيا لأجاهد في سبيل الله، وحدثتهم عما أعلم عن مشكلة فلسطين، ولقد انبهروا من حديثي؛ فقد كان أغلبهم أميين، وكنت أحدثهم بكلّ قلبي وجوارحي، وبصدق وصل إلى قلوبهم الطيبة البريئة.

وبينما أنا في حديثي معهم والكل ينصت لي لمحت مجموعة من البوليس العسكري يفحصون التصريحات العسكرية للجنود فردًا فردًا، وهم قريبون منا بعدة أمتار، وبهدوء شديد قلت لرفاقي: أستئذنكم في شراء بعض الأطعمة من على المحطة، ورجوتهم أن يحتفظوا لي بمكاني، ونزلت من القطار واشتريت بعض السندوتشات، وعيني على القطار وعلى البوليس الحربي، ولما لاحظت أنهم قد تجاوزوا مقعدي الذي كنت أجلس عليه؛ صعدت إلى القطار من الناحية الأخرى، وتوجهت إلى رفاق الرحلة، وجلست في مكاني، ووزعت عليهم الطعام، وعيوني تتطلع بهدوء على البوليس الحربي، وشعرت براحة شديدة عندما غادروا العربة، ولم يلاحظوا نزولي وصعودي، ولقد شعرت أن الله رعاني وحماني، وأنها البشائر الأولى أن يتقبلني الله جنديًا من جنوده، ومضى القطار بنا، وانتهت المشكلة الأولى بسلام -مشكلة التصاريح والبوليس الحربي.

ومضت الأحاديث من هنا وهناك بيني وبين الجنود الذاهبين إلى الميدان، واعتبروني عريفهم رغم صغر سني، ولقد شعرت لأول مرة بمزية العلم والثقافة العامة، وخاصةً بين الأميين؛ فقد أخذوا يسألونني في شتى المواضيع، ولقد أفادتني قراءاتي الأدبية والدينية والتاريخية، رغم بساطتها في الحديث مع هؤلاء الشباب الطيب المؤمن بفطرته والمحب للخير، وأخيرًا أخرجت مصحفي الصغير، وأخذت أقرأ فيه سورة الأنفال والتوبة، وكلها عن الجهاد والحرب والاستشهاد.

ومضى بنا الوقت، وأنا مستمر في قراءتي للقرآن بصوت هادئ، ولكنه مسموع لمن حولي، ولقد لمحت شابًا في حوالي العشرين من عمره يقف بجواري، ويستمع للقرآن، واستأذن في الجلوس معنا ليستمع إلى القرآن، وحينما انتهيت من سورة التوبة أغلقت مصحفي، ورحبت بهذا الشاب، وعرفني بنفسه (نور الدين الفرا، فلسطيني من خان يونس، ومتطوع من متطوعي الإخوان، وكان يرتدي ملابس المتطوعين)، فعرفته بنفسي وأخبرته أنني كذلك من متطوعي الإخوان المسلمين، وأن وجهتي هي «معسكر البريج»، وسألني: هل أنت في أجازة، فأخبرته عن قصتي بصدق، وعن محاولاتي الكثيرة للذهاب إلى فلسطين، وعن مقابلتي للمتطوع «عبدالله إبراهيم»، فعرفت أنه صديق عزيز له، وتكلمت معه عن مقابلتي للأستاذ «حسن البنا».

وأحسست أن الله قد أرسل لي «نور الدين» هـذا ليرشـدني إلى الطريـق؛ لأنـه متطوع من الإخـوان، وفي «معـسكر الـبريج» سـيكون عونًـا لـي في تقـديمي لقـادة المعسكر الأسـتاذ «محمـد فرغلـي» و«كامـل الـشريف»، ولكنـه أخبرنـي- بـصوت خافت- أن هناك مشكلة تواجهنا الآن، ولا بـدَّ مـن حلـها أولاً؛ لأن عواقبهـا قـد تكون وخيمة، سألته عن هذه المشكلة؟ فأخبرني أنه كان يجلـس هنـاك مـع هـؤلاء الجنود، وكانوا يتكلمون عني، ويظنون أنني يهودي، وقـد أكـون جاسوسًـا، فـسألته وعلى أي أساس بنوا هذا الوهم؟ فأجابني وهو مطمئن كل الاطمئنـان لـي: إنهـم رأوني أبيض الوجه ملامحي تبدو وكأنني أجنبي، ثم إن سني يبدو صغيرًا، وليس مثل الجنود، وفورًا وبدون تفكير واجهت هذه المشكلة بكلِّ صراحةٍ، فقد أخبرت رفاقي الجنود عن شك هؤلاء المجندين فيَّ إنني قد أكون يهوديًا، فغضبوا غضبًا شـديدًا مـن أجلي، وقمت وتوجهت إليهم غير خائفٍ، وقلت لهم: السلام عليكم، لقد سمعت من زميلكم هذا أنكم تشكون أنني يهـودي، فهـل هـذا صـحيح، فوجئـوا لجرأتـي وصراحتي، واستحيوا من الرد عليَّ، ولكن أحدهم قال: هذا صحيح، فإن مظهـرك لا يدل على أنك جندي مثلنا، فأجبتهم: إنني طالب في الـسنة الثالثـة مـن المرحلـة الثانوية، ولقد تركت المدرسـة وتطوعـت للحـرب مـع الإخـوان المـسلمين، وإنـني والحمد لله مسلم مثلكم، وذاهـب إلى الجهـاد رغـم صـغر سـني، وهـل تتـصور أن يهوديًا يجرؤ أن يدس نفسه في وسط مجاهدين ذاهبين إلى القتال.

شعرت أن صراحتي وجرأتي ولهجتي الصادقة محت كل شك عندهم، فاعتذروا لي كثيرًا على سوء ظنهم، وبدت الفرحة الصادقة على وجه «نور الـدين الفـرا» - زميلي الجديد الذي أرسله الله نجدة لي في وقت شدة، وطلبت منـه الجلـوس معنـا لنتحدث، وأخذت أحدثه عن «وائل شاهين» و«عمر شاهين»، ولقـد كـان يعـرفهم معرفة جيدة.

وأخيرًا أحـسست أن الجنود بـدءوا يـستعدون للـهبوط مـن القطـار؛ لأننـا قـد وصلنا إلى بلدة القنطـرة غـرب -أي: منطقـة الجمـارك والحـدود إلى سـيناء- إنهـا المرحلة الصعبة الحاسمة، فإما أن يحميني الله، وأمـر منهـا إلى فلـسطين وإلى الجهـاد على ساحة الشرف والاستشهاد، وإما أن يكون مصيري السجن والإهانة؛ فنحن في

وقت حرب، وإلى أن أثبت حسن نيتي ستمر شهور من العذاب، وقد يحكم عليَّ بالسجن لأمور كثيرة كنت أستهين بها، ولكنها في عرف العسكريين والقوانين العسكرية لها شأن خطير، لجأت إلى الله وقلت له: يا رب، إنك تعلم نيتي، وتعلم أنني أريد الجهاد في سبيلك، وأريد الدفاع عن أرض الإسلام، وعن بيت المقدس؛ فأعني وأوصلني إلى مطلبي، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، يا رب لا معين لي إلا أنت، وإنك قادر أن تعمي عني العيون، وتسترني وترعاني، فليس لي إلا أنت.

نزلنا جميعًا من القطار الحربي، واتجهنا إلى جهة الجمارك والحدود إلى القنطرة الشرقية، حيث نركب القطار المتجه إلى فلسطين، ولكن هل سيتحقق هذا الحلم العظيم؟ وكيف يكون ذلك؟ وإنني أرى أمامي صفوفًا من الجنود يقفون عند بوابة يفتش عن تصاريحهم وهويتهم؟ وأنا ليس معي هذا التصريح، ولا هذه الهوية، إن كل ما أملك هو بطاقتي المدرسية، ولكنني أحمل في صدري كتاب الله، وإنني على يقين أنه سيحميني، وتذكرت في هذا الموقف رسول الله ﷺ وقد تجمع عدد من المشركين حول بيته، ولقد خرج رسول الله ﷺ من أمامهم، ولم يروه، ولقد كانت معجزة له ﷺ، ودعوت الله في هذه اللحظات من كلِّ قلبي أن أمر من هذه البوابة دون أن يكتشفوا أمري، ولكن كيف يكون ذلك، وما أنا إلا عبد ضعيف ليس لي من الأمر شيء، ولكني يا رب قوي بقوتك، وأريد أن أكون جنديًا من جنودك، فاقبلني.

وصلت إلى البوابة، ولم يبق أمامي إلا جنديين أخذ الجندي يفحص أوراقهما، ثم جاء دوري، وسألني: أين أوراقك؟ وكانت لحظة طويلة كأنها دهر، ووضعت يدي في جيبي، ولم أكن أعرف ماذا سأجيب، ووجدت التدخل الإلهي في أقل من ثانية، ونادى ضابط عظيم على الجندي، فاضطرب الجندي الواقف على البوابة، وأعطى تحية عسكرية، والتفت إلى الضابط بكليته، ولقد كانت فرصتي؛ فلم أتردد ودخلت من البوابة والعيون كلها تتطلع إلى الضابط الكبير، لم أصدق ما حدث، ونزلت السكينة على قلبي، وشكرت الله وحمدته، وأخذت أكلمه سبحانه وأقول له:

«عرفت نيتي يا ربي، فبلغني أملي»، ولقد كان درسًا عظيمًا لـي، وهـو أن الاعتمـاد على الله، والالتجاء إليه بعد أن تضيق السبل، وتنغلق الأبـواب هـو أمـل المؤمنين المتوكلين عليه سبحانه.

وقابلني «نور الدين الفرا» غير مصدق ما حدث، وأخذ يهنئني والسعادة تغمره، وتوضأنا وصلينا الظهر صلاة لم أصل مثلها، ونزلـت دمـوعي علـى وجهـي، وأنـا ساجد لله أشكره، فلقد أحسست إحساسًا ماديًا قويًا أنه وقف معي، ولم يتخل عـني في وقت عـصيب، وركبنـا القطـار المتجـه إلى فلـسطين، وأخبرنـي «نـور الفـرا» أن البوليس الحربي لا يفحص الأوراق بعد الآن، وبعد أن فحصها مرتين مرة في محطة مصر، والمرة الثانية على الحدود، وسار القطار بنـا يطـوي الأرض طيًـا، وأنـا أكـاد أسابقه، وأخذت أسأل «نور» أسئلة كثيرة عن الحرب والتـدريب؛ لأنـني لا أعـرف حتى استعمال المسدس أو البندقية، فطمأنني أن التدريب في المعـسكر مكثـف، وأن أسبوعين كافيين لتتدرب على كلِّ الأسلحة التي ستـستعملها، وأخـذت أستوضـح منه عن شخـصية قائـدي المعـسكر الأسـتاذ «محمـد فرغلـي» و«كامـل الـشريف»، فأوصاني بألا أحكي لهم عن مقابلتي للأستاذ «حسن البنـا»، وعـن رفـضه قبـولي متطوعًا؛ لأنني طالب، وطمأنني أنه سيقابلني بـ«كامـل الـشريف»، وهـو شـابٌ في التاسعة عشرة من عمره شجاعًا مقدامًا، وقال لي: إنه سيـسعد بـك كـثيرًا؛ لأنـك تركت الدنيا وراءك، وتريد الجهـاد والاستـشهاد، وسـيتفهم ظروفـك، وسـيعطيك كارنيه وتصريح لتعبر من هذه المواقف الخطيرة التي عرضت نفسك لها.

وصلنا إلى بلدة «خان يونس»، وهي بلدة «نور الفـرا»، واسـتأذن خمـس دقـائق ليذهب إلى منزله القريب من المحطة ليرى أهله، فأوصيته بألا يتأخر حتـى لا يفوتـه القطار، ولكن «نور» لم يحضر، وتحرك القطار، وقد أحسست بحزن شديد لافتقـاده، فقد ظننت أنه سيكون لي عونًا عند قائدي المعسكر، ولكني سرعان مـا اسـترجعت نفـسي، ورجعت إلى الله مستغفرًا، وأحسست أنه ﷻ يريد مني أن أعتمد عليه دائمًا، ولا أعتمد على أحد من خلقه، وعاد إلى قلبي الاطمئنان، وأخيرًا وصـلنا إلى مدينـة غزة، وكانت الساعة حوالي الثانية عشرة مساءً، ودار في ذهـني عـدة أسـئلة: كيـف أنزل في بلدة غريبة في هذا الوقت المتـأخر؟ وكيـف أذهـب وأسـأل عـن «معـسكر البريج» القريب من غزة في هذا الظلام الدامس؟!

قرَّرت أن أنتظر حتى الصباح، ولكن أين؟ ليس غير القطار، فدخلت فيه، وأغلقت النوافذ حولي، فقد كان البرد شديدًا، وتمددت على أريكة القطار، وخلدت في نوم عميق، وأيقظني البرد الشديد عدة مرات، وجاء وقت صلاة الفجر، فتوضأت بماء كالثلج، وكانت هناك مشكلة في خلع الحذاء الضخم في هذا البرد الشديد القاسي، ولكنني بعد أن صليت أول صلاة لي على أرض فلسطين أحسست بدفء في قلبي وكل كياني، وأشرقت الشمس، ودبت الحياة حولي، وبدأت في التحرك تجاه «معسكر البريج» بعد أن سألت عنه، وبدأت في المسير إليه، فوصلته بعد ساعة من المشي السريع، وكلي حيوية ونشاط، وأخذت أدعو ربي أن يوفقني في الخطوة الأخيرة الحاسمة، وألا يرفضوني لصغر سني، وجال بخاطري صورة الوالد والوالدة وإخوتي، وقد قرءوا خطابي الذي أودعهم فيه بعد أن عجزت عن توديعهم بنفسي، ترى كيف تلقيت هذا الخبر يا أمي الغالية؟ سأكتب لك خطابًا عندما أستقر بإذن الله.

في معسكر البريج

كامل الشريف

وأخيرًا وصلت إلى بوابة «معسكر البريج»، ووجدت شابين ملتحيين مدججين بالسلاح استوقفاني عند البوابة؛ حييتهما، وأخبرتهما أني قادم من القاهرة، وأريد مقابلة قائد المعسكر «كامل الشريف»، قابلاني بأدب وترحيب، وطلبا مني الانتظار حتى يتصلا بالتليفون، سألت أحد الحارسين عن «نور الفرا»؟ فأجابني بسرعة: هل أنت عبدالرحمن؟ فأجبته متعجبًا: أجل، فقال لي: لقد ترك «نور» اسمك على البوابة، فقد حضر بعربة، وهو يريد مقابلتك، وسأتصل به لأحضره لك، وما هي إلا دقائق حتى حضرت سيارة جيب، وكان بها «نور الفرا» و«عبد الله إبراهيم»- ذلك الشاب الذي قابلته في المركز العام- ويبدو أن «نور» أخبره بقدومي؛ سعدت كثيرًا بلقائهما؛ فهما بشائر خير أرسلهما الله لي ليسهلا لي مهمتي الصعبة -شكرًا لك يا رب- وركبت معهما السيارة، وكان «عبد الله» غير مصدق مجيئي دون تصريح أو

كارنيه، وقال لي متعجبًا: إنها معجزة، أن تخترق هذه السدود، فطلبت منهما الوقوف معي ومساندتي أمام قواد المعسكر.

وأخيرًا وصلت العربة الجيب إلى مكتب «كامل الشريف»، وكان شابًا طويلاً نحيفًا وسيمًا يرتدي الملابس العسكرية، وكان مكتبه بسيطًا جدًا، دخلنا -نحن الثلاثة- وحيَّاه بتحية الإسلام، وليس بالسلام العسكري المعروف، فأحسست أنهم رجال لا يحبون هذه المظاهر الفارغة، واستقبلني «كامل الشريف» بترحاب -حاول إخفاءه- وبدأني بالحديث قائلاً: إنني عرفت قصة مغامرتك، يا عبد الرحمن من «نور» حتى تصل إلى هنا لتكون مجاهدًا في سبيل الله، وإنني أرحب بك رغم صغر سنك، فلقد برهنت بتصرفك هذا على رجولة مبكرة، وعندنا في المعسكر شباب في مثل سنك، ولكنني لا أعدك وعدًا نهائيًا حتى تثبت لي بعد أسبوعين من التدريب العنيف كفاءتك وقوة تحملك، فالحرب ليست سهلة، ولكنها تحتاج إلى قوة وصلابة وصبر، وإنني واثق أنك ستكون جديرًا بالجهاد في سبيل الله.

ثم أعطى أوامره لـ«عبد الله» بأن يضموني إلى مجموعة التدريب من اليوم، وأن أكون مع فرقة «نجيب جويفل»، وهي فرقة الشباب، شكرته كثيرًا وقلبي غير مصدق ما أسمع، هل أصبحت بحق مجاهدًا في سبيل الله، ولكن ما زال أمامي أسبوعان من التدريب الشاق، وبعدها إما أن أصلح وأتحمل وأكون جديرًا بهذا الشرف الكبير، وإما أعود مرة أخرى إلى القاهرة كسير الجناح.. كلا، لن أعود أبدًا بعد أن وصلت إلى ميدان الشرف والجهاد، وسأتدرب وسأتحمل كل المشاق حتى أنال هذا الشرف العظيم.

ذهبت مع «عبد الله» و«نور» إلى الميس -المطعم- حيث كان المتطوعون يتناولون إفطارهم البسيط والشاي، وعرَّفني «عبد الله» بأفراد فصيلتي، وكانوا شبابًا وفتيانًا في مثل سني (صلاح حسين، وسيد عيد، ولطفي، وسعيد، وعبد المنعم، وغيرهم) شبابًا يملأ نور الإيمان وجوههم، ويشع البريق من عيونهم، رحبوا بي بفرحة كبيرة، وأحسست أنني بين أسرتي وإخوتي، وبعد الإفطار ذهبوا بي إلى المخازن حيث استلمت ملابس عسكرية جديدة ونظيفة ومناسبة وحذاءً قويًا، ولكنه خفيف، وكابًا، وبندقية، وكانت فرحتي بالبندقية غامرة، وأطلقت سارينة

بصوت متقطع مميز، وفي لحظات وجدت أفراد المعسكر يتجمعون من كلِّ صوب، فقد حان الوقت للتدريب، وأخذني «عبد الله» إلى قائد فصيلتي «نجيب جويفل» - وهو شابٌّ لا يزيد عمره على التاسعة عشر، طويل القامة، نشيط كالنمر- تعرف بي، وسألني عن مدى تدريبي، فأخبرته بصراحة أنني غير متدرب على الإطلاق، فقال لي: لقد سبقناك بعدة أيام، وستبدأ معنا تدريباتك، وسيكمل معك «عبد الله» ما فاتك، وأعطى أوامره إلى «عبد الله» أن يبدأ معي بعد الظهر التدريبات التي فاتتني، وهي التعرف على البندقية، والمدفع الرشاش، والقنابل اليدوية، والألغام، وكيفية استعمالها، وكيفية فكها وتركيبها، وكيفية إصابة الهدف.

وانضمت إلى الطابور التدريبي الذي بدأ بالجري السريع، ثم بالزحف على الأشواك بالبندقية، مع الحمل الثقيل على الظهر، ثم انتهى بالقفز فوق الحواجز، واستمر الطابور ساعتين كاملتين، ولقد حل التعب بي، ولكني كنت في غاية السعادة، ثم أعطونا استراحة نصف ساعة، فبدأ «عبد الله» يشرح لي فيها أجزاء البندقية، وكيف تطلق، وكيف تعبأ، وكيف تنظف، ثم بدأ الطابور العسكري الثاني، وكان أعنف وأشد، وكانوا يسمونه «تطعيم المعركة» -وهو عبارة عن تصوير معركة وهمية تطلق فيها القنابل الدخانية، وتطلق فيها الأعيرة النارية على مستوى نصف متر من سطح الأرض، ونزحف في وسط هذه النيران- ولقد حذرونا من رفع الرءوس، وإلا سنصاب بالطلقات التي تطلق فوق رءوسنا، أحسست فعلاً أنني في معركة حقيقية، وتعلمنا بعد ذلك كيفية استعمال السلاح الأبيض (السونكي).

واستمر التدريب على هذا المنوال مدة أسبوعين كاملين، وكان تدريبًا عنيفًا شديدًا قاسيًا، تعلمت في هذين الأسبوعين الكثير عن كيفية اقتحام السدود، وكيفية زرع الألغام، واكتشافها، واستعمال القنابل، والمدافع الرشاشة الثابتة والمحمولة، ولقد كان التدريب مكثفًا -صباحًا وبعد الظهر ومساءً- لا يتخللها إلا ساعات قليلة للطعام أو الصلاة أو النوم، وكانوا يوقظوننا، ونحن في ساعات نومنا وراحتنا فجأة، فنسرع إلى أسلحتنا في لحظات، ونأخذ مراكزنا من أسوار المعسكر وحصونه، وكنا ننام بملابسنا العسكرية وأحذيتنا؛ حتى نكون مستعدين دائمًا، ولقد كان وقت النهار للتدريب العنيف.

أما ساعات الليل منذ غروب الشمس، فقد كانت تخرج فيها الدوريات المقاتلة من المتطوعين الذين أتموا تدريبهم، فتخرج كل المجموعات عدد أفرادها لا يزيد على سبعة أفراد، وتخرج كل مجموعة لمهمة محددة - البعض يخرج لبث الألغام في طريق قوافل العدو، ومجموعة تخرج لنسف الكوبري الذي يربط بين جبلين، ومجموعة ثالثة تخرج ومهمتها التصدي لقوافل التموين بين المستعمرين، ومجموعة رابعة تخرج لنسف مواسير المياه أو محطات الكهرباء.

وكنا -نحن المتدربين الجدد- في شوق شديد للمشاركة في هذه المجموعات المقاتلة، والتي كنا نسمع أصوات اشتباكاتها مع العدو طوال الليل، وكان موعد لقائنا مع المقاتلين في مسجد المعسكر بعد صلاة الفجر، حيث نسمعهم يقصون ما حدث معهم، والسعادة تملؤهم حتى الجرحى منهم، والذين يحملونهم معهم أثناء انسحابهم إلى المعسكر تطل من وجوههم السعادة حيث يعالجون العلاج الأولي في المعسكر، وتحول الحالات الخطيرة إلى مستشفى غزة، ولقد كنا نلح، ونرجو قائدنا «نجيب جويفل» لنبدأ في الخروج في دوريات القتال بعد أن أنهينا التدريب، وكان يعدنا خيرًا.

وفي اليوم الخامس عشر من إنهاء تدريباتنا العنيفة المركزة حضر الأستاذ «محمد فرغلي» -القائد الإداري للمعسكر، و«كامل الشريف» -القائد العسكري- التدريب النهائي، وكان مناورة بالذخيرة الحية تصور الطريقة المثلى لاقتحام مستعمرة، وقد بدأت بدورية استكشاف، ثم إطلاق مدافع الهاون على الأماكن المحصنة، ثم سكوت المدفعية، ثم تتقدم جماعة الألغام لعمل فتحة في أسلاك المستعمرة، وكنت أحد أفراد هذه المجموعة، ثم يتدفق المهاجمون بأسلحتهم الرشاشة، ولقد تمت المناورة على أفضل حال، وصدر القرار بأننا منذ الغد سنكون مع الفريق العامل المقاتل، وهنأ بعضنا البعض، وكأننا ذاهبون إلى الجنة، ونمنا ليلتنا نومًا هنيئًا ننتظر الغد، وقد تحقق حلمنا الكبير في الجهاد.

كارنية الجندية في الحرب

طلبني «كامل الشريف» -قائد المعسكر- وهنأني بنجاحي في التدريب، وأعطاني أجازة ست ساعات للذهاب إلى غزة، للتصوير لعمل كارنيه لي، حتى أنضم رسميًا إلى قوات الكوماندوز، وصافحني، وقال: «من الغد ستخرجون في دوريات قتالية، فالله معكم»، ذهبت إلى غزة مع مجموعة من شباب المعسكر الذين أخذوا أجازات مثلي، وتجولنا في مدينة غزة، وهي مدينة ساحلية جميلة، بها بساتين منتشرة هنا وهناك؛ فاشترينا منها البرتقال، وأخذت بعض الصور بملابسي العسكرية، ثم رجعنا إلى المعسكر، وأنا في غاية السعادة، فقد تحقق الحلم أخيرًا بفضل الله، وأصبحت رسميًا جنديًا مقاتلاً في سبيل الله، وبعد أن أتممت تدريباتي المركزة، سأخرج من الغد في دوريات قتالية - حمدًا لك يا رب- وأعطاني قائد فصليتنا «نجيب جويفل» يومًا كاملاً للراحة بعد هذه التدريبات الشاقة والمستمرة، ولنستعد للخروج مساء الغد لدوريات القتال.

على خط النار

جاء اليوم الذي انتظرته طويلاً، وجمعنا «نجيب جويفل» بعد صلاة العصر، وقسّمنا ثلاث مجموعات، كل مجموعة سبعة أفراد، وتكلّم معنا كلمات مختصرة عن أن الممارسة الفعلية للقتال هي التي تصقل الجندي، وإن مطالبنا تتلخص في كلمتين، إما النصر على عدونا، أو الشهادة في سبيل الله، وأوضح لنا أن مهمة الكوماندوز ليست مواجهة العدو في حرب نظامية، بل إن مهمتنا مقاتلته بأن نضرب وننسحب، ثم نضرب وننسحب، فنحطم له عرباته، وننسف له منشآته، ونلغم له طرقه، وننسف له أنابيب المياه، وخطوط الاتصال الهاتفية، ونعمل له الكمائن الملغمة في طرقه المؤدية بين مستعمراته، بل سنذهب إلى مستعمراته نفسها، وسنحاول تدميرها وإحراقها، لا بدَّ وأن تكون القضية واضحة أمام أعيننا بأن هذه أرضنا اغتصبها هؤلاء اليهود بغير حق، وأننا أصحاب الحق، ولا بدَّ أن نستخلصه، وقال لنا: بصراحة شديدة، من يحس في قلبه بأي خوف أو تردد، فليقابلني بعد هذا اللقاء،

فإن في المعسكر أعمالاً كثيرة تحتاج لها رجالاً كثيرين، فهناك الإمداد والتموين والإسعافات وحراسة المعسكر وغيرها، هذه المرافق تحتاج إلى رجال مؤمنين مخلصين، وكل إنسان ميسر لما خلق له[١].

قسّمنا مجموعات ثلاث، أما المجموعة الأولى، فكانت بقيادة المجاهد «فوزي فارس» وهو مقاتل متمرس جريء، وكانت مهمة هذه المجموعة عمل كمين بالألغام والرشاشات لقافلة يهودية من المستعمرين اليهود، وشرح «نجيب» باختصار هذه العملية بأنهم سيضعون الألغام في الطريق، ثم يختفوا وراء تل قريب في انتظار القافلة، حتى إذا تفجرت الألغام في السيارات المصفحة، هجموا بقنابلهم اليدوية والرشاشات على من تبقى منهم حيًا، ثم سحب أية عربة سليمة إلى معسكرنا، وحرق الباقي، وبالطبع قد تدربوا على هذه العملية كثيرًا.

أما المجموعة الثانية، فقد كانت بقيادة «سيد الشرافي»، وهو رجل ريفي صالح ذو قلب حديدي وذكاء وفطنة فطرية، وكانت مهمة مجموعته هي التسلل إلى أطراف مستعمرة عيّنها له «نجيب»، ويعرفها السيد الشرافي جيدًا، فيقوم بالتسلل إلى أطرافها، ونسف ماكينة المياه والكهرباء، وقتل حراسها.

أما المجموعة الثالثة، والتي سيقودها «نجيب جويفل» بنفسه، وهو نمر جريء لا يعرف شيئًا اسمه الخوف، ولقد سعدت جدًا؛ لأنني أحد أفرادها، ولقد شرح لنا «نجيب» أن مهمة مجموعتنا هي التسلل إلى مستعمرة (المشبه)، ثم مفاجأة حراسها، وسكانها بإطلاق المدافع الرشاشة، والقنابل الحارقة على منشآتها، ثم الانسحاب إلى معسكرنا.

---

(١) أخرج البخاريُّ في «تفسير القُرْآن»، باب: «﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾»، ح(٤٥٦٨)- ومسلمٌ في «القَدَر»، باب: «بَاب كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ»، ح(٤٧٨٧)، من طريق عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ، قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآيَة.

أمرنا «نجيب» بالانصراف والاستعداد والاطمئنان مرة أخرى على أسلحتنا، وأخبرنا أن موعد خروجنا إلى هذه العمليات سيبدأ بعد صلاة العشاء وهبوط الظلام، وانطلقنا لتجهيز أنفسنا وأسلحتنا، وكان سلاحي هو بندقية ألمانية بنظارة مقربة، ويركب على فوهتها كأس إطلاق للقنابل اليدوية والحارقة، وكانت هذه البندقية من غنائم الحرب، وكانت خاصة بـ«نور الفرا» الذي أهداها لي، وأعطيته بندقيتي العادية الإنجليزية الصنع.

صلينا المغرب، ثم العشاء، وتجمعت المجموعات الثلاث، وتمم كل قائد مجموعة على أفرادها، وعلى أسلحتهم، وراجع معهم الخطة مراجعة سريعة، وانطلق الجميع في أشرف مهمة -والتي بدونها لا يصان حق ولا شرف ولا أرض ولا دين- مهمة الجهاد في سبيل الله.

كان قلبي يرقص من الفرح، وجسمي يكاد أن يطير من على الأرض، ودعوت الله بالتوفيق في أول مهمة لي في القتال، وظهرت في هذه اللحظة بالذات صورة أسرتي في مخيلتي -أبي وأمي وإخوتي- فدعوت الله أن يزيل حزنهم على فقدي، إنْ استشهدت، وسيكون لقاؤنا في الجنة -بإذن الله.

بدأنا في التحرك بعد صلاة العشاء، وبعد أن شرح لنا قائد فصيلتنا «نجيب جويفل» مهمتنا باختصار بأننا سنتسلل إلى مستعمرة اسمها (المشبه) تبعد عنا حوالي ثلاثة كيلو مترات، والطرق والوديان المؤدية للمستعمرة تسير بها دوريات إسرائيلية للحراسة، ومن ثم كان من الواجب علينا أن نسير في غاية الانتباه والترقب، وأن تكون أسلحتنا جاهزة للانطلاق فور صدور الأمر بذلك، وأنه ممنوع منعًا باتًا أن يطلق أي فرد أي عيار ناري دون أمر؛ حتى لا تنكشف مواقعنا للعدو.

كان الظلام دامسًا، وكنا نسير -نحن السبعة- في خطوط متعرجة بين السهول والوديان، تفصل كل جندي عن زميله حوالي خمسة أمتار لا تزيد ولا تنقص، حتى لا يفقد بعضنا البعض وسط الظلام، وكان «نجيب جويفل» في المقدمة، ويبدو أنه يعرف هذا الطريق المتعرج جيدًا، وفجأة أعطانا «نجيب» إشارة التوقف والانتظار؛ فتوقفنا وانبطحنا على الأرض، وكلنا آذان مصغية، وعيون تحاول الرؤية وسط هذا الليل البهيم، ورأينا من بعيد أضواء سبع سيارات تظهر وتختفي بين التلال، وعلمنا

أنها قافلة تموين تخرج من هذه المستعمرة الرئيسية متوجهة إلى المستعمرات المجـاورة، وستكون هذه القافلة -بإذن الله- هدفًا لمجموعة «فوزي فارس»، وبعد دقائق، وبعد أن بعدت أضواء العربات المصفحة، ولم نعد نسمع لها صوتًا بـدأنا في التحـرك مـن جديـد، وتحركنـا بنـشاط وخفـة وحيويـة، وكـان قائـدنا «نجيـب جويفـل» يعطينـا الإشارات المختلفة بين الحين والحين بالتوقف والالتفات والاستعداد لإطلاق النـار حتى نتمرس عمليًا، وتكون عندنا حاسة استشعار جديدة نـتفهم كـل حركـة وكـل صوت، ونستعد له، وأخيرًا لاحت لنا عن بعد أضواء المستعمرة وأصوات سـكانها من بعيد، أمرنا «نجيب» بالتوقف والانتظار والاستعداد، وانطلـق هـو وأحـد أفـراد المجموعة ليستكـشف المكـان المناسـب الـذي سـنطلق منـه نيرانـا علـى المـستعمرة، وابتلعتهم الظلمة، ولم نعد نسمع إلا أصواتًا متداخلة تصدر من المستعمرة.

وبعد حوالي نصف ساعة قضيناها في الانتظار دارت بي الأفكار هنـا وهنـاك، وتذكرت الأصدقاء في مصر والأهل والأحباب وأمي الغالية وأبي الحبيب وإخوتي الأعزاء، وقطع حبل أفكاري وصول زميلنا إلينا وسط الظلمة، وهمس لنـا بكلمـة السر حتى نتعرف عليه، وأشار إلينا بهدوء أن نتبعه، وكـان لا بـدَّ أن نتـسلل بكـلِّ هدوء؛ فقد اقتربنا من أسوار المستعمرة الشائكة، ولا بدَّ من وجود حراس منتشرين هنا وهناك، وأي صوت يصدر منا قـد يـؤدي إلى كـشف أماكننـا، وفـشل مهمتنـا، وأخيرًا وصلنا إلى تـل يـشرف علـى المـستعمرة، والـتي ظهـرت واضـحة بأنوارهـا ومساكنها وساكنيها، ويبدو أنهم كانوا يقيمون حفلـة راقـصة؛ فقـد كـانوا في هـرج ومرج وضحكات، انبطحنا جنبًا إلى جنب، وأعطى «نجيب» أوامره لنا بالاسـتعداد، وأن نستعد لإطلاق نيران الأسلحة مرة واحدة بعد إشارة من يديه.

كان اثنان منا يحملان مدفعي هـاون خفيـف الحجـم، واثنـان آخـران يحمـلان مدافع رشاشة، وأنا ومجاهـد آخـر نحمـل بنـادق بكتـوس إطـلاق للقنابـل اليدويـة والقنابل الحارقة، أما «نجيب»، فكان يحمل مدفعًا رشاشًا يحمل على الكتف، وكتمنا أنفاسنا منتظرين إشارة «نجيب» التي أعطاها لنا، وفي لحظات انطلقت قنابـل الهـاون سريعة مدوية، وانطلقـت المـدافع الرشاشـة تحـصد الراقـصين، وانطلقـت القنابـل الحارقة من بندقيتي وبندقية زميلي، ثـم أتبعناهـا بـاثنين آخـرين، واسـتمر إطـلاق

النيران من جانبنا دقائق ثلاث فقط، وأعطانا «نجيب» الأمر بالانسحاب، وأسرعنا في وادي عميق يحمينا من القنابل والرصاص الذي انطلق من حراس المستعمرة، بعد أن أفاقوا من سرعة المفاجأة، وبدءوا يطلقون نيرانهم من كلّ صوبٍ، ولكن بعيدًا عنا؛ لأنهم لم يستطعوا تحديد أماكننا، وأسرعنا حتى نبعد عن مجال النيران وأضواء المستعمرة الكاشفة، ولقد حمتنا طبيعة الأرض المملوءة بالوديان والتلال التي يسهل الاختفاء والتواري فيها، وسمعنا أصوات سيارات من بعيد، فأمرنا «نجيب» بالتوقف حتى يعطينا فرصة لالتقاط أنفاسنا، وحتى يحدد بالضبط مواقع سيارات العدو، والتي خرجت تصد هجومنا المفاجئ، وصعد «نجيب» على تل مرتفع، ثم أعطانا إشارة بالصعود معه بهدوء ليرينا النيران المشتعلة في المستعمرة حتى يثلج صدورنا، ورأينا السيارات من بعيد تتحرك دون هدف، وقد ابتعدنا عن المستعمرة بكثير، وأصبحنا في مأمن بعيد عن مرمى أسلحتهم، ونزلنا من التل، وبدأنا نتحرك صوب معسكرنا، وقد خففنا من سرعتنا بعد أن ظهرت أضواء معسكرنا من بعيد.

وفجأة رأينا بصعوبة وسط الظلام الحالك أجسامًا ضخمة تتحرك مسرعة وسط الظلام، توقفنا وانبطحنا على الأرض، وأيدينا على زناد الأسلحة منتظرين الأمر، ولنرى ما هذه الأجسام الضخمة العالية التي تتحرك دون صوت أو دوي، وأخيرًا اتضح لنا الأمر، فإذا هي قافلة من الجمال يقودها عرب، فأعطانا «نجيب» الأمر بالتصدي لها، وبسرعة التفتنا حولها رافعين أسلحتنا ورشاشاتنا، فتوقف العرب رافعين أيديهم، وقد أناخوا جمالهم -وقد ظنَّ هؤلاء الأعراب أننا قد نكون دورية إسرائيلية- سألهم «نجيب» عما يحملون، فأجابوا بخوف: إنها أحمال من البرتقال، ولمزيد من التأكد فتشنا بسرعة هذه الأحمال خشية أن تكون أسلحة أو مهمات مهربة للمستعمرات، ولكنها كانت -في الحقيقة- أحمالاً من البرتقال، وطمأنهم «نجيب»، وعرفهم أننا من متطوعي الإخوان، ونحن هنا لحمايتهم، والتعاون معهم لطرد هؤلاء اليهود الذين اغتصبوا حقهم، وطلب منهم الحضور إلى المعسكر إذا حدثت لهم أية مشكلة تصادفهم، أو أية معلومات عن المستعمرات التي حولهم، فاطمأنت قلوبهم، ووعدونا خيرًا.

وصلنا أخيرًا إلى المعسكر بسلام، وكنت في سعادة لا يعلم مداها إلا الله

وطلب منا «نجيب جويفل» أن نذهب إلى النوم، ونأخذ قسطًا من الراحة، ولنتقابل في مسجد المعسكر في صلاة الفجر؛ لنلتقي ببقية المجموعات التي لم تصل إلى المعسكر، حتى الآن، والذي جعلنا في قلق كبير عليهم أننا سمعنا أصوات طلقات نارية متبادلة وانفجارات هنا وهناك.

ذهبنا إلى النوم، ولكنني لم أنم إلا بعد فترة طويلة، وكنت أستعرض أمام مخيلتي كل ما حدث في هذه الليلة، وأحسست -بفرحة كبيرة- أنني نلت هذا الشرف العظيم، وأيقنت أن الحرب والجهاد دفاعًا عن الأرض والدين والعرض هي التي تربي الأمم، وتصقل الشباب، وأن حياة المجاهدين هي الحياة الحقة دون شك، وليست حياتنا السابقة، وحياة أغلب الشباب المنغمس في اللهو والمجون غير عابئين بما يحدث لأمتهم من استعباد واحتلال واستهانة بكلّ مقدساتهم، وممن؟! من أجبن خلق الله وأسوأ خلق الله -اليهود.

لقد غيَّر اليهود الآن جلودهم، ولبسوا جلود النمور، وظهرت أنيابهم، وحملوا الأسلحة، وعاثوا في الأرض فسادًا، وكنت أتساءل: هل فعلوا ذلك لقوة فيهم؟ أبدًا والله، بل لأننا نحن تركنا الجهاد، وانتبهنا إلى مفاسد الحياة التي كنا نعب منها عبًا، وأصبحنا -نحن المسلمين المستضعفين في الأرض- نهبًا لكلّ طامع، وأصبحنا كالنعاج التي لا تستطيع حماية نفسها ولا حماية صغارها، فطمع فينا الجميع حتى اليهود الأذلاء، احتلوا أرضنا، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ، وكان من استهتارهم بنا أنهم كانوا يبقرون بطون السيدات العربيات الحوامل في قرية «دير ياسين» أمام أزواجهن ورجال القرية جميعًا، ويتراهنون على ما في بطونهن: أهي ذكر أم أنثى؟! ويقولون لرجال القرية: «شايفين.. محمد مات خلف بنات»، أي أن رسولنا قد مات، ولم يبق من قومه من المسلمين إلا بنات لا يستطيعون حتى الدفاع عن أنفسهن.. يا للعار لا ينجينا من كلّ هذا إلا أن نفيق من سكراتنا، ونعود مرة أخرى إلى ديننا، والذي يدعونا إلى الجهاد، حتى تدخل الخنازير والقردة إلى جحورها، وتعرف أحجامها، وليعرفوا أن المسلمين ما زالوا رجالاً يستطيعون الزود عن أنفسهم وعن ديارهم.

وأخيرًا غلبني النوم، وما زالت هذه الأفكار تراودني في أحلامي، واستيقظت على أذان الفجر، فتوضأت، وتوجهت إلى المسجد، وأنا أنظر حولي هنا وهناك عن

أفراد فصيلتي، وخاصة المجموعتين الأخريتين، واطمأننت بفضل الله على وجود أغلبهم يصلون، وأدينا الصلاة، وجمعنا «نجيب» بعد الصلاة لنناقش العمليات الثلاثة، وتكلم قواد المجموعات شارحين خط سير عملياتهم، وما حققته حسب الخطة الموضوعة والمفاجآت التي حدثت، وكان الحوار بعقول متفتحة، وقلوب زكية تطلب الكمال، ثم ناقشهم «نجيب» في السلبيات التي حدثت حتى يتلافوها في المستقبل، وأعطى «نجيب» أوامره بأننا سنتولى هذه الليلة حراسة المعسكر، وهي مسألة في غاية الأهمية، ولا بدَّ أن نكون في يقظة تامة، وفي الليلة التي تليها ستتبادل كل مجموعة مهمة المجموعة الأخرى، وستكون مهمة مجموعتنا غدًا هي بث الألغام في طريق المستعمرات.

اليوزباشي محمود عبده

وبدأنا نجهز أسلحتنا والألغام منتظرين حلول الظلام، وحل الظلام، وصلينا العشاء، واستعدت جميع المجموعات المقاتلة للمهمات الليلية، وكنا حوالي عشر فصائل، وكل فصيل ينقسم إلى ثلاث مجموعات، والمجموعة مكونة من سبعة أفراد -أي: كان عددنا حوالي مائتي مقاتل، خلاف رجال الخدمات والتموين والإشارة، أما في وسط فلسطين عند «بيت لحم» و«القدس» و«صور باهر»، فقد علمت أن هناك عددًا كبيرًا من متطوعي الإخوان يبلغ حوالي السبعمائة بقيادة المجاهد «محمود عبده»(١).

الحرب المضادة

بينما المجموعات تجهز نفسها للخروج لعملياتها الليلية -والتي يخطط لها ويحدد أماكنها «كامل الشريف» بدقة حتى لا تتصادم في هذا الظلام الحالك، فقد حدَّد لكلٍّ مجموعة مكانًا معينًا ووقتًا محددًا وعملاً معينًا، وكان لكلٍّ ليلة كلمة سر ندخل بها المعسكر، ونستعملها ونطلبها إذا قابلنا في الظلام مجهولين، وكان الكلُّ في حركة

---

(١) اليوزباشي محمود عبده: أحد ضباط الاحتياط بالجيش المصري كان أحد قادة الإخوان في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، وحرب القنال ١٩٥١م.

دائبة لا يسمع إلا أصوات تجهيز الأسلحة، والتتميم عليها وعلى أفراد المجموعات -وإذا بنا نسمع سارينة الإنذار بالخطر، وفي هذه الحالة يأخذ كل منا مكانه المحدد له، فكان الإنذار أن هناك هجومًا إسرائيليًا انتقاميًا على معسكرنا، وأطفئت أنوار المعسكر فورًا، وساد الظلام والترقب، وعيوننا تشق الظلام تحاول رؤية المتسللين من اليهود، ومرت داخل المعسكر سيارة جيب بها الأستاذ «محمد فرغلي» و«كامل الشريف» و«نجيب جويفل» و«فوزي فارس»، وأعطوا أوامرهم لنصف عدد المدافعين للتجمع بالأسلحة عند المسجد، وكنت معهم، واجتمعت كل فصيلة على حدة، وتوجهت كل فصيلة مع قائدها إلى خارج المعسكر بهدوء على الأقدام، وأخذنا مواقعنا على تلال تبعد عن المعسكر بحوالي كيلو متر ونصف.

وبعد أن صعدنا إلى التل جمعنا «نجيب جويفل»، وأخبرنا أن هناك إخبارية من مصادرنا من الأعراب الذين يعملون حول مستعمرات اليهود تخبر أن هناك هجومًا من المستعمرات المحيطة بنا انتقامًا لعمليات أمس، ولذلك قرَّر القادة أن ندافع عن معسكرنا لا من داخله، بل من التلال المحيطة به، بالإضافة إلى خط دفاع آخر حول المعسكر نفسه، وفي نفس الوقت، خرجت مجموعة الألغام ومجموعة المدفعية المضادة للدروع متقدمة عنا في انتظار أي تحرك للعدو لضربه قبل وصوله إلينا، وبذلك تكون هناك ثلاثة خطوط دفاعية، وكان في هذه الحالة لا بدَّ من الاستيقاظ والانتباه والإسراع في حفر الخنادق في هذا التل الذي سيكون موقعًا دائمًا لنا بدل المعسكر، وهناك خمسة مواقع أخرى تحيط بالمعسكر من كلِّ جانب، وسيكون المعسكر للتدريب والتموين والإمداد بالسلاح والزخيرة.

حدَّد «نجيب» أماكن حفر الخنادق، وبدأنا بهمة وسرعة في حفر خنادق بعمق متر تقريبًا، وكل خندق يكفي ثلاثة متطوعين بأسلحتهم، بحيث ينام اثنان، ويقف الثالث متنبهًا لأي تحرك للعدو، وأخذت دوري في الحراسة، ونام زميلي، وكانت مدة الحراسة ثلاث ساعات، وكان البرد شديدًا قاسيًا والملابس الصوفية العسكرية غير كافية، ولم تكن معاطف صوفية ثقيلة تحمينا من هذا البرد غير العادي؛ فأخذت أقف في مكاني حتى أدفأ، وكلي عيون متطلعة حولي، ونام زميلاي من الإجهاد والتعب، وكل منهم قد لفَّ بطانية واحدة حوله لا تقيه أبدًا من هذا البرد الشديد،

ولكن التعب والإرهاق جعلهم يستغرقون في النوم، وكان «نجيب جويفـل» كـالنمر يقفز هنا وهناك يتأكد بنفسه مـن يقظـة الحـراس، وقاومـت النـوم بـصعوبة بالغـة، وانتهت ساعات حراستي الثلاث، ثم أيقظت زميلي الـذي عليـه النوبـة، والتففـت بالبطانية، ورحت في نوم عميق، وأيقظنا الزميل الذي عليه نوبة الحراسة، فانتفـضنا من نومتنا، وأيدينا على أسحلتنا، واستفسرنا منـه عـن الموقـف، فأشـار إلى أضـواء سيارات بعيدة خافتة تظهر وتختفي، وهي تتجه صوب معسكرنا ومواقعنا، وتنبهت جميع الخنادق، واستيقظت، واستعدت؛ فلقد رأينا «نجيب جويفـل» يمـر علـى جميـع الخنادق ليتأكد من استيقاظ جميع الجنود، وأعطانا أوامـره بـألا نطلـق أيـة طلقـة أو يظهر لنا أي ضوء ينبه العدو إلى أماكننا التي يجهلها تمامًا، وأخبرنا أن سبب خروجنا من المعسكر، وتقدمنا إلى هذه المواقع كان لمفاجـأة المحتـل واصـطياده، ولـذلك مـن الخطأ الفاحش أن تكشف أماكننا ومواقعنا، ولا بدَّ من مفاجأته في الوقت المناسب، وسنبدأ بإطلاق النار فورًا بعد إعطائه الإشارة الضوئية لنا مـن مـسدسه، وفي اتجـاه العدو.

سيارة غنمها الإخوان في الحرب

ضاعت كل آثار النوم من عيوننـا، بـل احسسنا بالدفء والحيويـة في أجـسادنا، ولم نحس أبدًا بـالبرودة أو الإجهـاد الـذي كنـا نحس به مـن قبـل، فقـد تحولنـا إلى حـواس متيقظـة، وعلـى أتم الاسـتعداد للقتـال، وأخذنا نتتبع بعيون تخترق الظـلام اقـتراب أضواء السيارات، والتي تظهر وتختفي، والتي حتى الآن لم نسمع لمحركاتهـا أصـواتًا، وأخذت افكر في زملائـي مـن المجاهـدين والمتربـصين في الظـلام للعـدو بمـدافعهم المضادة للـدروع، تُـرى هـل اقتربـت هـذه الـسيارات مـن مـدى قـذائفهم؟ وهـل سيسعدنا الحظ، وتقع هـذه الـسيارات في حقـل الألغـام الـذي وضـعوه في طريـق تقدمهم؟

علي نعمان

ومضت اللحظات بطيئة متثاقلة، وأيدينا على زناد أسلحتنا، وكلنا خشية من أن تنطلق رصاصة طائشة تنبه العدو عن أماكننا، فتضيع منا ميزة المفاجأة، والتي تكون النسبة الكبيرة في هزيمة العدو، وتغير خططه وتربك قواته المتقدمة، ووصل إلى أسماعنا صوت محركات سيارات العدو المصفحة، والتي أطفأت أنوارها، وبدأت تتحرك ببطء لمفاجأتنا، وفجأة سمعنا صوت انفجار هائل، ورأينا كتلة مشتعلة تطير في الهواء، وتضيء مسرح العمليات للحظات وجيزة، رأينا خلالها سيارات العدو المدرعة، وقد انفجر لغم تحتها، وطارت في الهواء مشتعلة، ثم سمعنا ورأينا على أضواء انفجارات القنابل والقذائف التي تطلقها مجموعتنا المترصدة للعدو في الوادي القريب منا، والتي أطلقت قذائفها على باقي مصفحاته، فانفجرت اثنتان أخرتان، وبدأت المصفحات الأخرى تطلق قذائفها من غير هدف في الظلام الدامس، ومجموعتنا مختبئة في الأحراش، وتتحرك بخفة هنا وهناك، واستمرت المعركة حوالي نصف الساعة.

ثم رأينا على ضوء المصفحات المشتعلة باقي مصفحات العدو تحاول الاستدارة في الوادي الضيق، وكانت تطاردها قذائف مجموعتنا، وكنا في شوق كبير للاشتباك معها، ولكن «نجيب» كبح جماحنا، وأخبرنا أن هناك في الوادي مجموعة أخرى متربصة تنتظر الوقت المناسب بعد أن تتوقف قذائفنا على المصفحات، فتسرع بقنابلها اليدوية ورشاشاتها تطهر مكان المعركة من بقايا العدو وجرحاه، والاستيلاء على ما يصلح من سلاح وذخيرة، وسنكون نحن قوة احتياط لهم إذا احتاجوا إلينا، فسيطلقون إشارة مضيئة متفقًا عليها بضوء ذي لون قرمزي، وسكنت أضواء الانفجارات لدقائق، ثم سمعنا أصوات قنابل يدوية ورشاشات لدقائق قليلة، ثم سكون تام، وبعدها رأينا إشارة ضوئية خضراء تنطلق صوبنا، فأعلمنا «نجيب» أن هذه الإشارة معناها أن المعركة انتهت لصالحنا، ويريدون منا المساعدة لأخذ السالب، وأخذ «نجيب» معه عددًا من المجاهدين، وأبقى الآخر لحراسة الموقع، وكنت مع «نجيب»، ونزلنا من التل إلى الوادي الذي وقعت فيه المعركة، وكانت الأضواء الصادرة من النيران المشتعلة في الصفحات هنا وهناك تنبئ عن مكان

المعركة، وكان منظرًا فريدًا لا يراه الإنسان إلا نادرًا (مصفحات مقلوبة، وقتلى من اليهود هنا وهناك، وتوجد مصفحة سليمة تركها جنودها اليهود وفروا هاربين، والأسلحة ملقاة في كلّ مكان)، فجمعنا هذه الأسلحة والذخائر، ووضعناها داخل المصفحة، وتولى أحد المجاهدين قيادتها، وأذكر اسمه جيدًا، إنه الأخ «علي نعمان»[1]، وهو مجاهد يتميز بشجاعته وهدوئه وصحته القوية، وكان يحسن قيادة السيارات، وتحرك بها مع جرحانا وشهدائنا إلى معسكرنا.

أما نحن، فعدنا مرة أخرى إلى موقعنا فوق ذلك التل، والذي يشرف على الوادي، ويرى من بعد المستعمرات المحيطة حولنا، وفي الصباح وصلتنا بعض الإمدادات والأسلحة والبطاطين والمعلبات والمعاطف، والتي غنمناها من عدونا، وكنا سعداء بها جدًّا، وقضينا نهارًا ممتعًا يقص بعضنا على بعض تفاصيل المعركة، والتفنا حول المجموعة الشجاعة، والتي كانت سببًا في هذا النصر العظيم نستمع منها بآذان مصغية كل التفاصيل -حقًّا إنها مدرسة تصقل الرجال، مدرسة الجهاد في سبيل الله.

مهمة جديدة

كلفت مجموعتنا بوضع الألغام في طريق المستعمرات، ولما كان الخروج ليلاً لا يعطينا الصورة الحقيقية الواضحة عن أفضل الأماكن لبثّ الألغام، لذلك قرّر «نجيب جويفل» أن يخرج مع مجموعتنا نهارًا في دورية استكشاف لنحدد أفضل الأماكن، ثم نأتي بعد ذلك في المساء حيث ننفذ مهمتنا بعيدًا عن أعين العدو، واستعددنا بأسلحتنا، بالإضافة إلى القنابل اليدوية والرشاشات الخفيفة تحسبًا للصدام مع العدو، وخرجنا من مواقعنا في حوالي الساعة العاشرة صباحًا، وكان الجو مشمسًا والوديان والتلال مكسوة بالخضرة اليانعة يتقدمنا «نجيب»؛ فهو يعرف هذه الطرق جيدًا، وأخذ يعرفنا الاتجاهات، وقد علمها بتلال وأشجار لها شكل مميز تحدد له الطريق حتى إذا وصلنا إلى طريق ضيق بين جبلين توقفنا، وقال لنا

---

(١) **علي نعمان**: أحد الإخوان الذين تطوعوا في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، والقنال ١٩٥١م، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، واعتقل في عهد عبد الناصر، وأصيب برصاص في وجهه في مذبحة طره سنة ١٩٥٧م التي نظّمها قادة سجون عبد الناصر للإخوان داخل هذا السجن.

«نجيب»: «إن هذا أفضل مكان لوضع الألغام لسببين: أولهما: ضيق الطريق نوعًا ما؛ فيحصر تمامًا سير المصفحات في هذا المكان الضيق المحدد، والسبب الآخر: هو أن هذين الجبلين يخفوننا عن أعين العدو ومراقبته».

حدَّدنا الأماكن جيدًا، ونظرنا حولنا ليرتسم المكان في ذاكرتنا، وأثناء رحلة العودة إلى مواقعنا كانت المستعمرات تظهر لنا من بعيد، ولكننا كنا بعيدًا عن مدى نيران أسلحتهم، وأخذنا في المسير في هذه الوديان المقدسة، والتي لا بدَّ وأن الأنبياء -عليهم السلام- قد ساروا فيها من قبل في هذه الأرض المقدسة ذات الأرض الذهبية الخصبة، والجو المعتدل، والمياه التي تتدفق من العيون؛ فهل هكذا نفرِّط في أقدس أراضينا وأجملها وأخصبها؟!

فوجئنا برصاص مدفع رشاش ثقيل يطلق صوبنا، وكاد أن يمس رءوسنا، وسمعنا أزيزه القوي حول آذاننا؛ فانبطحنا بسرعة على الأرض، وأخذنا نتطلع بهدوء حولنا لنعرف مصدر هذا المدفع الرشاش، إنه لا يكون من المستعمرات؛ لأنها بعيدة عنا، ثم إن صوت الرصاص وأزيزه لا يدلان على أنه يطلق علينا من مكان قريب، وسكت صوت الرصاص حينما اختفينا، وأراد «نجيب» أن يحدد موقع الرشاش، فخلع جاكتته ورفعها إلى أعلى فوهة بندقية؛ فانهال الرصاص عليها؛ فاستطاع نجيب أن يحدد اتجاه العدو، وهمس لنا قائلاً: إن الرصاص يأتي من فوق هذا التل، وإننا سنزحف بهدوء، ونلتف حوله، ثم نصعد إليه، وبدأنا نزحف في المكان المكشوف لهذا التل، وبدأنا نصعده بهدوء من الخلف، وتعجبنا حينما وجدنا مدفعًا رشاشًا من النوع الثقيل به شريط طويل من الطلقات، مقام على قاعدة خراسانية، ولكن لا يوجد بجواره أحد! مما آثار تعجبنا وحيرتنا وظننا لأول وهلة أن الجنود الإسرائيلين اختفوا في مخبأ أو خندق؛ فأخذنا نفتش هنا وهناك، وإذا بالمدفع يطلق طلاقته السريعة، فانبطحنا جميعًا، وقد أصيب أحد المجاهدين في زراعه، وتساءلنا: كيف حدث هذا، مدفع يطلق وحده، ويصيب أحدنا؟ وبدأت المستعمرات تطلق مدافع الهاون، والتي بدت حولنا بكثافة، فأمرنا «نجيب» بالانسحاب فورًا خلف التل بعيدًا عن قذائف الهاون، والانتظار في الوادي، ثم توجه هو وأحد المجاهدين زحفًا إلى المدفع الرشاش، وألقوا عليه قنبلتين يدويتين من بعيد حطمتاه.

ووصل إلينا «نجيب» والابتسامة تعلو شفتيه، وسألناه عن سر هذا الرشاش، فأمرنا بالإسراع الآن إلى مواقعنا؛ فاليهود في حالة حنق شديد لتحطيم رشاشهم السحري، وأسرعنا في العودة، نحاول قدر جهدنا عدم الظهور، فكنا نسير مختبئين بين التلال والوديان، حتى وصلنا إلى مواقعنا، وقصصنا على زملائنا قصة الرشاش السحري الذي يطلق رصاصاته وحده دون جندي وراءه، فتعجبوا وقال أحدنا معلقًا: إن شياطين الإنس من اليهود يستعينون بشياطين الجن، وكنا في حيرة شديدة حتى جمعنا «نجيب جويفل»، وأخبرنا عن سر هذا الرشاش السحري، وأخبرنا أن اليهود يستعملون بمساعدة أمريكا وروسيا أحدث الأسلحة والابتكارات الجديدة، وهذا المدفع الرشاش يدار باللاسلكي من بعيد، وضعه اليهود على هذا التل؛ ليحموا به الوادي البعيد عن مستعمرتهم، وهم يديرونه من بعيد بأجهزة حديثة للاسلكية ونظارات مقربة، ويطلقونه على كلِّ مَن يقترب منهم، وهم آمنون في مستعمرتهم، وقد حطمنا لهم هذا السلاح السحري بفضل الله، وضربنا عصفورين بحجر واحد، وفي المساء سنخرج لبثِّ الألغام في المكان الذي حدَّدناه، وسننتظر في الوقت نفسه حضور اليهود لأخذ مدفعهم لفحصه، ثم قال: استريحوا الآن؛ لأن عندنا مهمة صعبة هذه الليلة.

الاختبار الأول

السيد عيد

في حوالي الساعة العاشرة صباحًا حضرت للموقع المصفحة التي تحمل لنا التموين والذخيرة، والتي تمر على جميع المواقع يوميًا، وأفرغنا منها نصيبنا من التموين والذخيرة والمياه، وطلبني قائد فصيلتنا «نجيب جويفل» في خيمته، فوجدت معه «السيد عيد»[1]، وهو أحد المجاهدين المتميزين بعلمهم وورعهم، ومعه ورقة بها اسمي كاملاً، وأخبرني «نجيب» بأنني مطلوب لمقابلة قائد المعسكر الشيخ

(١) السيد عيد: أحد الإخوان الذين جاهدوا في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، وكان أحد قادة الفصائل الذين نالوا وسام الشرف الملكي على جهودهم في الحرب.

«محمد فرغلي» شخصيًا؛ فتعجبت للأمر، وطلب مني «نجيب» أن أستعد خلال خمس دقائق لمصاحبة «سيد عيد» في المصفحة الآن، ثم العودة في الغد صباحًا، وحاولت أن أستأذن «نجيب» في البقاء هذه الليلة لحضور العملية الليلية، فرفض «نجيب» قائلاً: «إن قائد المعسكر يطلبك الآن، وليس غدًا، ثم إن العمليات كثيرة، وكل ليلة بإذن الله، فإن فاتتك تلك، فهناك الكثير من العمليات، اذهب الآن وسنراك غدًا».

ركبت المصفحة التي غنمناها من اليهود، وكانت في حالة جيدة، وبها فتحات تخرج منها المدافع الرشاشة، ومررنا على المواقع، ووزعنا عليهم أنصبتهم من التموين والزخيرة، وأخيرًا وصلنا إلى المعسكر، وأعطيناهم كلمة السر، ودخلنا من البوابة، ثم إلى مكتب قائد المعسكر الشيخ «محمد فرغلي»، وهو من علماء الأزهر الشريف، ولكنه كان يرتدي الملابس العسكرية، وكله نشاط وحيوية، وكان يجلس على كرسي بجواره ضابط جيش ذو رتبة كبيرة، دخلت وحييت بتحية الإسلام، وانتظرني «سيد عيد» في الخارج، وقف الضابط الكبير وحياني مصافحًا بيديه بطريقة ودية، وقال لي: كيف حالك يا عبد الرحمن؟ ألا تعرفني؟ فنظرت إليه مليًا، واعتذرت له بأدب بأنني لا أتذكره جيدًا؛ قال لي: أنا «الطفي المفتي» قريبكم، فتذكرته فورًا، وتذكرت أني قابلته من فترة طويلة عند خالتي، ولم يكن يومذاك يرتدي الملابس العسكرية، تكلَّم الأستاذ «محمد فرغلي» مخاطبًا إياي: «إن قريبك العميد «الطفي» يحمل لك رسالة من أسرتك وخاصة والدتك، وقد طلب مني أن آذن لك في النزول إلى مصر؛ لأن والدتك مشغولة عليك، وإنني شخصيًا لا أمانع، ولكني تركت الأمر إليك، لتقرر بنفسك يا عبد الرحمن، فما رأيك؟» قلت موجهًا الحديث لكليهما: إنني جئت إلى ميدان القتال لأؤدي واجبي نحو ديني ووطني، وأرجو، يا «الطفي» منك، أن تبلغ تحياتي لأسرتي جميعًا، وخاصةً أمي وأبي وإخوتي، وطمئنهم عليَّ، وقل لهم: إنني بخير»، قال لي العميد «الطفي» بهدوء، وهو ينظر إليَّ: «ولكن والدتك متعبة لغيابك»، فرددت عليه على الفور: «هذا حال كل الأمهات، ولكن الأيام ستقوي صبرها»، قال العميد «الطفي»، وقد بدى على وجهه الاقتناع بكلامي: «إنني جئت يا عبد الرحمن، وأنا واثق أنك ستعود معي، ولكن

الآن أفخر بك وأحييك، وأتمنى لك التوفيق، ولكن أكتب رسالة صغيرة للوالدة والأسرة؛ لتطمئنهم عليك»، فكتبت رسالة قصيرة أعطيتها إياه، ووعدته بإرسال رسالة مطولة إليهم.

وقف العميد «لطفي» والأستاذ «فرغلي» وحيوني وشدا على يدي، وقال لي الأستاذ «فرغلي»: «أنا فخور بك يا عبد الرحمن، توجه إلى موقعك في رعاية الله».

على خط النار مرة ثانية

المجاهدون في أحد الأكمنة

خرجت وقلبي منشرح شاكر لفضل الله الذي يحوطني؛ لأنني أعيش أعظم أيام حياتي، وأتمنى أن تتوج هذه الأيام بالشهادة في سبيل الله، فوجدت «سيد عيد» ينتظرني، ويسألني باهتمام شديد عما تمّ، فأخبرته بالحوار الذي دار بيني وبينهم، فاحتضنني بفرحة كبيرة قائلاً: «إنني كنت أعرف سبب استدعائك، وكنت أتصور أننا سنفتقدك، وأنك ستعود إلى مصر»، فاستحلفته بالله أن يوصلني إلى الموقع؛ فاستأذن الأستاذ «فرغلي»، وخرجت عربة جيب صغيرة لتوصلني، وكان كلُّ أملي أن أحضر عملية الليلة، وأصل الموقع قبل حلول الظلام، وفعلاً وصلت إلى الموقع حوالي الساعة الثانية ظهرًا، وكان الجميع في حالة استعداد وترقب؛ فقد كنا نرى من على بُعد تحركات مريبة للعدو، فأخذنا نرصدها لنعرف مغزاها، واتصل «نجيب جويفل» بقيادة المعسكر، والتي عممت حالة الاستنفار تحسبًا لهجوم يهودي جديد على مواقعنا، وهبط الظلام، وأدخلت الدوريات الليلية حتى تتضح الأمور، وسهرنا طوال الليل ننتظر الهجوم المرتقب، حتى إذا نزع الفجر أخذنا قسطًا من الراحة والنوم، وعلمنا من مصادرنا أن اليهود يوزعون قواتهم بين المستعمرات استعدادًا لهجوم جديد على مواقعنا؛ فكان لا بدَّ من الاستعداد لصدِّ هجومهم، وكان لا بدَّ من بدء الخطوة الأولى، وهي تلغيم طرق تنقلاتهم بين المستعمرات، وتلغيم الطرق المؤدية إلى مواقعنا، وبدأت القيادة في رسم خريطة مفصلة لمواقع الألغام التي ستضعها؛ حتى لا تنفجر فينا.

وفي المساء أخذت كل مجموعة الخريطة الخاصة بها، وتوجهت أربع مجموعات لبث الألغام، وفي حوالي الساعة العاشرة مساءً تحركت مجموعتنا المكونة من سبعة أفراد، ومعنا دليل متمرس في المنطقة يعرف شعابها وطرقها جيدًا، ووصلنا إلى المكان المحدد في الخريطة لبثِّ ألغامنا، ووقف اثنان من المتطوعين للحراسة على ربوتين تشرفان على العمل، وبدأ قائد المجموعة يحدد أماكن وضع الألغام، ويرسمها على الأسفلت، وبدأنا نرفع قرص الأسفلت بآلة يدوية صغيرة، ونضعها جانبًا، ثم نزيل الأحجار والرمال لنهيئ مكانًا للألغام، ثم نضعها في مكانها، ثم نضع قرص الأسفلت وفي اللمسات الأخيرة، حيث نزيل أي آثار للأتربة أو الأحجار، ثم نملأ الفراغات بمادة أسفلت سوداء بحيث يبدو المكان عاديًا، ولا يظهر أي أثر يلفت نظر الأعداء لوجود ألغام في هذا المكان، كان كلُّ شيء يتم بهدوء وصمت ونظام ودقة.

وبعد أن انتهينا من تنفيذ هذه المهمة، والتي كانت تتم على ضوء النجوم الشاحبة؛ حتى لا ننكشف للأعداء القريبين منا -تمم قائد المجموعة على عملنا، وأتممنا ملاحظاته الأخيرة، ودعونا الله أن يكون فخًا ناجحًا لمصفحات العدو وعرباته، وقرأنا هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧]، أحسسنا أننا أدينا واجبنا بإتقان، وتركنا الباقي على الله ﷻ، وكان هذا شعورنا دائمًا أننا مع الله، وندعو الله دائمًا أن يكون معنا، وبدأنا في التحرك إلى مواقعنا بهدوء وصمت، وبعد حوالي نصف ساعة وصلنا إلى مواقعنا، واعترضنا الحراس رافعين أسلحتهم، فأعطيناهم كلمة السر، فأفسحوا لنا الطريق، وبدأت المجموعات تتوالى، وقد أدت عملها بحمد الله بنجاح، وأصبحت مواقعنا محصنة على بعد عدة كيلو مترات، وانتظرنا لنسمع دوي ألغامنا، وقد اصطدمت بعربات العدو، وأخذنا قسطًا من الراحة بعد أن أدينا صلاة الفجر، وقد امتلأت قلوبنا خشوعًا لله، واطمئنانًا لرعايته وعنايته.

أبو الفتوح عفيفي

وهـذا «أبـو الفتـوح عفيفـي»[1] المـرح ذو النكتـة الحاضرة، يشاغب مع هـذا وذاك، و«علـي الفيـومي»[2] ذلك الشاب صغير السن الباسم دائمًا الـذي يـدور هنـا وهناك كالنحلة الدائبة، و«صلاح حسين» الثائر المباشر مع العدو، و«لطفي» ذلك الـشاب الـصامت كـأبي الهـول لا تعرف أبدًا ما يدور في خاطره، وصـديقه «حلمـي» ذلـك الشاب الدائم الحديث، والذي لا يكف عـن الكـلام مـع صديقه «لطفي» الذي يستمع إليه، ولا ينطق بكلمة واحدة، شباب مؤمن شجاع بسيط، ذو قلوب طاهرة نقية، باعوا حياتهم لله، قارنتهم بكثير مـن الـشباب الـذين رأيتهم في حياتي، فوجدت فروقًا هائلة بين هؤلاء الشباب الذين حـددوا هـدفهم، وأخلصوا نياتهم، وأولئك الشباب الضائع الذين لا هدف لهـم في الحيـاة إلا اللـهو والعبث والطعام والشراب، ولقد كنت -في الحقيقة- واحدًا من هؤلاء.

الاختبار الثاني والعودة للقاهرة

جاءت مصفحة التموين والذخيرة، فاستقبلناها بفرح كـبير، فهـي تعـد صـلتنا بالعالم الخارجي؛ فهي تحمـل لنـا الطعـام والـذخيرة وبعـض الخطابـات والأخبـار، وقابلت «السيد عيد»، الذي رأيته ينظر إليَّ نظرات حزينة لم أستطع معرفة أسبابها حتى وجدت «نجيب جويفل» يستدعيني، ويطلب مني النزول مرة أخرى لمقابلة قائد المعـسكر «محمد فرغلي»، فتصورت أن قريبي ذلك الضابط الكبير حضر مرة أخري؛ ليقنعني بالنزول، فاستأت -في الحقيقة- لهذا التصور، وسألت «سيد عيـد»، ونحـن

(١) أبو الفتوح عفيفي إبراهيم: من مواليد سنة ١٩٢٩م، قويسنا منوفيـة، حـصل علـى الابتدائيـة، وعمل موظفًا بعدها في القاهرة، وتعرف على الإخوان هناك، كان بطلاً مـن أبطـال حـرب ١٩٤٨م، وسجن مع الإخوان في سنة ١٩٥٤م، ثم في سنة ١٩٦٥م، وافرج عنه بعد مـوت عبد الناصر، وما زال جنديًا من جنود الدعوة -أمد الله في عمره.

(٢) علي الفيومي: أحد المجاهدين الإخوان في حرب فلسطين، وبعد معركـة أبـي عجيلـة أصـيب برصاصة وجرح فطوقه اليهود وأجهزوا عليه حتى استشهد.

أترك كل مهماتي القليلة؛ لأنني سأعود بإذن الله، وأنني على يقين أن من ذاق لذة الجهاد لا يستطيع أن ينساه أبدًا، وسيعود إليه دون شك، وقضيت الليلة في المعسكر، ولم أستطع حتى الذهاب إلى المواقع لتحية أفراد فصيلتي وتوديعهم، وحملت «سيد عيد» هذه الأمانة، وقضيت ليلة حزينة، ولم أعرف سببًا حقيقيًا مؤكدًا لطلب الأستاذ البنا إرجاعي إلى مصر.

إن السبب المنطقي الوحيد هو مقابلة أسرتي، وخاصة الوالدة للمرشد العام للإخوان، ولا بدَّ أنه تذكر مقابلتي إياه، ومنعه لي من السفر؛ لأنني ما زلت طالبًا، وقضيت جزءًا كبيرًا من الليل أفكر في كيفية العودة ثانية إلى الميدان، وغلبني النوم، وأيقظني «سيد عيد» لصلاة الفجر، وتجولت في المعسكر لأشبع عيناي بكلِّ ركن فيه، وأسأل نفسي هل سأعود مرة أخرى، وأدعو الله أن يمنحني هذا الشرف العظيم، كما منحه لي من قبل، وجاءت سيارة جيب يقودها الأستاذ «فوزي فارس»، وهو من خيرة المجاهدين، وكان حينذاك طالبًا في كلية دار العلوم، وأخبرني أنه سيرافقني إلى محطة السكة الحديد بغزة لآخذ القطار الذاهب إلى القاهرة، فودعت «سيد عيد» و«نور الفرا» و«عبد الله»، وكثيرًا من رفاق السلاح الأعزاء، ورأيت الدموع تكاد تتساقط من عيونهم لحزني وألمي والدموع التي فرت من عيناي، ولم أستطع لها منعًا، وانطلقت بنا السيارة الجيب إلى المحطة، وكانت كلمات «السيد عيد» الذي رافقني وتأكيدات «فوزي فارس» لي أنني سأعود مرة أخرى، وأن الأوراق والكارنيه الذي معك ستعينك وستسهل الأمور، ولكن لا بدَّ من إقناع أسرتك أولاً؛ حتى لا يكرروا طلبك مرة أخرى، قال لي «فوزي فارس» بلهجة واثقة وهو يودعني، وأنا أركب القطار: لن أقول لك وداعًا يا عبد الرحمن، ولكن سأقول إلى اللقاء، وستعود إلينا لتجاهد بإذن الله، أما «سيد عيد»، فلم ينطق بكلمة واحدة، ولكن عينيه الصافيتين الحزينتين كانتا أفصح من كلِّ حديث.

انطلق بي القطار، وأنا في شبه غيبوبة أو حلم عميق، وأخذت أسأل نفسي بحزن وأسى: ماذا فعلت يا ربي حتى تحرمني من هذا الشرف العظيم؟! لعلي لست أهلاً له، ولكني أعود فأقول: لعل هذا رحمة بأمي الملتاعة، حتى إذا رأتني واطمئن قلبها الحب ومكثت معها عدة أيام، أستطيع إقناعها برجوعي إلى الجهاد، أما أبي

فإنني أشعر أنه في قرارة نفسه يوافقني، ولكنه لا يستطيع أن يصرِّح بذلك خشية على مستقبلي الدراسي، وبسبب حزن أمي.

وصل القطار إلى القنطرة حيث نقطة الحدود، فأبرزت لهم كارنيه الجامعة العربية وتصريحًا رسميًا مختومًا بأجازة لمدة أسبوعين، ومررت من الحدود، ثم ركبت القطار المتجه إلى القاهرة، وفي هذه اللحظة بدأت أفكر في أسرتي: أبي ذلك الرجل الرائع العظيم، وأمي: تلك الملاك الطاهرة التي كرست حياتها لخدمتنا ورعايتنا وحبنا، وإخوتي الأحباب، وأصدقائي، وأسرة «أبي بكر الصديق»، و«عبد اللطيف دياب»، بدأت هذه الصور الكريمة الطيبة تعود إلى ذاكراتي بعد أن كانت الحياة الصاخبة المليئة بالحركة والعمل والقتال تكاد تخفيها بستار من النسيان.

في القاهرة

أحسست بحركة استعداد بين الجنود العائدين معي في القطار، ومنهم بعض الجرحى، وعلمت أنهم يستعدون للنزول، فقد اقتربت القاهرة، وما هي إلا دقائق حتى يصل القطار إلى محطة مصر، وكان الظلام قد حل، وتصورت القاهرة، وقد جسد خيالي صورة مختلفة لها، فتصورت أن أنوارها مطفئة، وأن الملاهي ودور السينما مغلقة، وأن الإذاعة تذيع الأناشيد الوطنية، وتتحدث عن القتال والمقاتلين، وأن مصر جميعًا بعقولها وقلوبها ووجدانها مع المدافعين عن الشرف والكرامة.

وصل القطار إلى محطة مصر؛ فأسرع الجنود بالنزول بأحمالهم، ولم يكن معي شيء، فكنت خفيف الحركة، فأسرعت بالنزول، وعند خروجي من بوابة محطة مصر، ذهلت؛ لأنني رأيت القاهرة كما هي أنوار ساطعة، والأغاني الغرامية تنطلق من المحلات بصوت مرتفع، والأضواء الملونة تلعلع من دور السينما والبارات.

واشتريت جريدة يومية لعلي أجد ما كنت أتوقعه من تجاوب بين الصحافة وبين المقاتلين هناك، والذين ينزفون ويموتون كل يوم؛ فلم أجد إلا أخبار الممثلين والممثلات، واجتماعات الطبقات الراقية، وأخبار الجرائم والفضائح، وكأن مصر لا تخوض حربًا، وكأن المقاتلين هناك ليسوا أهلنا وأبناءنا.

حقًا لقد أصبت بإحباط شديد وصدمة كبيرة، ولعلي في هذا السن الصغير غرقت في الخيال، وتصورت صورًا غير واقعية عن الحياة، وعن الناس، ولكن هذا

هو شعوري العفوي الفطري، ولقد كانت صدمتي الكبيرة أنستني فرحتي بالعودة إلى الوطن، وتمنيت أن أعود في هذه اللحظة إلى هناك -إلى المكان الذي يصنع الرجال- هذا ما رأيت، واتجهت إلى محطة كوبري الليمون لألحق بالقطار المتجه إلى حمامات القبة؛ حيث منزلي وأسرتي وأهلي، وضاعت الفرحة من قلبي وامتلأ حزنًا على حزن وألمًا على ألم، وأخيرًا وصل القطار، وتوجهت إلى منزلي أحمل فوق كاهلي حزنًا لا يتحمله كثير من الرجال، وليس فتى في السابعة عشرة من عمره، وصلت إلى باب منزلنا الحديدي الكبير، ثم اتجهت إلى الباب الآخر في الطريق الجانبي، وأخذت أنظر إلى النوافذ المفتوحة والأنوار المضيئة، هذه غرفة أبي وأمي، وهذه غرفة إخوتي، وهذه غرفة الصالون مضاءة أيضًا، كنت في شوق كبير جدًّا للقائهم، ولكني أخذت أفكر كيف ستكون مقابلتهم لي؟ هل سيكون الغضب والضيق؛ لأنني تصرفت كل هذه التصرفات المصيرية، ولم آخذ رأيهم؟ أم ستكون الفرحة هي الغالبة على لقائهم لي؟ وترددت كثيرًا قبل أن أطرق الباب.. ترى هل سيعرفونني بملابسي العسكرية هذه؟ وهل غيرت هذه الأيام غير العادية هيئتي ومظهري؟ لا شكَّ أنني أحس بهذا التغيير الكبير، ولو في داخلي على الأقل، أما مظهري الخارجي، فلم أنظر إلى صورتي، منذ أن غادرت مصر.

لقاء القلوب

طرقت الباب طرقة خفيفة، وأحسست بخطوات أختي «فاطمة» تتجه إلى الباب لتفتحه، وفتحت أختي الباب، ونظرت إليَّ في البداية نظرة تعجب، واستغربت؛ فهي لم تعرفني لأول وهلة، وسمعت صوت أمي الحبيبة من الصالة تسأل أختي من بالباب؟ وبعد لحظة واحدة عرفتني شقيقتي، فصرخت بفرح غامر وأخذتني في أحضانها، وصاحت: إنه عبد الرحمن يا أمي، نظرت إلى أمي فوجدتها تسقط على كرسي تكاد أن يغمى عليها، وأنفاسها تتردد، ووجهها الجميل الملائكي يكاد الدم يخرج منه، أسرعت إليها، وركعت على ركبتي، وأخذتها في أحضاني، وأخذت تبكي بكاءً صامتًا وتتحسسني، وتسألني: هل عدت حقًّا يا عبد الرحمن؟ أسرعت أختي، وأحضرت زجاجة كولونيا، ومسحت وجه أمي الملتهب، وأخذت أقبِّل وجهها ويديها حتى هدأت.

ما كنت أحسب ولا أظن وجود هذه العواطف الهائلة عند أي إنسان، ولكنها أمي وقلب الأم يحمل ما لا يتصوره الإنسان من الحب والشفقة والحنان، وخرج أبي من حجرته على أصواتنا، وخرج إخوتي جميعًا، والتفوا حولي، وأخذني الوالد بين ذراعيه، ولم يتركني إلا بعد عدة دقائق، وأحسست أنه لا يريد أن يتركني أبدًا، ولكنه لم يتكلم وقفز عليَّ إخوتي الصغار -«عبد العزيز» و«محمد»- يصافحونني، ويقبلونني، أما أخي «عليّ»، فقد كان يستقبل ضيوفًا له، ولم يشعر بمجيئي؛ لأن غرفة الصالون منعزلة عن المنزل.

أخذت الوالدة بعد أن أفاقت من صدمة المفاجئة تستحلفني بالله أن أصدقها القول، هل أصبت بأذى، وأخذت تتحسس جسمي بيديها الرحيمتين، وأنا أؤكد لها أنني بكلٍّ خير، وأن الله قد حفظني من أجلها، وهي تقول لي باكية: «أهكذا تتركني يا عبد الرحمنٌ؟ أهنت عليك لهذه الدرجة؟ أستحلفك بالله ألا تعود ثانية يا عبدالرحمن»، تألمت كثيرًا لكلام أمي، ولم أعطها وعدًا قاطعًا؛ لأنني في قرارة نفسي أؤمن أن الواجب الإلهي أجدر بالوفاء، وأن الجهاد فريضة، وطاعة الوالدين واجب وحق، ولكن حقوق الله أجدر وأحق بالوفاء.. آه لو تعلمين ما في نفسي يا أمي الغالية، إنني أتمثل في خاطري هذه الآية من كتاب الله، فهي تصور حالتي معك أيتها الغالية، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ولكني أجلت النقاش معها في هذه اللحظات التي سعدت فيها برجوعي إلى أن تهدأ، وهي إنسانة مؤمنة وسترضى بحكم الله، وجاء شقيقي الكبير «عليٌّ»، وكانت مفاجأة لي أن رأيته يبكي بشدة، وهو يأخذني في أحضانه، هل أنا عزيز عنده لهذه الدرجة؟ واجتمع شمل الأسرة على عشاء فاخر مخصوص، رأيت فيه كرم الوالدة وسخاءها بطعامها المميز اللذيذ الشهي، والذي حرمت منه طيلة الأسابيع الخمسة الماضية، حيث كان طعامنا بسيطًا جدًا وخشنًا، واستمتعت بصحبة أسرتي الغالية

وأخذوا يسألونني، وأجيبهم، وأقص عليهم كيف سافرت، وعن الظروف الصعبة التي مرت بي، وأخيرًا ذهبت للنوم، وتعجبت من فراشي الوثير الدافئ، والذي بدا لي غريبًا بالنسبة للأرض الصلبة هناك، وغلبني النوم، وكانت أحلامي كلها هناك حيث قلبي المعلق بالشهادة.

أيقظتني أمي، فقفزت على قدمي منتصبًا كعادتي في الميدان، ولكنني فوجئت بوجه أمي الحبيبة وابتسامتها الملائكية، ووجدت نفسي مرتديًا بيجامة، وليست ملابس عسكرية؛ فتأكدت أنني في مصر، ولست في فلسطين، وأحضرت لي أمي إفطارًا شهيًّا من عدة أصناف، وإبريقًا من الشاي، وجلست لتتناول معي الإفطار، فقد ذهب الجميع إلى مدارسهم وأعمالهم، ولم يبق إلا أختي «فاطمة»، والتي أنهت دراستها بعد أن نالت شهادة الثقافة، وجلس ثلاثتنا: أمي، وأختي، وأنا؛ نتناول هذا الإفطار الشهي سويًا، وقارنت في نفسي بين هذه الجلسة العائلية الهادئة وهذا الإفطار الشهي، وبين الحياة الخشنة، والتي يحف بها الموت وأصوات الطلقات، ودوي القنابل، وذلك الطعام الخشن، والنوم على الأرض، ولكنني -في الحقيقة- أفضل ألف مرة تلك الحياة الخشنة على هذه الحياة الناعمة.

سألتني أمي عن سر شرودي، فأجبتها بصدق بأنني أقارن بين هذه الرفاهية وهذا النعيم، وبين تلك الحياة الخشنة، والتي يحف بها الموت، فسألتني أختي «فاطمة»: وأيُّ الحياتين أفضل لديك؟ فوجدت هذه فرصة لأدخل في الموضوع محاولاً إقناع أمي بوجهة نظري، فقلت موجهًا الحديث لكليهما: «لا أنكر أن الحياة هنا في مصر وبين الأسرة والمدرسة والأصحاب وكل وسائل الترفيه هي من غير شك أيسر وأنعم، أما الحياة هناك في الميدان رغم خشونتها وخطورتها أعظم في نظري وأكثر قيمة»، فسألتني أمي بخوف: كيف تقول ذلك يا عبد الرحمن، هل قصرنا نحوك في شيء؟ أو هل هناك أي شيء يضايقك حتى تترك هذه الحياة بين أهلك ومحبيك وتلقي بنفسك إلى الموت؟ أحسست أن مهمتي في غاية الصعوبة في إقناع أمي وأختي؛ فأخذت أتدرج معهم في الإقناع، قلت لأمي متسائلاً: «ألم يحارب الرسول ﷺ والصحابة معه المشركين والكفار واليهود؟!» قالت: نعم، ولكن هذا رسول الله ﷺ، فهل أنت ومن معك مثله؟ قلت: حاشا لله، ولكنا نقتدي به، وقد

كتب الله الجهاد على المسلمين في كلّ زمان ومكان، وفتحت لها كتاب الله على هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١]، والآية الأخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وفتحت سورة الأنفال والتوبة، وقرأت لهما من آياتهما، والتي تحث على القتال والجهاد في سبيل الله، وقلت لهما: أليس هذا كتاب الله والقرآن الذي نؤمن به؟

قالت أمي: صدقت وآمنت ولا أجادلك في كتاب الله، ولكن هذا الجهاد حق على الرجال، وأنت ما زلت صغيرًا يا بني، قلت لها: سأظل صغيرًا في نظرك يا أمي، حتى لو اشتعل رأسي شيبًا، ولقد كان أسامة بن زيد أميرًا لجيش المسلمين، وهو في السابعة عشرة من عمره أي في مثل سني، وهأنذاك جندي بسيط، ولست قائدًا، قالت: ولكنك لا تعلم قلب الأم، إنني أخاف عليك، قلت لها: أوليس لكلّ المتطوعين أمهات وآباء وأخوات، أم إنهم مقطوعون من شجرة جميعًا، لو خافت كل أم على ابنها ما ذهب أحد إلى الجهاد أبدًا؟ أوليس لليهود (أعدائنا) أمهات أيضًا؟ قالت لي: أوليس في فلسطين رجال هم الذين يدافعون عنها، ولسنا مكلفين بذلك؟ قلت لها باسمًا: إن كل بلاد المسلمين بلادنا يا أمي، إن أي بلد تؤمن بالإسلام هي بلد لكلّ مسلم، وفلسطين بلد إسلامي بها بيت المقدس، والذي أسري منه نبينا ﷺ، قالت لي: إنني لا أستطيع أن أغلبك أبدًا، لقد أنسانا الحديث الطعام سأسخن لك الشاي، فقد برد، وذهبت أمي بالشاي.

ونظرت إلى الشماعة التي علقت عليها ملابسي العسكرية فلم أجدها، وسألت أختي عن الملابس العسكرية، فابتسمت ابتسامة ماكرة، وقالت: غسلناها، وأرسلناها للكواء لتكون جاهزة لحضرة الجندي، إنني أتعجب من شأنك، إن الناس يهربون من الجيش، ويتصنعوا العاهات ليفلتون من التجنيد، وأنت تلقي بنفسك في

التهلكة، تأكدت أن أمي قد تخلصت من الملابس العسكرية بأن وزعتها على سائل أو الزبالة، فتألمت في نفسي، ولكني عذرتها، وسألت عن التصريح والبطاقة، فأخبرتني والدتي أنها أحرقتها؛ حتى لا أستطيع العودة مرة أخرى، حاولت أن أكتم ألمي.. ليتني أخفيتها قبل نومي، فهي الوسيلة التي تخرجني من الحدود في أمان حال عودتي، ولكنني تصنعت عدم المبالاة، فلا فائدة من الجدال في أمر قد انتهى، وسأتدبر أمري كما تدبرته من قبل، وسيكون الله معي، ولقد قررت بيني وبين نفسي أن أجعلهم يطمئنون أنني لا أفكر في العودة حتى تهدأ نفوسهم، وتخف رقابتهم لي، وقلت لأمي: إنني من الغد -بإذن الله- سأذهب إلى المدرسة، لأعيد قيدي إذا كانوا قد فصلوني، قالت لي أمي، وهي فرحة: ولك مني بدلتان جديدتان هدية مني بمناسبة عودتك بسلامة الله.

محاولة العودة للجهاد

ذهبت إلى المدرسة بعد أن علمت أن شقيقي «عليًا» قابل الناظر، وأخبره عن ذهابي لفلسطين، وتفهم الناظر الموقف، فلم يفصلني، وعدت إلى الفصل، وقابلني زملائي، وقد ظنوا أنني كنت مريضًا، فتركتهم على فهمهم هذا، وأحسست لأول مرة بغربتي عن هذا الجو، وقد كنت من قبل مندمجًا فيه متفاعلاً معه، ولم أعرف حينذاك سبب غربتي، فكان الطلبة في وادي، وأنا في وادٍ آخر، وأصبحت كثير السرحان حتى أن الأساتذة لاحظوا عدم متابعتي لهم في شرحهم، وتعجبوا لحالتي تلك؛ فقد كان كل ذهني مركزًا هناك في ميدان القتال، وأحسست -بصدق- أن وجودي هنا مضيعة للوقت، ولكنني محاصر في كلِّ مكان، عيون أخي علي في كل وقت، ولا أستطيع أن أخرج إلا برقابة مشددة.

وفي عصر أحد الأيام، وبعد رجوعي بثلاثة أيام طلبني الوالد في حجرته، ولأول مرة فاتحني في موضوع سفري، وقال لي مبادرًا: «إنني يا عبد الرحمن فخور بك؛ لأنني لا أستطيع أن أخالف المبادئ التي ربيتك عليها، ولكن الشيء الوحيد الذي أطلبه منك أن تراعي حالة أمك؛ فهي كادت أن تموت»، وحاولت أن أتكلم، فقاطعني والدي قائلاً: «إنني أعرف ردودك ودفاعك جيدًا، وإنني أوافقك عليها،

ولا أناقشك فيها حقًا، إن لكلِّ الجنود أمهات وآباء يشفقون على أبنائهم، ولكن حالة أمك حالة خاصة»، أجبت أبي: «لقد علَّمتنا -يا أبي- أن الأجل مكتوب، والموت يأتي الإنسان، ولو كان في بروج مشيدة، وقد يعود المقاتل من الميدان سليمًا معافى، ويموت من يعيش في المدينة في أمان وسلام؛ فالموت والحياة في علم الله، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]».

أجابني والدي وهو ينظر إليَّ بحبٍّ: «حقًّا ما تقول، وإن أمك مؤمنة بكلِّ هـذا، ولكنها لا تستطيع أن تطبق هذا على ابنها.. لا تستطيع أبدًا، وإن لي تحفُّظ آخر هو دراستك، إنني أخشى إنْ غبت عن الدراسة أن تفصل، ثم يتغير مـستقبلك نهائيًّـا»، أجبته بتسليم: «إن المستقبل بيد الله يا أبي، وإنني -في الحقيقة- لا أستطيع أن أركـز أبدًا في دراستي بعـد أن عـدت، ولا أتـصور أن أسـتمر في الدراسـة وذهـني معلـق ومشغول بالجهاد»، أجابني والدي، وقد أحس أنني مصمم على الذهاب: «اسمع يا بني، لقد ذهبت للجهاد وأديت واجبك، ولم تقصر، فليؤد غيرك واجبه، كما أديت، فلو ذهب كل شاب شهرًا لكان في الأمـر الكفايـة بـل يزيـد»، لم أرد علـى والـدي بكلمة واحدة؛ حتى لا أعطيه وعدًا ألتزم به، ولكـنني قلـت: «يفعـل الله الخير، يـا أبتي، وإنني أريد رضاك ودعاءك لي»، فقال لي مطمئنًا إياي: «إنـني راضٍ عنـك يـا بني، وقلبي يدعو لك ليل نهار»، قلت له: «هذا حسبي يا أبي».

انتظمت في الدراسة، فكنـت أذهـب إلى المدرسـة، وأعـود منهـا، ولا يعلـق في عقلي كلمة واحدة، وأجلس أمام الكتب لأراجع دروسي، فلا أرى في الكتـاب إلا صفحة صفراء ممتدة بها وديان وجبال، ويتحول الكتاب أمام عيني إلى ميدان مفتوح تتحرك فيه المصفحات، وتزرع الألغام، ميدان كلـه حركـة وأصـوات وانفجـارات، ولا أفيق من أحلام اليقظة هذه إلا علـى صـوت الوالـدة، ومعهـا صـينية الـشاي؛ لتعطيني كوبًا يساعدني على المذاكرة، وقرَّرت بيني وبين نفسي أن أبدأ في إجـراءات العودة، ولقد عرفت الطريق، ولا مكان لي هنا في مصر، ولا أمل لي في الدراسة أو الامتحان، وإنني أضيع وقتي في ما لا طائل منه، وأن مستقبلي وحياتي وأملي هناك، ولأبدأ منذ الغد للتخطيط للعـودة إلى الحيـاة الـتي يرضـاها قلـبي وعقلـي وإيمـاني

ويقيني، وليفعل الله بمستقبلي ما يشاء.

ذهبت في المساء إلى المركز العام، وبدأت أتحسس حولي، وأتفحص الشباب الذين يستمعون لمحاضرة الأستاذ «حسن البنا»، والذي تحاشيت أن أقابله بعد أن علمت أن شقيقي «عليًا»، والوالدة قابلوه، وشرحوا له وصفي، وأنني ما زلت طالبًا صغير السن، ولما سألهم عن اسمي هزَّ رأسه، وأخبرهم أنني طلبت منه مرتين الإذن بالسفر، وأنه لم يوافق على سفري، وتعجب كيف سافرت؟! ووعدهم بإحضاري خلال أيام ثلاثة، وقد نفذ وعده، ولذلك؛ فإنني أتحاشى مقابلته، ولقد كان أملي أن أعثر على أحد الشباب من «معسكر البريج» لأرى تصريحه بالعودة وأقلد واحدًا مثله، ولكنني لم أعثر أبدًا على أحد من هؤلاء الزملاء، وكنت أتردد يوميًا على المركز العام للإخوان المسلمين، ولكن دون جدوى، فقد كان المركز كخلية النحل تحس أن الجميع يهتمون بالقضية الفلسطينية، وأنها تأخذ كل جهدهم ووقتهم.

قابلت «وائل شاهين»، وحددت معه موعدًا لنلتقي في أسرة «أبي بكر الصديق»، والذين سعدوا بلقائي، وسعدت بلقائهم؛ فهم أقرب الناس إلى قلبي، وفوجئوا بعودتي السريعة، وأخذوا يسألونني أسئلة كثيرة عن الميدان والحرب، وعلموا بتصميمي على العودة إلى فلسطين، فلم يعارضوني على ذلك باستثناء «حسن سميح» ذلك الصديق القريب إلى قلبي؛ فهو الوحيد الذي عارض عودتي أشد المعارضة، وحجته في ذلك أنني قد أديت واجبي، وكفى، وإنك عدت بالرغم منك، ولا تعرض نفسك مرة أخرى لمشاكل الحدود، وخاصةً أن تصريح العودة وبطاقة التطوع قد أحرقتها أمي، وأنهم قد يحجزونني في الحدود كجاسوس أو هرب، وحتى أثبت لهم حسن نيتي تضيع شهور من عمري بين الإهانة والسجن، ولكنني لم أستمع إطلاقًا لنصيحته، وبدأت في تخطيطي للسفر من جديد.

محاولة فاشلة للسفر إلى فلسطين

بدأت بالخطوة الأولى، فذهبت إلى «وكالة البلح»، واشتريت بدلة مناسبة وجديدة ونظيفة؛ حتى لا أتورط في غسلها وكيّها، ودخلت بها إلى المنزل ليلاً، وقد ارتديتها في بئر السلم، ولبست فوقها سروال وقميص واسع، ثم أخفيتها في قاع

الدولاب، ولما اطمئننت على نجاح هذه الخطوة الهامة، بدأت أفكر في عمل تصريح يشبه التصريح الذي حرقوه، وذلك من خلال الذاكرة، وبه توقيعات بالخط الأحمر والأزرق، وأخذ مني هذا الموضوع كثيرًا من الوقت والجهد حتى رضيت عنه.

إنني في هذا السن لم أتصور أن هذا التقليد الساذج لتصريح العودة للميدان يعد تزويرًا في أوراق رسمية، ونحن في حالة حرب، وأن مغبة هذا الأمر كبيرة أكثر مما كنت أتصور، ولكنني بخبرتي المحدودة وببراءتي وحرصي على الجهاد -زوَّرت هذا التصريح الساذج، ولم أشعر في هذا الوقت أنني أرتكب شيئًا مخالفًا وخطيرًا.

وحددت لنفسي موعدًا للسفر بعد خمسة عشر يومًا من عودتي من الميدان، ولم أعلم أحدًا بنيتي على السفر إلا أفراد أسرة «أبي بكر الصديق»، وأعلمتهم بيوم سفري، وودعتهم، وطلبت منهم الدعاء لي، أما صديقي «حسن سميح»، فلقد قال لي: يا عبد الرحمن، إنني أنصحك بألا تسافر بهذه الطريقة، فليس «في كل مرة تسلم الجرة»، وإنني أخشى عليك هذه المرة، وإن قلبي يحدثني أن شيئًا خطيرًا سيحدث، وإنني أنصحك كصديق بألا تفعل.. ولقد اعتبرت كلامه حينذاك خوفًا لا مبرر له، وأن من يسعَ إلى الموت والشهادة لا يخشى ما هو أقل من ذلك، وودعتهم على أمل السفر في الغد في قطار الساعة العاشرة المتوجه إلى فلسطين، وبدأت أفكر كيف أخرج بالملابس العسكرية من المنزل أمام هذه الرقابة المستمرة؛ فصالة المنزل هو المكان المفضل لأفراد الأسرة، ولا تخلو أبدًا من الأشخاص.

وها هو الوقت قد أزف، وغدًا سأركب القطار المسافر إلى فلسطين، فكيف أخرج أمامهم الآن بهذه الملابس، وجاءتني فكرة سريعة، فنفذتها في الحال، وهي أنني سأخرج أمام أعينهم بالملابس العسكرية، ولكن بحيلة بسيطة افتعلتها: قمت، وأخرجت من دولابي بعد الملابس المقطعة، والتي تحتاج إلى الذهاب بها إلى الخياط، ووضعتها أمام والدتي بالصالة، وأخبرتها أن ملابسي تحتاج إلى الإصلاح عند الرفا، ولففتها أمام أعينها بجريدة يومية، ودخلت بهذه اللفة إلى حجرتي؛ لأستبدلها بالملابس العسكرية والملفوفة أيضًا بجريدة يومية ومساوية لها في الحجم والشكل، وخرجت إلى الصالة متجهًا إلى الخارج، ومعي الملابس العسكرية الملفوفة في الجريدة

اليومية، والوالدة تحسبها الملابس التي تحتاج إلى الرفا، وبهذه الطريقة البسيطة الماكرة خرجت بالملابس العسكرية أمام عيون الرقباء، وبكلِّ بساطةٍ وسهولةٍ، واتجهت إلى منزل «عبداللطيف»، ولكني لم أجده، وبالصدفة قابلت صديقي «حسن سميح»، فأعطيته لفافة الملابس العسكرية، وأخبرته أنني سأحضر إليه في موعد الذهاب إلى المدرسة، حيث أرتدي هذه الملابس عنده؛ لأستقل القطار المتجه إلى فلسطين في الساعة العاشرة صباحًا، فأخذ سميح مني اللفافة، ولم يعترض أو يبدي أية ملاحظة، ثم توجهت إلى منزلي وأنا أودع الجميع بعيوني، وليس بلساني؛ لأنني لا أستطيع أن أقول ما بنفسي، وإلا انكشف أمري.

وفي تلك الليلة، لم أنم إلا قليلاً، واستيقظت مبكرًا، وصليت الفجر، وأيقظت الجميع؛ ليستعدوا للذهاب إلى المدارس، ووالدي إلى العمل، وأحببت أن أذهب إلى «سميح» مبكرًا، وقد خطر في بالي أنه سيخرج مبكرًا هو أيضًا؛ حتى إذا جئت إليه لم أجده، وبالتالي لا أستطيع أن أحصل على الملابس العسكرية، ويكون هذا سببًا في منعي من السفر، وصدق حدسي، فقد التقيت بـ«سميح» خارجًا من باب منزله، فاستوقفته، وارتديت عنده الملابس العسكرية، وتركت ملابسي الأخرى، وتوجهت مبكرًا إلى محطة مصر، وجلست في «البوفيه»، وطلبت كوبًا من الشاي، وكانت المحطة تغص بالمسافرين، ولم يكن بينهم عسكريون كثيرون، وسألت عاملاً في البوفيه عن موعد قطار فلسطين، فأخبرني أنه ما زالت هناك ساعتان باقيتان على وصوله؛ فهو يقوم في الساعة العاشرة صباحًا، فاشتريت جريدة يومية لأقطع بها الوقت.

وبدأ العسكريون يتوافدون على المحطة، فقد اقترب موعد القطار، وأخيرًا تحرك الجميع، فقد وصل القطار، واتجهنا جميعًا إليه لنأخذ أماكننا فيه، وزالت عني رهبة الموقف الذي مررت به من قبل، ولكن الذي يقلقني وجود هذا التصريح الساذج المزور معي، ومضت نصف ساعة، ولم يتحرك القطار، وأخيرًا سمعت صوت ميكرفون يدوي في المحطة، وعجبت بشدة عندما سمعت اسمي الكامل يتردد في الميكرفون لعدة مرات، وأنني مطلوب لمقابلة ضابط الاستعلامات في المحطة، ولم أصدق نفسي أول الأمر، ولكن تكرر النداء ثلاث مرات؛ فتأكدت من أن الأمر حقيقة، وليس وهمًا أو خيالاً. تُرى ما السبب، هل اكتشف أمر التصريح المزور؟

ولكن لا أحد يعلم ذلك على الإطلاق، أخذت أضرب أخماسًا في أسداس، وأتعجب من هذا النداء، ولكنني تغاضيت عنه، ولم أرد، وكأنني لم أسمع شيئًا، وانشغلت بقراءة القرآن، ولكنني فوجئت من بعيد باثنين من الضباط ومعهم أخي «علي» وقريب لي اسمه «بهجت»، وأيضًا والدتي معهم تنظر من نوافذ القطار يبحثون عني؛ حاولت أن أختفي، ولكن أين؟! فأنزلت الكاب على عيني لأخفي وجهي، ورفعت الجريدة اليومية لتخفي رأسي، ولكن ما هي إلا لحظات حتى رأيت هذا الموكب أمامي، وأخي «علي» يقول للضباط: ها هو أخي «عبد الرحمن»، لقد كانت مفاجأة مذهلة لي، وفهمت الموقف بسرعة، فلقد اتصل «حسن سميع» بأسرتي، وهو في طريقه إلى المدرسة، وأعلمهم بموعد سفري، وها هو قريبي ضابط البوليس قد استعانوا به، ليمنعني من السفر ومعه ضابط المحطة، وهأنذا أجد الوالدة تقف بعيدًا مع قريبي «بهجت»، وتكاد تنهار من الحزن والألم، ولكنها تراني أمام عينها؛ فدبت فيها الحياة من جديد.

سألني ضابط المحطة: أين تصريح سفرك؟ فترددت في إبرازه، وقلت له: إن التصريح ضاع مني، قال لي: وكيف تسافر من غير تصريح، سيحتجزونك على الحدود؟ وأكمل قريبي الضابط الحديث قائلاً لي: هيا يا عبد الرحمن، ارجع معنا، ألا ترى حال أمك؟ قلت له: دعوا أمي لي، فإنني سأقنعها، وحاولت النزول من العربة، ولكنهم منعوني قائلين: سننزل سويًا، يا عبد الرحمن، قلت لهم مصممًا: إنني سأسافر، ولن يستطيع أحد أن يمنعني، فقال لي ضابط المحطة مهددًا بعد أن همس في أذنه قريبي الضابط: إنني سأمنعك بقوة القانون، فأنت لا تحمل تصريحًا عسكريًا بالمرور، ولو كنت تحمل هذا التصريح لما منعتك أبدًا، فليس من حقي أن أمنع جنديًا من الذهاب إلى الميدان، قلت له منتصرًا وقد أبرزت التصريح الذي كتبته، ووقعته بخط يدي: ها هو التصريح، تفضل، أخذ ضابط المحطة التصريح مني، وقرأه، وقال ضاحكًا: أين الأختام التي على هذا التصريح؟ إنه تصريح مزور، وإنني أستطيع الآن أن أقبض عليك، وقال مهددًا: أمامك حلان الآن، إما أن ترجع مع أهلك دون إزعاج، وإما أن أقبض عليك بتهمة التزوير؟ فاستحلفني أخي «علي» قائلاً: هيا يا عبد الرحمن، ألا ترى والدتك وحالتها.

وجدت أن الأمر قد خرج من يدي، وأنه قد يتطور إلى الأسوأ لو أصررت على الذهاب، ومعي هذا التصريح المزور، والذي أخذه الضابط معه، فنزلت من القطار وأنا أكتم غضبي من صديقي «سميح» الذي خانني، وأبلغ أهلي بموعد سفري، واتجهت إلى الوالدة، وأخذتها في حضني صامتًا، فهي المسكينة الضحية، وهي التي تقاسي وحدها، ولا يمكن أن تقتنع أبدًا بذهابي إلى الموت، مهما شرحت لها.

ذهبنا إلى المنزل صامتين، وشكرت والدتي وأخي والضابط قريبي وضابط المحطة وقريبي «بهجت» الذي أحضرهم في سيارته، واتجهنا إلى المنزل في صمت لا يقطعه إلا نحيب الوالدة الصامت المكتوم، فأخذت أهدئها، وأستحلفها بألا تبكي، فهأنا ذا راجع معها، ولن أستطيع السفر بعد الآن، وهدأت الوالدة حينما وصلنا إلى المنزل، وأسرع أخي «علي» في الذهاب إلى المدرسة؛ ليكمل اليوم الدراسي، وحاولت أن أرتدي ملابس المدرسة، لأذهب أنا أيضًا إليها، ولكن أمي منعتني قائلة: ابق اليوم، ولتذهب غدًا، بإذن الله، فقد كانت خائفة من أن أعود إلى القطار مرة أخرى، فقلبها الشفاف يعلم علم اليقين أن قلبي معلق بالحرب والجهاد، وأنني سأسافر حتمًا في يوم من الأيام.

من نقطة البداية ومحاولة أخرى

وانتظمت مرة أخرى في الدراسة، ولكنني كنت في وادٍ آخر، فقد كان قلبي ووجداني وعقلي وكياني كله هناك حتى تعجب الأساتذة والزملاء من تغير أحوالي هذا التغيير غير الطبيعي، فأستاذ الرياضة كان شخصية محببة إلى نفسي كثيرًا، ولقد سألني بعد أن أطال الشرح أن أعيد ما قال، فوقفت لا أعي مما حولي شيئًا، وقلت له: إنني لم أفهم ما قلت، فأعاده عليَّ مرة أخرى، وطلب مني إعادة الشرح، فلم أستطع؛ لأنني لم أكن معه إطلاقًا، وصمت الزملاء؛ لأنهم يعرفون حالتي التي طرأت عليَّ، فسألني عن سبب ما أنا فيه، فلم أجبه، وجلست شاردًا، ولكن بعض الزملاء همسوا في أذنه بما يعرفون، فطلب مني أن أقابله بعد انتهاء الفصل الدراسي.

ومضت الأيام في المدرسة ثقيلة بغيضة، والتي كانت من قبل محببة إلى نفسي،

ولاحظت أمي بفطرتها الصافية حالتي المتغيرة وصمتي الشديد وحزني، فكانت تضع يديها الطاهرتين على رأسي وترقيني بقراءة القرآن والأدعية لأعود إلى حالتي الطبيعية، ولكن هيهات، فالقلب معلق هناك، ولا أمل في شفائي من هذه الحالة إلا بالعودة إلى الميدان.

أخذت أتردد سرًّا على المركز العام؛ لأتحسس أو أجد أحد المجاهدين ممن أعرفهم إلى أن التقيت بـ«عبد الله»، والذي كان ما زال مصابًا في يده وفي فترة العلاج، انتفض قلبي فرحًا بلقائه، وعادت الحياة والحيوية إلى كياني كله، وعلمت منه أن هناك كتيبة في «معسكر الهايكستب» تستعد للسفر إلى القدس بالطائرة، فاستحلفته بالله أن يصاحبني ليعرفهم عليَّ، وتواعدنا على ذلك في السابعة صباح الغد، ورجعت إلى منزلي أكاد أطير فرحًا، وأخذت أقبل أمي وأشاغب إخوتي، ولقد سعدت أمي كثيرًا لتغير أحوالي وعودتي إلى طبيعتي، وقد ظنت بطيب قلبها أنني نسيت ما كان يملأ قلبي همًّا وحزنًا، وأنني عدت إلى حالتي الطبيعية، ونمت هذه الليلة نومًا هادئًا، واستيقظت مبكرًا لأصلي الفجر، وكان عليَّ أن أخرج من المنزل الساعة السادسة صباحًا حتى أقابل صديقي «عبد الله» في السابعة في «الهايكستب»، فكيف أخرج في هذا الوقت المبكر؟

وفجأة جاءتني فكرة جيدة، فذهبت إلى ساعة الحائط الكبيرة في الصالة، وقدمتها ساعة كاملة، فصارت السادسة والنصف، وهي -في الحقيقة- الخامسة والنصف، ومن حسن حظي كان الوالد في الحمام يتوضأ، فقدمت ساعته أيضًا، وخرج الوالد الحبيب من الحمام، والحمد لله فقد نظر لساعة الحائط الكبيرة غير مصدق، فذهب إلى حجرته، فنظر مرة أخرى لساعته وسمعته وقلبي يدق خوفًا من اكتشاف اللعبة الساذجة -ينادي على والدتي؛ لأن الوقت قد تأخر، وأيقظ الأولاد، وطلب من أمي تحضير الإفطار بسرعة، فقامت أمي الحبيبة مسرعة غير مصدقة أنها تأخرت كل هذا التأخير، ولم يبق إلا نصف الساعة حتى يخرج الجميع إلى مدارسهم.

لم أصدق أن فكرتي قد أتت ثمارها، وأنني الآن أستطيع الخروج مبكرًا أمام الجميع لألحق بزميلي «عبد الله» إلى «الهايكستب»؛ ليعرفني بالكتيبة المسافرة إلى

القدس، وخرجت السابعة صباحًا، وهي -في الحقيقة- ما زالت السادسة، وأخذت كتبي الدراسية معي، وتوجهت إلى الترام المتجه إلى مصر الجديدة، وإذا بي أرى والدي قد حضر إلى المحطة ليأخذ الترام الذاهب إلى القاهرة، فكاد قلبي أن يقف، فحاولت التواري بين الركاب والحمد لله، إنه لم يرني.

وأخيرًا جاء الترام، فصعدت إليه، وتنفست الصعداء، ووصل الترام إلى آخر محطة، وهذا مكان اللقاء مع زميلي «عبد الله»، فنزلت ولكنني لم أجده، وانتظرته عدة دقائق في قلق شديد، وخشيت أن أكون قد تأخرت عليه فتضيع عليَّ فرصة لن تتكرر بعد، وفكرت في أن أذهب وحدي إلى «معسكر الهايكستب»، وأسأل عن الكتيبة المسافرة إلى فلسطين، ولكنه معسكر كبير، وبه قوات عسكرية، هذا بالإضافة إلى أنني لا أعرف أي فرد من هذه الكتيبة، فكيف يقبلونني هكذا؟!

وبينما أنا مستغرق في هذا القلق ظهر «عبد الله»، فأسرعت إليه بفرح شديد، وتوجهنا سويًا مشيًا على الأقدام إلى «معسكر الهايكستب»، وكان «عبد الله» يرتدي ملابسه العسكرية؛ مما جعل مهمتنا سهلة في الوصول إلى هدفنا المنشود، وأخيرًا وصلنا إلى بوابة المعسكر، فاستوقفنا الحرس هناك، فأبرز لهم «عبد الله» بطاقته التي تدل على أنه من المتطوعين، وأخبر «عبد الله» الحارس أنني أريد أن أقابل قائد الكتيبة؛ لأنني كنت في «معسكر البريج»، وأريد العودة معهم إلى كتيبتي هناك، فوافق الحارس على دخولي، ورأيت حولي مجموعة من الشباب في طابور تدريب عنيف.. حاولت أن أتعرف على أحد منهم، ولكن بدون جدوى، ولقد أسعدني أنهم جميعًا أو أغلبهم في مثل سني، ويبدو عليهم دماثة الخُلق، وتعرَّفت على قائد الكتيبة الأستاذ «حسن دوح» ومعاونوه «حسن عبد الغني»، و«علي صديق» -شخصيات عظيمة استمرت معرفتي بهم سنين طويلة.

حسن دوح

شرحت للأستاذ «حسن دوح» الموضوع باختصار، وبأنني كنت في «كتيبة البريج» مع الشيخ «محمد فرغلي»، والأستاذ «كامل الشريف»، وأنني نزلت في أجازة، وأن أوراقي قد ضاعت مني، فأخذ يسألني عدة أسئلة عن أشخاص هناك، وعن مدى تدريبي ومعرفتي بالسلاح، وأجرى لي اختبارًا سريعًا بقصد التيقن من حقيقة موقفي، وهنا تدخل زميلي «عبد الله» مؤيدًا كلامي، ولكنني -في الحقيقة- احتفظت لنفسي بسر نزولي هذه الأجازة الإجبارية، وأنها بأمر من المرشد العام الأستاذ «حسن البنا»، وإلا كان قبولي مستحيلاً، وكان ضميري مستريحًا؛ لأنني لم أكذب ولكنني لم أتكلم عن الحقيقة كلها، وأخيرًا وافق «حسن دوح» على قبولي، وسألني: وما موقف أسرتك من تطوعك؟ وهنا في هذا الوقت بالذات شاء الله لي ألا أكذب، فقد وقفت سيارة كبيرة، ونزل منها عدة رجال من الأرياف، ومعهم سيدة ترتدي ملابس الريف، ويبدو عليهم الثراء، وأخذوا ينادون على ابنهم «علي صديق» الذي أسرع في الاختفاء بين الخيام هربًا من والديه وأسرته الذين قدموا من «الشرقية» لمنعه من السفر، وكرَّر «حسن دوح» السؤال، وأجبته صادقًا مثل كل الآباء والأمهات، كما ترى، فابتسم «حسن دوح» ابتسامة عريضة قائلاً: سيأتي اليوم الذي يفخر فيه الآباء بما يفعل الأبناء، اذهب به يا «عبد الله» إلى المخزن؛ ليتسلم الملابس والسلاح، وبعد أن ارتديت ثيابي العسكرية، ودخلت طابور التدريب العنيف، وكان بسيطًا بالنسبة لتدريباتي السابقة، وتجربتي في القتال، وفي فترات الراحة تعرَّفت بمجموعة رائعة من الشباب الغض الممتلئ إيمانًا وتضحيةً وثقةً، أمثال: «سعيد سلامة»، و«عبد المنعم سعيد»، و«مصطفى المبلط»، و«علي الفيومي»، و«علي نعمان»، و«أبي الفتوح عفيفي»، وغيرهم كثير.

البنان ومصطفى المبلط والشهيد علي الفيومي

واستمر التدريب أيامًا ثلاثة كنت أحـاول أن أتناسى أسـرتي وآلامهـا لفراقـي وخاصـة أمي الملهوفة، وأدعو الله أن يسامحني، وكنـا في انتظار الطائرة التي تنقلنـا إلى القـدس، ولكـن الانتظار طال، فقرَّرت القيادة الـسفر بالقطـار والالتحـاق بـ«معـسكر الـبريج» -معـسكري الحبيب الذي كنت فيه من قبل- وأصدقاء وزملاء السلاح والكفـاح «أبـو الفتـوح عفيفي» و«سيد عيد» و«فوزي فارس»، وأمرنا بالاستعداد؛ لأن الـسفر سـيكون في الغد، بإذن الله، عن طريق القطار المسافر إلى العريش عن طريق الإسماعيلية، فبيتنا ليلة هانئة، وكل منا يدعو الله أن نصل قبـل أن يعـرف أهلنـا مكاننـا، وفي الـصباح الباكر، وبعد صلاة الفجر، نعمنا بحديث ديـني مـن الأسـتاذ «حـسن دوح»، وكـان حديثه عذبًا مؤثرًا عن الجهاد في سبيل الله، وعن فضل الشهيد ومنزلته جعلتنا جميعًا في شوق إلى لقاء العدو غير خائفين من الموت، فالشهادة في سبيل الله أملنا المنشود، بعدها بدأ طابور الصباح، ثم الإفطار، ثم سـاعة لنكتـب خطابـات الـوداع للأهـل والاستعداد للسفر، واتجهنا في حوالي التاسـعة إلى محطـة مـصر الكـبرى في طـابور عـسكري منظم؛ لنستقل القطار المسافر إلى العريش، وقوبلنا مقابلة ودية حماسية من الجمهور المتواجد في محطة مصر، وأخذت أدعو الله ألا تعرف الأسرة موعد سفري هذا؛ حتى لا يحدث كما حدث في المرة السابقة، ومر الوقت سريعًا وكانت السعادة تملأ قلوبنـا جميعًـا، وكنـا جميعًـا نـشترك في أناشـيد جماعيـة حماسـية وقـراءة القـرآن والأحاديث المتبادلة والنكات والقفشات، وقد سـادت روح المحبـة والـود والأخـوة بيننـا، وقد جمع أفراد الكتيبة وكأنهم أسرة كبيرة واحدة.

وصلنا إلى القنطرة، واسترحنا حـوالي نـصف الـساعة، صـلينا خلالهـا الظهـر والعصر جمعًا وقصرًا، ثم غذاء خفيف من المعلبات، وعبرنا الحـدود والجمـارك إلى سيناء، وكانت أوراقنا كاملة صحيحة، والقلب مطمئن مرتاح.

على خط النار مرة ثالثة

ووصلنا العريش بعد العـشاء، فوجـدنا عربـات كـبيرة تنتظرنـا مـن «معـسكر

البريج»، وقابلنا أحبابنا الذين فارقناهم، وكان اللقاء حارًا مؤثرًا، وتوجهنا إلى «معسكر البريج» -ذلك المعسكر الذي يقع بالقرب من غزة، والذي أحمل له أجمل الذكريات، ولي فيه أعز الإخوة والأصدقاء، الذين قابلتهم وسعدت بهم.

نمنا ليلتنا، وأحسست أن الأمور غير عادية، فالحراسة مشددة والتحركات في المعسكر وخارجه تدل على وجود استعدادات غير عادية، فجمعنا قائد المعسكر «كامل الشريف» في ساحة التدريب بالمعسكر، وشرح لنا الموقف العسكري الجديد في غاية الصراحة، وأخبرنا أن اليهود استغلوا فترة الهدنة الثانية، واستطاعوا خلالها أن يجلبوا أنواعًا جديدة من الأسلحة الثقيلة والدبابات والطائرات الضخمة، وقد بدءوا عمليات حربية واسعة النطاق، فقد هاجموا تقاطع الطرق واحتلوها، وبذلك حطموا الحاجز الذي يفصل شمال فلسطين عن جنوبها، وبدأت المستعمرات تتحرك أيضًا، وضربت خطوط تموين الجيش؛ مما اضطر الجيش إلى تقصير خطوطه، والتخلي عن مناطق المجدل وإسدود، وهو الآن ينسحب إلى منطقة رفح وغزة، أما قوات الفالوجا، فلم تستطع الانسحاب؛ لأن اليهود قد قطعوا عليهم خطوط انسحابهم، وعددهم حوالي خمسة آلاف جندي من الجيش.

نزلت هذه الأخبار علينا نزول الصاعقة، وسألنا «كامل الشريف»: أليس من الأفضل ضرب القوة اليهودية التي قطعت الطريق، والاستيلاء عليه مرة أخرى بدلاً من هذه الانسحابات، وترك قوات الجيش في الشمال تحت رحمة اليهود؟ أجابنا «كامل الشريف»: أجل، بل إن هناك خطة وضعت لننفذها، وكنت أحد شهودها، ولكن للأسف ولأسباب غير مفهومة لم تنفذ حتى الآن، بل صدرت أوامر بعدم تنفيذها، والأمر بالانسحاب إلى الجنوب.

هذا هو الموقف الواقعي الآن، شرحته لكم بكلِّ صراحة وأمانة، أما منطقة «بئر سبع» في الشرق، فهي تتعرض الآن لغارات جوية وحشية، ولم يصلها حتى الآن من القيادات أية إمدادات، فالموقف الآن يتلخص في أن قوات الجيش انسحبت إلى الجنوب بعد قطع الطريق عليها، وأن قوات الفالوجا لم تستطع الانسحاب من الشمال، وهي محاصرة، وأن المناطق الشرقية تتعرض للضغط، وتكاد تسقط بين يوم

وآخر، وأن قوات الجيش في الجنوب أيضًا بدأت تتعرض لغارات جوية مكثفة، وإنني أتوقع في خلال أسابيع هجومًا مركزًا على الجنوب، بعد أن ينتهي اليهود من الإجهاز على قوات الجيش في الشمال.. هذا هو ملخص الموقف الآن.

اللواء أحمد المواوي

سألنا «كامل الشريف»: وما موقفكم لمواجهة هذه الكارثة؟ فقال بكلِّ ثقة وبساطة ويقين: إن هذه الظروف الصعبة فرضت علينا جميعًا مهمة المحافظة على الجيش وكرامته، وقد قبلت بكلِّ ثقة هذه المهمة الشاقة لثقتي فيكم، وفي إيمانكم ورغبتكم في الشهادة في سبيل الله، ولقد قدمت خطتي لقيادة الجيش ووافقوا عليها ووعدوا أيضًا بإحضار متطوعين من الإخوان على وجه السرعة؛ ليعززوا خطتنا التي تتلخص في محاصرة المستعمرات، وقطع طرقها، ومنع إمداداتها حتى تشل حركتها، وتبطل خطتهم لضرب قواتنا في الجنوب أيضًا، وأبلغوا مراقبي الهدنة أكثر من مرة، ولقد علقت محطة إسرائيل على هذه العمليات، وهددت باستئناف القتال ضد الجيش؛ إن لم تكف عصابات الإخوان عن نشاطها في هذه المنطقة، وفي الحقيقة شعرنا أن عملياتنا مؤثرة وموجهة، وقد شغلت اليهود فعلاً عن تجمع أية قوات لضرب مؤخرة الجيش المصري الذي كان، وما زال يجمع قواته بعد انسحابه من الشمال.

وفي صبيحة يوم ١١نوفمبر ١٩٤٨م علمنا من زملائنا أن قائد الجيش (اللواء المواوي[1]) قد عزل عن منصبه، وعيِّن بدلاً منه (اللواء فؤاد صادق[2]) وهو معروف بحزمه وجرأته، ولكنه -في الحقيقة، كما كانت الصورة واضحة لنا، سيقود مهمة صعبة للغاية؛ فحالة الجيش قد وصلت إلى درجة كبيرة من الفوضى، وكانت الروح المعنوية في الجنود قد هبطت إلى الحضيض من جراء الهزائم والانسحابات

(١) اللواء المواوي: هو القائد الأعلى للقوات المصرية التي دخلت الحرب في ١٥مايو ١٩٤٨م.
(٢) اللواء فؤاد صادق: عيِّن قائدًا للقوات المصرية خلفًا للواء المواوي في حرب فلسطين.

المتتالية، وما زالت قوات «الفالوجا»[١] محاصرة، ويتناقل الجنود أنباء الهجمات الجوية والأرضية التي تتعرض لها قوات الجيش وقوات المتطوعين في الشمال مثل الخليل وبيت لحم، وتعاني من نقص الذخيرة، وضغط اليهود المستمر عليهم، أما القوات الرئيسية في الجنوب، فقد كانت تعاني ضغطًا شديدًا وقلقًا كبيرًا؛ بسبب هذه الأنباء المثيرة، وبسبب ظروف الطقس القاسية، فقد كانت قوات الجيش المصري وقوات المتطوعين تقيم في العراء، وفي خنادق مملوءة بمياه الأمطار والبرودة القاسية تحيط بنا في هذا العراء، هذا بالإضافة إلى ما كنا نسمعه من وصول أسلحة تنفجر في من يطلقها وتنسفهم، ولا تصل إلى العدو.

اللواء فؤاد صادق

ولقد جاء «اللواء فؤاد صادق» في هذا الوقت العصيب، فتُرى، ماذا سيفعل الرجل وسط هذا الموقف الصعب؟ ولقد سنَّ اللواء فؤاد صادق سُنة حسنة، فبدأ بزيارة مواقع الجيش والمتطوعين ليرفع من الروح المعنوية، وبعد عدة أيام صدرت الأوامر لنا بترك مواقعنا من أمام المستعمرات، والتي كانت تكبلها... تعجبنا جميعًا من هذه الأوامر العجيبة التي ليس لها إلا معنى واحد، وهو ترك جنود المستعمرات يعربدون ويتجمعون ويوحدون صفوفهم لضرب القوات المصرية ضربة موجعة كيف يحدث هذا؟! ولقد سألنا قائدنا «كامل الشريف»، فلم يتكلم كثيرًا، ولكننا علمنا من إخواننا قادة الفصائل أن القيادة العامة استدعت «كامل الشريف»، وأمرته بسحب قوات الإخوان من مواقعهم أمام مستعمرات اليهود، وإرجاعهم إلى المعسكرات، وقد حاول «كامل الشريف» أن يجد تبريرًا لهذا الطلب العجيب، وخاصة في هذه المرحلة الدقيقة من الحرب، والتي تتطلب تقييد حرية وحركة اليهود في المستعمرات؛ حتى يستعد الجيش لإعداد خطته الجديدة في استرداد وضعه الأول، ولكن لم يجد «كامل الشريف» جوابًا شافيًا إلا أن بعض أصدقائه من الضباط همس في أذنه أن هذه أوامر عليا، وليست قابلة للنقاش.

---

(١) الفالوجا: هو المكان الذي حاصر اليهود فيه القوات المصرية أثناء حرب فلسطين، ولم يفكوا الحصار عنهم إلا بعد إبرام اتفاقية رودس مارس ١٩٤٩م.

خيانة الحكومة وحل الإخوان

لقد كنا في أعمار صغيرة وتجارب حياة قليلة كذلك، ولكن الأمر كان واضحًا لنا كالشمس أن الأوامر الصادرة من القاهرة كانت لمصلحة اليهود، وأن الجيش كان يقاد من القاهرة، وليس من الميدان؛ سادنا الحزن والألم، ونفذنا الأوامر على كره منا؛ لأننا كنا نحس ونرى أننا نفك القيود التي كانت تكبل مستعمرات الجنوب، وتعطيهم فرصة الحركة الحرة من جديد.

ولقد صحَّ ما توقعناه، فقد احتل اليهود على الفور التلال الاستراتيجية التي كانت تحكم المستعمرات، فقد احتلوا «قبة الشيخ نوران»، والتي باحتلالها صار في استطاعتهم مراقبة قوات الجيش، كما احتلوا «تل جمة» في ١٥ديسمبر ١٩٤٨م، و«تل الفارغة» في ١٨ديسمبر وغيرها من المواقع، والتي سيطروا بها على مساحات شاسعة من الأراضي العربية.

لقد عشنا فترة مرة حقة؛ لأننا نحس ونرى المأساة تحاك من القاهرة من حكام بلانا الله بهم لا يرعون إلاً ولا ذمة، ولقد تكشفت لنا الأمور، وبدأنا نفهم سر هذه الإجراءات المريبة التي تحدث لنا في الميدان، وهي إصدار المسئولين العسكريين أوامر صارمة من القاهرة بسحبنا من مواقعنا غير مبالين بضرر هذا العمل، وجمعنا في معسكر واحد، ثم طلبوا جمع أسلحتنا، والتي رفض «كامل الشريف» كل الرفض تنفيذ هذا الأمر، وناقش (اللواء البرديني) الذي جاء على رأس حملة من الضابط يطلبون هذا الطلب الغريب، وصارحه بأن هذه أوامر من القاهرة، وأن الحكومة تنوي في خلال أيام حل جماعة الإخوان، واعتقالهم، وأن الأوامر قد صدرت إليهم بجمع سلاحهم هنا، وتحديد إقامتهم؛ خشية أن يقوموا بأعمال انتقامية، والموقف دقيق، كما ترى، فكان ردُّ «كامل الشريف» حاسمًا، فقد قال له بكلِّ صدق: إننا كنا نتوقع دائمًا حل الجماعة، واضطهادها ما دام الذي يحكم مصر الإنجليز وصُناعتهم، وإننا هنا لا يمكن أن نفكر بأي حال من الأحوال أن نرفع سلاحنا ضد إخواننا في الدين وفي الوطن، هذا أمر لا بدَّ أن تطمئنوا إليه، وإننا لن نختم جهادنا بأن نموت كفارًا يضرب بعضنا وجوه بعض، وإننا لو فكرنا في الانتقام، فانتقامنا سيكون من

هذه الطغمة[1] الحاكمة في القاهرة، الذين يتلقون أوامرهم من الإنجليز، أما الجيش، فهم أهلنا وعشيرتنا، ونحن رفاق سلاح، وأرجو إبلاغ القائد العام أن تسليم الأسلحة شيء ليس من الصواب في شيء، ولن يستفيد منه غير اليهود، ثم إن هذا السلاح هو ملك خاص لهؤلاء الشباب الذين اشتروه بخالص أموالهم، فأرجو إبلاغ القائد العام أننا جئنا هنا لنحارب، ولن نسلم سلاحنا لأحد، وإن القائد العام سيتفهم موقفنا، ويستطيع إقناع القاهرة.

وأخيرًا تمَّ الاتفاق على تأجيل هذا الأمر وكتمانه، حتى يقابل «كامل الشريف» القائد العام، وفي الصباح الباكر استقل «كامل الشريف» سيارة جيب لمقابلة القائد العام «فؤاد صادق» في «رفح».

أما حالتنا، فإن الغضب والغيظ والحنق كان يملأ صدورنا، ولم نكن نتصور أن تصل الخيانة إلى هذا الحدّ أبدًا؛ إن المؤامرات تحاك، ولا يحس بها إلا القليل، وكنا نحن في بؤرة المؤامرة.

إن خيوط المؤامرة واضحة كالشمس يراها الأعمى هنا:

أولاً: أوامر انسحاب القوات من الشمال.

ثانيًا: ترك قوات الفالوجا محاصرة.

ثالثًا: ترك القوات في بئر سبع في الشرق دون إمداد.

رابعًا: الأمر بسحب قوات المتطوعين من أمام المستعمرات.

خامسًا: حل جماعة الإخوان المسلمين في هذا الوقت بالذات، وهم يحملون آلاف المتطوعين لإرسالهم إلى الميدان، حسب الخطة التي وافق عليها اللواء المواوي، وأرسلت لتنفيذها في القاهرة عن طريق الجامعة العربية، والتي رفضت الحكومة السعدية الموافقة عليها، وأسرعت بحل الإخوان.

سادسًا: قبول الهدنة الأولى والثانية، واللتين أعطتا اليهود الفرص السانحة للتسليح الثقيل.

كلُّ هذه الأمور وغيرها الكثير توضح أن هناك مؤامرة تحاك في القاهرة، وأن الجيش المصري أول ضحاياها، وأن المستفيد هم اليهود من كلِّ ما حدث.

---

(١) **الطَّغامُ والطَّغامةُ:** أَرْذالُ الناسِ وأَوغادُهم، [لسان العرب، (طغم)].

كان الكلُّ يتميز غيظًا، فالأمر في غاية الخطورة، وبعد عدة ساعات، رأينا سيارة «كامل الشريف» تظهـر مـن بعيـد، فاتجهنـا جميعًـا إليـه، فأمرنـا «كامـل الـشريف» بالانصراف، واجتمع مع قـادة الفـصائل، وبعـد أن انتهـى اجتماعـه بهـم، أبلغونـا باجتماع عام لكل الفصائل، واجتمعنا وكأن على رءوسنا الطير؛ لنعلم نتيجـة هـذا اللقاء الحاسم، وفي الاجتماع الحافل، والذي تسود فيـه الحـيرة والـذهول، ومـزيج الغضب والغيظ -وقف «كامل الـشريف» ليـتكلم، وشـرح لنـا باختـصار حـضور بعض ضباط القيادة، وطلبهم تسليم الأسلحة بعد أن تمَّ سـحبنا مـن مواقعنـا أمـام المستعمرات، ثم إبلاغه رفض هذا الطلـب، وطلبـه القائـد العـام، وقـد تمَّ مقـابلتي بالقائد العام «اللواء فؤاد صادق»، ووجدته متفهمًا كل التفهم لموقفنا، وقال: إنه في أشد الحاجة لكلِّ جندي، وخاصةً في هذا الموقف الصعب، وإنه لا يفهم أبدًا الخلط غير المنطقي بين السياسة هناك، والموقف العسكري هنا، وسيحضر اللـواء صـادق، وسيجتمع بكم، وقال: إنه أرسل إلى الحكومة في مصر بطلب الحديث معكم، وإنني أود أن تدلوا بآرائكم الصريحة، إما بالاستمرار في القتـال أو الانـسحاب إلى مـصر، أما إذا رأيتم غير ذلك، فالأمر منكم وإليكم.

وهنا وقف «حسن دوح»، فتكلم كلامًا عقلانيًا متزنًـا، وأن المحـن هـي مرحلـة ضرورية تلازم الدعوات، وإننا نمر هنا في الميدان بمحنة قاسية، كمـا يمـر إخواننـا في القاهرة بنفس المحنة، وإن اختلفت في الشكل والدرجة، وإننا لا بـدَّ أن نتخـذ قـرارًا هادئًا موحدًا نلتزم به جميعًا، ونتعاون على تنفيذه، وأننا سنبقى لنحارب معكم، كما حاربنا من قبل، وتكلم كثير من المجاهدين كلامًا طيبًا يـدور حـول وحـدة الـصف، ويتلخص في أن المعركة الحقيقية بيننا وبين اليهود، ولن نرفـع سـلاحنا إلا علـيهم، ولن نمكنهم من تفريق صفوفنا، وتكلم مجاهد آخر -ولعله «سيد عيد»- وأخذ يقرأ من رسالة معه كتبها المرشد العام للجماعة منذ سـنوات، وتنبـأ فيهـا بمحـن قاسـية سيتعرض لها الإخوان، فيعتقلون وينقلون ويشردون، وتصادر حرياتهم وأرزاقهـم، وتلصق بهم التهم الباطلة ظلمًـا وعـدوانًا، ويتعـاون علـيهم أعـداء الإسـلام مـن مستعمرين وحكام، ولكن وعدهم بعد ذلك كله مثوبة العالمين، ونصرة المجاهدين.

وهنا، وبعد كلام ينبع من قلوب صافية طاهرة تكلم «كامل شـريف»، وطلـب

من الحاضرين الإدلاء بآرائهم، فكان الإجماع هو التواجد في الميدان، ومواصلة الجهاد حتى ينتهي الجيش من مهمته، وبعد قليل حضر اللواء «فؤاد صادق» يرافقه عدد كبير من كبار ضباطه، وهنا وقف «حسن دوح»، وأبلغه إجماع الإخوان على البقاء، ومواصلة الجهاد حتى تنتهي الحرب، وتكلم «فؤاد صادق» كلامًا طيبًا مدح فيه الدور الكبير الذي يقوم به المجاهدون، وأنه لا غناء له عنهم أبدًا، وأنه سيتصرف مع القاهرة بما يمليه عليه ضميره العسكري، وانفض الاجتماع، وقد هدأت النفوس، فقد كان «فؤاد صادق» رجلاً له كرامة، ولم يخضع لضغوط هؤلاء الذين يأخذون أوامرهم من أسيادهم الإنجليز والتابعين هناك في مكانهم وقصورهم.

ولقد هزني هذا الموقف كثيرًا، وازدادت معرفتي بهؤلاء الإخوان زملاء سلاح ومجاهدين، ولكن هذا الموقف العصيب عمَّق احترامي لهم، ولرجاحة فكرهم، ونبل مقاصدهم، فلم أسمع واحدًا ينادي بالفتنة، أو رفع السلاح في وجه الجيش، أو حتى التفكير في النزول إلى القاهرة بسلاحهم لرد اعتداء هؤلاء الجبناء على الوطن ورجاله الشرفاء، حمدت الله أن عرفت هؤلاء الشباب، وكنت شاهدًا على موقف كريم عظيم لهم.

وبعد أيام قليلة قضيناها في تدريبات مستمرة؛ لأنه من أخطر الأمور على الجنود هو الخلود إلى الاسترخاء والراحة، ولكن التدريبات العنيفة تجعله دائمًا على أهبة الاستعداد واللياقة، وحوالي منتصف ليلة ٢٣ ديسمبر سمعنا صفارات الإنذار داخل معسكرنا، فانتفضنا من نومنا، وكنا ننام بملابسنا العسكرية، وحتى حراس المعسكر هبوا مسرعين إلى مواضعهم الدفاعية، وتجمعت كل الفصائل في تشكيلات الاستعداد، ومعها أسلحتها ومعداتها، وتحركت مصفحات المعسكر وسياراته المدرعة، وانتظمت في تشكيلات الاستعداد، وأخذ قوادها يمدوها بحاجتها من الوقود والماء.

التبة ٨٦

لقد انفض الاجتماع الذي أجراه «كامل الشريف» مع قواد الفصائل شارحًا لهم كيف أن اليهود قد نقضوا الهدنة كعاداتهم، وهاجموا مرتفعًا حاكمًا جنوبي دير البلح يعرف باسم «التبة ٨٦»، وكان نجاحهم في احتلال هذا الموقع من قوات

الجيش، يعني عزل القوات الموجودة في غزة، وتكرار مأساة الفالوجة مرة أخرى، وقطع خط تموين الجيش ومواصلاتهم، وعلمنا أنه تمّ الاتصال بقائد قطاع دير البلح (الأميرلاي محمود رأفت)، وإخباره بالموقف بعد احتلال اليهود لهذا الموقع الهام، وأن قوات اليهود تحاول الآن أن تتجمع للوصول إلى طريق المواصلات الرئيسي للاستيلاء عليه، وأن قوات الجيش الآن تحاول تطويق المرتفع حتى الصباح، وصارحنا «كامل الشريف» أن الموقف خطير للغاية، وأن هذه المعركة سيكون لها أثر بالغ في النتيجة العامة للحرب، وختم حديثه للإخوان بأن يستعدوا؛ لأنهم سيكونون آخر ورقة يقذف بها في وجه اليهود لحسم هذه المعركة، وجهّز «كامل الشريف» على الفور سرية للاشتراك في هذه المعركة ستتحرك فورًا لتكون تحت الطلب للاشتراك الفوري.

وكانت المشكلة أمام «كامل الشريف» هي كيف يمنع الجميع من تسابقهم في شرف الاشتراك في هذه المعركة، وحسم «كامل الشريف» الأمر بتجهيز فصائل ثلاث للاشتراك على أن تبدأ الفصيلة الأولى بقيادة «فوزي فارس» والشهيد «سيد منصور»، ولم يكن لي الشرف في أن أكون مع هؤلاء المجاهدين، وبدأت السيارات تتحرك لترابط قريبًا من أرض المعركة، وانتظرنا يومًا كاملاً، ونحن على أهبة الاستعداد، وفي انتظار إرسالنا مددًا لإخواننا، وكنا نسمع صوت الانفجارات والطلقات تدوي طول الليل حتى الفجر، ثم هدأت الأصوات قليلاً، ثم عادت من جديد، وفي اليوم التالي عاد الأبطال يقصون علينا حصاد ذلك اليوم الطويل، والبشر والفرحة تحكي قصة انتصاراتهم، ولقد سجّل أحد الأبطال -قائد المعسكر «كامل الشريف»- بقلمه ما حدث في هذا اليوم الكبير في كتابه «قتال الفدائيين» نسوقه، كما كتبه:

«كانت نسمات الفجر تحمل إلى أنوف المحاربين رائحة البارود المحترق مختلطة بأنفاس الشهداء الأبرار، وكانت أشعة الفجر الأولى تتسلل إلى الميدان، فتكشفت معالمه شيئًا فشيئًا، والغيوم تتكاشف، وتلقي حمولتها من الماء فوق رءوس المحاربين، وكان اليهود حتى ذلك الحين فوق المرتفع الذين احتلوه، ولا تزال مدافعهم تسيطر على مساحات شاسعة من الأرض المنبسطة حوله، ولم تكن

الشمس ترسل أول أشعتها حتى صدرت الأوامر لجنود الجيش بالتقدم، فانسابوا في أفواج متلاحقة تريد أن تصل إلى القمة، وتطرد العدو الرابض فيها، ولكن ارتفاع الموقع، وسيطرة أسلحة اليهود على الموقع المحيطة به كانا يمنعان الجنود من الاقتراب، وظلت الحالة هكذا موجات إثر موجات، وجرحى كثيرون، وشهداء يسقطون دون الهدف.. وكيف يمكن للحوم الآدمية أن تقاوم القنابل والرصاص والعدو الماكر يربض خلف خنادقه التي أعدها بعناية، ويصوب نيرانه منها على لحوم بشرية متراصة، وبدا جليًا للعيان أن لا أمل مطلقًا في كسب المعركة إلا في حضور عدد من الدبابات، فأرسلوا في طلبها على عجل، ودفعت إلى المعركة تلو الأخرى، فتعطلت منها اثنتان على سفح التل، ولم يستطع أحد الاقتراب من مواقع الأعداء، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر، والريح لا تزال تدوي بشدة، وتسوق أمامها قطعانًا من السحب الكثيفة وعواصف المطر الباردة، ووقف الضباط يتطلعون إلى السماء يلتمسون العون من الله العلي الكبير بعد أن جربت كل الأسلحة، ووضح جليًا أن هذه المعركة قد ضاعت، وضعف الأمل في حسمها قبل الليل، وكان لا بدَّ من إلقاء الورقة الأخيرة، فطلب الأميرلاي «محمود رأفت» إحضار الإخوان على عجل، وما سمع الجنود والضباط اسم الإخوان حتى سرت في نفوسهم روح جديدة من الأمل والثقة، وطلبت من القائم مقام (علي مقلد) قائد الفرسان أن يوفر دبابة ليدفع بها أمام جنود الإخوان.

وبعد لحظات وصلت جنودنا إلى المعركة، وترجلوا عند مكان أمين لتنظيمهم وأعدادهم، وكانت الخطة تقضي بتقسيم الإخوان إلى ثلاثة مجموعات تهاجم اثنتان منهما الموقع من الأمام، ومن جهة الشمال، بينما تدور القوة الثالثة منها إلى الموقع، وتهاجم مؤخرته، وتمنع تدفق الإمدادات عليه، وتجذب اهتمام المدافعين إليها، وتشغلهم عن القوتين الآخرتين، وكان المفروض أن تتقدم الدبابات متجمعة أمام قوة الإخوان تحت ستار من نيران المدفعية والأسلحة الرشاشة، وتحت غلالة من قنابل الدخان التي كانت تطلقها مدافع الهاون التابعة للإخوان المسلمين، وبدأت المعركة على هذا الأساس، وانطلق الإخوان إلى أهدافهم، وأمسك الضباط والجنود أنفاسهم، وهم ينظرون إلى هذا الشباب المؤمن يتواثب في ثبات وقوة، ولا يثنيه

الرصاص والقنابل عن التقدم لملاقاة أعدائه.

لقد آمن الضباط والجنود أن هناك نتيجتين لا ثالث لهما، إما أن ينتصر هذا الشباب، وإما أن يموتوا جميعًا؛ لأن التراجع والانسحاب لا يدخل برنامجهم إطلاقًا، وخاصةً في هذا الموقف الحرج الخطير، ويستمر «كامل الشريف» في سرده للمعركة في كتابه «قتال الفدائيين» بقوله: «وظلت مدافع الإخوان تقذف الموقع بقنابل الدخان فترة طويلة حتى أحالت المكان إلى سحابة قاتمة لا ترى خلالها إلا ألسنة من اللهب الناتج عن انفجارات القنابل، وسكنت المدافع، وانساب المجاهدون إلى أهدافهم، وبدأت معركة الخنادق، وروع اليهود حين رأوا الإخوان يلقون بأنفسهم فوقهم في الخنادق والدشم، ويقاتلونهم بالقنابل والحراب والأيدي، ورغم كثرة الضحايا من الإخوان، فإن القوة قد تمكنت من احتلال خنادق العدو، وأخذت تطهرها جزءًا جزءًا، ولم يجد اليهود بدًا من إخلاء الموقع، فصمتت مدفعيتهم وأسلحتهم، وشوهدت مصفحاتهم تتحرك للخلف حاملة الجرحى والهلكى، وكان هذا المنظر حافزًا للجنود الآخرين وملهبًا لحماسهم، فأخذوا يتكاثرون على الموقع، ويتممون تطهيره حتى جاءت أخيرًا الحمالات (قاذفات اللهب) تطارد فلول العدو المنهزمة، وانتهت المعركة بنصر حاسم، وكانت إحدى المعارك الكبرى، والتي تكبد فيها العدو خسائر فادحة، وكان ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيليين، ومن بينهم قائد المعركة وهو «كولونيل روسي»، وكان يحتل مركزًا هامًا في الجيش الإسرائيلي، ووجدت في جيبه تفاصيل الخطة والخطط المقبلة التي كان يراد منها إلقاء الجيش المصري في أعماق البحر.

الشهيد حسن العزازي

كانت الشمس قد مالت للمغيب حين انتهت المعركة، وأخذ الجنود يحتلون الموقع بعد فرار اليهود منه، أما جنود الإخوان، فقد انسحبوا في سكون وهدوء بعد أن حملوا معهم كميات كبيرة من الأسلحة الألمانية والروسية، ولقد سقط في هذه المعركة كثير من الشهداء والأبرار، وكان أول الشهداء قائد الفصيلة المرحوم الشهيد «سيد محمد منصور» من إخوان الشرقية،

والشهيد «حسن العزازي» من إخوان العريش، والشهيد «عبد الحميد بسيوني خطاب»[١].

الشهيد عبد الحميد بسيوني خطاب

قضينا ليلة كاملة نسمع فيها من كلِّ الأطراف قصصهم مع العدو، وكان «فوزي فارس»، وهو الذي تولى قيادة الفصيلة بعد استشهاد قائدها السابق «سيد منصور» -قادرًا على تصوير المعركة من كلِّ جوانبها بأسلوبه الشيق الجذاب، ونعود لكتاب «كامل الشريف» في كتابه «قتال الفدائيين»، فهو أقدر كقائد للفدائيين وبحكم خبرته وموقعه من الأحداث ومسئوليته -على رسم الصورة الكاملة للموقف في هذه الفترة الدقيقة من المعارك الفاصلة، التي كنت فيها بحكم سني وخبرتي القليلة، والتي لا أرى فيها الأمور إلا بنظرة الجندي المحدود الرؤية، وهذه الفترة بالذات تحتاج إلى رؤية شاملة للموقف، وليس نظرة محدودة؛ ولذلك أستعير من القائد الشجاع «كامل الشريف» ما يقوله في كتابه الذي سجل فيه الأحداث بكلِّ صدق وأمانة، يقول «كامل الشريف» في صفحة (٢٠٦) من كتابه «قتال الفدائيين»: «ظلَّ الإخوان في معسكراتهم يمارسون التدريب، ويستعدون للمعركة المقبلة، وكانت تطلبهم قيادة الجيش بين الحين والآخر؛ ليقوموا بأعمال الدوريات على طول الجبهة، وليستقصوا أنباء العدو، ويرصدوا تجمعاته وتحركاته، ويقوموا بوضع الكمائن في الوديان والجبال؛ للإيقاع بدباباته ومركباته، وكثيرًا ما كانت تخرج مجموعات منهم لتتعاون مع كتائب الجيش، كلما وقعت اشتباكات محلية في قطاعات الميدان المختلفة، ولم تدم الحالة المريحة طويلاً؛ إذ قام اليهود بحركة التفاف واسعة قصدوا منها، كما جاء في المنشورات التي ألقوها من الطائرات -عزل الجيش المصري خلف الحدود، فقاموا بهجومهم الكبير والأخير في ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨م، ونجحوا في انتزاع منطقة كبيرة

---

(١) عبد الحميد بسيوني: أحد إخوان بسيون غربية، وشارك في حرب فلسطين، واستشهد هو والأخ «سيد منصور» تحت عجلات إحدى الدبابات.

من الجيش غير أنهم فشلوا في تحقيق هدفهم المنشود من استخلاص بقية فلسطين، ولقد قدر للإخوان أن يساهموا في هذه المعارك الكبرى مساهمة فعالة، ولا يزال الضباط والجنود يذكرونها، ويعتبرونها المثل الأعلى للجندية المؤمنة».

وقفة ونفرة

قبل أن أخوض في تفاصيل هذه الهجمات التي أسرعت بنهاية الحرب، وعجلت بخاتمتها المفجعة أود أن أبيِّن الحالة التي كانت عليها القوات المتحاربة قبل تاريخ هذه المعركة؛ ليكون القارئ على بينة من حقيقة الموقف، ويستطرد «كامل الشريف» في كتابه بقوله: «وضحت في كتاباتي السابقة كيف اضطر الجيش المصري أمام هجمات العدو المفاجئة خلال شهر أكتوبر إلى إخلاء المناطق الواسعة في إسدود والمجدل، وما ترتب على ذلك من حصار مجموعة لواء كاملة في قرية الفالوجا؛ مما نتج عنه ضياع مدينة بئر السبع، وسقوط الجزء الشمالي من النقب في يد اليهود، وظلَّ اليهود في بئر السبع وما حولها، بينما ظلت القوات المصرية تحتل بعض المواقع على الطريق الذي يربط بئر السبع بقرية العوجة على حدود مصر الشرقية، وبذلك أصبحت قوات الجيش المصري موزعة على النحو التالي:

١- القوات الرئيسية المتجمعة في منطقة غزة -رفح، وفيها القيادة العامة.

٢- قوات مختلطة تقدر مجموعها بـ«لواء عسكري» تحتل بعض المواقع في طريق بئر السبع العوجة، وآخر مراكزها «عسلوج» على مسيرة عشرين ميلاً من «بئر السبع».

٣- قوات المتطوعين المصريين والإخوان المسلمين، وهي القوات التي عزلت بعد كارثة الفالوجا، وظلت تدافع عن «الخليل» و«بيت لحم» و«صور باهر»، وتقوم بتموين قوات الفالوجا المحاصرة.

ولقد رأينا كيف نجح اليهود في اختراق خطوط الجيش المصري أمام دير البلح (معركة التبة ٨٦)، وكيف انتهت تلك المحاولة بهزيمتهم المنكرة وخسارتهم الفادحة غير أنهم لم يستكينوا رغم هذا الدرس المر، بل تحسسوا نقاط الضعف في القوات المصرية، وقاموا بمحاولة أخرى على نطاق واسع، واكتسحوا في طريقهم القوات

ثم شكوت من قلة الذخائر التي لدينا، فأصدر القائد العـام أمـره بـصرف أيـة كميات نطلبها من الذخائر والأسلحة لتخرج هذه القوة مكتملـة العـدة، ولم نـضع الوقت، فمضيت إلى المعسكر، وهناك استقر الرأي على إعـداد سـرية لتخـرج مـن ليلتها بقيادة الأخ المجاهد «حسن دوح»، ويشترك معه من ضباط المعسكر للإخـوان المجاهدين «عبد الهادي ناصف» و«فوزي فارس»، وعنـد غـروب الـشمس تحركـت السيارات والمصفحات بمن فيها، وكان موقفًا رائعًا، لن أنساه؛ إذ أخـذ المتواجـدون في المعسكر يودعون إخوانهم بالأناشيد والهتافات المدوية، وحين حاذينا مقر القيـادة العامة في رفح وجدت أحـد ضـباط الرياسـة ينتظرنـا على الطريـق العـام، ومعـه سيارتان كبيرتان محملتان بـصناديق الـذخيرة والقنابـل وسـيارة ثالثـة تحمـل خزانًـا ضخمًا من الماء، ثم أخبرني أن القائد العام ينتظرني في مكتبـه، ويريـد أن يتحـدث إليَّ قبل سفر القوة، فتركت الإخوان على الطريـق العـام، وذهبـت إليـه بمفـردي، فوجدت لديه جمعًا كبيرًا من الضباط من ذوي الرتب العالية لمعاينة الحالة، ومعاونة القائد العام في مهمته، واستأذنت ودخلت؛ فلمـا دخلـت أخـذ القائـد العـام يبيِّن الحالة بالتفصيل، وفهمت أن تغيرات خطيرة قد طرأت على الموقف.

كانت «العسلوج» قد انتهت، وكانت مواقع جبـل الـشريف قـد سـقطت هـي وغيرها من المواقع، وفهمت أن العدو يدير معاركه في منـاطق أخـرى مـن النقـب، وأن طلائع قواته قد اشتبكت فعلاً مع حامية العوجة، وكانت أنبـاء شـديدة الوقـع على نفسي، ومعنى كل ذلك إبادة تلك القـوات الكـبيرة، واقتحـام حـدود سـيناء الشرقية، وأيقنت أن العدو لو نجح في احتلال العوجة، فستسير معاركه الهجومية في قلب الصحراء المصرية، وبعد حديثي مـع القائـد العـام حييـت الجميـع، ثـم بـدأنا السير، وآثرنا أن نسلك الطريق الذي يمر بالعريش، ووصلنا العريش، ثـم تجاوزتهـا إلى أبي عجيلة، فوصلناها في منتصف الليـل، وسمعنـا دوي الانفجـارات العنيفـة، ورأينا أضواء القنابل المتفجرة تنعكس على صفحة الأفق، فعلمنا أن المعركة لا تزال دائرة الرحى في العوجة، وعلمـت مـن مـوظفي النقطـة ومـن رجـال البـوليس أن حاميات عسلوج وجبل شريف وكوبري الإخوان وغيرها من المواقع قد أبيدت بين أسرى وقتلى، ومن نجا، فقد اضطر للهيام على وجهه في صحراء النقب الواسعة».

ويواصل «كامل الشريف» حديثه في وصف المعارك الأخيرة والتي كان يـديرها بنفسه، فيقول في ص(٢١٢): «وعند أرض مرتفعة تعترض الطريق الرئيسي، رأينا قنابل العدو تتساقط فوقنا، ولم يكن في وسعنا أن نتقدم قبل أن نقضي على هذه العقبة، فقرَّرنا الاشتباك معها، ولاحظنا أن موقع العدو مستتر بعناية خلف أحد التلال المواجهة، فترجل الإخوان في أحد المنحنيات، وأقاموا مدافعهم، وأخذوا يضربون موقع العدو بشدة حتى سكنت مقاومته، وانفتح الطريق، وانسابت جموع السيارات المتخلفة عن أهدافها، وركب الإخوان السيارات، وواصلو السير حتى وصلوا إلى مرتفع شاهق يشرف على ميدان المعركة، وهناك التقيت بضابط من الجيش، فسألتهم عن قيادة المعركة، وأين أستطيع أن ألتقي بقائد المنطقة العام؛ لأتلقى تعليماته وإرشاداته، فأخبروني أنهم منذ الليل يحاولون العثور على أحد القادة المحليين دون جدوى، وأنهم جاءوا من رفح والعريش وغزة كنجدة سريعة لحامية العوجة، فتعجبت كثيرًا لهذه الظاهرة، وطلبت من الأخ «حسن دوح» تنظيم قوته في وضع دفاعي ففعل، واختفت سياراتنا خلف أحد التلال، وظللنا ننتظر فترة طويلة؛ عسى أن يأتي أحد قادة المنطقة؛ ليحرك هذه القوات الكبيرة، وطال انتظارنا دون جدوى، وكان الموقف يدعو للأسف والسخرية؛ معركة محتدمة في قلب العوجة، وجنودنا يقاومون فيها مقاومة الأبطال، وقد بحت أصواتهم في طلب النجدة، والنجدة على مقربة منهم، ولاتستطيع الوصول إليهم، وليس هنا أحد ينظم المعركة، ويديرها، هذه هي الفوضى بعينها، وكان العدو قد فهم ما نحن فيه من ارتباك، فأرسل فصيلة من قواته تسللت عبر الوديان والجبال المحيطة بنا، ثم ظهرت فجأة على مقربة منا، وأخذت تمطر المنطقة بوابل من النيران، وأحدثت المفاجأة مفعولها.

أما سيارات الجيش الكثيرة، فقد كان طبيعيًا أن تتحرك لتنجوا بنفسها، وبما فيها من أسلحة وذخائر، وأما الجنود، فقد ارتبكت جموعهم، ومما زاد في ارتباكهم عدم وجود قيادة يرتبطون بها، ويتلقون تعليماتها وأوامرها، فتعلقوا في السيارات المتحركة، ولم تلبث الطائرات اليهودية المطاردة أن ظهرت في الجو، وأخذت تنقض على هذه الجموع المختلة، وتضربها بالنيران الحامية، وكان من الأخطاء الواضحة

في هذه المرحلة -وما أكثر أخطائها- نقص الحماية الجوية لهذه القوات؛ مما جعلها عرضة لخطر الطائرات، وأعطى اليهود فرصة السيطرة على الجو سيطرة كاملة ليس فيها منازع، وشعرنا -نحن المحاربين- بخطورة حين كانت طائراته تظهر لتفرغ حمولتها من النيران فوق رءوسنا، ثم تعود على أدراجها لتشحن جوفها بحمل جديد من المطارات القريبة وأراضي الهبوط الواقعة في منطقة بئر السبع.

بقيت قوات الإخوان وحدها فوق مرتفع العوجة، وخشيت أن تكون هناك قوات أخرى للعدو في طريقها إلينا لتفاجئنا من جديد، فتداولنا الرأي، وكان علينا أن نقرر: إما أن ننسحب خلف القوات المنسحبة، وإما أن نصمد فوق هذا المرتفع حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وكان الموقف بالغ الخطورة، فبقاء الإخوان فوق هذا المرتفع يعرضهم للإبادة التامة أمام عدو يفوقهم كثيرًا في عدده وعدته، وانسحابهم أيضًا سوف يغري العدو بملاحقتهم، فيندفع وراء القوات المرتبكة، ويقلب انسحابها إلى هزيمة منكرة، وليس أخطر من مهاجمتها الآن، وهي على ما هي عليه من تفكك وارتباك.

وأخيرًا استقر رأينا على اختيار أهون الضررين، فيجب أن نصمد، ونقاوم، إما أن تتراجع قوات العدو، ونحتفظ بهذا الموقع ليكون نقطة ارتكاز؛ لو فكرنا في استرداد العوجة، وإما أن ننجح في إشغال العدو، وتعطيله بعض الوقت حتى تستطيع قوات الجيش الوصول إلى نقطة أمينة، وتصبح قادرة على الدفاع عن نفسها، واستمرت المعركة بين الإخوان والعدو فترة طويلة يئس العدو بعدها، وانسحب راجعًا إلى جنوبي العوجة، وبقينا وحدنا حتى وقت الزوال، وكانت المعركة في قلب العوجة قد أشرفت على نهايتها، ولم نعد نسمع فيها إلا طلقات متفرقة، وكان أفراد حاميتها لا يزالون ينسحبون منها بعد أن يئسوا من وصول النجدات، وبدأنا نفكر في الموقف بشيء من القلق، فإن بقاءنا على مقربة من العدو، فيعتبر مغامرة خطرة خاصة، إذا أقبل الليل وبيننا وبين الجيش عشرات الأميال، ولا أستبعد أن تتسلل قوات من العدو لتهاجمنا من الخلف، وتقطع علينا خط الرجعة، فرأيت أن أذهب بمفردي إلى قوات الجيش، وأحاول إقناع الضباط بالعودة لاحتلال هذا المرتفع، فليس هناك معنى للتخلي عنه مسافة شاسعة من

الأرض المصرية، دون سبب، وإخلاؤها على هذه الصورة المزرية، وهذا سوف يغري العدو بمواصلة التقدم.

ركبت إحدى السيارات الخفيفة، ورجعت مسافة عشرين ميلاً إلى الوراء، فوجدت قوات الجيش موزعة خلف التلال في انتظار تعليمات جديدة من القيادة العامة، وكانت الخطة السليمة أن يبادر الجيش، فيهاجم العدو في قلب العوجة، ويرغمه على الانسحاب منها قبل أن تستقر أقدامه فيها، ولكن أين القيادة التي تنظم الخطة، وتوجه هذه القوات الكبيرة وجهة صحيحة، ولقد بلغ من تلهفي على إتمام هذا الإجراء أن اتصلت بضابط هذه القوات، وأخذت أشرح لهم وجهة نظري، وطلبت اختيار أحدهم قائدًا علينا جميعًا حتى يمكننا وضع خطة موحدة نتحمل مسئوليتها، ونقوم بتنفيذها، ولكني لاحظت أن حضرات الضباط الذين حادثتهم، على الرغم من إيمانهم الشديد وتحرقهم للقيام بعمل جدي، كانوا يشفقون على أنفسهم من تحمل المسئولية، لو فشلت المحاولة، وتلك ظاهرة خطيرة لمستها في الجيش في كثير من المواقف التي تعاونت معهم فيها، فقد لاحظت أن المسئوليات الكبيرة تكاد تكون مركزة في أيدي أفراد قلائل من ذوي الرتب العالية، أما الضباط صغار الرتب، فمهمتهم تنفيذ تعليمات هؤلاء دون أن يكون لهم حق التصرف حتى في أتفه المسائل، ولو حدث وتصرف أحدهم حسبما يرى كان نصيبه التأنيب؛ إنْ أصاب، والعقاب الشديد؛ إنْ أخطأ، هذه الأسباب وغيرها تجعل الضباط من صغار الرتب يحجمون عن تحمل المسئولية حين يجب التفكير والتصرف السريع، ولست أجد وسيلة لعلاج هذه الحالة سوى تعويد الضباط الصغار على حمل المسئوليات الكبار، وقد يخطئ الضباط مرة وأخرى، والواجب يقضي بالتغاضي عن أخطائه، وتشجيعه ما توفرت حسن النية في هذا الخطأ، وبذلك تتكون شخصيته، ويصبح قادرًا على التصرف، راغبًا في تحمل المسئولية والتبعات.

وظللنا نتناقش وقتًا طويلاً، وبينما نحن على تلك الحالة؛ إذ أقبلت سيارة جيب، وترجل منها الأميرلاي «فؤاد ثابت» -قائد القطاع، والمسئول عن هذه المعركة، والرجل الذي ظللنا ننتظره ليؤدي واجبه وقتًا طويلاً- وبوصوله وصلت إشارة من القيادة العامة تحتم القيام فورًا بهجوم مضاد لاستيراد العوجة، وطرد

المعارك السابقة جميعها، ثم معركة العريش التي سيتكلم عنها «كامل الشريف»، ولكن موقفي منها موقع الجندي الذي لا يرى أمامه إلا هدفًا واحدًا، وهو القتال حتى الموت.

أما «كامل الشريف»، فقد كانت الرؤية أمامه في هذا الوقت أكثر اتساعًا وشمولاً، ولذلك سنعود من جديد إلى كتابه الوثائقي عن هذه الأيام الصعبة، يقول «كامل الشريف»: «انسحبت القوات المصرية من صحراء النقب بعد سقوط العوجة، وتركزت فوق مرتفعات الطارة في داخل الحدود المصرية، ولم يكن يدور في أذهان المسئولين العسكريين أن العدو سيحاول احتلال سيناء بعد فراغه من فلسطين، ومضت الليلة الأولى بسلام؛ مما زاد تأكيد أن العدو قد قنع مؤقتًا بما وقع في يده، وأنه سيخلد بعد ذلك للسكون والراحة أو التفرغ للمنطقة الساحلية؛ حيث لا تزال ترابط فيها القوات الرئيسية والقيادة العامة، ولكن حوادث الليلة التالية جاءت لتخالف هذا الظن، فلقد شوهدت في عصر اليوم التالي جموع من السيارات تتدفق وراء المرتفعات المقابلة؛ مما أوحى إلى القيادة المسئولة تنظيم خطة سريعة للدفاع والإرسال في طلب مزيد من القوات والمعدات، وكنا نشعر -نحن المحاربين- بما نحن فيه من ضعف وإنهاك بعد المعارك العنيفة الماضية، وكانت القوات المدافعة هي نفسها القوات التي انسحبت من العسلوج والعوجة، وكانت معنوياتها قد وصلت إلى درجة من الضعف لا تسمح لها بمواصلة القتال، كانت شمس ذلك اليوم على وشك الغروب، حينما أطلت علينا مصفحاتان معاديتان، واقتربتا في جرأة من مواقع الجنود، ثم أخذتا تطلق النار من مدافعهما الرشاشة، واشتبكت معهما مدفعية الجيش وأسلحته المختلفة، وأخذ الإخوان يرقبون هذا التصرف بحذر، فلا بدَّ أن هناك خدعة من وراء هذه الحركة، وكانت الخدعة واضحة لا تحتاج إلى كثير من التكهنات والتفكير، أولئك اليهود كثيرًا ما كانوا يعمدون إلى مثلها قبل كل هجوم، إنهم يريدون من المصفحتين إشغال المصريين وجذب نيرانهم ليعلموا أوكار المدافع ومواقع الجنود، وإنهاء ذخيرتهم في الهواء، وتحطيم أعصاب جنودهم طوال الليل حتى إذا اطمئنوا لهذه النتيجة؛ فاجئوهم بهجوم خاطف، وأرغموهم على التقهقر للوراء.

فطن الإخوان للحيلة، وفهموا الغرض منها، فطالما استعملها اليهـود إزاءهـم، خلال معارك النقب الـشمالية؛ فـوفروا زخيرتهـم حتـى الوقـت المناسـب، وظلـوا صامتين ساكنين مترقبين، ثم اتـصلوا بالمسئولين في وحـدات الجـيش، وبيَّنـوا لهـم خطورة النتيجة إنْ استمر الجنود في تفريغ الـزخيرة دون مـبرر، وكـان يكفـي عـدة طلقات مـدافع مـضادة لتحطـيم المـصفحتين، واقتنـع الـضباط بالنظريـة، ومـضوا يصدرون الأوامر تباعًا بوقف إطلاق النار، ولكن أين تذهب الأوامـر والتعليمـات في أعصاب منهارة هدها السهر، وحطمها الإنهاك، وهكذا ظلت المدفعية والأسلحة تزأر طول الليل، دون مبرر، والعدو الماكر يغري بالاستمرار في هذا الخطأ بـإطلاق دفعات من النيران المتفرقة هنا وهناك حتى الساعة الثانية صباحًا، وكنا نسمع صياح الجنود: «ما فيش ذخيرة يا أفندم»، وآخر يقول: «دانات المدافع خلـصت يـا سـعادة البك»، «نريد قنابل لمدافع الهاون، يا حضرة الـضباط»، وفي هـذه الحالـة فقـط بـدأ الهجوم الفعلي من جانب اليهود، وكانت خطـة بارعـة لإنهـاك الـذخيرة، وتحطـيم الأعصاب.

فهم الإخوان الحيلة، ولم تـصدر طلقـة واحـدة مـن جـانبهم، واكتفـوا بتوزيـع حراس قلائل ليرقبوا الحالة مـن بعيـد، بينمـا استـسلم البـاقون للراحـة اسـتعدادًا للمعركة المقبلة، وكنت شخصيًّا أنام في إحدى السيارات خلف تل قريب من ميدان المعركة، حين جاءني أحد الإخوان ليوقظني، قائلاً: إن اليهود قـد بـدءوا يزحفـون، فنظرت للساعة، فإذا عقاربها تشير إلى أن الوقت قد تجـاوز الثانيـة بقليـل، وكانـت الحالة توحي بهجوم كبير، فقد كان اليهود يعمدون في أغلـب المعـارك إلى التمهيـد لهجوم مهم بسيول من النيران، وكانت مدافعهم الثقيلة تـصب كـتلاً ملتهبـةً فـوق رءوس المحاربين الذين لم يكن لهم أدنى ساتر يحميهم مـن شـظاياها المتطـايرة، وبـدأ العدو يزحف في جموع كثيفة، واتجه نحو القطاع الذي يرابط فيـه الإخـوان، وكانـت مفاجأة قاسية لليهود أن انهمرت عليهم النيران مـن مـسافات قريبـة، ومـن جنـود بـالغوا في إخفـاء أنفـسهم في جنبـات الـوادي، وفي المرتفعـات وخلـف أشـجار الصحراء»، وهنا ينتهي كلام «كامل الشريف».

ولكنني أضيف عليه كشاهد لهذه المعارك الكبيرة، والتي تحولنا فيها من كوماندوز نضرب جموع صغيرة هنا وهناك إلى جنود نظاميين نتولى الدفاع والهجوم، ولقد كنا في مواقعنا منتبهين نرى تحركات العدو وجموعه رأي العين، ونسمع أصواتهم العالية مدوية (كاديما كايرو)، أي: تقدموا إلى القاهرة، وكنا نسمع أيضًا انسحابات الجنود من حولنا، ومع ذلك كانت الأوامر الصارمة بعدم إطلاق أية طلقة أو قذيفة؛ حتى لا يعرف مكاننا، وحتى نأخذ العدو على بغتة، وتكون إصابتنا شديدة ومؤثرة، وما إن أصبح العدو في متناول أيدينا وقذائفنا، وهو يتقدم إلى التل الذي نحتله ليكون له ركيزة يواصل بعدها الهجوم، وإذا بالأوامر تصدر إلينا بالضرب، وإطلاق النيران والقنابل اليدوية على المهاجين، فهم في متناول اليد والعين المجردة، رغم الظلام، فكانت ضرباتنا مؤثرة جدًا.

ونعود مرة أخرى إلى كتاب «كامل الشريف» ليكمل لنا الحديث، يقول في كتابه: «وكانت مفاجأة قاسية لجنوده (العدو) أن انهمرت عليهم النيران من مسافات قريبة، ومن جنود بالغوا في إخفاء أنفسهم في جنبات الوادي، وخلف أشجار الصحراء؛ فارتاعت جنوده وسقط منهم عدد كبير، وأخذوا يتراجعون في ذعر لتنظيم أنفسهم من جديد، وسكتت مدافع الإخوان الرشاشة وأسلحتهم في انتظار هجوم آخر.

ذهبت إلى الأميرلاي «فؤاد ثابت» ورجوته أن يحضر سرية من الجيش لتحتل مواقع الإخوان الدفاعية؛ لنستغل ارتباك العدو وهزيمته؛ حيث نتمكن بالقيام بهجوم مضاد يمكن أن يكون بداية وجود قوات احتياطية في يديه، وتلك كانت إحدى الأخطاء الرئيسية التي برزت بوضوح في هذه المعركة، فوجود قوات احتياطية في حالة راحة واستعداد يمكن أن تستعمل في الوقت المناسب في مواصلة حرب يوم جديد، وجنود نشطين، وإعطاء فرصة للجنود المنهمكين لساعات قليلة من الراحة يواصلوا بعدها القتال بنشاط أكبر، وروح معنوية أعظم، فرجعت إلى الإخوان، وقد أيقنت أن الموقف بالغ الخطورة، وأن هذا الدفاع رغم أهميته لن

يصمد طويلاً أمام الهجمات المنظمة، وخاصةً أن مواقعها المختفية أصبحت الآن معلومة، فبعث أحد الإخوان ليرقب الحالة في القطاع الشمالي حيث ترابط قوات الجيش، ومكث قليلاً من الوقت، ثم عاد ليقول: إن جنود الجيش يتسللون راجعين إلى أبي عجيلة، وأن العدو قد نجح في احتلال المرتفعات الشمالية، وهو ينحدر الآن من فوقها، وأغلب الظن أنه يحاول الآن الالتفاف حول مواقعنا، ونظرت إلى الشمال، فرأيت أنوار سيارات الجيش تتحرك إلى الخلف، ولم نعد نسمع من الجبهة إلا طلقات متفرقة، فقد نفدت الذخيرة، ولم يكن الانسحاب للأسف انسحابًا منظمًا ذا خطط موضوعة، ولكنه كان انهيارًا لكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولم أشهد طوال الحرب الفلسطينية معركة فقدت فيها سيطرة القيادة كهذه المعركة، وزادت الحالة ارتباكًا فوق ارتباك حين جاءت الأنباء تعلن أن قائد المنطقة الأميرلاي «فؤاد ثابت» قد أخذ بهذا الهجوم، فسقط مغشيًا عليه من جراء صدمة عصبية، وساءت حالته مما اضطر أركان حربه إلى نقله بعيدًا عن ميدان المعركة، وكان اليهود يستمعون لتصايح الجنود، وهم يتعلقون بزيول السيارات، وأخذوا يسخرون منهم بشكل واضح، فقد اقترب اليهود والتحموا بجموع الفارين، وسمعت بأذني صوت الجنود اليهود، وهم يصيحون، ويهتفون بالعربية (كاديما كايرو)، أي: تقدموا إلى هناك، وهتافات أخرى ذات طابع بذيء أمسك القلم عن ذكرها.

سحب جنود الجيش إلى أبي عجيلة، وبقينا وحدنا، وقد انهار وانسحب كل من حولنا، وعمد العدو إلى الالتفاف حول مواقعنا بعد أن يئس تمامًا من اختراق الخط الأمامي، وكان واضحًا أن الموقف خطير للغاية، وأن قوتنا هذه صغيرة العدد لن تأتي بنتيجة، وهي بمثابة جزيرة صغيرة وسط محيط، فاتصلت بالقيادات المسئولة سريعًا، وباحثتهم في الموقف، فقرروا إرسال السيارات الكبيرة بما فيها من مدافع وأدوات ثقيلة لتلحق بالجيش؛ حتى لا تقع في يد الأعداء على أن يبقى الإخوان في مواقعهم بأسلحتهم الخفيفة، ويستمروا في المقاومة جهد الطاقة، فإن اضطروا للانسحاب انسحبوا سيرًا على الأقدام عبر المسالك الجبلية.

ومضت السيارات بحمولتها، وبقي الإخوان بأسلحتهم الحقيقية يقاومون، وتجددت الاشتباكات والهجمات، وصمت أحد المدافع الرشاشة، وجاء من يقول: إن المجاهد «علي الفيومي» قد استشهد بعد مقاومة رائعة؛ إذ استطاع جندي يهودي أن يتسلل من خلفه، ويطلق عليه النار، وطفت أمواج اليهود على جثة البطل، فلم يستطع الإخوان استخلاصها، وجرح «علي نعمان» وغيره، وسحب على الفور للخطوط الخلفية، واستمرت المقاومة.

وكنا نأمل من وراء هذه المقاومة الانتحارية إحدى نتيجتين:

الأولى: أن ييأس العدو من إبادة هذه القوة؛ فينقلب راجعًا إلى قواعده.

الثانية: أن ينشغل بنا، فيتأخر عن اللحاق بقوات الجيش المنسحبة، ويستغل فرصة ارتباكها، ويوقع بها مذبحة مريعة، وكنا نأمل في كلتا النتيجتين أن نكبده الخسائر الباهظة، وأن نجعل انتصاره على الأقل فادح الثمن.

لاحظنا أن العدو أخذ يشغل المواقع الأمامية، بينما أخذت قواته تدور يمينًا ويسارًا حول القوة العنيدة، وهنا وبعد محاولة العدو حصارنا -اتضح أن المقاومة لن تكون بعد ذلك إلا ضربًا من الجنون، وأخذنا نقلب الموقف بسرعة، فقررنا الانسحاب إلى خلف تل خلفي على أن يتم ذلك في خفة وحذر، وأطلقت طلقات نارية حمراء من جانب معين كنا قد اتفقنا عليها كإشارة للانسحاب، وبدأ الإخوان ينسحبون بخفة مع ترك بعض القوات للمقاومة، وتغطية انسحابهم حتى إذا اكتمل عددهم، ونقلوا جرحاهم، بدأ الانسحاب سيرًا على الأقدام، وحين ابتعدنا عن المنطقة كان العدو لا يزال يصب سيولاً من نيرانه على التل الذي كانت تصدر منه المقاومة، وحين ابتعدنا عن منطقة الخطر، وأصبحنا في مأمن من مصفحات العدو التي أخذت تجوب المنطقة لتمسك الأسرى، وتجمع الأسلحة؛ انحرفنا إلى الطريق الرئيسي لنرى آثارًا لا تنسى من آثار المعركة، وكم كان أسفنا بالغًا، حينما رأينا في طريقنا عددًا كبيرًا من سيارات الجيش ملقاة على جانبي الطريق، وكانت السيارات جميعًا مشحونة بأنواع الأسلحة والمعدات والبترول، وكانت كلها صالحة للسير إلا

أن الطريق كان مغلقًا من اصطدام وتعطل بعض السيارات، وكان ممكنًا بقليـل مـن التنظـيم أن يفـتح الطريـق إلا أن حالـة الارتبـاك كانـت مـستولية علـى العقـول والأعصاب، وكان كل واحد يريد أن ينجو بنفسه قبل أن يقع في يد العدو.

وعزٌ على الإخوان أن يتركوا هذا العدد الهائل يضيع، ولم يكـن في وسـعهم أن يأخذوا هذه السيارات معهم، فاختاروا أهون الضررين، فدمروا أجهـزة الـسيارات بالقنابـل، وأشـعلوا النـار في خزانـات البـترول حتـى يفوتـوا علـى العـدو فرصـة استعمالها، والاستفادة منها.

اجتاز اليهـود حـدود مـصر الـشرقية، ودخلـوا سـيناء الأرض الـتي تـاه فيهـا أجدادهم أربعين سنة، والتي لا يزالون يحنـون إلى اقتطاعهـا، وضـمها إلى دولـتهم، وكان لقاءً حارًا وصفه لي أحد أعراب قبيلة «التياهـا» البدويـة، وكـان مختبئًـا وراء أحد الجبال، فقال: إنهم -أي: اليهود- ترجلوا من السيارات فوق أحـد مرتفعـات التيه، وأخذوا يقبلون الأرض، ويبكون، ثم قاموا يتعـانقون في ابتهـاج واضـح، ولم يضيعوا الفرصة، فأخذت لجانهم العسكرية تجوس مناطق سيناء، وتدرس منافـذها، وطرق الاقتراب إليها، أما نحن، فقد واصلنا السير إلى أبي عجيلة؛ فوجدناها خالية من الجيش، ولم يكن بها إلا سيارات الإخوان، والتي بعثناها لتنتظر بعيدًا عن ميدان المعركة، ولقد حاولنا إقامة خط دفاعي عن أبي عجيلة، وقـوي هـذا العـزم عنـدي حين جاءت سيارة جيب تحمل أحد الـضباط برتبـة بكباشـي، وكـان يـشرف علـى العمليات في هذه المنطقة، وقال لي: نفـذ مـا تـراه، وسـأبعث إليـك بقـوات كـبيرة لتعاونك في الدفاع عن أبي عجيلة؛ فأخذنا نحتل بعض المواقع الملاصـقة للطـرفين، وانتظرنا طوال ساعة، وأخيرًا جاء لوري محمل بأقفـاص البقـسماط، وأعقبـه ثـاني وثالث، الذي لم يكن يعين على الدفاع.

ولم يكن اليهـود يـضيعون الفرصـة، كمـا ضـيعناها بهـذا العبـث، فلـم تلبـث مصفحاتهم أن ظهرت على مقربة منا بأعداد كبيرة، ووجـدنا أن خـير وسـيلة هـي الذهاب إلى العريش؛ لنكون قريبين من خطوط الإمداد، وركبنا السيارات، ولم نكد

نبتعد قليلاً حتى سمعنا انفجارًا هائلاً، ورأينا سحبًا من الدخان تصل إلى عنان السماء، فعلمنا أن العدو قد دمر جسر أبي عجيلة؛ ليأمن عدم وصول النجدات عن طريق الإسماعيلية، وحين أدركنا مشارف العريش وجدنا قوات كبيرة من الجيش تعمل لتحطيم مواقعها فوق مرتفعات «لحفن»، والمهندسون يعملون بهمة في إقامة المواقع السلكية، وبث الألغام أمام خطوط الدفاع، وكان طبيعيًا أن نشترك في الدفاع عن المنطقة، وأن يسقط فوق كواهلنا أهم أجزاء هذا الدفاع مرة أخرى.

كان لا بدَّ لي من مغادرة العريش إلى غزة، بعد أن بلغتنا أنباء هجمات كبيرة يقوم بها العدو هناك، وتشترك فيها قوات الإخوان الرئيسية، وركبت السيارة، وانطلقت بها إلى رفح، وهناك عرجت على القيادة العامة، فوجدتها مرتبكة لما بلغها من أنباء الحالة، وعلم القائد العام بمجيئي، فطلبني إلى مكتبه، وأخذ يسألني عن الموقف؛ فأخبرته عما حدث، ولم أكتمه رأيي الخاص في قيادة تلك المنطقة، وما كانت عليه من عجز وقصور، وفي انهيار الروح المعنوية في الأفراد انهيارًا يستحيل العمل بهم في أية معركة في هذا الوقت على الأقل، وواصلت سيري إلى المعسكرات حيث القوة الرئيسية للإخوان، فوجدتهم موزعين على طول الجبهة بين غزة ودير البلح وخان يونس.

وقد وصلت وأنا أشعر بالإنهاك الشديد، فحاولت أن أنال قسطًا من الراحة، وما كدت أستقر في أرض المعسكر حتى كانت رئاسة القوات تطلبني في التليفون؛ لتبلغني أن العدو يهاجم العريش، وأن طلائع قواته قد اشتبكت مع مواقعنا الأمامية عند مرتفعات (لحفن)، وأن عليَّ أن أتوجه فورًا لألحق بقوة الإخوان المرابطة هناك، والتي تشترك في الدفاع عن العريش، وعلى الفور قمت لأركب من جديد، وأتوجه إلى العريش حتى وصلتها في صبيحة اليوم التالي، وكانت المعركة قد انتهت لصالحنا منذ الليل، ولقد روى لي «حسن دوح» -قائد الفصيلة- ملخص المعركة، وهي أن قوة من اليهود تتكون من عدة مصفحات ودبابة واحدة من طراز «شيرمان» حاولت اقتحام خط دفاعنا، وكان الإخوان يحتلون الأجزاء الأمامية من

خط الدفاع؛ فاشتبكوا بشدة مع قواته، ورغم سيول النيران التي هطلت على قواته إلا أنهم ثبتوا فيها، ولم يفكروا في التراجع إلى الوراء، وشاء حسن الحظ أن تصيب إحدى طلقات المدافع المضادة الدبابة المهاجمة، وتعطلها عن المضي، ويحاول اليهود إصلاحها، ولكنهم يفشلون في ذلك، فلا يملكون إلا التراجع من حيث أتوا»، انتهى كلام «كامل الشريف» في كتابه.

ولقد أكرمني الله بشهود هذه المعركة، والتي أحسسنا فيها بعودة الروح المعنوية إلى الجنود، أما الذين كانوا يفكرون في التراجع والهرب عند ظهور الدبابة والمصفحات، فلقد أوقفهم المجاهد «أبو الفتوح عفيفي» وثبتهم في أماكنهم، وأطلق فوق رءوسهم طلقات نارية لإرهابهم، فإن عدوى الهرب تسري في الجنود إن لم توقف بحزم، ولقد كان لـ«حسن دوح» و«فوزي فارس»، وكل أفراد الإخوان الدور الكبير في تقوية الروح المعنوية في الجنود، والمرور عليهم، وتذكيرهم بالثبات، وأن من العار عليهم أن يفروا أمام أحقر خلق الله اليهود، ثم تذكيرهم أن الله سينصر المؤمنين في النهاية، ولقد منَّ الله علينا بالنصر في هذه المعركة بعد هذه الانسحابات المتوالية، وكانت هذه المعركة نقطة توقف عندها اليهود، فلم يتقدموا، وبدأنا بعد ذلك في القيام بدوريات استكشافية وقتالية في المناطق التي احتلها اليهود من قبل.

ونعود مرة أخرى لكتاب «كامل الشريف»: «كان واضحًا أن العدو لا يريد احتلال العريش، ولكنه يرمي إلى تثبيت القوات التي بها، ولفت نظر القيادة المصرية إليها حتى يهاجم القاعدة التموينية الرئيسية للجيش، وحيث القيادة العامة للقوات، وكان يريد أيضًا القضاء التام على الروح المعنوية في الشعب والجيش، وكسب دعايات ضخمة لجيش إسرائيل حين يسمع العالم أن الجيش الإسرائيلي يهاجم القوات المصرية في عقر دارها، ولقد قوي عندي هذا الشك حين أرادت الرجوع إلى رفح بعد يومين من هذه الحوادث، فوجدت أن العدو قد سبقني في احتلال نقطة على الطريق الرئيسي حتى يعزل القوات، وفي نفس اليوم كانت رفح

تستهدف لأكبر هجوم خلال تلك الفترة؛ إذ احتل العدو تبة الأسرى، واخترق الأسلاك المحيطة بمعسكر رفح نفسه.

أصبح الموقف في غاية الخطورة فأخذ اليهود يهاجمون القوة الرئيسية التي بها القائد العام وأركان الحرب وحيث القاعدة التموينية الرئيسية للجيش وقواته الأساسية، واستطاع بالفعل اختراق الأسلاك الشائكة المحيطة بمعسكر رفح.

إبراهيم عبد الهادي

ولكن القوات المصرية استطاعت أن تحصره في بعض المواقع، وأن تنزل به هزيمة منكرة تضطرة للانسحاب تاركًا خلفه مئات من القتلى، وأكداس من الأسلحة والعتاد، وإحقاقًا للحق لا يسعني إلا أن أشيد بالجهود التي بذلها اللواء «فؤاد صادق» -القائد العام- في صدّ هذا الهجوم، ولقد حدثني الأخ المجاهد «محمد علي سليم» - وكان يشترك بمجموعة من الإخوان في هذه المعركة- أن القائد العام كان يتنقل معنا بين المواقع يستحثهم على الثبات، ويذكرهم بعظمة التبعة التي ألقيت عليهم، تبعة المحافظة على أرض مصر وكرامة جيشها، ولقد أبدى الضباط من مختلف الرتب في هذه المعركة كثيرًا من الشجاعة والجرأة، وكان لموقفهم هذا أكبر الأثر في ثبات الجنود، ونجاح المعركة، وظلّ الإخوان موزعين على أهم مراكز الجيش يشاركون في الدفاع عن المناطق التي يحتلها، ويقومون بأعمال الدوريات على طول الجبهة، وانتشرت قواتهم في الجنوب -غزة ودير البلح وخان يونس والعريش- أما في غزة، فقد احتلت قوة كبيرة منهم بقيادة الأخوين المجاهدين «عباس فرج» و«السيد الشرقاوي» جزءًا مهمًا من خط الدفاع عن المدينة وضواحيها.

وكان «اللواء محمود فهمي» (قائد المنطقة) -رحمه الله- يعتمد عليهم اعتمادًا خاصًا في الدفاع عن أخطر المناطق، والقيام بالدوريات المقاتلة على طول القطاع،

ورغم اشتداد وطأة الصقيع، وهبوب العواصف الثلجية على الجبهة دون إعطائهم كفايتهم من الوقاية والغطاء، ورغم الأنباء المثيرة التي كانت تتسلل إلى الميدان عن الجرائم الوحشية التي يرتكبها رئيس الوزراء في مصر «إبراهيم عبد الهادي» ضد إخوانهم وأهليهم في أرض الوطن، ورغم كل هذه العوامل ظلوا يقومون بما يوكل إليهم من أعباء دون أن يشغلهم ما يسمعون من أنباء وما يحسون به من برد وإنهاك عن الوقوف بجانب الجيش في هذه الأيام العصيبة، حتى أعلنت الهدنة، وتوقف القتال في جميع الجبهات، وانتهت معركة العريش على الصورة التي ذكرنا، وتراجع اليهود إلى أبي عجيلة، وأخذوا يعبثون في شبه جزيرة سيناء فسادًا، فنسفوا جسر أبي عجيلة الضخم، كما سبق أن ذكرت، ودمروا كثيرًا من القرى المصرية، واستولوا على كلّ ما فيها، واحتلوا المطارات السرية بعد أن وضعوا أيديهم على ما فيها من أسلحة وقنابل.

الشهيد مكاوي محمد مصطفى

بقيت قوة من الإخوان مع الجيش في منطقة العريش بقيادة الأخ المجاهد «حسن دوح»، وكان القائم مقام «سيف الدين بك» -قائد المنطقة في ذلك الحين- يعهد إليهم بأعمال الدوريات في جميع أرجاء الجزيرة، وقد جرح عدد كبير منهم، خاصةً حين وكل إليهم تطهير حقول الألغام التي بثها اليهود في كثير من المناطق، وعلى الطريق الذي يصل العريش بأبي عجيلة.

وكان أبرز ما قام به الإخوان من أعمال خلال تلك الفترة قيامهم بدورية قتال أخذت تجوب أرجاء الجزيرة لتؤمن البلاد، ولتوهم العدو بأن القوات المصرية قد عادت لاحتلال هذه المنطقة من جديد، فقاموا بهذا العمل الخطير خير قيام، ووصلت دورياتهم إلى «القصيمة الحسنة» وحدود فلسطين من جهة النقب الجنوبي.

وقد أصيب أيضًا في هذه الدوريات كثير من الإخوان، واستشهد الأخ الكريم «مكاوي محمد مصطفى»[1] -من إخوان العريش- حين تعرضت لسياراتهم طائرة يهودية مطاردة، واكتسحتها بالنيران، وأطلق الإخوان عليهم نيران مدافعهم الرشاشة غير أن طلقة أصابت المجاهد مكاوي نقل بعدها إلى إحدى المستشفيات حيث أسلم الروح شهيدًا في ٧ يناير ١٩٤٩م، وأخيرًا اضطرت القوات الإسرائيلية للانسحاب من سيناء».

* * *

(١) مكاوي محمد مصطفى: أحد إخوان العريش، واشترك ضمن مجموعة تطهير الألغام، واستشهد إثر تعرض سيارته لقذيفة من طائرة يهودية في ٧ يناير ١٩٤٩م.

الفصل الرابع

محنة الاعتقالات

انتهاء المعارك والاعتقال

بانتهاء المعارك وهدوء الحالة خُيِّر القائد العام للإخوان المسلمين بين البقاء والنزول إلى القاهرة، ورأت القيادة أن من المصلحة الآن البقاء مع نزول الطلبة من المجاهدين؛ حتى لا تضيع عليهم سنة دراسية أخرى، وكنت من ضمن مجموعة الطلبة التي استعدت للسفر إلى القاهرة، وكان معي -على ما أذكر- «صلاح حسين» و«حلمي السيد حنفي» وغيرهم، وتوجهنا لاستقلال القطار المسافر إلى القاهرة، وقد ودعنا إخواننا وداعًا حارًّا مؤثرًا، وركبنا القطار والدموع المكتومة تملأ الجفون، والقلب مملوء بالعواطف المتباينة المتضاربة حزنًا لفراق الميدان وألمًا لما رأيناه ولمسناه من أوامر تصدر من القاهرة ضد مصلحة الجيش العليا، واستنكار لما يحدث لإخواننا في مصر، وفرحة خافتة بلقاء الأهل والأصدقاء، ولكن مشاعر الحزن والألم كانت هي الغالبة.

وصلنا إلى القاهرة في المساء، وكان الجو باردًا، والقاهرة تضج كعادتها، وأصوات الأغاني تتردد عالية من المقاهي والمحلات المتلألئة بالأضواء، أحسست إحساسًا عميقًا بالألم؛ فالناس هنا لا يحسون أبدًا بما فيه الجنود هناك في الميدان من آلام وجراح وتشريد وتقتيل.

رجعت إلى المنزل بعد هذه الغيبة الطويلة، وقلبي مشبع بالحزن العميق، ورغم الفرحة الغامرة والحب المتدفق من أمي وأبي وإخوتي -فرحة أثرت فيَّ كثيرًا- ولكنها لم تستطع أبدًا أن تمحو أحزاني المترسبة في أعماقي.

انتظمت في الدراسة بسهولة، وحاولت أن أنسى أو أتناسى أحزاني بين صفحات كتبي الدراسية، ولكن هيهات، لا أستطيع أن أعي شيئًا مما أقرأ أو أفهم حرفًا واحدًا، فكنت لا أرى في صفحات كتبي إلا الميدان هناك، والجرحى والقتلى يتساقطون حولي، وأصوات الانفجارات، وأزيز الطلقات، وتمنيت حينذاك أن أفوز بالشهادة، ولكن هيهات، ومضت الحياة والجو السياسي في مصر ملبد بالغيوم، وأخبار اعتقالات الإخوان منشورة يوميًا على صفحات الجرائد، وزوار الفجر نسمع عن نشاطهم، ولكن لم يخطر ببالي أبدًا أنهم سيزورني في يوم من الأيام، إلى أن جاءت هذه الليلة: نمت كعادتي متأخرًا، أحاول جاهدًا أن أستوعب دروسي

دون جدوى، واستيقظت فزعًا على أصوات عالية، ودقات مزعجة على الباب، ووجدت الأهل جميعًا يهرعون؛ ليروا سبب هذا الضجيج، وفتح والدي الباب، وأمر والدتي وأختي أن تدخلا حجرتهما، ووقفنا -نحن الأولاد- حول أبي حائرين -أخي «علي»، وأنا، وأخي «عبد العزيز»، وأخي الصغير «محمد»- كانت الطرقات مستمرة بشدة على الباب تكاد تحطمه، وسأل أبي بصوت عال: من بالباب؟ أجابت أصوات غليظة كثيبة: «بوليس، افتح الباب»، ضرب أبي يداه متعجبًا، وتمتم بصوت خفيف: «اللهم اجعله خيرًا»، وأطلت والدتي وأختي والخوف والرعب يملأ عيونهما، وفتح أبي الباب؛ فاندفع جنود وضباط مسلحون ومخبرون يرتدون البلاطي الصفراء وملئوا صالة المنزل، وتصورت أننا في معركة في فلسطين، وأن الجنود يقتحمون مستعمرة يهودية، فلم تكن مجموعة الاقتحام تزيد على خمسة جنود، أما هؤلاء، فيزيدون على عشرة، وبصعوبة استطعت أن أركز، وأن أقتنع أن ما يحدث أمامي الآن ليس هناك في الميدان، ولكنه هنا في مصر وفي بيت مقاتل رجع لتوّه من الميدان، وأن هذا الهجوم المسلح والاقتحام الجريء كان لاعتقال فتى لم يجاوز السابعة عشرة من عمره، ولو حضر إلى منزلي مخبر واحد بورقة صغيرة يستدعيني للشرطة؛ لذهبت وما ترددت، ولوفروا على أنفسهم كل هذا الهجوم الفاشل السخيف على بيوت الناس، وإزعاج الأمهات والأخوات والأهل، سأل الضابط وهو رافع مسدسه: أين عبد الرحمن؟ فأجبته بكلٍّ بساطة: هأنذا، سأله والدي متلهفًا: وماذا تريدون منه، لقد عاد لتوّه من ميدان الحرب في فلسطين، هل هذا ذنبه؟ أطرق الضابط، وقد تأثر بالموقف، ولا بدَّ أنه أحس بالحرج الشديد لكلّ هذه الضجة والسلاح والإزعاج، بسبب هذا الفتى الصغير الذي ما زال أقرانه يلعبون، ويمرحون في الطرقات، قال بصوت متأثر: «إنها أوامر يا والدي، وإنها بعض الأسئلة، ثم يعود إليكم».

هرولت أمي تحتضني باكية بصوت خفيض، فحاولت الابتسام لها لتطمئن، ولكن بدون جدوى، وذهبت لأرتدي ملابسي وإخوتي حولي باكين، والجميع غير مصدقين لما يحدث، كيف ينتزعونني منهم هكذا بدون ذنب؟! لم يخفق قلبي أبدًا بخفقات الخوف أو الجزع، بل ازداد حزني وألمي لما يحدث لوطني ولأبنائه.

قبّلت أبي وأمي وإخوتي بسرعة حتى أنهي الموقف الشديد الألـيم، وحتـى لا أنهار باكيًا بسبب حالتهم البائسة، وتماسكت، وأسرعت مع الضابط والجنود والكل مطرق صامت، فقد انقلب الهجوم والانـدفاع المسلح بـالقبض علـى فتـى صـغير، أخذوه من بين أهله، دون جريرة أو ذنب.

إنهم في حقيقة أمرهم متعاطفون معنا؛ فـإنهم مـصريون مثلنـا، ولكنهـا أوامـر الرؤساء تلقوها من أسيادهم لإفشال حرب فلسطين، والقبض على جماعة الإخوان المسلمين، وغيرهم ممن تطوعوا في هذه الحرب.

الخطوة الأولى في الاعتقال

ركبت عربـة الـشرطة، وأحسـست بمشاعر الجنـود الحقيقيـة: تعـاطف كامـل، وشتائم، وسباب للملـك والحكومـة والنظـام؛ ارتـاح قلـبي قلـيلاً لهـذا التعـاطف، وأحسست أن بلدنا بخير، وأن هؤلاء الجنـود المنفـذين للأوامـر غـير مقتـنعين بهـا، وساخطون عليها، وتوجهت العربة، وقد كانت مكتظة بـبعض الـشباب والـشيوخ، ولم أكن أعرف أحدًا منهم، وساد بيننا صمت مطبق حتى وصلت العربة إلى «قـسم الزيتون»، وكان الظلام ما زال مخيمًا، والبرد شـديدًا، نزلنـا مـن العربـة، وسـجلوا أسماءنا على أننا معتقلون سياسيون، وكان السياسيون في هذا الوقـت لهـم معاملـة خاصة مميزة، فأدخلونـا في غرفـة صـغيرة رطبـة بهـا بعـض الـشباب نـائمين علـى الأرض، استقبلونا، حينما فتح باب الزنزانة الثقيل محـدثًا أصـوات خـشنة بمفتاحـه الغليظ الصدِئ، وتعارفوا علينا، وأفسحوا لنا مكانًا بينهم، ثم عاودوا النوم بسرعة، كما استيقظوا، أما أنا، فلم أذق للنوم طعمًا، وأخذت أتأمل ما حولي، وأسترجع ما حدث، ولا أكاد أفهم له معنى.

كانت الزنازين حولي تفتح كل عدة دقائق، ويلقون فيها نـزيلاً جديـدًا، وكـان بجوار زنزانتي على الجانب الآخر زنزانة خاصة بالنساء، وكانت أصوات صـراخهن وشجارهن يعلو بين الحين والآخر، أما الزنزانة التي على يميني، وكـان يفـصل بـيني وبينها باب مغلق، فكانت كما يبدو للمجـرمين عتـاة الإجـرام، فقـد كنـت أسمـع أصواتًا وشتائم قذرة تنبعث منها وأصوات استغاثة من نزيل جديد يحاول المجرمـون

العتاة تجريده مما يملك أو الاعتداء عليه اعتداءً جنسيًا، ويصرخ ويستغيث ولا مجيب، سمعت ورأيت حولي مجتمعًا غاية في القذارة والدناءة والقبح، ولم أتصور مطلقًا وجود مثل هؤلاء الوحوش ينتسبون إلى البشر، وسمعت طرقات على الباب وصوتًا أجش مخيفًا يقول بلهجة سوقية: «عندك سجاير يابيه؟» فلم أرد عليه، ولكنه كرَّر طرقاته وطلبه قائلاً: «اديني سجاير يا بيه، ما إحنا برضة زمل -يقصد زملاء»، أجبته بلهجة حازمة: «ما فيش سجاير بطَّل خبط»، أجاب بلهجة سوقية ناظرًا من ثقب المفتاح: «ما تشخطش يابيه، ما إحنا كلنا إخوان»؛ قمت إلى الباب، وسددت ثقب المفتاح بورقة حتى سددته، وعدت إلى أفكاري والأصوات القميئة والاستغاثات والصرخات تأتي من هنا وهناك، وسرحت بأفكاري بعيدًا حتى نسيت من حولي وما حولي، سرحت إلى ميدان القتال حيث الحياة التي لها معنى نبيل كريم، ثم عادت بي أفكاري إلى بيتي وأسرتي الطيبة (أبي، وأمي، وإخوتي الأطهار والأبرار)، وجو الأسرة النقي الشريف، ثم سرحت مع أفكاري إلى مدرستي، وأترابي، وأصدقائي، والأساتذة الأفاضل، والمعاني الكريمة النبيلة التي يلقنونا إياها، ثم عادت بي أفكاري فجأة إلى هذا المكان القذر، الموبوء، الذي ألقيت فيه، وانتزعت من مجتمعي وأسرتي ومدرستي، لِمَ كل هذا؟ ولماذا يحدث؟ وهل جنيت ما يبرر إلقائي في السجن؟

كل هذه الأسئلة تدور في فكري، وانتزعني من أفكاري المتلاحقة صوت عذب رحيم أتى معلنًا أذان الفجر من مسجد قريب، وبدأ الزملاء حولي يستيقظون على صوت الأذان يدقون على باب الزنزانة يطلبون السماح لهم بالوضوء للصلاة، فتوضأت معهم، وصلينا الفجر جماعة، وكان إمامنا شيخ وقور حسن الصوت، فكانت هذه الصلاة بلسمًا شافيًا أعادني إلى هدوء النفس، وطمئنة قلبي الملتاع، وأعطتني الإجابة على كثير من أسئلتي الحائرة، وأيقنت أن ما يحدث الآن هو تكملة للحلقة السابقة التي حدثت في فلسطين، وإنها إجهاض لهذه الحرب المقدسة، وتسليم فلسطين لقمة سائغة لليهود، واضطهاد وسجن كل من اشترك في هذه الحرب، إنه صراع أبدي بين الباطل والحق، نزل هذا الفكر بردًا وسلامًا على قلبي، وسكنت نفسي، وارتاح ضميري، ورحت في نوم عميق نسيت فيه كل من حولي.

استمر بنا الحال في قسم الزيتون أيامًا ثلاثة، استطعت خلالها الاتصال بمنزلي

عن طريق بعض الجنود لإحضار ملابس ثقيلة تناسب البرد القاسي، وبدأت أتعرَّف على زملاء الحجرة، وكانوا جميعًا من الإخوان المسلمين -مجموعة متفاوتة من الأعمار، ما بين الشباب، والكهولة، ومختلفة المشارب والثقافات، وما بين عامل بسيط، وأستاذ جامعي يحمل الدكتوراه، وكان الجميع يجمعهم رباط وثيق من الأخوة الصادقة والألفة والود، أحسست بينهم كأننا أسرة واحدة أعادتني قلوبهم الصافية وكلماتهم الوديعة المطمئنة إلى هدوء نفسي، وأحسست أن الدنيا ما زال بها الخير، كما أن بها الشر والإجرام، والذي يتمثل في هذه الحجرات التي حولنا ذات اليمين وذات اليسار، وكان الجميع يتحدثون بكلِّ صدق وبساطة، ولا ينكرون أبدًا أنهم من الإخوان، وأخذ شابٌّ متحمس يقرأ في رسالة للأستاذ حسن البنا - كان قد أخفاها في جيبه- أخذ يقرأ لنا منها مقتطفات تحمل معنى أن يتوقع أصحاب الدعوات الحقة الاضطهاد، والتشريد، والاعتقال، ومصادرة الحرية والأرزاق، وأن تلصق بهم التهم الباطلة ظلمًا وعدوانًا، ويتعاون عليهم أعداء الإسلام من مستعمرين وحكام، ولكن الله وعدهم بعد ذلك المثوبة والنصر؛ إن ثبتوا وصبروا على الحقّ، نفس المعاني والكلمات التي سمعتها من زميلي «سيد عيد»؛ عندما اجتمع بنا اللواء «فؤاد صادق» في فلسطين، وها هي الأيام تحقق نبوءة هذا العالم الفذ، إنها ليست نبوءة، ولكنها سُنة الدعوات منذ رسول الإسلام العظيم ﷺ.

الإمام الشهيد حسن البنا

فجعنا بنبأ اغتيال الشهيد «حسن البنا»، فقد جاءنا الخبر متسربًا عن طريق بعض الزيارات، ولم نكن متأكدين أبدًا من صحة هذا الخبر السيئ، ونحاول الا نصدقه؛ لأنها ستكون فاجعة كبرى لو صحت، فلقد رفضوا اعتقاله ليتمكنوا من مؤامراتهم، فإن هذا الرجل فلتة من فلتات الزمان قلما يجود بمثله، وإن الاستعمار وأعوانهم لا يبقون مثل هذا الرجل حيًا؛ لأنه يستطيع أن يفعل الكثير، ويغيِّر الكثير، ووجوده خطر عليهم، وتأكد لنا خبر استشهاد «حسن البنا»، فقد قتل برصاص غادر أمام «جمعية الشبان المسلمين»، وتركوه ينزف دمًا في «القصر العيني»؛ حتى فارق الحياة، ها هي

مؤامرتهم تكتمل فصولها، ولكن هل استشهاد حسن البنا، ذلك القائد الفذ، سيوقف مسيرة الحق؟ لا، والله، إن مسيرة الحق والخير لن تتوقف أبدًا، ولا بدَّ من الاستمرار.

سادنا يوم من الحزن الشديد والألم، ولكننا تغلبنا عليه باللجوء إلى قراءة القرآن، والتأسي بسيرة الصحابة العظام.

إلى معتقل الهايكستب

بينما نحن في أحزاننا وحوارنا، فتح باب الزنزانة، ونودي علينا للاستعداد للترحيل إلى المعتقل، وسألنا الجنود، فأخبرونا بهمس أننا سنرحل إلى «معتقل الهايكستب» -وهو معسكر من معسكرات الجيش الإنجليزي، قد أجلوا عنه إلى معسكرات حول قناة السويس، وركبنا العربات، وسرنا في شوارع الزيتون، واتجهت بنا السيارات إلى «مصر الجديدة»، وتعالت هتافات شباب الإخوان متحدين حراسهم قائلين: «الله أكبر ولله الحمد، القرآن دستورنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا»، وأخذ الأهالي يصفقون.

يا لطيبة شعبنا المصري! فقلوبهم مع المظلومين، ولكنهم لا يزيدون على التأييد الكلامي أو النكات اللاذعة على الحكام.. إن تأييدهم سلبي، ولكن يكفينا منهم هذا، فهو شعور بأنهم يفهمون كل ما يدور حولهم، ويحسون بالظلم، ويكرهون الظالم، ويدعون للمظلوم بكلِّ قلوبهم، وأخيرًا وصلت السيارات إلى «معتقل الهايكستب»، ووقفت، ونزلنا منها، واستقبلنا زملاؤنا الذين سبقونا بأناشيد رائعة تتحدث عن الثبات والصبر والإيمان، وتعانق الإخوة والأصدقاء، فقد كانوا يعرفون بعضهم البعض من قبل، أما أنا، فأخذت أتفحص الجميع؛ لعلي أعرف أحدًا منهم، ولكن للأسف الشديد لم أعثر على أحد أعرفه قط، مكثت وحيدًا للحظات، ثم أقبل بعض الشباب يحملون عني ملابسي البسيطة، ويختارون لي مكانًا مناسبًا، وسريرًا نظيفًا، ومنضدة، وكرسي في ركن هادئ، ويقولون لي: هذا مكانك، ويتناسب معك كطالب لتستطيع المذاكرة، وأخذوا يتعرفون عليَّ، ويعرفونني بأنفسهم، فقد كانوا جميعًا طلبة في سني تقريبًا، أذكر منهم: «محمد المنياوي»، و«أحمد جنينة»، وكثيرين آخرين.

لم أشعر أبدًا بالوحدة؛ فقد أحاطوا بي بروح مرحة طيبة، أنسوني أنني وحيد، لا أعرف أحدًا، وأحسست أنني وجدت أسرتي وإخوتي، وأن هذه الجماعة قد ربَّت الشباب، وهذَّبت الأخلاق، وقوَّمت النفوس.

مضت الأيام هادئة، ولكنها مملوءة بالنشاط والدراسة، رغم أننا في معتقل وبعيدون عن الأهل والأحباب، وفقدنا الحرية التي هي من أثمن هبات الله ﷻ، ولكن أيامنا كانت -رغم ذلك- رائعة نبدأ يومنا بصلاة الفجر جماعة، ثم حديث روحي متجدد، رائع، دسم، يغذي الروح والقلب، ويجدد الأمل، ويلهم الصبر، ثم يبدأ بالنشاط الرياضي من طوابير الألعاب إلى كرة السلة، والراكت، وكرة القدم، والحبل، وكل الألعاب الرياضية، كل حسب رغبته وسنه، وكنا نقضي حوالي ساعتين في اللعب، ثم نستحم، ثم الإفطار مع الزملاء والإخوة الأعزاء، وكنا مجموعة من الشباب صغار السن، فقد كان سني في ذلك الوقت ١٨ سنة، وكان أترابي حول هذا السن، وكانوا لي كالأهل والإخوة، وكنا نمضي أوقاتنا في استماع المحاضرات عادة على مدار اليوم؛ حيث إنها كانت تجمع بين العلم، والتاريخ، والميكانيكا، والرياضة، والعلوم، وهي حلقات على مدار اليوم.

الشيخ السيد سابق

كنت حينذاك صغيرًا لا علم عندي إلا بكتبي الدراسية، وكنت ما زلت في السنة الثالثة من المرحلة الثانوية؛ فكنت أحس بالسعادة الكبيرة لكلِّ هذه المعلومات من كلِّ جانب، ومن أساتذة وعلماء متخصصين، ثم يأتي موعد الغداء، وهو طعام جيد يحضره متعهد اسمه «سمسم حمزة» -ولقد كان للمسجون السياسي في هذه الأيام تقدير واحترام من حيث المكان الصحي، والطعام الجيد، والملابس الخاصة، والكتب، والأوراق، والأقلام، والمعاملة المتميزة من الضباط والجنود- ثم يأتي وقت القيلولة بعد صلاة الظهر جماعة، ودرس خفيف من دروس الفقه حوالي نصف الساعة، ثم تبدأ المباريات الرياضية من كرة قدم، وسلة، وبنج بونج، وخلافه لمن يعشق الرياضة، أما أنا وبعض أترابي من الإخوة الشباب، فقد كان يحلو لنا المشي، والحديث في شتى

نواحي الحياة، والنقاش في كلّ الأمور، وكانت الحياة رغم الاعتقال مملوءة بالحيوية، وكانت بالنسبة لي مجهولات عجيبة اكتشفها بالبهجة والفرح، ومعلومات وأسرار أسعد كثيرًا بمعرفتها، وكان صمتي أكثر من كلامي؛ لأنني أعشق المعرفة، وكنت سعيد الحظ؛ لأنني كنت في صحبة علماء أفذاذ، أمثال: «الشيخ محمد الغزالي»، و«الشيخ سيد سابق»، و«الشيخ عبد المنعم النمر»، و«عمر التلمساني»، و«السيد حامد أبي النصر»، وعشرات من الشباب يتفجر منهم نبوغ مبكر، وعلم غزير، رغم صغر سنهم.

الشيخ محمد الغزالي

ومضت أيام الاعتقال هادئة زاخرة، وازدحم «معتقل الهايكستب» بأفواج جديدة من الشباب، وكانت فرحة كبيرة باللقاء بعكس ما يتوقع من اعتقالات، فازداد التعارف والتآلف والتآخي والترابط، ولو علموا بهذا لما فكروا أبدًا في اعتقال أو سجن أصحاب العقائد والأفكار؛ فإن تجمعهم يزيدهم ويقويهم.

في معتقل الطور

سمعنا أخبار من ضباط الحرس أن هناك ترحيلاً لأفواج المعتقلين إلى «معتقل الطور» في جنوب سيناء، وانتظرنا أيامًا نستعد لهذا الرحيل بشوق؛ لأننا سنرى جبل الطور الذي كلّم موسى ﷺ من عليه الله ﷻ.

وفي الصباح الباكر جاءت سيارة ضخمة، ونادوا على أسماء المرحلين إلى الطور، ولفرط سعادتي سمعت اسمي بين المرحلين، واستعددنا للرحيل، وودعنا من تركناهم بعيون دامعة وقلوب مشتاقة، فقد ربط الحب الإلهي بين قلوبنا برباط وثيق لا ينفرط أبدًا، وركبنا السيارات الضخمة المكشوفة، ومعنا أمتعتنا القليلة، والهتافات تدوي، والأناشيد تتردد في هذه الصحراء المترامية «صحراء الهايكستب»، وتحركت السيارات بنا إلى المجهول، إلى «معتقل الطور»، ووصلنا إلى محطة مصر، وركبنا القطار المتجه إلى السويس، وكان استقبال الناس لنا جميلاً، وتجمع أهالي

المعتقلين في محطة مصر لتوديع ذويهم. بحثت بعيون متشوقة؛ لعلي أجد أحدًا من أهلي، ولكن للأسف لم أجد أحدًا أعرفه، وتحرَّك القطار بمئات من الشباب، شباب مصر المتفتح لينفوا بعيدًا هناك في صحراء سيناء في جبل الطور، ووصلنا إلى السويس، ثم إلى الميناء، وانتقلنا من السيارات إلى سفينة متوسطة، وحولنا الحرس المدجج بالسلاح، وملأنا ظهر السفينة، وكان الجو باردًا، ونصحنا الأطباء المعتقلون معنا بألا نتناول طعامًا كثيرًا خشية دوار البحر، وانطلقت صفارة السفينة، وأخذ صداها الضخم يتردد، وقد كنت أرى حولي شيئًا رائعًا: البحر العظيم المترامي، والشمس الرائعة بلونها الوردي الجميل، وهي تغوص في مياه البحر الصافي، ثم هذه السفينة كسفينة نوح، وهي في خيالي الخصب حينذاك، وهذه الرحلة إلى المجهول، كل هذه الأمور جعلت قلبي يخفق بالفرحة والشوق، فلم يكن قلبي يعرف الخوف أو الحزن أو القلق -حتى ذلك الحين، وانسابت السفينة بهدوء ورفق، ورويدًا رويدًا ابتعد الشاطئ عنا، وأصبحنا في أعماق خليج السويس متجهين إلى الطور، وبدأ الظلام يخيم على المكان إلا من أضواء النجوم المتلألئة في السماء، وأضواء خافتة بعيدة، لعلها لسفن رائحة أو غادية.

أخذت مكاني وسط كومة من الحبال ملفوفة كدائرة كبيرة عالية.. إنه مكان مريح وأخذت أتأمل السماء، وأتذكر تلك الآيات التي قرأتها في كتاب الله الكريم عن قصة نبي الله موسى ﷺ، وكيف اختار الله له ذلك المكان الطاهر في تلك الصحراء، وذلك الجبل، جبل الطور، والذي كلَّم الله ﷻ فيه نبيَّه.. تُرى، أسنذهب إلى هذا المكان العظيم؟ مما أسعدني بهذه الرحلة، وملأ قلبي بالفرح والسرور والسكينة والهدوء، وكانت أصوات ماكينة السفينة تدوي برتابة، وتشع حرارة ودفء في المكان حولي.

ومضت الرحلة هادئةً، ولم أستطع النوم في مكاني هذا، أو أنني لم أرغب في النوم أبدًا حتى لا أحرم نفسي من هذه الخلوة الرائعة، ومع نفسي ومع النجوم ومع السماء ومع رب النجوم والسماء، وهذا الخلق البديع جميعًا، وبينما أنا سارح في

تأملاتي وأفكاري، إذا بي أحس أن السفينة تهتز اهتزازات شديدة، وعلت أصوات ماكيناتها لتعطيها قوة أكثر على مواجهة الأمواج المتلاطمة، وبدأت تحركات سريعة من البحارة على ظهر السفينة، وسمعت أحد البحار يجيب على سؤال أحد المعتقلين عن أسباب هذه الهزات الشديدة، قائلاً: إننا الآن في دوامة ضخمة اسمها «بركة فرعون»، ويقال: هذا هو المكان الذي غرق فيه فرعون مصر، واستمرت السفينة تقاوم الدوامة الضخمة بقوتها الهائلة حتى خرجنا منها سالمين، بفضل الله، ولكن آثارها ظهرت على جميع الركاب حتى الجنود الحراس، فقد بدأ دور البحر يظهر بأعراضه الشديدة، مثل القيء والصداع وآلام شديدة في المعدة، ورأيت الحراس في حالة شديدة من الدوار، وقد ألقوا أسلحتهم، وانتابتهم حالة شديدة من القيء، ويبدو أنهم قد أفرطوا في الطعام، وقد سمعت نصائح الأطباء بعدم تناول الطعام، وقد خفف ذلك بعض الآلام عني، ومرت ساعة أو ساعتين، وعاد الحال إلى ما كنا عليه، وزال الدوار عنا مع بزوغ الفجر، وقد صلينا الفجر، ونحن متهالكون.

وعند طلوع الشمس، وهدوء البحر، واستقرار السفينة -عدنا إلى طبيعتنا، وإلى صحتنا، بفضل الله، ما أروع منظر البحر الممتد الهادئ، وضوء الشمس يملأ الدنيا بضيائه، وتغلل ذلك الضياء في صفحات المياة المتلألئة، إنه منظر بديع لا ينسى أبدًا، وقد أعاد إلينا العافية، وانتعشت نفوسنا بالأمل.

بدأت الحياة تدب في السفينة، والجميع يستعدون لرؤية الأرض المقدسة، وصاح أحد الشباب، وقد رأى البر، واتجهت أنظارنا جميعًا لنرى شاطئ الطور المقدس، ورويدًا رويدًا بدأت الرؤية في الوضوح حتى وصلنا أخيرًا إلى طور سيناء، والتي ذكرت في القرآن الكريم، وتساءلت: ترى، هل نلت شرف المثول في هذا المكان المقدس الطاهر الذي سعد فيه نبي الله موسى عليه السلام بخطاب ربه ورب الأكوان جميعًا؟ وأخيرًا، رست السفينة، وقد غمرت الفرحة نفوسنا، رغم الأسر الذي نحن فيه، ورغم وجود الحرس بالسلاح حولنا، وتعلمت درسًا من دروس حياتي، وهو

أن سعادة القلب تكون بصلة الإنسان بربه ورضائه بقضائه وقدره، وليس لها صلة بمظاهر هذه الحياة من حرب أو أسر أو فقر أو غنى، بل السعادة الحقيقية بالرضا بكلّ ما يأتي به الله، والشكر في السراء والضراء.

وكانت هناك كشوف معدة من قبل بأسماء كل مجموعة لتسكن سويًا في كلّ عنبر من عنابر معتقل الطور، وكانوا يسمون كل عنبر (حذاء)، وقد يكون المقصود بذلك أنها مبانٍ متحاذية.

المهم أن المكان كان مجهزًا للحجاج يقضون فيه فترة طيبة قبل دخولهم وادي النيل، فكان الحجاج يقضون أسبوعًا كاملاً فيه، ثم تنقلهم البواخر إلى السويس، ثم باقي البلاد، وكان قدري أن أسكن في حذاء رقم (٣)، وتعرفت على مجموعة جديدة من الإخوة الأفاضل الكرام.

أخذت أتجول في المكان، وهو عبارة عن عنبر ضخم، مقسم إلى حجرات كبيرة، تسع الغرفة حوالي عشرين سريرًا خشبيًا بسيطًا، وحول هذا البناء الضخم فناء كبير يصلح ملعبًا للكرة، والبناء والفناء محاطان بسور من الأسلاك الشائكة، وهناك حوالي سبعة عنابر كبيرة، أما دورات المياه، فهي في ركن خارج المبنى، والمكان فسيح وصحي والجو رائع، والهواء نقي، وبدأنا مزاولة النشاط الرياضي من طوابير الجري والألعاب السويدية، من صلاة الفجر وحتى الساعة السابعة تقريبًا، حيث يكون الإفطار الساخن معدًا، وغالبًا ما يكون الفول أو العدس ساخنًا نظيفًا ومعدًا إعدادًا جيدًا، فقد تولى أمور المطبخ والطعام متطوعون من الإخوة المعتقلين؛ حتى نضمن النظافة، وجودة الطعام، ثم نقضي بقية اليوم بين المحاضرات والرياضة وحفلات السمر والمباريات والندوات الأدبية، فاليوم حافل بكلّ جديد ومفيد، فلا وقت ضائعًا أبدًا؛ فكل همنا هو الاستزادة من العلم والمعرفة؛ حتى نغذي عقولنا، ومن الرياضة البدنية حتى نبني أجسادنا، وكان الكثير منشغلاً في حفظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

وقد كنت كالنحلة أرشف من كلّ هذا الرحيق، فقد كنت متعطشًا إلى العلم

والمعرفة من كلِّ ندوة تقام أو محاضرة تلقى أو جلسة علم أو فقه يدرس في حلقات، وكانت أجمل المحاضرات عندي هي محاضرة سيرة النبي -عليه الصلاة والسلام؛ فقد كانت تشدني جدًّا، فحياة الرسول العظيم ﷺ حافلة بكلِّ العظمة والروعة والتضحية والصبر والعطاء والسمو الخلقي، ولقد شجعتني هذه المحاضرات والندوات على القراءة، وكانت الكتب متوفرة لدى بعض الإخوة، فكنت أستعير الكتاب، وكان لا يمكث معي غير يومين أو ثلاثة، ثم آخذ غيره، وأحسست أنني كنت في حاجة ماسة إلى المعرفة، وأنني لا أشبع منها أبدًا أو أمل من الاغتراف من هذا البحر العذب، وكلما نهلت من فيض هذه الكتب أحس بالظمأ أكثر إلى مزيد من المعرفة، وبدأ صمتي يقل، وأخذت أناقش بعض الإخوة الأكثر مني علمًا مستفسرًا وطالبًا توضيح بعض الأمور المبهمة أو المسائل الغامضة في قراءتي، وأحسست أن الإنسان بدون معرفة كالحيوان سواء، فلقد كرَّم الله الإنسان على سائر المخلوقات بالعقل، والعقل زاده المعرفة، والمعرفة بابها القراءة ومجالسة العلماء، وكلُّ هذا متوفر هنا في هذا المكان، والوقت متسع، والعلماء موجودون، والرغبة عندي شديدة في المعرفة.

لم أحس أبدًا بلحظة فراغ أو سأم أو ملل، بل كنت أتمنى أن يطول النهار أكثر حتى أستزيد من العلم أكثر وأكثر، واستمعت إلى محاضرة أحد الضباط المعتقلين حلل فيها الموقف السياسي التي تمر به البلاد من كبت للحرية والاعتقالات وحل جماعة الإخوان المسلمين والجو الإرهابي الذي تعيش فيه البلاد، وقد ربط كل ذلك بالأحداث العسكرية والحرب الفلسطينية والأخطاء العسكرية الفادحة والمقصودة، بالإضافة إلى الأسلحة الفاسدة التي أضعفت الروح المعنوية للجنود والضباط، إلى جانب قبول الهدنة الأخيرة وصلح رودس، كل ذلك تمَّ بعد حل جماعة الإخوان، وحصار كتائبها التي كانت تحارب في فلسطين جنبًا إلى جنب مع قوات الجيش المصري والجيش الأردني في الشمال والجنوب، وإجبارها في النهاية على تسليم أسلحتها، ثم منع «حسن البنا» -رحمه الله- من الحضور بنفسه مع جيش من المتطوعين والفدائيين، والتي كانت العمليات حينذاك في أشد الحاجة إليهم، وربط

المحاضر بين كلّ هـذه الأمـور، وأدان الحكومـة الـسعدية برئاسـة «النقراشـي»، ثـم «إبراهيم عبد الهادي»، ورضوخهم لضغوط الإنجليـز، وقبـول كـل هـذه الخيانـات لزرع دولة إسرائيل في قلب الأمة العربية.

استمعت إلى هذه المحاضرة، والـتي دامـت أكثـر مـن سـاعتين، وكنـت في غايـة الذهول من هول ما أسمع، لقـد كنـت أحـارب، وأرى حـولي أشـياء لا أجـد لهـا تفسيرًا، ولكن هذه المحاضرة استدعت في عقلي كل هذه الأفكار والأمور التي كثيرًا ما حيرتني، وأخذت الصورة تتضح، ولكنني -في الحقيقة- كنت بين مـصدق وغـير مصدق، وبعد المحاضرة أخذت أوجه كـثيرًا مـن الأسـئلة والاستفـسارات إلى الأخ المحاضـر، وصـبر علـى أسـئلتي كـثيرًا، وأحـضر لـي بعـض المجلـدات الإنجليزيـة والأمريكية، وكانت تحمل أسرارًا كثيرة توضح هذه المؤامرة بكلّ أبعادها، فهناك في الغرب لا يخفون الحقائق على جماهيرهم، وسألته: وكيف ينـشرون هـذه الأسـرار، والتي لا بدّ أن نقرأها ونعلمها؟ قال لي ضاحكًا: إنهم يعلمون، ويقولون دائمًا عنا: إننا شعوب جاهلة لا تقرأ، وبعد أن ترجم لي هذه المقـالات، وربطتهـا بالأحـداث التي عشتها وأعيشها؛ بدأت أنتبـه لهـول الـصورة وفـداحتها، وتأكـدت أن الحـرب الصليبية لم تنته بعد، بل دخـل فيهـا أيـضًا تحـالف جديـد بـين الـصليبيين القـدماء وحلفائهم اليهود، وتجددت الحرب الضروس، ولكن بأسلوب آخر جديد بواسـطة حكام أتوا بهم؛ ليحطمونا من داخلنا بعد أن تولوا هـم تحطيمنـا وتقـسيمنا شـعوبًا وأممًا بعد إسقاط الخلافة الإسلامية، والتي حاولوا تدريسها لنا في مدارسنا على أنها عدوة للعـرب، ومـستعمرة لهـم، وصـدق الكـثير منـا ذلـك. والآن وبعـد إسـقاط الخلافة، والتي تجمعت أوربا جميعًا لحربها وإسقاطها؛ عمل الـصليبيون الجـدد علـى إقامة دولة لليهود على حساب فلسطين الذبيحة، والتي ما زالت تنـزف دمًـا، ومـن يدافعون عنها ملقون في السجون والمعتقلات.

مضت الأيام، وزادت قراءتي ومناقشاتي وحضوري المحاضـرات والمنـاظرات؛ لأنني تيقنت أن أعداءنا يعتمدون على جهلنا، مع أن ديننا هو دين العلـم والمعرفـة،

وأن أول الآيات الكريمة تقول: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وتدعو إلى القراءة والمعرفة، ولقد كان كل همي في هذه الأيام هو الاغتراف من العلم والمعرفة والنقاش مع كلٍّ من له دراية أو علم، وكنت أسمع أكثر مما أتكلم، وإذا تكلمت، فهو سؤال لاستيضاح معنى أو فكرة، وكنت أتعلم من الصغير والكبير، فكل إنسان عنده تفوق في ناحية من النواحي، والعاقل من يأخذ، ويتعلم من كل إنسان أحسن ما فيه، ويترك ما يراه سيئًا أو غير حسن، وبذلك يستطيع الإنسان أن يعلم نفسه بنفسه، فالاحتكاك بالناس أعظم معلم، فما بالك بمعرفة الفضلاء من الناس، فقد كنت أعتبر نفسي تلميذًا صغيرًا متشوقًا للعلم والمعرفة.

في معتقل أبي قير

كانت أيام ما أروعها وأحلاها! تتفتح أمام عيني أبواب كلها نور، وفي شهر مايو، وهو موعد الامتحانات، وبعد أن تقدمنا -نحن الطلبة- مطالبين بالموافقة على امتحاناتنا -وقد كنت حينذاك في الثانوية- جاءت الموافقة، وعلمنا أن الامتحان سيكون في الإسكندرية بمنطقة «أبي قير» أو «معتقل أبي قير»، ودعنا إخواننا الأعزاء بعد أن قضينا معهم أروع أيام، ولقد كانت منعطفًا مهمًا بالنسبة لي؛ فلم أكن في يوم من الأيام منتظمًا في جماعة الإخوان المسلمين، ولكن ظروف حرب فلسطين، ثم المعتقل -عرفتني بهؤلاء الرجال والشباب الفضلاء، وعلمت بالتجربة ومعيشة الأيام والشهور أن هؤلاء هم خير من رأيت من رجال وشباب، فهم صادقون مؤمنون مخلصون؛ فأحببتهم من أعماق قلبي، واحترمتهم بكلِّ عقلي، وتمنيت أن أكون منهم، وقد هيئت نفسي لأن أقترب منهم أكثر وأكثر، قال الشاعر:

فَتَشَبَّهُوا إنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ   إنَّ التَّشَبُّهَ بِالرِّجَالِ فَلاحُ

وجاءت العربات لتحمل الطلاب أمثالي ليؤدوا امتحاناتهم في معتقل «أبي قير»، وقد كانت رحلة جميلة، حملنا معنا كتبنا الدراسية، وأخذنا نراجعها، ووصلنا

إلى معتقل «أبي قير» بالإسكندرية؛ حيث وجدنا غرفًا واسعة فسيحة، وحديقة محيطة بالمباني، ويبدو أنه كان استراحة لضباط الإنجليز قبل جلائهم إلى منطقة قناة السويس، ولقد أعدوا لنا مكانًا لكي نؤدي الامتحان فيه، وأتوا بأساتذة من مدارس الإسكندرية وجامعتها لامتحان الطلاب المعتقلين، وإنني إذ أسجل هذه الحقائق والاهتمام بشئون المعتقلين وتعليمهم وامتحاناتهم ومعاملاتهم -لم أكن أتصور، وكان ذلك في عالم الغيب، أن تكون المعاملة عكس ذلك تمامًا في عهد الثورة المباركة، فقد اعتقلت مرة أخرى عام ١٩٥٤م، ومكثت في السجن ١٤ عامًا، لاقيت فيها الأمرين من سوء المعاملة، مما سيأتي الحديث عنه في حينه.

دخلت لجنة الامتحانات، والتي عقدت خصيصًا للطلبة، ولم نر الحرس حولنا، بل سحبوا الحرس حتى نشعر بجو من الاطمئنان، وفعلاً أحسسنا وكأننا في مدارسنا، ولقينا من الأساتذة المراقبين كل اهتمام وتقدير لظروفنا الصعبة، وحاولوا بكلِّ الوسائل مساعدتنا بوجوههم الباشة، وبتوضيح أي سؤال غامض، وبإعطائنا وقتًا إضافيًا، وانتهت الامتحانات، ومكثنا عدة أيام في الإسكندرية، ثم رحلنا إلى «معتقل الهايكستب».

محمود فهمي النقراشي

كانت الأحداث السياسية تمر مسرعة متلاحقة، وكانت الجرائد تصل إلينا بانتظام، وكنا نقرأ عن حوادث مقاومة من الإخوان ضد الحكومة القائمة، فقد أطلق شاب يرتدي ملابس الضباط النار على رئيس الوزراء، الذي حل جماعة الإخوان، وأصدر الأمر باعتقالهم، وهو «محمود فهمي النقراشي»، والذي تمَّ على يديه وأد القضية الفلسطينية، والاعتراف بإسرائيل كدولة، ثم تلاه في رئاسة الوزارة «إبراهيم عبد الهادي»، والذي زاد من حملته الإرهابية، واعتقل المئات من الإخوان، وبدأ في عهده تعذيب

المسجونين السياسيين في القضايا كقضية السيارة الجيب وقضايا الأوكار وهي الشقق والمنازل التي كان يختبئ فيها أفراد تنظيم الإخوان السري من الحكومة، وقرأنا خبر الكمين الذي أعده هذا الجهاز السري لاغتيال «إبراهيم عبد الهادي»، ولكنه تخلف في آخر لحظة، ونجا من الكمين، ووقع فيه «حامد جودة» -رئيس مجلس النواب الصوري، وحوادث كثيرة مدوية عاشت فيها البلاد، وفوجئنا بقرار ملكي يعلن فيه «الملك فاروق» أنه سيقدم هدية إلى الشعب بمناسبة العيد، وهذه الهدية هي إقالة وزارة «إبراهيم عبد الهادي»، وإلغاء الأحكام العرفية، والإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين، فلقد أحس الملك أن الشعب يكاد ينفجر، فأسرع بهذا القرار، والذي لاقى فرحة كبيرة بيننا -نحن المعتقلين- وبين أهالينا وأقربائنا والشعب المصري جميعًا، فقد أنهى هذا القرار كل مظاهر العنف والاعتقال، وسادت البلاد موجة من السعادة والفرح.

أما نحن هنا في المعتقل، فكانت فرحتنا غامرة -رغم أننا لم نكن تعساء أو متألمين- ولكن لأول مرة نحس أن للحرية فرحة لا مثيل لها، وأن حرية الإنسان هي من أعظم النعم التي وهبها الله للإنسان بعد الإيمان، وصدق عمر ﷺ عندما قال لعمرو بن العاص: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

الإفراج ورحيل الوالد والعمل الدعوي

خرجنا للحرية، وما أروع الحرية لمن ذاق الاعتقال والسجن! شعور لا يمكن أن يوصف، يكاد الإنسان يطير من فرط السعادة، واستقبلنا من الأهل والجيران والأصدقاء أروع استقبال، وخاصة من الوالد الغالي الحبيب، والوالدة الحنونة العطوفة، وإخوتي الأعزاء، وكانت فرحة الجميع غامرة، ولم تمهلنا أيام السعادة لنستمتع بها، ولكننا فوجئنا بوفاة الوالد الغالي الحبيب الحنون بعد مرض قصير، استمر حوالي ثلاثة أيام، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها أمامنا، ونحن نتقطع

من الحزن غير مصدقين، ولقد كانت أول مرة أجرب نيران فراق حبيب غال، ورجل نادر كله حنو وعطف وحب، ولقد كتب عشرات القصائد الشعرية فيَّ وأنا في المعتقل تدلُّ على عواطفه الجياشة وحبه النادر.

مرت الأيام وقلبي به غصة؛ فقد فقدت أعز حبيب وغال، ولقد كان في أيامه الأخيرة يعاملني كصديق، ويقرأ عليَّ شعره، ويأخذ رأيي فيه، وتذكرنا قراءته للقرآن بصوت مرتفع كل يوم مرتلاً بصوت جميل ليوقظنا لصلاة الفجر، لقد فقدنا كل هذا في غفلة من الزمن، وأصبحنا بلا سند، ولكن الأم العظيمة تولت المسئولية الكاملة بكلِّ كفاءةٍ، ولقد كان لشقيقي «عليٌّ» دور كبير في مساعدتها؛ فقد حرص على أن يعمل ليساعدها، وفي نفس الوقت انتسب إلى كلية التجارة، وكان المعاش الضئيل بالإضافة إلى مرتب أخي «عليٌّ» كافيًا.

عبد العزيز حسن

لم نحس أبدًا أنه ينقصنا اي شيء عن غيرنا.. ما أعظمك يا أمي الغالية! وما أروعك! فقد أعدت قيدي في المدرسة الثانوية «القبة الثانوية»، ونسيت أن أذكر أنني أديت الامتحان في المعتقل بلجنة خاصة، امتحنت فيها من السنة الثالثة الثانوية إلى الرابعة، وقضيت سنة دراسية كاملة، وأنا أحس إحساسًا غريبًا مختلفًا؛ فالجو حولي طفولي أحسست خلاله لأول مرة بالغربة الشديدة عن جو الطلبة الذي أحسست خلاله بأنه تافه، وتذكرت أيامي الخوالي من الاشتراك في حرب فلسطين مع الرجال والأبطال، ثم الاعتقال وصحبتي لأكبر السياسيين والشخصيات المحترمة ذات الثقل العلمي والسياسي، وحتى الشباب في مثل سني كانوا نوعًا فريدًا من الشباب، بهم جدية ولهم أفكار عميقة وآراء في السياسة والاجتماع، فكان الحديث الذي يدور كله جادًا، وله هدف، وكانت المحاضرات التي كنا نسمعها تعطينا زادًا من الثقافة غير عادي.

عبد الهادي القصري

وفجأة أجد نفسي في جو كله سذاجة وتفاهة وعبث، حاولت انتقاء بعض الأصدقاء الذين يصلحون لأن يحملوا أفكاري، فوجدت القليل؛ فصاحبتهم، ودعوتهم إلى فكري الإسلامي، وإلى جماعتي، فوجدت منهم استجابة، وزاد العدد بالتدريج، فقد انضم معي: (حسن سميح -الصديق العزيز، وفرح جبارة[١]، وعبد الهادي القاصري[٢]، وعبدالعزيز حسن[٣]، ومصطفى دياب[٤]).

فرح جبارة

وبدأت في نشاطي مع هؤلاء الأصدقاء، وحينذاك فقط زالت الغربة عن نفسي، وأحسست أنني وجدت نفسي مرة أخرى، وكان هذا الوقت مشحونًا بالقضايا السياسية، مثل قضية الجلاء، وكانت البلاد تعج بالمظاهرات المطالبة بجلاء الإنجليز عن مصر، وجاءتنا تعليمات من القيادة بالخروج بالمدرسة في مظاهرة كبيرة تتجمع أمام مجلس الشعب، فكانت تجربة غريبة عليَّ أن أقود لأول مرة في حياتي مظاهرة من الطلاب، وأجريت اجتماعًا سريعًا مع إخواني في المدرسة، ولم يكن عددهم يزيد على عشرين طالبًا، وأخبرتهم بالتعليمات الجديدة، والتي تطلب منا

(١) **فرح جبارة:** من أصل سوداني والتحق بدعوة الإخوان كما التحق بالنظام الخاص، واعتقل عام ١٩٥٤م، وهو ما زال على قيد الحياة حتى الآن.

(٢) **عبد الهادي القاصري:** ولد في ٢٩/ ٧/ ١٩٣٧م بمصر الجديدة، التحق بدعوة الإخوان عام ١٩٥١م، والتحق بالنظام الخاص، اعتقل في ٢٤/ ٩/ ١٩٥٤م، وأفرج عنه في أبريل ١٩٦٠م، ثم اعتقل مرة ثانية في ٦/ ٩/ ١٩٦٥م، وخرج في نوفمبر ١٩٦٧م، وهو يعيش الآن في التل الكبير بالإسماعيلية.

(٣) **عبد العزيز حسن:** أحد الذين انضموا للإخوان مع عبد الرحمن البنان، وهو ما زال على قيد الحياة حتى الآن.

(٤) **مصطفى دياب:** هو ابن خالة الأستاذ عبد الرحمن البنان، وكان أحد الإخوان الذين حكم عليهم بعد حادث المنشية بعشر سنوات.

الخروج بالمدرسة، والتي يبلغ عدد طلابها ما يزيد على الألف طالـب.. لقـد كانـت مهمة صعبة، وخاصة لأول مرة، فبدأت بالصعود على كرسي حتى يراني الطلبـة، واجتمع حولي إخواني العشرون، وبدأت في الهتاف: «عاشت مصر حـرة»، ودوى هتاف العشرين طالبًا حولي، ثم رددت هتافي مرة أخـرى: «عاشـت مـصر حـرة»، فزاد عدد الطلبة الذين يهتفون على المائة طالب، وأخـذت أزيـد هتـافي في حـرارة، وهتفت بكلِّ حرارة: «يسقط المستعمر الغاصب»، ودوى الهتاف، وقد التف أغلـب الطلبة حولي، ووجدت نفسي، وقد رفعني طالب ضخم قوي على كتفيـه، ورأيـت نفسي لأول مرة زعيمًا، ولم يكن هذه دوري أبدًا، ولم أحب أن أكون كـذلك، فقـد كنت، وما زلت أحب أن أعمل في الظل، ولكني وللأسف وجدت نفـسي مرفوعًـا على الأعناق، وأصبحت زعيمًا للطلبة في المدرسة، فخطبت خطبة مختـصرة، قلـت فيها: «أيها الزملاء، سنخرج اليوم في مظاهرة، لنعبر فيها عن مشاعرنا ضد المستعمر الغاصب؛ ليعلم أننا -المصريين- جميعًا نكرههم، ونطلب منهم الجلاء عن أرضـنا»، وبدأ بعض الزملاء يهتفون، وقد رفعهم زملاؤهم على الأعناق، وسارت المظاهرة، وقد شملت معظم الطلبة، وركبنا الترام حتى وسط البلـد، وانـضممنا إلى مظـاهرة كبيرة مماثلة كانت تحمل مكبرات الصوت، وكـان بالمظـاهرة مئـات الآلاف تطالـب الإنجليز بالجلاء، وأخيرًا جاءت التعليمات بإنهاء المظاهرة السلمية المنظمة، دون أي عمليات تخريب أو نهب أو سلب، كما يفعل الغوغاء[1]، بل هو تعبير قـوي مـنظم قادته جماعة الإخوان المسلمين لتؤكد للإنجليز رغبتنا الصادقة في الحرية، والـتي تبـدأ بالإعلان والرغبة، وستنتهي بالكفاح المسلح؛ إنْ لم تجد هذه الأساليب السلمية.

وعدت إلى منزلي في النهاية وأنا غير مستوعب ما حـدث، وزالـت عـني رهبـة الموقف، وأحسست أن كلَّ شيء يكون في أوله صعبًا، ولكنه في النهاية شيء عادي بسيط، وعدت، وعاد الطلبة للدراسـة المنتظمـة، وانتقلـت، والحمـد لله، إلى الـسنة الخامسة الثانوية، أي: التوجيهية، كما كانت تسمَّى في ذلك الوقـت، ومـرت الـسنة

(١) الغَوْغاءُ: السَّفِلَةَ منَ النّاسِ، والمُتَسَرِّعِينَ إلى الشَّرِّ، [تاج العروس، (غوغ)].

سريعًا، وكانت حافلة بالمواقف السياسية، فلقد أيدنا «الوفد» في الانتخابات، وكان حزب الوفد -في الحقيقة- من أكثر الأحزاب وطنية، وكان له شعبية كبيرة، وكان «مصطفى النحاس» محبوبًا من الشعب، وكان حكم الوفد يمتاز بالحريات، وإلغاء الأحكام العرفية، وكان خطه السياسي واضحًا ضد الإنجليز والاستعمار، وقد كان هذا أيضًا خط الإخوان المسلمين السياسي، ولكننا كنا نزيد عليهم أننا لنا مطامح أبعد وأعمق من هذا، وهي إقامة الدولة الإسلامية، وأن نجمع من جديد العالم الإسلامي، الذي حطمه الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، حينما أسقطوا الخلافة الإسلامية، وجاءوا بـ«كمال أتاتورك» المشكوك في نسبه اليهودي، حيث ألغى الخلافة الإسلامية، وأقام الدولة العلمانية، وحارب الدين، وحوَّل المساجد في تركيا إلى متاحف، وألغى الكتابة بالحروف العربية، وحوَّلها إلى اللاتينية، وحظر الحجاب، ومنع رفع الأذان في المساجد، وحارب الدين بكلِّ طريقةٍ.

الملك فاروق

لقد قامت جماعة الإخوان المسلمين بزعامة «حسن البنا» لإعادة الوحدة الإسلامية من جديد، ولكن الإنجليز اغتالوه لتحطيم هذا الحلم الجميل في هذا الوقت، ولقد تحالف الإخوان مع «الوفد» أقرب الأحزاب إلى أفكارنا الوطنية، ووصل «الوفد» إلى الحكم بنسبة كبيرة، وعادت جماعة الإخوان التي حلها العميل للإنجليز «النقراشي» و«إبراهيم عبد الهادي»؛ حيث زجوا بالإخوان في السجون، كما كتبت من قبل، ولكن التيار الإسلامي والداعي إلى الحرية -كان أقوى وأشد، وجرف «إبراهيم عبد الهادي» وحكومته، وجاءت حكومة «الوفد» القريبة والحبيبة إلى قلوب الشعب المصري.

وفي مذكراتي هذه أسجل أن «الملك فاروق» -والذي دار جدل كبير حول شخصيته ووطنيته وحول فساده -شابٌّ وطني يحب وطنه، ويكره الإنجليز، ويتمنى جلاءهم، ولكنهم أحاطوه ببطانة سوء قاومها أحيانًا، وتغلبت عليه في بعض الأحيان.

صحيح إنه كان فاسدًا في نفسه، ولكنه كان أيضًا حريصًا على إقامة الشعائر الإسلامية، وكثير الاحترام لها، وكان يصلي الجمعة في موكب جليل، وكان قصره في رمضان قبلة للزوار من الشعب؛ حيث تقام الموائد الحافلة لفقراء الشعب، ثم يستمر الاحتفال بالقرآن الكريم حتى الفجر، وكان الإنجليز يكرهونه، فلقد كانت شخصيته إذا قورنت بمن جاء بعده وحكم مصر بالحديد والنار، كـ«جمال عبدالناصر»، يعتبر ملاكًا طيبًا، ولكنا في ذلك الوقت لم يكن يعجبنا، ولم نكن نعلم ما يخبئه القدر لمصر من أيام كريهة ودكتاتورية دموية وسجون ومعتقلات وقتل وتعذيب وإلغاء الدستور وإلغاء الأحزاب وتدخل الجيش وقواده الجهلة في كلِّ أمور الحياة حتى أفسدوها ورجعوا بالبلاد إلى الوراء عشرات السنين.

لقد عشنا في أيام «الملك فاروق» وحكم «الوفد» أجمل أيام الحرية، وكنا نعبر عن آرائنا بكلِّ حرية بالكتابة أو المظاهرات، وكانت الأحزاب والشُّعب تملأ مصر من أقصاها إلى أدناها، وكانت الشُّعب بها كل نشاط تتصوره: نشاط سياسي ينتقد فيه كل رأي سياسي مخالف، ونشاط اجتماعي ينشئ الجمعيات التي تجمع الزكاة وتوزعها على ذوي الحاجة، ونشاط طبي وصحي يقيم المستوصفات شبه المجانية في كل الأحياء، ولقد كان الكشف بخمسة قروش، وكذلك إقامة فصول محو الأمية كانت مجانًا، وفصول للتقوية مجانًا.. كلُّ ذلك في الشُّعب المنتشرة في كلِّ أنحاء مصر، هذا بالإضافة إلى النشاط الاقتصادي، وتكوين الشركات المساهمة التجارية والصناعية، وكذلك النشاط الفني وعمل المسرحيات، ولقد كان لشعبنا نشاط واضح في هذا المجال، فقد عرضنا مسرحيتين على «مسرح الأزبكية».

وكان النشاط الرياضي واضحًا، وذلك في إقامة نادٍ رياضي به كل أنواع الرياضة: مصارعة، وملاكمة، وكرة قدم، وسلة، وغيرها من الألعاب، وكان نشاطنا واضحًا في إقامة الرحلات والمعسكرات في كلِّ مكان في مصر من أقصاها إلى أدناها، فقد نظَّمنا رحلات الدراجات من مصر إلى الإسكندرية، وإلى رأس البر، وإلى الفيوم، وكانت كل رحلة تستمر أسبوعًا كاملاً، وكلها نشاط وحيوية، ثم الرحلات الأسبوعية إلى جبل المقطم، حيث نقوم بالتكتيك العنيف من قفز من

الأماكن العالية، والمصارعة اليابانية، والتعود على التقشف، والعيش على القليل من الطعام والماء؛ حتى نتعود على الخشونة وحياة الجهاد الصعبة، ولقد أقمنا معسكرات في الصعيد؛ حيث يتم فيها التدريب، وكان الهدف منها واضحًا، وهو التدريب على مقاومة الإنجليز، والاستعداد لخوض حرب عصابات معهم، ولقد كانت أيامًا رائعةً، كلها حركة وعمل جاد، واستعداد مستمر للأيام القادمة، وكانت البلاد كما قلت سابقًا في قمة الحرية؛ فالصحف تكتب ما تشاء، ويرد الخصم بما شاء دون إسفاف ولا افتراء، والمظاهرات السلمية تجوب الشوارع تطالب بالاستقلال وخروج الإنجليز، وحرية التعبير مكفولة، ولا يوجد أحكام عرفية، كانت البلاد تحكم بالدستور والقانون، وكل فرد يعرف حقه وواجبه، لقد كانت فترة رائعة لمن عاش فيها، وحلم جميل افتقدناه في هذه الأيام.

كان الدور السياسي الأكبر في هذا الوقت لـ«حزب الوفد» الحاكم، وجماعة الإخوان المسلمين الفتية، و«حزب مصر الفتاة»، والذي قلَّ نشاطه نوعًا ما، أما الشيوعيون، فقد كانوا وأفكارهم الملحدة بعيدة عن الشعب وإيمانه العميق بالله وبالإسلام وبالقيم، فقد كسب أنصاره من بعض فقراء الشعب، ولكنهم عندما يصطدمون بإلحادهم ومبدئهم الذي يقول -والعياذ بالله: «لا إله، والحياة مادة» - كانوا ينفرون منهم، ويعودون إلى حكم الإسلام من جديد والعدالة الاجتماعية، حيث لا فقر ولا عوز، ولقد كان التحالف متينًا بين حزب الوفد الحاكم، وبين الإخوان المسلمين، تلك الحركة الجديدة والتي كانت تتسع مع الأيام حتى شملت مصر من الجنوب إلى الشمال، وكانت تنظيمًا دقيقًا يحمل الفكر الثابت في وجدان المصريين جميعًا، وكانت مبادئهم معتدلة، غير متشددة على رأي أهل السُّنة والجماعة، وازداد أنصارها، وكسبت عناصر إيجابية من صفوة المجتمع من قضاة ومهندسين وأطباء وموظفين كبار وصغار وعمال وطلبة، وأنشئوا نظام الجوالة والكشافة شبه العسكري تأهبًا ليوم قريب، وهو مواجهة الإنجليز بالسلاح.

* * *

الفصل الخامس
بين أحضان القنال

حرب القنال ١٩٥١م

لقد كانت حكومة «الوفد» -في الحقيقة- حكومة وطنية، فلقد أعلن «مصطفى النحاس باشا» -رئيس الوزراء- إلغاء معاهدة ١٩٣٦م من جانب واحد، هذه المعاهدة التي كانت من ضمن بنودها الموافقة على بقاء قوات الاحتلال لحماية مصر، ممن؟! والآن أصلح «الوفد» ما سبق أن أعلنه، فهو الذي أقام معاهدة ١٩٣٦م، وها هو الآن يلغي المعاهدة من جانب واحد، وابتهج المصريون جميعًا لهذا القرار العظيم، وسارت المظاهرات تؤيد هذا القرار، وتطالب الإنجليز بالجلاء، وسألت نفسي: هل هذه المظاهرات تجدي، أم لا بدَّ من الكفاح المسلح؟ وجاءني الرد في اليوم التالي، فقد اتصل بي رفيق قديم في السلاح، كنا سويًا في حرب فلسطين، وأخبرني بالاستعداد من الغد للذهاب لجبهة قناة السويس لحرب الإنجليز، وأنه سيكون في صحبتي زملائي القدماء في حرب فلسطين، وغيرهم من شباب الإخوان، وها قد جاء يوم الجهاد الحقيقي، فلم أكن أصدق من شدة فرحي، فسألته عن المنطقة التي سنسافر إليها؟ أجابني أن كلَّ هذه الإجابات ستعرفها في الغد، بإذن الله، وانصرف «فوزي فارس» -البطل القديم، صاحب «معركة التبة ٨٦» الشهيرة في فلسطين، والرجل الشجاع، الذي كنت أحبه وأحترمه، وأتمنى أن أعمل تحت قيادته.

لقد كانت ليلة صعبة عليَّ؛ فكيف أبلغ هذا الخبر لأمي الحبيبة الغالية، فستصعق من غير شكٍّ، فلم ألبث معها سوى سنة تقريبًا، فقد خرجنا من المعتقل في أوائل الخمسينات، وهأنذا أغادرها للجهاد ضد الإنجليز في أوائل عام ١٩٥١م، فماذا أفعل: هل أتحاور معها لأقنعها؟ هي إنسانة مثقفة، وتعرف معنى الجهاد في سبيل الله، ولكنها كأم لا مانع عندها أن يجاهد كل الأبناء، ما عدا ابنها، وهكذا كل الأمهات، فما العمل؟ هل أكتب لها خطابًا أودعها فيه، وأطلب منها أن تسامحني لتركها هكذا بدون وداع، وبدون رضاها، لم أكن في ذلك الوقت ذا فائدة مادية لها؛ لأنني كنت لا أعمل، وما زلت طالبًا، وهذا أراح ضميري بعض الشيء، فكتبت لها خطابًا مؤثرًا، وجهزت شنطة صغيرة بها غيارات داخلية؛ لأهربها في مدخل البيت، حتى لا يراني أحد، وأنا أغادر في الغد.

لقد كنت في شوق إلى أن آخذ أمي الغالية في أحضاني، ولكنني ترددت؛ لأنني لو فعلت ذلك لعرفت بقلبها الحساس أنني سأفارقها، ولقد كان مما يخفف بعض تأنيب ضميري أنني لن أتركها وحيدة، بل معها شقيقي الكبير «عليّ»، والذي عليه عبء كبير، بالإضافة إلى شقيقتي الغالية «فاطمة»، وهي كانت اليد اليمنى لأمي لاعتماد أمي الكلي عليها في أمور البيت، هذا بالإضافة إلى شقيقي الأصغر «عبدالعزيز»، وشقيقي الصغير «محمد»؛ فغيابي سيجد تعويضًا عني في إخوتي.

دق جرس الباب، ورأيت صديقي العزيز «علي نعمان»، وقد جاء في موعده، فتركت الخطاب على مكتبي، وخرجت، وأنا أقاوم نفسي من أخذ أمي في أحضاني وكذلك إخوتي، وانصرفت كما كنت أخرج كل يوم لأعود، ولكني هذه المرة خرجت، ولا أدري إن كنت سأعود أم لا أعود، وإن عدت فمتى سأعود؟ مشيت مع رفيق السلاح في فلسطين «علي نعمان»، وفي قلبي غصة، ولكن فرحتي بعودة الجهاد مرة أخرى أنساني كل شيء، وأخذت أسأل صديقي وأخي الحبيب «علي نعمان» عن المكان الذي سنذهب إليه، وعن رفقائنا في هذه المهمة، وما مدتها، و.. و.. وأسأله كثيرًا، ولكني لم أجد أية إجابة واضحة منه، إلا أنه قال: كل ما أعرفه هو أننا سنتقابل مع كلٍّ الإخوة في موقف الأتوبيس الذي يذهب إلى الإسماعيلية وبورسعيد، والتعليمات التي عندنا هي أننا عندما نتقابل في الموقف -لا نسلِّم على بعضنا البعض، وكأننا غرباء؛ لأننا سنمر في منطقة القنال التي بها منطقة تفتيش إنجليزية على الطريق.

ووصلنا أخيرًا إلى موقف الأتوبيس الذاهب إلى خط الإسماعيلية وبورسعيد، فوجدت هناك أحبابًا وزملاء كفاح، كـ«أبي الفتوح عفيفي»، و«فوزي فارس»، و«محمد علي سليم»، حوالي عشرة شباب من رفقاء السلاح في فلسطين؛ فانشرح قلبي لرؤيتهم، فهم والحمد لله من أفضل الشباب الشجعان المدربين.. نظرت إليهم من بعيد، وكأنني لا أعرفهم، ولكن قلبي يكاد يقفز من مكانه من فرط فرحتي بهم، وكان كلُّ واحد منهم يلبس ملابس مختلفة، هذا في زي فلاح، وذاك في زي عمال، وهذا شيخ معمم، وكنت أرتدي ملابس عادية (بنطلون وقميص وبلوفر بسيط)، وركبنا الأتوبيس، وجاء الكمسري، وجاءتنا تعليمات خفية أن يدفع كل واحد

تذكرته على حدة إلى القنطرة الغربية، وهي بلدة صغير بعد الإسماعيلية، وقبل بورسعيد بحوالي ستين كيلو متر تقريبًا، ومضى بنا الأتوبيس، وبه مجموعة من الفلاحين بقففهم وأحمالهم، وكان الأتوبيس مزدحمًا جدًا، وأخيرًا وصلنا إلى الإسماعيلية، وفوجئنا بوقوف مفاجئ للأتوبيس، وصعود ثلاثة جنود إنجليز مدججين بالسلاح، هل عرفوا أن في الأتوبيس فدائيين جاءوا لقتالهم؟ أسئلة كثيرة دارت في خلدي، وأوقفونا صفين، وأخذوا يفتشون متاعنا ومتاع الفلاحين، وأخيرًا سمحوا لنا بركوب الأتوبيس من جديد؛ فتنفسنا الصعداء، وحمدنا الله على أن مرت هذه الأزمة بخير وسلام، وقبل القنطرة حدث نفس التفتيش مرة أخرى، إنه شيء مؤلم لأي وطني؛ حينما يحس أنه في وطنه وبلده غير حر، وأن المستعمر بسلاحه يتحكم فيه، وقلت في نفسي: لقد جاء الوقت الذي سنلقنكم فيه دروسًا تتعلموا فيها، وتطالبوا بسرعة العودة إلى بلادكم؛ لتتركونا أحرارًا في بلدنا.

وصلنا أخيرًا إلى القنطرة غرب، وطبعًا لم يحي بعضنا البعض كالتعليمات القادمة، فكنا نحيي بعضنا بعضًا من بعيد بالنظرات فقط، وأخيرًا جاءنا أخ حبيب شاب صغير في السابعة عشرة من عمره من شباب الإخوان في القنطرة، وتوجه إلى «فوزي فارس»، وجلس بجانبه، وأخذ يحدثه، فأشار «فوزي فارس» لخمسة أفراد منا بالتحديد، وخرج وخرجنا وراءه، وتوجهنا في شوارع القنطرة الضيقة والفقيرة نوعًا ما حتى وصلنا إلى منزل متطرف من البلدة، ودخل الشاب بعد أن فتح الباب، ودخلنا معه، وهنا بدأنا نحيي بعضنا بالأحضان، وقد طال شوقنا لبعض طيلة هذه الرحلة الطويلة.

كانت شقة بسيطة جدًا ليس بها سوى مراتب من القش أو القطن القديم ومنضدة صغيرة وعدة كراسٍ عتيقة ومطبخ صغير وحمام بسيط، وبعد أن تفقدنا المكان، أخبرنا «فوزي فارس» أن هناك اجتماع عمل بعد نصف ساعة، وأخذنا نغتسل من وعثاء السفر، وتوضأنا، وصلينا الظهر، وجلسنا للاجتماع حول المنضدة الصغيرة والكراسي العتيقة، وبدأ «فوزي فارس» في التحدث معنا، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أن

تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

المقام -يا إخوتي- ليس مقام خطب أو كلمات، ولكنها الدعوة إلى الجهاد، وتخليص وطننا الإسلامي من الاستعمار الإنجليزي، وأنتم -والحمد لله- قد أديتم دوركم في فلسطين، البلد الإسلامي المغتصب، وها هو قد جاء دور بلدكم الحبيب مصر باعتبار أنها جزء غال من عالمنا الإسلامي الذي لا بدَّ لنا وأن نحرره بإذن الله، طال الزمن أو قصر، لا بدَّ -يا إخوتي الأعزاء- أن نجدد نيتنا على الجهاد في سبيل الله، ونبتغي رضوان الله لا نبغي رياء ولا سمعة حتى نكسب إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة وجنة الخلد، وأحذركم وسوسة الشيطان، فنحن نؤدي واجبنا الإسلامي، ونعمل في هدوء وخفاء، وأصارحكم أن حرب الإنجليز ليست سهلة؛ لأنهم محصنون في معسكراتهم في السويس والإسماعيلية وبورسعيد وعلى طول قناة السويس، بعد أن انسحبوا من باقي مصر، حين زادت حرب العصابات ضدهم؛ فلجئوا إلى قتال السويس ومدنها بعيدًا عن نظر المصريين، ولكننا وراءهم أينما ذهبوا حتى يجلوا بإذن الله، ونحرر وطننا الإسلامي، وأخذ يشرح لنا تضاريس المنطقة وأماكن تواجد الإنجليز: سفنهم في قناة السويس، تواجدهم المستمر على طريق المعاهدة بالدبابات والدوريات لإثبات القوة، تكدسهم داخل معسكراتهم، وأن مهمتنا بمجموعاتنا المتفرقة على طول القناة، والتي ترتدي الملابس المدنية العادية، وتختفي بالنهار؛ حتى لا يحس بها أي شخص لا ضمير له، يتعامل مع الإنجليز، فإن عملياتنا ستكون دائمًا بعد منتصف الليل، ولكلِّ مجموعة شقتان: واحدة في القنطرة الغربية، والأخرى في القنطرة الشرقية؛ لنختفي فيها بعد كلِّ عملية، ولا ينبغي لنا أن نظهر لأهل البلدة، وأن يكون عملنا بكلِّ سرية، وكلِّ هدوء، وإن عملياتنا ستكون ضرب قوات العدو على طول طريق المعاهدة، وضرب قطاراته الحربية، وتحطيم الكباري التي يقيمها على ترعة الإسماعيلية، والتسلل داخل معسكراته، ونسف مخازن الذخيرة، وزرع الألغام داخل معسكراته، ووزع علينا جميعًا أسلحة قديمة مستعملة من بواقي أسلحة حرب فلسطين، وطلب

من كل منا تنظيفها، وتزيتها، وتجهيزها لتكون جاهزة للتعامل مع العدو، فانكفأنا على أسلحتنا الصغيرة من مسدسات ورشاشات خفيفة وقنابل يدوية، وكنا جميعًا على دراية تامة بهذه الأسلحة، وأخذنا نجهزها وننظفها.

وفي اليوم التالي زارنا الأخ العظيم «محمد علي سليم» ليفتش على المجموعات، ولينسق العمل مع «فوزي فارس»، وبدأنا اجتماعًا آخر؛ لنحدد أول عملياتنا، والتي حددها «محمد علي سليم»، وهو مقاتل شجاع محترف في المفرقعات، وقال: سننفذ بإذن الله ثلاث عمليات:

أولها: نسف القطار الحربي القادم من بورسعيد إلى السويس، وهو يسير في الأسبوع مرتين، ويكون مملوءًا بالأسلحة والدبابات والذخيرة والجنود.

والعملية الثانية: هي ضرب الدبابات التي تسير كدوريات على طريق المعاهدة.

والعملية الثالثة: تدمير الكوبري الذي يقيمه الإنجليز على ترعة الإسماعيلية، والذي أقاموه ليقطعوا الطريق على تهريب الأسلحة من مصر إلى منطقة القنال.

وهناك مجموعات أخرى تخطط لعمليات مختلفة ستسمعون أخبارها قريبًا، وكوّن مجموعة لضرب الدبابات، وأجمعنا جميعًا على «إسماعيل محمد إسماعيل» - وكنا نسمّيه «صائد الدبابات»، فقد كانت شهرته معروفة من أيام حرب فلسطين على رمي قنبلته اليدوية في فتحة الدبابات الفوقية في رمية واحدة صائبة، تدمر مَنْ بداخل الدبابة، وتحرقها، فاخترناه هو و«أبو الفتوح عفيفي»، و«فتحي البوز»[1]، و«الدكتور كمال حلمي»؛ لتولي عملية صيد الدبابات على طريق المعاهدة.

---

(١) **فتحي البوز:** أحد الذين التحقوا بدعوة الإخوان المسلمين في وقت مبكر، وكان يعمل محاميًا، والتحق بالنظام الخاص وأصبح من رجاله المعروفين، اعتقل في عهد عبد الناصر، توفي في ٢٦/ ٤/ ٢٠٠٧م، الموافق ٨ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ.

عملية الموت ونسف القطار

فتحي البوز المحامي

وقال: أما نسف القطار وكوبري الإسماعيلية الجديد، فستعمل باقي المجموعة على تنفيذه، فالأمر يحتاج لإعداد وترتيب، ولكني أريد أن أختار واحد منكم ينفذ الخطوة الأخيرة، وسيكون بجانب المتفجرات، وأن نسبة نجاته صفر%، فرفعت يدي، وقلت: أنا أرغب في تنفيذ هذه العملية، ورأيت بقية إخوتي رافعين أيديهم، يطلبون نفس الطلب، فقال الأخ «محمد سليم»: سنعمل لكم اختبار في المفرقعات، ومن يكون الأول سينفذ العملية، حمدت الله في نفسي، فقد كنت في فلسطين في فرقة المفرقعات مع المهندس المتخصص الشهيد «سيد منصور»، وقمت بعدة عمليات، هذا بالإضافة إلى أنني قمت فترة بتدريب بعض الشباب على المفرقعات وأنواعها، وطريقة تفجيرها، سواء بالضغط أو بالبطارية أو بالشريط المشتعل، وبدأ «محمد علي سليم» يجري لنا اختبارًا بسؤالنا عدة أسئلة، وكانت إجابتي عنها ١٠٠%، فهذه لعبتي، والحمد لله، فاعترف الجميع بمهارتي، وهنئوني جميعًا، ولكن الصديق العزيز «كمال حلمي» أخذ يساومني للتنازل عن هذه العملية له؛ لأنه يريد الشهادة، وكان طالبًا في كلية الطب، وصديقًا عزيزًا وحبيبًا إلى نفسي، ولكنني قلت له بصراحة: إن هذه العملية الشهادة مضمونة فيها بنسبة ٩٩%، وإنني كنت أتمنى هذه الشهادة، ولم أنلها من قبل، وإنني أرغب في أن أنالها هذه المرة.. طبعًا لم يقتنع «الدكتور كمال» -كما كنا نعرفه، وهو ما زال طالبًا في السنة الأولى في الطب.

وبدأنا منذ اللحظة الأولى نجهّز لهذه العملية، وبدأ «إسماعيل محمد إسماعيل»، و«أبو الفتوح عفيفي»، و«فتحي البوز»، و«عصام الزيني»، يستعدون للخروج؛ لصيد الدبابات، أما مجموعتنا؛ فقد كان العقل المدبر لها هو «محمد علي سليم»، واتصل تليفونيًا بالإخوة في بورسعيد، وسألهم عن موعد قيام القطار الحربي من بورسعيد -بكلام فيه تورية متفق عليها- فأعلمونا موعده، فكان لا بدَّ لنا من الخروج لمعاينته؛ لنرى عدد عرباته ونظام التسليح فيه، فخرجنا في مزرعة للفول

بملابس الفلاحين والفئوس في أيدينا، وكان «عبد المحسن الهواري» -الشاب الصغير، والمقيم أصلاً في القنطرة الشرقية- هو دليلنا في هذه المنطقة، وهو شابٌ شجاع متحمس ونشيط، وجلسنا في الحقل نمثل أننا نعمل في الحقل بتنقية زراعة الفول، وأخيرًا سمعنا صوت القطار من بعيد، وأقبل القطار حتى صار على مقربة منا، وتأكدنا أنه ليس القطار الحربي الإنجليزي، وأن الإنجليز يغيِّرون مواعيد قطاراتهم، ويرسلون قبلها القطار المدني المصري؛ حتى إذا كان هناك سمة مفرقعات أو ألغام تنفجر في القطار المصري. هذه معلومة اكتشفناها بالمعاينة والتجربة.. إذن لا بدَّ لمن سيقوم بتفجير العبوات من أن يتأكد بعينيه، ولا يتسرع أبدًا في التفجير؛ حتى لا تقع الكارثة التي يريدها الإنجليز.

وأخذنا ننتظر عدة ساعات، ولم يقبل القطار الحربي، فعدنا إلى شقتنا، واتصل «محمد علي سليم» و«فوزي فارس» ببورسعيد، وسألا عن القطار الإنجليزي الحربي، فأجابوهم بأنهم لم يرسلوه اليوم، وهذا تمويه من الإنجليز، فلا تعتمد على المواعيد المنتظمة، بل لا بدَّ من المعاينة بالعين المجردة، ولم تكن وسيلة الاتصال سهلة في هذه الأيام، ولم يكن عندنا تليفون، فقرَّرنا الاعتماد على أنفسنا، وأن نقترب على قدر الإمكان من مكان التفجير حتى نطمئن بنسبة ١٠٠% على أن القطار المقصود هو القطار الإنجليزي الحربي، وليس القطار المصري، وهذا يؤكد أن نسبة النجاة ستكون صفر بالمائة؛ لأن الاقتراب من مكان التفجير معناه التعرض للانفجار والشظايا من عجل القطار والفلنكات، وكل ما يحمله التفجير من شظايا قاتلة، وخرجنا مداومين في اليوم التالي لنرصد القطار الإنجليزي.

وأخيرًا رأيناه من بعيد، وكان شكله مميزًا، وهو يتكون من ١٢عربة بضائع مكدسة بالدبابات والمصفحات، وفوجئنا بوجود عربتين فارغتين في مقدمة القطار قبل الونش الذي يسحب القطار، وأن هذه حيلة فعلها الإنجليز ليتفادوا تفجير أي لغم في القطار نفسه، فوضعوا هاتين العربتين في مقدمة القطار لينفجر فيهما أي لغم مكنون في السكة الحديد، وتنقذ باقي القطار، وهذه معلومة جديدة مهمة جدًّا للتنسيق في وضع الألغام في الأماكن المناسبة هذه واحدة، أما الأخرى، فإن الألغام التي تنفجر بالضغط لن تكون صالحة؛ لأنها ستنفجر في العربات الأولى الفارغة..

إذًا لا بدَّ أن يكون التفجير بالبطارية هذه واحدة، والثانية أن نفوت العربتين الفارغتين، ثم نفوت الونش الذي يقوده اثنان من المصريين (السائق، والعطشجي) -كما كان يسمى في هذا الوقت، ومن ثم لا بدَّ أن نفوت العربتين والونش، ثم يكون اللغم الأول المباشر في العربة الأولى بعد الونش، والتي رأيناها كدشمة عسكرية بها حوالي أربعون جنديًا مدججين بالسلاح، وموضوع حولهم أكياس من الرمل لحمايتهم، ثم عددنا عشر عربات محملة بالمصفحات والعربات المدرعة، ثم في العربة الأخيرة دشمة أخيرة بها الجنود في حراسة مؤخرة القطار، ورسمنا الصورة في عقولنا جيدًا، وعدنا، وأخذنا نرسم القطار بتكوينه الكامل، وأخذنا نعد خطتنا طبقًا لعدد العربات، وطول كل عربة، ومكان اللغم الأول؛ بحيث يصيب دشمة الجنود، ويفوت العربتين الفارغتين والونش، واللغم الأوسط في وسط القطار على بُعد كذا متر، ثم اللغم الأخير بحيث يكون مستهدفًا العربة الأخيرة، والتي بها الجنود المسلحون، وأعدنا حساباتنا عدة مرات، وحسبنا حركة القطار، والتوقيت المفروض، والتأكد من أنه القطار الحربي، وليس القطار المصري، وقلت في نفسي ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وبدأنا منذ الليلة نجهز متطلبات العملية، وكان المطلوب ١٥٠كجم من مادة الـ«TNT» شديدة الانفجار، هذا بالإضافة إلى حوالي ١٥٠متر من الأسلاك لتوصيل الألغام، بالإضافة إلى بطارية قوية، وإلى مفجرات كهربائية صالحة للاستعمال.

وبتنا في هذه الليلة، ونحن نجهز أدواتنا، والتي أحضرها كاملة «فوزي فارس» و«محمد علي سليم»، ولا نعلم من أين أتوا بهذه الكمية الهائلة، وكيف أحضروها، وحضر «إسماعيل محمد إسماعيل» و«أبو الفتوح عفيفي» قرب الفجر، وهم يكادون يطيرون من الفرح، فقد نجحت أول عملياتهم في اصطياد دبابة للإنجليز، حيث ترصدوا لها على طريق المعاهدة -طبعًا بعيدًا عن مكان إقامتنا- وعلى بُعد ثلاثة أمتار فقط من الدبابة التي كانت تسير ببطء على الطريق، وقد رماها «إسماعيل» بطريقته البارعة الموفقة بقنبلة في البرج المفتوح، فأصابها إصابة مباشرة، فدمرت، وانقلبت مشتعلة بمن فيها على قارعة الطريق؛ فهنأناهم وعانقناهم، وكان لا بدَّ لنا من الانتقال فورًا إلى الضفة الشرقية، وذلك عن طريق المعدية الأهلية إلى

شقتنا بالضفة الشرقية؛ حيث إنه من المتوقع أن يفتش الإنجليز «القنطرة شرق» منزلاً منزلاً.

وبدأنا في الضفة الشرقية تجربة الأسلاك والبطارية والمفجر الكهربائي؛ حتى نتأكد من صلاحية كل أدواتنا، فقد خرج «فتحي البوز» في ليلة ثانية هو و«أبو الفتوح عفيفي» في مهمة لاصطياد دبابة، وقاما برمي القنبلة اليدوية في برج الدبابة، ولكنها لم تنفجر، وكانت كحجر ألقي على الدبابة لم يؤثر فيها، وانهالت عليهم الرشاشات من الدبابة المتحركة، ولولا إسراعهم بالاختفاء في الأحراش، والانسحاب السريع لما نجوا من طلقات الرصاص، وكانت هذه العملية الفاشلة مسار فكاهتنا على «فتحي البوز»، وقلنا له: لا بدَّ -يا فتحي- أن تجرب القنبلة قبل استعمالها، فقال مازحًا: إنني سأجربها فيكم أولاً للتأكد من صلاحيتها، وطبعًا القنبلة لا يمكن تجربتها، بل هي تطلق مرة واحدة، وأنت وحظك، فالأسلحة التي نملكها قديمة مخزنة؛ ولذلك كان لا بدَّ لنا من تجربة أي شيء يمكن تجربته حتى نكون على يقين أنه سيكون صالحًا، ولن يخذلنا، كما خذلت القنبلة «فتحي البوز» و«أبا الفتوح عفيفي»، وكادت تفقدهم حياتهم.

وبعد أن تأكدنا من سلامة معداتنا -بدأنا في الخروج بعد منتصف الليل لوضع الألغام على شريط السكة الحديدية، واخترنا مكانًا بعيدًا عن موقعنا، به غابة من الأشجار بجوار السكة الحديدية، وكان لا بدَّ لنا أولاً من تعدية طريق المعاهدة، والتي تمر عليه دوريات الإنجليز المصفحة باستمرار، واستطعنا التسلل إلى الغابة، حيث بدأنا العمل المنظم؛ فقائد المجموعة «محمد علي سليم» حدَّد لنا من الخريطة التي وضعناها حسب تكوين القطار الحربي -مكان حفر الألغام الثلاثة بين الفلنكات بهدوء، وبدون أي صوت، وكان الحفر بأصابعنا، فكنا نزيل الزلط والرمال بين الفلنكات الخشبية بعمق حوالي نصف متر؛ حتى نستطيع أن نضع اللغم المجهز، وكل لغم حوالي ٥٠ كجم من«TNT»، وبه المفجر الكهربائي، وخارج منه السلك الخاص به، ثم يقوم فريق آخر بتغطية اللغم بالزلط والرمال، وتمويهه، وإزالة أي أثر يدلل على وقوع عملية الحفر، وقمت ومعي «محمد علي سليم» شخصيًا ليتأكد معي بربط الأسلاك الكهربائية بالمفجرات، ويكون ذلك

مرورًا من تحت القضبان؛ حتى لا تقطعها عجلات القطار، ومددنا الأسلاك وغطيناها جيدًا؛ حتى لا ترى، ومددنا السلك الرئيسي في الغابة، وعلى بُعد حوالي عشرة أمتار فقط من السكة الحديد، وكانت علامتنا عمود تلغراف مميز كعلامة لأول لغم، وبعد أن كدنا ننتهي من عملنا أراد «محمد سليم» أن نتأكد من جديد على سلامة التركيبيات، ولكنا سمعنا صوتًا غريبًا من الغابة، فأنصتنا جميعًا، وظننا أننا واهمون، وأنها أصوات ثعلب أو حيوان يقطن هذه الغابة المظلمة، ونسيت أن أذكر أن ليلتنا هذه لم تمر بسهولة ويسر، بل كنا نتوقف حينما تمر أية دبابة أو مصفحة أو عربة «جيب» على طريق المعاهدة، أو حينما تمر سفينة في قناة السويس بأنوارها الكشافة الفاضحة، والتي تجعل الليل نهارًا، فقد كان لا بدَّ لنا من الانبطاح أرضًا دون حركة حتى تمر السفن، أو تمر المصفحات أو العربات، ثم نعاود عملنا من جديد، وسمعنا من بعيد أذان الفجر من مسجد قرية قريبة، وكنا قد انتهينا من عملنا، وتأكدنا من صحة تركيبنا للأسلاك الكهربائية، وجاءت اللحظة الصعبة، وهي تعدية طريق المعاهدة، والذي تمر عليه الدوريات بلا انقطاع، وأخذنا حوالي نصف الساعة نتسلل واحدًا بعد الآخر منتهزين فرصة عدم وجود سيارة أو مصفحة حتى انسحبنا جميعًا، بسلامة الله، وأوينا إلى فراشنا بعد أن أدينا صلاة الفجر، ونمنا نومًا عميقًا بعد خمس ساعات عمل مرهقة ودقيقة، وفي ترقب وتوجس مستمر من أضواء مصفحات العدو والسفن التي تمر في قناة السويس دون انقطاع؛ فلقد كان عملاً مرهقًا حقًا، ولكنه ممتع، فإن عقلية «محمد علي سليم» – رحمه الله– عقلية منظمة مرتبة، لا ينسى شيئًا على الإطلاق، وكان صاحب روح مرحة، ونكات كان يطلقها بهمس، ونحن نعمل، ولا نكاد نكتم ضحكاتنا من نكاته المرحة، وقال لي ضاحكًا: «يا بختك يا عبد الرحمن، ستقابل غدًا -بإذن الله- محمدًا وصحبه»، قلت له داعيًا الله: «إنْ شاء الله سأنقل إليه تحياتكم جميعًا».

ونمنا هذه الليلة نومًا عميقًا حتى قرب صلاة الظهر، وصلينا الظهر، وتناولنا غذاءً بسيطًا جدًّا، عبارة عن طبق من العدس الأصفر دون تصفية، وكان مملوءًا بالحصا، ولكنه كان في رأينا أجمل وأطعم من خروف مشوي، وصليت ركعتين لله، وودعني إخوتي، وأخذوا يهنئونني، وتوكلت على الله، وذهب برفقتي «سليم» –

ذلك الأعرابي المسلم الشجاع- حتى أوصلني إلى أول طريق المعاهدة، وانسحب عني حسب الأوامر، وكانت مهمتي الآن أن أعبر طريق المعاهدة المملوء بالعربات العسكرية التي تكتظ بالجنود الإنجليز، وانتظرت بعيدًا وأنا أرتدي ملابس عمال السكة الحديد الزرقاء، وأرتدي فوق رأسي «كابًا» أزرق كعمال السكك الحديدة، وانتهزت فرصة خلو الطريق، واجتزته بهدوء، وبدون أن أنظر يمينًا أو يسارًا، ودخلت الغابة حيث يوجد أول السلك مدفونًا ومغطى بعلامة علمتها تحت شجرة معينة، وأمام عمود تلغراف كعلامة لوجود اللغم الأول أمامه، ورأيت طائرًا غريبًا كبير الوجه ذا عيون واسعة مستديرة يبدو أنه «أم قويق»، ولم أكن قد رأيته كثيرًا من قبل، فكان شكله غريبًا جدًا بالنسبة لي، وكان يصدر أصواتًا كئيبة، فهششتها بيدي، ولكنها لم تحرك ساكنًا، فتركتها واتجهت إلى المكان المعد للتفجير، ورفعت الحجر لأجد طرف الأسلاك، ولكني لم أجد شيئًا تحت الحجر، أخذت أبحث حولي بسرعة، لعلي أخطأت المكان، ولكني لم أجد شيئًا؛ أصبت بصدمة شديدة، إنني متأكد من المكان الذي وضعت فيه بداية الأسلاك، فأين هي؟! وأخذت أبحث حولي كالمجنون غير مبال بما حولي، وأخيرا ولذهولي الشديد وجدت الأسلاك مخلوعة من مكانها وملقاة على الأرض، فأسرعت إلى السكة الحديدة، لأنظر إلى أماكن الألغام، فوجدتها منزوعة بفعل فاعل.. إذًا فالإنجليز علموا بمخططنا ورأونا ونحن نضع الألغام، وسمعت من بعيد صوت القطار، وتأكدت أنه القطار الحربي، فماذا أفعل؟! بحثت بسرعة عن بعض المفرقعات المتساقطة هنا وهناك، وحزمتها بسرعة، ووضعتها على قضبان السكة الحديدة، رغم إنني غير متأكد من أنها ستنفجر؛ لأنه لا يوجد بها المفجر الصغير، ولكنها محاولة يائسة، وها هو القطار جاء بهدوء؛ فارتميت مختبئًا في كومة من الأشواك، غير مبال بالآلام التي تصيبني منها، وهدأ القطار، ومرت عرباته جميعًا بدون أي انفجار بالطبع، وخرجت من الغابة غير مبال بالعربات العسكرية التي تعبر مسرعة، وهي أيضًا لم تبال بهذا العامل من عمال السكك الحديدية ذي الملابس المهلهة، والذي يسير بغير مبالاة، وعدت وأنا في غاية التعجب، وفي غاية الحزن، وفي غاية الألم، تُرى، من فعل هذه الفعلة الشنعاء؟! فمعنى هذا أن عيونًا كانت ترقبنا، ونحن نزرع الألغام طيلة الليلة

الماضية، حقًا لقد سمعنا أصواتًا غريبة بالأمس، ولكننا ظننا أنها أصوات ثعالب أو حيوانات ليلية.

استقبلني إخواني متعجبين: ماذا حدث، يا عبد الرحمن؟ ولماذا لم تنفجر الألغام؟! فحكيت لهم ما رأيت، وتعجب الجميع، وأخذ كلُّ فرد منهم يفسِّر ما حدث بنظرته الخاصة، وقال «أبو الفتوح» مازحًا: إنها أفعال «أم قويق»، إنها معروفة عندنا بأنها شؤم، وكان عندنا دليل اسمه «محمود الشاويش»، وهو شخصية غريبة كان يعمل -وما زال- في معسكرات الإنجليز، وكان هو وزملاء له يهربون الأسلحة من معسكرات الإنجليز، وأحيانًا يسرقون عربة كاملة، ويخرجون بها وهم يحملون أوراقًا مزورةً بواسطة بعض الجنود الإنجليز، قال «محمود الشاويش»: سأذهب إلى القهوة التي يجلس بها الحرافيش لآتيكم بالأخبار الصحيحة عن هذه الفعلة الغريبة، وجاء بعد ساعتين، وأخبرنا بالحقيقة الغريبة، وهي أن مجموعة من اللصوص كانوا على الأشجار في الغابة ليلة الأمس، وكانوا يجهزون لعملية سرقة عربة جيب من عربات الإنجليز بأن يسدوا الطريق بفرع شجرة كبيرة في منتصف الطريق، ويخرجوا فجأةً بأسلحتهم الصغيرة، ويستولوا على السيارة، ويغيروا معالمها، ويرسلوها إلى القاهرة أو الإسكندرية أو الصعيد، حيث يبيعونها بعد أن يغيِّروا معالمها، ورأونا وسمعونا طيلة الوقت، ولم يكونوا يعرفون هويتنا، فظنوا أننا إنجليز نضع ألغام للقطار المصري؟ وبعد أن راقبونا طيلة الليلة الماضية، وبعد أن انصرفنا -أزالوا الألغام والأسلاك وأفسدوا كلَّ شيء؛ ظنًّا منهم أن هذا الكمين للقطار المصري؛ فنبَّه الشاويش زملاءه بأن هذه العملية يقوم بها الفدائيون، وإياكم أن تكرروا فعلتكم هذه.

لقد كانت المجموعة من اللصوص الوطنيين يغامرون مغامرات رهيبة، وكنا نشتري منهم الأسلحة والمفرقعات، وكل ما نطلبه بأثمان زهيدة للغاية، وكان «محمود الشاويش» هذا -والذي هدى الله قلبه للإيمان- وأصبح فردًا مهمًا في مجموعتنا يقوم بتمويلينا بكلِّ أنواع الأسلحة، وفورًا طلبنا طلبًا جديدًا لعمل كمين جديد غير مبالين بالتعب والوقت الذي ضاع بدون طائل، وبدأنا في اختيار مكان جديد مناسب، فاخترنا مكان حقل مزروع بنبات الفول، والذي يغطي الشخص

الجالس فيه، وبجانبه بعض الأحراش بجوار السكك الحديدية، فبدأنا في الليل العملية من جديد، وانضم إلينا في هذه الليلة صديق وقريب وأخ عزيز هو «عبداللطيف دياب» وجار لي هو «مصطفى صالح»، وكان الاثنان طالبين في كلية الهندسة، ومضت ليلة كاملة في تجهيز الألغام والأسلاك، وتمت العملية بكلِّ دقة، رغم مرور البواخر والدبابات على طريق المعاهدة، والاختفاء، ثم العمل، ثم الاختفاء، حتى أتممنا العملية، وطلب مني «محمد علي سليم» أن أمد السلك بعيدًا حوالي ٥٠٠ متر، بعيدًا عن السكة الحديدية، ولكني أخبرته أنني أفضل أن أكون أكثر قربًا حتى أستطيع من موقعي القريب أن أحدد القطار الحربي الإنجليزي من القطار المصري، قال لي: ولكنك ستكون بهذا القرب معرضًا للشظايا والفلنكات وعجلات القطار المدمرة، قلت له ضاحكًا: إن الشهادة هي مطلبنا، ومرحبًا بها، قال لي مجادلاً: إن نسبة نجاتك ستكون صفر بالمائة، قلت له بكلِّ ثقة: لا أفكر الآن في نجاتي، ولكن كل همي الآن هو أن تنجح العملية مائة في المائة، سكت «محمد علي سليم»، وهو ينظر إليَّ مودعًا، وعدنا بعد أن وضعنا السلك المختبئ تحت حجر، وبجانب نخلة نستدل بها، ونظرنا حولنا لنحدد المكان، ونتأكد من علامات معينة طبعت في الذاكرة، وانصرفنا، وأنا أدعو الله بالتوفيق، وكان الدكتور «كمال حلمي» يطاردني ويرجوني أن يكون مكاني في هذه العملية؛ لأنه يتوق إلى الشهادة في سبيل الله، ولكن هيهات، وذهب لـ«محمد علي سليم» ليرجوه، ولكنه قال له: «إذا وافق عبد الرحمن، فلا مانع عندي»، ولكن هيهات، فالشهادة شيء رائع، والشهداء أحياء عند رب العالمين، ومع النبيين والصديقين.

صلينا الظهر جماعة، وارتديت ملابس عمال السكة الحديدية، وأخذت سلاحي معي -مسدس كبير وقنبلتين يدويتين - تحسبًا لمواجهة مع الإنجليز قبل العملية، واحتياطًا ضروريًا، ووضعت البطارية الجديدة القوية المجربة حول وسطي، وودعت أحبابي وإخواني، ورأيت في عيونهم نظرة وداع كأنهم سيرونني لآخر مرة، ولقد كان هذا إحساسي العميق بذلك أيضًا، وتوكلت على الله، وأوصيت قريبي «عبداللطيف دياب» أن يبلغ تحياتي وحبي لأمي وإخوتي وجميع أصدقائي، وتوكلت على الله، وتمتمت ببعض آيات القرآن الكريم.

بطريقة متسرعة، أو متأخرة جزء من الثانية، وأخذت أسأل نفسي: تُرى هل التوصيلات الكهربائية سليمة أم غير سليمة؟ وهل يا تُرى الأسلاك الموضوعة متصلة، أم بها خلل ما؟ أسئلة وتخوفات مرت بخاطري، ولكني توكلت على الله، وسألته نجاح هذه العملية؛ لأنها وغيرها ستهز هؤلاء المستعمرين، ويعلمون ويوقنون أن لا حياة لهم في بلادنا بلاد الإسلام، وبينما أنا في أفكاري وهواجسي؛ إذ سمعت صوت القطار من بعيد، وأخذ يقترب شيئًا فشيئًا، وأخذ صوته يزداد، إنها لحظة اليقين، ولا بدَّ من الوقوف للتأكد بأنه ضالتي.. سيراني الحرس، ولكن لا بدَّ من التأكد واليقين، وتأكدت، وتيقنت أنه القطار الحربي.. ضالتي؛ فانبطحت على الأرض والبطارية أمامي، أمسكها بيدي اليسرى لأثبتها، وعيناي على القطار لأتأكد من عرباته التي في المقدمة، وفي نفس اللحظة وضعت السلك السالب في مكانه، وأعدت النظر بسرعة إلى القطار، وفي نفس اللحظة ممسكًا بالسلك الموجب في يدي بثبات، وتوكلت على الله، ووضعت السلك الموجب الذي بيدي اليمنى في مكانه.. وقامت القيامة، واهتز كلُّ شيءٍ حولي، انفجارات هائلة، وأصوات هادرة، وفلنكات تتطاير، وعجلات، وحديد، ونيران حولي، ودخان، وغبار، وطلقات، وانفجارات، إنني أسمع كل ذلك، وأرى كل ذلك.

إذًا أنا ما زلت حيًا، عجبت لذلك أشد العجب! وما هي إلا لحظات حتى بدأت أجمع افكاري بسرعة تحسست جسدي، فإذا كل شيء على ما يرام، لم أصب بخدش واحد، ولقد علمت أن قربي من مكان الإنفجار حماني من الشظايا التي تطايرت حولي، وبعدي بمسافات كبيرة من شدة الانفجار، ولقد حمى رأسي وأذناي ما كنت أرتديه على رأسي (كاب الطيارين)، وأضع على أذني قطنًا كثيرًا، وكذلك بين أسناني؛ حتى لا أصاب بارتجاج في المخ، وكانت هذه وصية أخي «محمد علي سليم»، وبدأت أتمالك نفسي: ما العمل الآن، لم أكن أضع في خطتي، ولم يرسمها لي أحد، كيف أنسحب؛ لأن النجاة كانت مستحيلة من هول الانفجار، أما الآن، فأمامي طريقان: إما أن أسبح في القناة، وهي مسافة كبيرة مكشوفة والشمس ساطعة، والرؤية واضحة، وإما أعبر طريق المعاهدة، وهو مملوء بالعربات والمصفحات، لقد أعطاني الدخان الكثيف فرصة للتفكير السريع، فقرَّرت أن

أستغل هذا الدخان الكثيف لأختار مكانًا في حقل الفول تكون نباتاته كثيفة؛ لأنام فيها حتى يحين الليل، وحينذاك سيكون الليل لي ستارًا، فأسرعت وسط سحب الدخان الكثيف، ونمت على ظهري، وغطيت جسدي بنباتات الفول الكثيفة برائحتها العطرة، وبدأ الدخان ينقشع، ولكن الطلقات مستمرة من حولي ليس عليَّ، بل هي طلقات عشوائية يطلقها الإنجليز من هنا وهناك، وأنا في هذه الزراعة الكثيفة غير مصدق نفسي، هل أنا سليم، لم أصب بأي أذى، وأن العملية قد نجحت تمامًا، فقد رأيت من بعيد العربتين والونش منفصلين، لم يصابا، والحمد لله، وأن الضربات المباشرة كانت في عربات الحراسة، وقد تحطم القطار وانقلب، وأصبح كومًا من الحديد الملوي.

كنت قد ابتعدت عن مكان الانفجار بحوالي ٣٠٠ متر تقريبًا، ووضعت يدي على المسدس، وأمسكته بيدي، وتحسست القنابل لأكون مستعدًا لأي هجوم عليَّ، وأنا مختبئ في هذا المكان، والسيارات من حولي تفتش في هذا المكان عن مرتكب التفجير، فقد كنت الآن مستعدًا للدفاع عن نفسي، وها قد جاءت فرصة الشهادة مرة أخرى، ولا بدَّ قبل أن أستشهد أن أقتل عدة جنود، فكنت أسمع حولي تصايح الجنود الإنجليز يتكلمون بصوت مرتفع مؤكدين وجود الفدائيين في هذه المنطقة، وأخذوا يمشطون المنطقة ذهابًا وإيابًا، وتبتعد أصواتهم أحيانًا، وتنخفض أحيانًا، وهذا يعني اقترابهم أو ابتعادهم عن مكان اختبائي بين شجيرات الفول التي تغطيني تمامًا، إلا من فوق، إذا جاءت الطائرات تساعد على البحث.

وجاء وقت صلاة العصر، وأنا محاصر في هذا المكان، وحولي الأعداء من كلِّ مكان يتصايحون، ولقد كانت أروع صلاة صليتها في حياتي، فقد أحسست أنني أطير بين السماء والأرض، وصليت العصر، وأنا مستلق على ظهري، ووجهي إلى السماء، وأناجي ربي، وأنا أحس أنه يراني، وأنا أعيش في فيوضاته، وكان إحساسًا خلابًا، تمنيت أن يستمر طيلة حياتي، حتى أستشهد، ولكن الركعات الأربع انتهت، وسلمت يمينًا ويسارًا، وعدت إلى الدنيا وما فيها، وعلمت الموقف الذي أنا فيه بعد أن عشت دقائق لا أحس إلا بالملائكة من حولي، وسمعت من فوقي صوت طائرات تجوب السماء على انخفاض، وتكاد تمس الأرض باحثة عن وجود بشر في

هذا المكان، وكنت أحاول بيدي أن أثني عيدان الفول اللينة حول جسدي لتغطيني تمامًا عن عيون ركاب الطائرة، واستمرت جولات الطائرة حوالي نصف الساعة، ثم انصرفت، وجاء دور البحث الثقيل بالدبابات، وأخذت تمشط المكان غير عابئة بإفساد عيدان الفول بجنازيرها الثقيلة، وكان من الممكن أن أموت شهيدًا تحت وطء هذه الدبابات الثقيلة، وقد قرَّرت إذا أحسست باقتراب أية دبابة مني أن أقوم، وألقي ما معي من قنابل يدوية في برج الدبابة، ولقد هممت بذلك أكثر من مرة، ولكني في آخر ثانية أحس بصوت الدبابة تستدير، وتتجه اتجاهًا آخر بعيدًا عني؛ فنبات الفول يغطيني تمامًا، وعناية الله ترعاني، أو أنني غير أهل للشهادة في سبيل الله، وغير جدير بهذا الوسام العظيم!!

وبدأت الشمس في الغروب، وهدأت أصوات الدبابات، وسمعت حوارًا من بعيد بين الجنود الإنجليز بأن يطلبوا الكلاب البوليسية المدربة للتفتيش في هذا المكان، بعد أن فشلوا بوسائلهم الأخرى، ولكن قدوم الليل بستاره الرباني، كان فرصة سانحة لي للتفكير الجاد في الانسحاب من هذا المكان، وقد هدأت حملة التفتيش الملحة، وبعد سدول الظلام كان أمامي -كما قلت من قبل- طريقان للانسحاب، إما عن طريق عبور قناة السويس سابحًا، ولم أكن أجيد السباحة، هذا بالإضافة إلى وجود البواخر المستمر على مدار الساعة بكشافاتها الباهرة، والتي تحيل الليل نهارًا، وإما عن طريق الزحف في غيطان الفول حتى أصل إلى طريق المعاهدة، والذي رأيت فيه بعد أن رفعت رأسي لأعاين المكان وأنا ملتحف بالظلام -رأيته مملوءًا بالدبابات والمصفحات تحيط بالمكان تطفئ أنوارها أحيانًا، وتضيئه، إذا أحست بأي صوت، ولقد قرَّرت بعد انشراح صدري أن أنسحب بهدوء في حقل الفول منتهزًا الظلام من حولي، حتى إذا كان بيني وبين طريق المعاهدة عشرة أقدام جلست في كومة من الشجيرات الصغيرة أنتهز فرصة مناسبة لعبور الطريق بسرعة وهدوء في نفس الوقت، وتساءلت: هل أجتازه زحفًا أم جريًا بسرعة، ولكل طريقة أخطارها؟! أأختار الزحف، ولكني لو زحفت لكنت بطيئًا، وقد تلحقني دبابة أو مصفحة من المصفحات الرابضة؟ أم أختار الطريقة السريعة المفاجئة، في ثوانٍ قليلة أجتاز الطريق كالريح أو كالسهم؟

وكنت في هذه اللحظات بفضل الله متمالك لكلّ مشاعري، لم تخالجني أبدًا لحظة خوف، رغم كل هذه الأخطار حولي؛ لأن أمنيتي أن أموت شهيدًا، فهل يجتمع حب الموت والخوف من الموت في وقت واحد، هذا لا يكون أبدًا، ولكن كل ما تعلّمناه في أصول حرب العصابات -والتي يواجه فيه عدد قليل من الرجال محدودي الأسلحة والإمكانيات جيوشًا مدربة ومجهزة بأحدث وأقوى الأسلحة -أن أضرب وأختفي، أضرب وأنسحب، ثم أضرب في مكان آخر وأنسحب، كما قال القرآن الكريم: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]، وليس معنى عدم المواجهة هو الجبن أو الخوف، ولكنها مهارة حرب العصابات أن أنزل أفدح الضربات للعدو بدون أي خسائر، أو بأقل خسائر ممكنة؛ حتى تستمر الحرب، وييأس العدو من بقائه آمنًا في بلادنا، ويفكر بجدية في الانسحاب.

وانتهزت فرصة سكون المكان وظلامه، وفي ثوانٍ قليلة كالريح المرسلة اجتزت طريق المعاهدة، ووجدت نفسي بعد ثوانٍ قد سقطتُ في ترعة صغيرة على حافة الطريق الأسفلتي، ويبدو أن الجنود بالدبابة القريبة -والتي كانت مطفئة أنوارها -قد أحسوا بحركتي السريعة، فأضاءوا أنوارها، وسمعت موتور الدبابة القوي يدوي، وتتحرك الدبابة بضوضائها وضجيجها، وتصل إلى المكان الذي أختبئ فيه في الترعة، ثم تدور حول نفسها، وتوجه أضواءها إلى الترعة، ثم تعود أدراجها إلى مكانها، لقد شكَّ الجنود في حركتي السريعة، ولكنهم لم يكونوا متأكدين من شيء، ولذلك انسحبوا من المكان الذي أختبئ فيه، وكانت مياه الترعة مثلجة؛ فقد كنا في فصل الشتاء في ديسمبر ١٩٥١م، وأحسست لأول مرة بالبرد الشديد، وقد امتلأت ملابسي بالمياه.

أنا -والحمد لله- في بر الأمان، وأمامي المزارع الشاسعة، والتي أستطيع أن أختبئ فيها، وعلى بُعد عدة أميال يوجد لنا كمينان أو مخبآن لبعض الفدائيين من الأعراب من سكان المنطقة، وهما «عميرة»، و«سليم»، و«سليم» هذا بطل شجاع، فهو الذي خرج معي ليودعني قبل العملية، وأخبرني أنه سيجلس ليراقب حركاتي، ويكون عونًا لي بعد العملية بالطبع، لم آخذ كلامه بجدية؛ لأنني لم أكن أضع في

تقديري أنني سأنجو أبدًا من هذه العملية، ولن أعود أبدًا، ولكنني أجد نفسي الآن، وقد عدت سليمًا معافى، ولكني أريد الآن أن أخلع هذه الملابس المبتلة، وأرتدي غيرها، وأن أدفئ جسدي المرتعد من شدة البرد؛ فاتجهت في هذا الظلام الدامس، والمزارع من حولي تخفي معالم الطريق إلى منزل «عميرة» الريفي، والذي يتشابه مع كثير من البيوت في هذه المنطقة القروية.

وأخيرًا وصلت إلى منزل «عميرة» البسيط، وطرقت على الباب، وفتح لي والده، وهو رجل أعرابي عجوز، فسألته عن «عميرة»، فأخبرني أنه غير موجود، فخطر في ذهني -والبرد شديد، والملابس مبتلة، ولكنني استحييت- أن أطلب منه أن أدخل، وأنتظر «عميرة»، ولكني رجوته أن يعيرني الحمار المربوط في الخارج، والذي كنا نركبه؛ ليوصل لنا الأسلحة والذخائر إلى بيت «سليم»، وكان الوالد قد رآني عدة مرات، ويعرفني، فأعطاني الحمار، والذي ركبته والكلاب تنبح من حولي، واتجهت به إلى بيت «سليم» لأرتدي ملابس جافة، وأتدفأ بالنيران، والتي تعيد الدماء الدافئة إلى عروقي -يقولون عن الحمار: إنه حيوان غبي، ولكني أشهد أن هذا الحمار قد علم جيدًا ما أردته منه، وهو أن يوصلني إلى بيت «سليم»- ولقد نمت وأنا على ظهر الحمار من فرط تعبي والبرد والجوع، ووقف الحمار لا يتحرك، حاولت مرارًا أن أشجعه على التحرك، ولكنه أبى، وعلمت بعد الفحص أن هذا المكان الذي وقف فيه الحمار، وأبى أن يتحرك هو بيت «سليم»، فربتُّ على رأس الحمار الذكي، ونزلت من على ظهره، وطرقت على باب «سليم»، ففتح لي الباب أحد أبنائه الصغار، فسألته عن أبيه، فأخبرني أنه خرج منذ الظهيرة، ولم يعد حتى الآن، ما العمل؟ وماذا أفعل في هذا البرد الشديد، والملابس المبتلة؟ هل أطلب من أهل الدار ملابس جافة؛ أستبدل بها ملابسي هذه المبتلة؟ أو أطلب منهم بعض الحطب كوقود أتدفأ به؟ ولكني استحييت، وجلست في الخارج بجوار الحائط بجانب الحمار أتدفأ به وبجسده الدافئ.

ومن رحمة ربي بي أن أحسست بخطوات قادمة نحو المنزل، فطلبت من الله أن يكون رفيقنا «سليم»، وإذ به حدث، وكان هو «سليم» الحبيب، فناديت عليه، وسمع صوتي، واتجه نحوي، ولكنه اندهش؛ حينما رآني وأخذني في أحضانه، وأخذ

يقبّلني، وهو غير مصدق أنني حيٌّ أرزق، وأخبرني أنه جلس على الضفة الأخرى ليراقبني، ورآني لآخر مرة أختفي بين نباتات الفول، وظنَّ أنني استشهدت، وحاول أن يدخل في غيطان الفول ليسحب جثتي، ولكنه لم يستطع أبدًا لوجود الدبابات والجنود يفتشون في المكان، ولم يستطع أبدًا الدخول إلى مكان وجودي، فقلت له مازحًا: «إنني عفريت عبد الرحمن، وليس عبد الرحمن نفسه، فعبد الرحمن موجود في غيطان الفول، هيا يا سليم جهِّز ملابسًا جافةً، ونارًا دافئةً، وطعامًا شهيًّا لعفريت عبد الرحمن، وإلا سيضربك»، فضحك «سليم» غير مصدق نفسه، وقال: «إنني أحس أنها معجزة من الله أن نجاك من وسط هذا الهلاك، وهذا الدمار»، ودخلنا إلى منزله البسيط، وأدخلني الحمام الصغير عنده؛ حيث جففت نفسي، ولبست ملابسه البلدية، ودبَّ الدفء في جسدي، وجلست أمام موقد من الأخشاب المتقدة، وأكلنا وجبة بسيطة، ولكنها شهية، وشربنا الشاي، وطلب مني أن أقص عليه بالتفصيل ما حدث، ولكنني أخبرته أنني الآن سأنام بعد هذا الدفء، وهذا الطعام، فإلى الغد يا «سليم» حتى أستريح، ثم نطمئن الرفاق والإخوة الأعزاء -والصباح رباح- كما يقولون، وخلدت في نوم عميق على فرشة خشنة على الأرض، ولكن هذه المخمصة الكبيرة كانت أفضل فراشًا من الحرير والديباج.

استيقظت مبكرًا بعد أن نمت حوالي ثلاث ساعات، وكانت -والحمد لله- كافية لاسترداد عافيتي ونشاطي، وخاصة أنني كنت في لهفة شديدة لمقابلة إخواني القلقين عليَّ، وهم كانوا يراقبونني بنظاراتهم المكبرة عن بُعد، وقد رأوا كلَّ شيء على الطبيعة، ورأوني من غير شكٍّ أسقط في حقل الفول، ورأوا الإنجليز يفتشون باهتمام شديد في الحقل بدباباتهم وجنودهم، وهم متأكدون من غير شكٍّ أنني نلت الشهادة، وستكون مفاجأة كبيرة لهم؛ لو رأوني سالمًا معافيًا، وقد تمت العملية بكلِّ سلام، والحمد لله.

قدَّم لي «سليم» الحبيب إفطارًا بدويًّا شهيًّا دسمًا: كوب كبير من اللبن الساخن، وبيض مسلوق، وزبد، وخبز ساخن، وأفطرنا بعد أن صلينا الفجر، أفطرنا وأمامنا موقد من الأخشاب الملتهبة، والتي تشيع الدفء في الحجرة الصغيرة، وفي أوصالنا، وأسرعنا بالخروج على أقدامنا، وقد بدأت بوادر نور الشمس رائعة،

وكان «سليم» يسير معي، وهو يطير من الفرح، وأخذ يقص عليَّ ما فعله ليلة الأمس، وقد دخل حقل الفول يفتش فيه على جثتي ليسحبها بعيدًا عن الإنجليز، ولكنه فشل في العثور عليَّ في هذا الحقل الضخم، ولقد كاد يكتشف لولا رعاية الله، ولو أمسكوا به لتأكدوا أنه الفدائي الذي قام بنسف قطارهم، وقلت له ضاحكًا: «كيف تفعل ذلك، يا «سليم»، لقد كنت أحاول الخروج من هذا الفخ الكبير»، وأنت تدخل فيه بنفسك، قال لي، وهو ينظر إليَّ بكلِّ مودةٍ: «لقد كان هدفي إنقاذك حيًّا أو ميتًا، يا عبد الرحمن، ولم أفكر أبدًا في العواقب»، قلت له باسمًا: «ومن كان ينقذني من هذه الملابس المبتلة، ويأويني في بيته الدافئ، ويطعمني هذا الطعام الشهي، يا «سليم» الحمد لله على سلامتك، أقولها لك بكلِّ صدقٍ، وأشكرك أن عرَّضت نفسك للأخطار من أجلي، يا شيخ العرب، يا سليم».

وصلنا إلى قهوة صغيرة، وقد بدأ العمال يتوافدون عليها، ويحتسون الشاي، ليستعدوا للذهاب إلى أعمالهم، وأخذنا نستمع إلى أحاديثهم ونقاشهم، وهم يقصون عن حادث (الفداويين)، كما يطلقون عليهم، وكانوا يبالغون في الحديث والقصص كأنها خيال، فواحد منهم يؤكد أنه يعرف الفدائيين الذين قاموا بهذا العمل، وقد عاونهم وأرشدهم، وآخر يتحدث عن أنه رأى بعينه الفدائيين، وهم ينسحبون، وقصص خيالية أخرى، إنْ دلت على شيء؛ فإنما تدلُّ على سعادتهم بهذه العملية، وإكبارهم لها، وأخذنا نستمع ولا نتكلم مع أحد.

وأخيرًا توجهنا إلى قنال السويس لنركب «المعدية»، فعلمنا أن الإنجليز أوقفوا استعمالها منذ الأمس، ولكن «سليم» العربي الذكي -الذي يقيم في هذه المنطقة، ويعرف خباياها- توجَّه إلى بعض الشجيرات على القناة حيث يربض صياد عجوز بقاربه الصغير على شاطئ القناة، وتحدث معه «سليم»، وكان يعرفه من قبل، وركبنا الزورق الصغير، وعبر بنا قناة السويس، إلى الضفة الشرقية، حيث بلدة القنطرة شرق، والتي تعد مركزًا آمنًا لإخواننا؛ فنلجأ إليه بعد كلِّ عمليةٍ؛ لأنه أكثر آمانًا، وأمامه الصحراء الممتدة، والتي بها أعوان من الأعراب في خيام متفرقة هنا وهناك.

اتجهنا إلى الشقة الكبيرة، والتي كان صاحبها «الأستاذ محمود خاطر» -الموظف

في السكة الحديد، وهو من الإخوان القدامى، والذي قدَّم لنا شقته تلك لتأميننا- وطرقنا الباب، وكنا نحس بضخامة المفاجأة، فقلت لـ«سليم» مداعبًا: «تقدَّم أنت يا «سليم»، وسأختبئ وراءك، واسألهم عني، كأنك لا تعرف شيئًا لأرى وأسمع رد فعلهم»، واختفيت وراء «سليم»، وفتح الباب، وسمعت الحوار بين «سليم» و«علي نعمان» صديقي وأخي، وكذلك «أبو الفتوح عفيفي»، سألهم «سليم» عني وعن أخباري، فقالوا له: «إننا نسألك أنت عنه يا «سليم»، وقال «فوزي فارس»: «لقد أذاعت إذاعة لندن عن العملية، وقالت: إن الفدائي الذي قام بالعملية قتلته القوات الإنجليزية بالرصاص»، وهنا ظهرت لهم فجأة، فما كان رد الفعل لأولئك الصحاب والإخوة الأعزاء الذين أعزهم كما يعزونني، والذين هم متأكدون الآن مائة في المائة أنني شهيد؛ فأظهر لهم لأرى ردود أفعال هؤلاء الأحباب.

لقد كان رد فعلهم عجيبًا، فقد قعد من كان واقفًا، وقام من كان جالسًا، وأخذ البعض يفركون أعينهم غير مصدقين، أما أخي «علي نعمان»، فقد احتضنني بكلِّ قوة، وقال بلهجة مؤكدة أنه رآني في المنام ليلة الأمس سليمًا معافيًا، وتمالك الإخوة جأشهم، وقد تأكدوا من وجودي أمامهم سليمًا غير مصاب، وأخذوا يحتضنونني حتى كادت عظام ظهري وضلوعي تتحطم من شدة انفعالهم، وأخذت أقول لهم ضاحكًا: «أنا عفريت عبد الرحمن، وهو يهديكم السلام»، وجلسنا في فرحة غامرة، وأخذوا يقصون عليَّ ما حدث دقيقة بدقيقة، وكيف وقفوا على سطح المنزل بنظاراتهم المكبرة يراقبونني لحظة بلحظة حتى سقطت واختفيت في حقل الفول ليغطيني سحابة كثيفة من الدخان الأسود، وحكيت لهم باختصار شديد ما تمَّ بعد الانفجار وكيفية انسحابي، ولقد نظر إليَّ «محمد علي سليم»، المخطط للعملية وعقلها المدبر، نظر إليَّ بفرح كبير، كوالد وجد ابنه الغائب بعد طول غياب، وقال للإخوة شارحًا رفضي بأن يكون مكاني الذي أكمن فيه لأفجر الألغام بعيدًا عن خط السكة الحديدية، ولأكون في آمان عن الشظايا المتطايرة، واختياري بكلِّ إصرار مكانًا قريبًا جدًّا من الخطوط بحجة التمكن من رؤية القطار، والتأكد من أنه القطار الإنجليزي، وليس القطار المصري، وأن إرادة الله الغالبة جعلت هذا المكان القريب أكثر أمنًا؛ لأن شدة الانفجار أطاحت بالشظايا بعيدًا عن المكان القريب الذي

اختاره عبد الرحمن، ولو كان في المكان البعيد الذي اخترته له ليكون بعيدًا في الأمان؛ لأصابته الشظايا الهائلة من فلنكات طائرة وعجلات ملتهبة طائرة وغيرها من الشظايا القاتلة، ولكنها إرادة الله ليعيد لنا عبد الرحمن بخير وسلامة، ولكنني قاطعته قائلاً، وبكلٍّ صدق: «ولكني فقدت أمنيتي الغالية، وهي أن أحصل على الشهادة الغالية، ويبدو أنني غير أهل لها».

عملية نسف الكوبري

أخذنا نتداول الأحاديث، ولكنني قلت لهم: لننسى هذا الموضوع ونفكر في عملية جديدة أخرى، قال «محمد علي سليم» و«فوزي فارس»: هذا ما سيحدث فعلاً بعد يومين من الراحة، وحتى يهدأ الإنجليز قليلاً من هذه الصدمة الكبيرة - واستمر «محمد علي سليم» في حديثه- فقد علمت من مأمور القنطرة أن قائد منطقة الإنجليزي اجتمع بالأمس مع المأمور في جلسة خاصة، وأخبره أنه يشكره أن منطقته هادئة بعد الانفجارات التي حدثت في دبابات دوريات على طريق القنال، وأنه يريد أن يستمر في هذا الهدوء، وما أن أكمل حديثه حتى سمع الدوي الهائل، ونظر من شباك المكتب، ورأى ما رأى؛ فقال للمأمور غاضبًا بأنه يسحب شكره، وسيعرف كيف سيكون العقاب، وانصرف غاضبًا، وأنه سمع إذاعة لندن الأمس تتحدث عن الحادث بالتفصيل، وتعلق بأن عناصر جديدة عالية التدريب تشترك الآن في عمليات حرب العصابات في منطقة القنال، ولذلك لا بدَّ لنا من عملية جديدة أكبر من السابقة، وأمامنا عمليتان كبيرتان: الأولى: نسف باخرة إنجليزية في قناة السويس، والثانية: نسف كوبري كبير أقامه الإنجليز على الترعة الإسماعيلية، وكادوا أن ينتهوا من تشييده، وقد أقاموه حتى يقطعوا عنا خط الإمداد، ويسهل عليهم مطاردة الفدائيين، وقطع الطريق عليهم.

وقسَّمنا «محمد علي سليم» فرقتين بعد أن استرحنا يومين كاملين، فرقة بقيادة «فوزي فارس»، وذلك لعمل دوريات استطلاع على الكوبري المقام على ترعة الإسماعيلية، وكنت مساعدًا له، وارتدينا زي فلاحين، وركبنا حمارين، ووضعنا عليهما بعض الطعام والخضروات، ومررنا بجانب الكوبري، وحاولنا المرور عليه، لكن الحرس الإنجليزي استوقفونا بغلظة قائلين لنا بالإنجليزية: «ممنوع المرور»،

وبالصدفة عثر الحمار وسقط على الأرض، وتساقطت الخضروات والخيار وغيرها، وأخذنا نجمعها، وأخذ الجنود الإنجليز يتمازحون على هؤلاء الفلاحين السذج، ويتناولون ثمرات الخيار، ويرمونها لبعضهم البعض، وكنا كرماء معهم، فأعطيناهم المزيد، وأخذنا نتباسط معهم بالإنجليزية الركيكة؛ حتى نتمكن من دراسة الموقع جيدًا، وحتى نستطيع أن نحدِّد مكان فرقة الحراسة بالضبط، وكيفية الوصول إلى هذا الكوبري، ومتى تتغير دوريات الحراسة؟ استغرق هذا العمل عدة أيام، حتى تأكدنا تمامًا من التوقيت السليم لبث الألغام، وتركيبها تحت القوائم والدعامات -على الرغم من وجود الحراسة- وأن أنسب الأوقات هو قبل الفجر بساعة واحدة.

بدأ «محمد علي سليم»، و«فوزي فارس» يخططان للعملية، ويحددان مقدار المادة المتفجرة التي تكفي، واختيار الأشخاص الذين سيقومون بالتنفيذ، ولقد كنت واحدًا منهم، والحمد لله، لعلي أنال الشهادة هذه المرة، وحدَّدنا ساعة الصفر، وبدأنا في تحميل المفرقعات والأدوات في مكان قريب من الكوبري وسط المزارع القريبة، وكان هذا العمل يتم ليلاً وبهدوء وتكتم؛ حتى لا يشعر الحرس القريب ولا حتى الفلاحين العاملين في أرضهم بأي شيء غريب في أرضهم القريبة من الكوبري المقام، واكتملت الاستعدادات، وراجعنا مرة ثالثة لنتمم على كلِّ صغيرة وكبيرة، ولقد كان «محمد علي سليم» عظيم الهمة، رائع التنظيم، يحتاط لكلِّ شيء، ولا ينسى شيئًا على الإطلاق، ويعمل معنا هو و«فوزي فارس» بنفسيهما، وجاءت ساعة الصفر، وبدأنا قبل الفجر بساعتين نتواجد بالقرب من أجهزتنا ومتفجراتنا، ونحن نسمع عن بُعد أصوات الجنود الإنجليز يتحدثون، ولقد كانت هناك فرقتان، الأولى في أول الكوبري من الناحية الشرقية، والأخرى من الناحية الغربية، أما وسط الكوبري، فقد كان خاليًا من الحرس الإنجليزي، وهذا هو طريقنا أسفل الكوبري، وتحت أعمدته لنضع فيه المتفجرات، وسيكون طريقنا في خوض الماء بهدوء، وبدون أي صوت.

قال لنا «محمد علي سليم»: «الآن نتقدم على بركة الله، إما الشهادة أو النصر بإذن الله»، تقدَّمنا ببطء شديد، وكانت مياه الترعة تكاد تصل إلى أكتافنا، ونحن نتقدم ببطء شديد وحرص أشد؛ حتى لا نصدر أي صوت، وقد وصانا قائدنا أن

نكتم أي عطسة أو كحة مفاجأة؛ حتى لا ينكشف أمرنا للحراس المتواجدين فوقنا، فالعملية كانت تحتاج إلى الحذر الشديد والهدوء والسكينة؛ حتى نستطيع أن نثبِّت المفرقعات حول أعمدة الكوبري المقام حديثًا، ثم نعمل التوصيلات اللازمة بكلِّ دقة وحرص، وكان «محمد علي سليم» يتابع عملنا ويطمئن على إتمامه أكثر من مرة؛ حتى لا يضيع عملنا هباءً، إنْ كان هناك أي خطأ في التوصيلات.

ومضت أكثر من ساعة، ونحن نسمع ضحكات الجنود الإنجليز من فوقنا، والحمد لله، كانت رعاية الله تحوطنا، فلم يكن يتصور الجنود أننا تحتهم على بُعد أمتار قلائل نجهِّز لنسف هذا الكوبري الذي شيَّدوه فوق ترعة الإسماعيلية لعدة شهور من العمل؛ لقطع الطريق علينا ومطاردتنا.

وأخيرًا انتهينا من التركيبات، وكانت نقطة حراسة تابعة لنا على تبة قريبة مختفية تراقب الموقف وتحمينا، إن احتاج الأمر أو الرد على القوة الإنجليزية إنْ اكتشف أمرنا، وجاء الوقت الحرج، وهو إشعال الفتيل البطيء الذي يعطينا فرصة ١٥دقيقة للانسحاب ببطء، وأشعلنا الفتيل، وسمينا الله، وكان «الكبريت» من نوع خاص لا يصدر ضوءًا، بل إشعال خامد بدون ضوء، وبدأنا في الانسحاب ببطء حتى وصلنا بسلامة الله إلى نقطة حراستنا التي غطت انسحابنا، ثم بدءوا في التحرك بعدنا، وأخذنا نعد الثواني، ونحن ننسحب بسرعة حتى نبتعد بقدر الإمكان عن جحيم الانفجار، وجلسنا لنستريح بين شجيرات في الطريق، ونراقب الانفجار، ومدى نجاحه!!

وفي الوقت المحدد تمامًا دوي الانفجار، وأضاء ظلمات الليل، وتناثرت الشظايا، وهنأ بعضنا بعضًا على نجاح العملية بفضل الله بدون خسائر منا، وبدأنا في الانسحاب السريع؛ لأن طلقات النيران العشوائية انطلقت من كلِّ مكان من المعسكر القريبة، وبدأت كشافات المعسكرات تمشط المنطقة، وكنا نسقط على الأرض بلا حراك حينما يمر علينا أضواء الكشافات الباهرة، ثم نسرع في الانسحاب سريعًا، حينما تبتعد الكشافات عنا، وأخيرًا وبعد حوالي نصف الساعة من الجري السريع والمتقطع، وصلنا إلى مركز من مراكزنا، وهو بيت ريفي صغير

وسط حقول واسعة، وكان به أحد مخازن سلاحنا، وخلدنا للنوم واستيقظنا مبكرين وأدينا صلاتنا شكرًا لله على توفيقنا، ومع ضوء الشمس، وعلى الأفق من بعيد شاهدنا دبابات ومصفحات ومشاة من العدو تفتش المنطقة بحثًا عن مرتكبي حادث التفجير، ولقد كنا جاهزين للصدام معهم، ولكن «فوزي فارس» أخذ يشرح لنا كيف أن من مهمة أفراد العصابات أن يضربوا، ثم ينسحبوا، ولا يصطدموا مباشرة بقوات العدو؛ لأن هناك فرقًا هائلاً بين عددنا وتجهيزاتنا البسيطة، وجيشهم الجرار.

إنَّ مهمتنا أن نضرب ونختفي، ثم نضرب ونختفي، ونحيرهم ونصيبهم بضربات موجعة لا يعلمون مصدرها ولا وقتها، يحس العدو بعدها أن من الأفضل له أن ينسحب، ويترك المكان، وذلك للخسائر الكبيرة التي يتكبدها.

إنَّ حرب العصابات هي الأسلوب الناجح دائمًا في حروب التحرير، المهم أن تستمر، وها هي إسرائيل اللعينة، والتي تملك القنبلة الذرية، قد انسحبت أخيرًا ذليلةً من جنوب لبنان بعد المقاومة الصادقة والمستمرة من «حزب الله» في الجنوب، ولو أرادت سوريا وفلسطين أن تطرد العدو من بلادهم لاستعملوا نفس الأسلوب، ولكن للأسف الشديد أدخل «ياسر عرفات» عناصر «حماس» السجون إرضاءً وتنفيذًا لشروط اليهود، وها هم الآن بعد أن نفَّذ هذه الخيانة يلعبون به، كما تلعب القطة الشرسة بالفأر المسكين، وكذلك سوريا في حكم الأسد الذليل-المهم لا مجال للاستطراد الآن، فقد قرَّرنا الانسحاب، ونحن نرتدي ملابس الفلاحين لنعود من جديد إلى عملية جديدة، وقد أمنا من استعمالهم للكوبري الذي أنشئوه لتطويقنا، واستطعنا في النهاية مرة أخرى أن نعبر إلى القنطرة -المقر الرئيسي لنا.

التجهيز لعمليات أخرى

بعد أن استرحنا يومين، اجتمع بنا «محمد علي سليم» لمناقشة العملية القادمة، وكانت عملية طموحة جدًا ومؤثرة للغاية، وجلس «محمد علي سليم»، ومعه «فوزي فارس» الشجاع، وجلسنا حولهم، وهم يشرحون العملية القادمة، وهي تفجير سفينة إنجليزية في قناة السويس.

الإمام البنا وعلى يساره صلاح شادي

لقد كانت مهمة صعبة وخطيرة وهامة، وبطريقة «محمد علي سليم» كان يسمع كل الاقتراحات، وأخذنا نتناقش أحسن وسيلة، وأخيرًا توصلنا إلى طريقة جهنمية، فلقد كانت هناك على حواف القناة على امتدادها عوامات مطلية باللون الأحمر والفسفوري المضيء لتحدد للبواخر طريقها؛ حتى لا تنحرف يمينًا أو يسارًا، ولقد جاءتنا الفكرة العبقرية لعمل لغمين كبار بنفس حجم وشكل العوامات الفسفورية يمينًا ويسارًا، وأن يكونا مربوطين سويًا بحبل غاطس، فإذا مرت الباخرة المطلوبة اصطدمت مقدمتها بالحبل، فيتحرك اللغمان، أحدهما إلى اليمين، والآخر إلى اليسار، وتكون مركبة على الألغام عدة مفجرات تنفجر بالضغط عند اصطدامها بجوانب الباخرة، وصادفتنا مشكلة مهمة، وهي أن القناة تمر بها عدة بواخر من عدة جنسيات، فلو تركنا الألغام هكذا بدون ترتيب دقيق يمكن أن تنفجر في أية باخرة، ولكننا نريد صيدنا باخرة أو بارجة إنجليزية؛ فلا بدَّ من الترصد، وتركيب الحبل الواصل بين اللغمين عند التأكد تمامًا من مرور الباخرة الإنجليزية، وذلك بدون أن يشعر أحد، أو يرانا رغم الكشافات الباهرة للبواخر في قناة السويس.

وذهب «محمد علي سليم» ليجهِّز برميلين كبيرين شبيهين بالعوامات، ويلحم في جوانبها حلقة كبيرة لربط الحبال بها، وكنا في غاية السعادة والنشاط، ونحن نعد أنفسنا لهذه العملية الباهرة، وكان العمل الفدائي الصعب، وهو ربط الحبل في اللغم الكبير عند التأكد من أن الباخرة هي المطلوبة، وللأسف الشديد لم يكن من نصيبي، بل من نصيب أخينا الدكتور «كمال حلمي»، والذي كاد يطير من الفرح لقرب شهادته، وقد حاول من قبل أن يستأثر بعملية القطار، وقد رفضت بتاتًا، وتمسكت بها، وها هو الآن سعيدًا، وأنا أحاول مساومته على ترك هذه العملية لي، ويقول لي ضاحكًا وشامتًا: «بلاش طمع، يا عبد الرحمن، أنت مش وش شهادة، أنا سأكون الشهيد الأوحد».

عمليات للفدائيين الإخوان

الشهيد عادل غانم

زارنا الأخ الرائع «كامل الشريف»، والذي كان قائد «معسكر البريج» في حرب فلسطين، وهو شابٌ عبقريٌ، شجاع، وسيم، هادئ الطبع، ويبدو أنه المسئول التنفيذي عن جميع الفدائيين في قنال السويس، وحضر ومعه أخبار سعيدة عن عمليات نفذت في أماكن متفرقة على طريق القناة والمعسكرات الإنجليزية، وحكى لنا باقتضاب، وهو قليل الكلام، عن حادثة نسف مخازن ذخيرة «أبي سلطان»، والذي قام بتنفيذها مجموعة صغيرة من الإخوان، وعلى رأسهم الأخ «خطاب»، وهو شابٌ هادئ، حافظ للقرآن، صغير الحجم، وكان يذكرني دائمًا بالصحابي الجليل ابن مسعود ﷺ، فقد تسللوا داخل المعسكرات، رغم الحراسة المشددة والأسوار والأسلاك المكهربة، ووضعوا ألغامهم في مخازن الذخيرة، والتي أخذت تنفجر لعدة أيام، ولم يستطع الإنجليز السيطرة عليها حتى انتهت عن آخرها، ولقد كانت ضربة موجعة للإنجليز، فالضربات مركزة ومستمرة ومؤثرة.

وأخبرنا «كامل الشريف» عن عملية أخرى قام بها «عمر شاهين» ورفاقه، فقد فجَّروا عبوة ناسفة في نقطة تفتيش إنجليزية، وحينما جاء للإنجليز تعزيز سريع اصطدم «عمر شاهين» ورفاقه معهم، رغم التعليمات بالانسحاب الفوري بعد العملية الأولى، واستمر تراشق الرصاص عدة ساعات، وسقط «عمر شاهين» شهيدًا، و«أحمد المنسي»، و«عادل غانم»، وكان «عمر شاهين» و«عادل غانم» من أعز أصدقائي وإخواني الأحباب، وكان شعوري بفقدهم مزيجًا من الحزن لفراق أحباب أعزاء، والغبطة لمصيرهم كشهداء أبرار، وتمثلت الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وهذه الحرب -والحمد لله- مقدسة وفي سبيل الله، فنحن ندافع عن وطننا أرض الإسلام ضد أعداء صليبيين مغتصبين.

وكان هؤلاء الإخوة الثلاثة أول شهداء لنا في جبهة القتال، لقد تصرفوا تصرفًا

شجاعًا، ولكنه ضد مبادئ حرب العصابات: اضرب وانسحب، ثم اضرب مرة أخرى وانسحب، ولكنها إرادة الله لحكمة يراها الله ﷻ، وعلمنا من «كامل الشريف» -وكنا في مكاننا هذا منقطعين عن كلّ الأخبار، فلم تكن وسائل الاتصال بمثل هذه الكفاءة في هذه الأيام- أن جامعة القاهرة أقامت جنازة مهيبة للشهداء الأبرار، خرجت فيها الجامعات جميعًا، وشارك الشعب بالألوف في هذه الجنازة التي تحوّلت إلى مظاهرة ضخمة ضد الإنجليز، مطالبةً إياهم بالجلاء عن بلادنا، ومعلنة أننا لن نقبل وجودهم بعد اليوم، وكانت مشاعر الجماهير غاضبة، ولأول مرة كنت أحس بعظمة الشعب الحقيقي، كنا نحس أن لا وجود للإنجليز بعد هذه العمليات القوية الناجحة، ثم هذه المظاهرات الصادقة، ولقد تمّ بالفعل انسحاب الإنجليز بعد ذلك، ونسبه «عبد الناصر» لنفسه، ولكن الحقيقة التاريخية هي أن قرار الانسحاب تمّ في هذه الأيام الرائعة في تاريخ مصر.

أمريكا ودورها في المنطقة والثورة

لقد كانت هناك أكذوبة كبرى بأن «الملك فاروق» كان عميلاً للإنجليز، وأنه غير وطني، كان يردد هذه الأقوال الكاذبة أصحاب الانقلاب العسكري، والذي حدث في ٢٣يوليو سنة ١٩٥٢م، وسيأتي ذكره فيما بعد، وأكبر دليل على ذلك حينما حاصرت الدبابات الإنجليزية «قصر عابدين» في فبراير؛ ليجبروا الملك على قبول حكومة الغالبية «حكومة الوفد»، وليوقعوا في نفس الوقت بين حكومة الوفد وبين الملك فاروق، ولم تكن حكومة الوفد أيضًا عميلة للاستعمار الإنجليزي بدليل أنها ألغت معاهدة ١٩٣٦م من طرف واحد، وأعلنت النضال الوطني، وسمحت للقوات الوطنية بالتدريب والذهاب إلى قناة السويس لقتال الإنجليز، وسهّلت لهم كل السُّبل.

والحقيقة أن وراء الكواليس كانت تلعب لعبة خطيرة أخرى، فلقد أحست أمريكا أنها السبب الرئيسي في هزيمة المحور المكون من (ألمانيا، إيطاليا، واليابان)، والتي كانت السبب المباشر القوي في اعتدال ميزان الحرب لصالح الحلفاء بقيادة بريطانيا بعد أن اكتسح هتلر -زعيم ألمانيا النازية- وأوروبا جميعًا، ووصل إلى

روسيا، واكتسح نصفها الغربي حتى وصل إلى «ستالينجراد»، وذهب الجيش الألماني إلى مستعمرات فرنسا وإنجلترا في شمال أفريقيا، ووصل الجنود الألمان إلى «العلمين» في حدود بلدنا الحبيبة مصر، ثم نزلت أمريكا -التي كانت منعزلة- ميدان الحرب بقواتها الكبيرة في «نورماندي» على الشاطئ الفرنسي، مما أجبر قوات الألمان على سحب قواتهم من روسيا؛ ليدافعوا عن ألمانيا نفسها بعد هذا الاكتساح المفاجئ للقوات الأمريكية وقوات الحلفاء، وبدأت ألمانيا وإيطاليا في الانسحاب أيضًا من العلمين وشمال أفريقيا أمام القوات الإنجليزية التي عززها الأمريكيون بالأسلحة والطائرات والدبابات بأعداد هائلة، مما غيَّر ميزان الحرب لصالح الحلفاء، وانهزمت ألمانيا في النهاية بعد أن تحطمت كل الجبهات أمام الزحف الأمريكي من جهة، وزحف الجيش الروسي المعزز بالأسلحة الأمريكية، وانسحبت أمامه القوات الألمانية مندحرة أمام الضغوط عليها من ثلاث جبهات الجبهة الروسية والجبهة الأوربية وجبهة شمال أفريقيا، واستسلمت القوات الألمانية في النهاية بعد أن انتحر «هتلر» وعشيقته، وبقيت القوات اليابانية تقاتل وحدها ببسالة حتى استعملت أمريكا السلاح الجديد الفتاك لأول مرة على بلدة «هيروشيما»، حيث قتل أكثر من مائة ألف شخص، وبعد أيام ضربت بلدة «ناجازاكي» بقنبلة ذرية ثانية قتلت أكثر من ١٥٠ألف شخص، واضطرت اليابان للاستسلام أمام هذا السلاح الرهيب.

وعندها أحست أمريكا بالزهو وبأنها صاحبة الانتصار الهائل وبتفوقها غير المسبوق بكلِّ أسلحة الدمار، وأنه آن الأوان أن تتخلى بريطانيا وفرنسا وأوربا كلها عن زعامة العالم، وأنها أحق بهذه الزعامة، وأنها أولى بالقيادة من حلفائها المحطمين من آثار حروب استمرت خمس سنوات تحطمت فيه أوروبا عن أسرها بعد أن فقدت مئات الملايين من البشر، وتحطم كل شيء فيها حتى البنية التحية، في حين أنها (أمريكا) الفتية القوية، فقد أصبح حلفاء الأمس ليسوا أهلاً لقيادة العالم والسيطرة، وأخذت تفكر وتدبر، ودار الصراع الخفي بين أمريكا وحلفائها على السيطرة على المستعمرات الإنجليزية والفرنسية والبلجيكية وغيرها بأسلوب خطير وجديد، ليس بالاستعمار العسكري والاحتلال بالجيوش الأجنبية، بل بطرق خبيثة

خفية، وهو طريق الانقلابات العسكرية بواسطة ضباط من جيوش هذه الدول المستعمرة والاتصال بها، والاتفاق معها على أن تقوم بانقلاب عسكري، حيث تساعدها أمريكا بكلّ طرق المساعدة لإخراج المستعمر الإنجليزي أو الفرنسي، ويفرح السذج بهذا التحرير، ولا يعرفون -في الحقيقة- القوى الخفية، وأن هذا البطل صاحب الانقلاب ما هو إلا عميل للمخابرات الأمريكية اختارته على علم بأنه من قاع المجتمع ومعروف عنه الدموية وحبه للسيطرة، وتصل به إلى قمة السلطة حيث يكون تابعًا ذليلاً، ينفذ للاستعمار الأمريكي الجديد كل رغباته في تحطيم هذه الشعوب.

وقامت الانقلابات في سوريا والعراق ومصر والسودان وليبيا، وكل الدول الأفريقية وأمريكا اللاتينية، وجاء الزعماء المتعطشون للدماء، وأهدروا القيم والخلق والاقتصاد، حيث أصبحت البلاد العربية والإسلامية -كما نرى الآن- خاضعة للنفوذ الأمريكي، حيث حورب الإسلام والجماعات الإسلامية، وملك الشواذ والبلطجية واللصوص زمام الأمر في كلّ بلادنا، وأصبحنا ذيلاً حقيرًا لأمريكا، وصنعت، بل زرعت الدولة الصهيونية وملكتها القنابل الذرية، وأصبحت هي الشرطي الأمريكي الذي تهدد به المنطقة، وكل من تسول له نفسه رفع رأسه.

وبدأت أمريكا تصطنع الحروب الضروس بين العرب والمسلمين بعضهم بعضًا مثل الحرب بين العراق وإيران، ثم الحرب بين العراق والكويت، والذي كان مبررًا لأمريكا لوجود قواعد ضخمة لها في السعودية والكويت والخليج، ويدفع الفاتورة بمليارات الدولارات هذه البلاد المحتلة.

* * *

الفصل السادس

الثورة ومحنة الإخوان

مقدمات الثورة وقيامها

قس على ذلك كل الصراعات والانقلابات وعملاء المخابرات، حيث تدور الحروب الطاحنة في كلِّ مكان، وحيث تبيع أمريكا الأسلحة لكلا الطرفين، وتستمر مصانع الأسلحة في العمل، ويموت مئات الملايين من البشر ليعيش الأمريكان واليهود في رغد العيش، وسحقًا للمسلمين والعرب، ولكن الله قادر على أن ينصر دينه، ويزل الكفر وأهله، وأكبر مثال أمامنا، هو انهيار روسيا الشيوعية، وتمزقها بفعل وبقدرة الله سبحانه، وهزمت على أيدي الأفغان ومرتين أمام الشيشان، واليوم ندعو الله أن يكلل جهاد الشعب الشيشاني بالنصر.

لقد استطردت كثيرًا، وخرجت عن موضوع مذكراتي، كما يبدو في ظاهر الأمر، ولكن الحقيقة لقد تكلمت في لب الموضوع لأصور لكم صورة واقعية لما حدث في بلدي الغالي مصر كصورة من الصراع الحقيقي بين أمريكا وإنجلترا على أرض مصر.

ونعود لموضوعنا حيث كان الشعب مع الحكومة والملك لا يعارضهم في هذا الجهاد، والوطن كله مشتعل حماسًا، وعلى قلب رجل واحد ليحرر وطنه من الإنجليز، وليستقل ويبدأ في قيادة نفسه، ولكن هذا لا يرضي المستعمر الجديد الذي يجهز لعبته القذرة من وراء الكواليس.

فقد حدثت مأساة حريق القاهرة، حيث أحرق عملاء المخابرات الأمريكية، ومن يتعامل معها الأحياء التجارية في وسط القاهرة، وامتد الحريق الهائل حيث التهم العمارات والبنوك والفنادق والمؤسسات التجارية، واستمر الحريق طويلاً، وكانت ضربة موجهة للملك ولحكومة الوفد وللفدائيين في القناة، فقد أسقط الملك حكومة الوفد، واستدعى الملك «حسين سري باشا»، حيث أعلن الأحكام العرفية، ونزلت قوات الجيش لتحكم السيطرة (وضعْ عشرة خطوط تحت كلمة «نزلت قوات الجيش» في الشوارع)، وذلك تمهيدًا للانقلاب العسكري المشئوم والتابع للمخابرات الأمريكية.

ولو قلت هذا الرأي في ذلك الوقت لاتهمت بالجنون؛ لأن الدعايات المرسومة والتي قادها «علي أمين» في أخبار اليوم -الجريدة الأمريكية الواسعة الانتشار، والتي قادها ضد حزب الوفد وزعيمه «مصطفى النحاس»، وضد «الملك فاروق» ليمهدوا للانقلاب العسكري المرتقب -حيث تأهل الشعب، وصدق كل ما قيل عن النحاس والملك، وعاشت البلاد شهورًا قلقة تتغير فيها الحكومات، والملك يشعر بالمؤامرات الأمريكية، ولا يعلم بمن يستعين، حتى جاء اليوم المشئوم يوم ٢٣يوليو سنة ١٩٥٢م، ولقد صدَّر «جمال عبد الناصر» «اللواء محمد نجيب» الرجل الوطني الصادق في وجه المدفع، حيث قاد الانقلاب، وعرَّض نفسه للموت -وأخذ هو يقود الأمور من وراء ستار- حتى استتب له الأمر، وعزل الرجل الصادق «محمد نجيب»، وبدأ يظهر كبطل منقذ للبلاد، حتى أوردها مورد التهلكة، كما سنفصِّل كل ذلك في الصفحات التالية، بإذن الله.

نعود إلى حريق القاهرة، ولقد كان حدثًا كبيرًا، وكان له ردود أفعال كثيرة، فقد أقال الملك حكومة الوفد برئاسة «مصطفى النحاس باشا»، وجاء بدلاً منه بـ«حسين سري باشا»، والذي أعلن الأحكام العرفية، ونزلت قوات الجيش إلى الشوارع، وانتهت حالة الحرية والانفتاح للتحرير، وصدرت الأوامر المشددة من الحكومة الجديدة بالقبض على الفدائيين، وتغير الميزان فجأة، فلقد كان وزير الداخلية السابق «فؤاد سراج الدين» قد أطلق الحرية للجميع، وألغيت الأحكام العرفية، وفتح معسكرات التدريب في الجامعات، وسهل كل الوسائل للفدائيين ليعملوا بحرية، وأعطى أوامره لكل ضباط الشرطة في كل الأقسام بمساعدة الفدائيين، أما الآن وبعد أن رحل حزب الوفد عن حكم البلاد، وأعلنت الأحكام العرفية، فقد انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب، وبدأت مضايقات ضباط الشرطة لتحركات الفدائيين؛ لأن الأوامر لهم مشددة من الحكومة الجديدة، وأخذت قوات الجيش تأخذ مواقعها في كلّ مكان، وأصبحت الحركة عسيرة ومراقبة، وكنت تشعر أن البلد مهيئة لأحداث مدبرة لا يعلم مداها إلا الله، وأحسسنا نحن في القنال بعيدًا عن القاهرة بالتضييق الشديد، واتصل بنا المأمور، ورجانا أن نتوقف عن أي نشاط فدائي؛ لأن عنده أوامر مشددة بالقبض علينا، وهو لا يرغب في ذلك، ولكنه في

الوقت نفسه حريص على منصبه، وعلى تنفيذ الأوامر الجديدة، فما العمل؟ وكيف نعمل في جو معادٍ؛ حيث إن ابن بلدك، والذي كان سندًا لك سيصير عدوًا لك هو والإنجليز على السواء؟!

لقد أصبحنا في موقف لا نحسد عليه، وجاءتنا الأوامر بالانسحاب من مواقعنا، والنزول إلى القاهرة، ووقع هذا الأمر على نفوسنا أسوأ موقع، ولم يكن هناك بد من تنفيذ هذا الأمر الصعب، واأسفاه! لم يكتمل هذا الحلم الجميل، والذي كنا نعيش واقعه يومًا بيوم وساعة بساعة، فكانت أوقاتنا عظيمة ورائعة.

الإحساس بأنك تضحي بحياتك في سبيل حرية بلدك شيء عظيم، ولكن القوى الجديدة (أمريكا) بدأت تلعب لعبتها القذرة؛ لتحصل على ما تريد، وهو أن تكون الوريثة الشرعية لبلادنا بطريقة جديدة خبيثة، ونزلنا إلى القاهرة، وكانت أيامًا حالكة صعبة، وكانت الإشاعات تملأ البلاد بوجود حركة في الجيش، وأن هناك احتمال حدوث انقلاب عسكري.

المستشار حسن الهضيبي

وفي صبيحة يوم ٢٣يوليو سنة ١٩٥٢م، تحقق الاحتمال، وأصبح واقعًا؛ فقد أذيع بيان في الإذاعة بحدوث الانقلاب العسكري، واستيلاء الجيش على السلطة، ولقد قوبل هذا البيان -في الحقيقة- بفرحة غامرة من عامة الشعب لسوء الأحوال حينذاك، وللتمهيد المخطط له، والذي تولته جريدتا أخبار اليوم والأخبار، هذا الهجوم المستمر على الحكومات الضعيفة المتعاقبة بعد إسقاط حكومة الوفد بعد حريق القاهرة.

ولقد كانت لشخصية «محمد نجيب» الجذابة الجريئة المحببة -دور قوي مؤثر في التأييد الشعبي الجارف، وفي هذا الوقت كان «جمال عبد الناصر» مختفي في الظل، وقد عرَّض «محمد نجيب» لكلِّ الأخطار المحتملة، ولكن شجاعة «محمد نجيب» وبساطته وإخلاصه كان لها الفضل الأكبر في نجاح الانقلاب وملاقات التأييد والموالاة، أما السياسيون المخضرمون، فكانوا في قلق شديد؛ لأنهم يعرفون بخبرتهم

أن الانقلابات العسكرية لا تأتي أبدًا بخير؛ لأن الضباط قليلي الخبرة سيتولون أمور الدولة، وكل اعتمادهم على القوة لا على السياسة والعقل، ويبدأ بعض الكُتَّاب كـ«إحسان عبد القدوس» ينادون بعودة الجيش إلى ثكناته، وأن تجرى انتخابات حرة، وأن تعود الحياة الديمقراطية إلى البلاد من جديد.

وكنا -نحن شباب الإخوان- في ذلك الوقت من أشد الناس حماسًا لهذا الانقلاب، ومستعدين لفدائه بأرواحنا، أما قيادة الإخوان، فقد كان الغالبية منهم يؤيدون الانقلاب لثقتهم في «محمد نجيب» ذي الميول الأخلاقية، أما «حسن الهضيبي» -مرشد الإخوان- وحوله مجموعة ضئيلة من الجيش لم يؤيدوا الانقلاب؛ لأنهم يعرفون «جمال عبد الناصر» حق المعرفة، ويشككون في نواياه واتصالاته المريبة وأخلاقه الميكافيلية، وأن الغاية عنده تبرر الوسيلة، ويعرفون كيف صدَّر «محمد نجيب» في وجه المدفع، واختفى هو في الظل، حتى إذا فشل الانقلاب كان هو بعيدًا عن الصورة، وإن نجح فسينحي «محمد نجيب» -ذلك الرجل الشجاع طيب القلب، ويتولى هو السلطة جميعًا في يده، وقد تحقق كل هذا فيما بعد.

المهم أن جموع الشعب، وعلى رأسهم الإخوان، أيدوا هذا الانقلاب بكلِّ قوة، ولقد كان لهذا التأييد الشعبي الجارف الأثر الكبير في نجاح الانقلاب العسكري وتثبيته، وهنا وبعد أن استتبت الأمور للعسكريين بدأ ظهور الذئب الأغبر «جمال عبد الناصر» محاولاً أخذ السلطة بالتدريج من «محمد نجيب»، وذلك بواسطة مجلس قيادة الثورة، والذي كان فيه أقرب المقربين لـ«جمال عبد الناصر» مثل: «عبد الحكيم عامر»، و«صلاح سالم»، و«جمال سالم»، و«زكريا محيي الدين»، وبدأت القرارات التي تقيد الحرية، وتخالف الدساتير والأعراف تصدر تباعًا مثل الأمر بحل جميع الأحزاب، ومصادرة الملكيات الزراعية، وتوزيعها على صغار المزارعين، وبدون أي تعويض، وتأميم الشركات والمصانع، بل حتى الفنادق والبنوك، وحتى المشاريع الصغيرة والمتوسطة، وتمَّ كلُّ هذا وسط تشجيع الغوغاء وتأييدهم، ولم يكونوا يعلمون أن هذا يعتبر في عرف القانون سرقة بالإكراه، ولقد حكمت محكمة الدولة العليا بعد عدة سنوات، بعد زوال الطاغية بأن كل هذه القرارات غير دستورية وغير قانونية، وعادت الأمور بعد ذلك رأسًا على عقب.

واعترض بالطبع بعد عقلاء القانونين والسياسيين، وأبدوا رأيًا مخالفًا لكلِّ ما يحدث من انتهاك للدستور مثل نقابة المحامين و«الدكتور السنهوري»[1]، حيث كان جزاء هذا الرجل العظيم صاحب الكفاءة العالمية -الضرب والإهانة، وقامت المظاهرات الحكومية تنادي بسقوط المحامين الجهلة، وحلت النقابات، وأصبح كل شيء ملكًا للدولة، بل ملكًا خالصًا للدكتاتور الأكبر «جمال عبد الناصر»، ولقد عارض «محمد نجيب» كل هذه القرارات الجائرة؛ فأقصاه «جمال عبد الناصر»، فقامت مظاهرات عارمة اتجهت إلى «ميدان عابدين» تطالب بعودة «محمد نجيب» إلى الحكم، وكان يقودها المثقفون ومحبو «محمد نجيب» وأنصاره، ولقد كان «الإخوان المسلمون» في طليعة هذه المظاهرات؛ مما اضطر «جمال عبد الناصر» إلى إرجاع «محمد نجيب» إلى حين تتاح له فرصة أخرى، ولقد عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن للإخوان ضلعًا كبيرًا في هذه المظاهرات التي أعادت «محمد نجيب» إلى الحكم.

حادثة المنشية والمجزرة

الشهيد عبد القادر عودة

لقد كان «حادث المنشية» تمثيلية مدبرة، مثلت بإتقان، وقبض على إثرها على «محمود عبد اللطيف» بدعوى أنه هو الذي قام بإطلاق النار على «جمال عبد الناصر» في ميدان المنشية بالإسكندرية، ولقد تمت هذه التمثيلية في المساء، ولكن البوليس أقام حملة ضخمة من أقصى الصعيد إلى الإسكندرية من عصر ذلك اليوم، وقبل وقوع الحادث بساعات؛ للقبض على المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين، وأعلنت وسائل الإعلام خطبة «عبد الناصر» بعد أن أطلق عليه الرصاص الفارغ (الفشنك)، وألقى خطبته المشهورة التي كانت معدة من قبل،

(١) **الدكتور السنهوري**: هو عبد الرازق السنهوري من أساطير رجال القانون في العالم العربي وواضع القانون المدني في معظم البلاد العربية، تولى رئاسة مجلس الدولة، وعندما طالب بعودة الحريات هجم عليه بعض السفهاء الذين سلطهم عبد الناصر وأوسعوه ضربًا وسط هتافات بسقوط الحرية والديمقراطية وبحل الدولة.

وبهذه التمثيلية وجد المبرر لضرب هذه الجماعة التي تحاسبه على كلِّ عمل، وتؤيد «محمد نجيب» ذلك الرئيس الشرعي للبلاد.

الشهيد يوسف طلعت

كانت ضربة قاسية خائنة، وامتلأت السجون من أقصى مصر إلى أدناها، حتى السجون الحربية امتلأت بالمدنيين صغارًا وكبارًا، ولن أتعرض في هذه المذكرات للأهوال التي لاقاها هؤلاء الشرفاء من الذئب الشرس وأعوانه، فقد كتبت فيها عشرات الكتب مثل «البوابة السوداء» و«وراء الشمس»، وغيرها مما تصور هذه الفترة البشعة من تاريخ مصر، وتوالت المحاكمات الصورية ذات الأحكام المسبقة، ونفذ حكم الإعدام في ستة أبرياء من خيرة شباب مصر، وكانت كل تهمتهم أنهم طالبوا بعودة الجيش إلى ثكناته؛ ليؤدي مهمته الأساسية، وهي الدفاع عن الوطن، وليس التدخل في شئون السياسة، وكانت أحكام الإعدام قد نفذت على القاضي النزيه «عبد القادر عودة»، وعلى العالم الجليل «محمد فرغلي»، وعلى المحامي «إبراهيم الطيب»[(١)]، والتاجر «يوسف طلعت»[(٢)]، والعامل «محمود عبد اللطيف»، وكذلك مئات الأحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة وآلاف الأحكام بالسجن لمدة عشر سنوات، وامتلأت السجون، ولم يخفوا أنباء التعذيب، بل سربوها ليخيفوا بقية الشعب، وليوصلوا للناس جميعًا هذه الرسالة وهي أن هذا جزاء من يعارض أو يقول: «لا»، وتوالت المحاكمات لجميع رجال الأحزاب والسياسيين.

---

(١) **إبراهيم الطيب**: ولد في المنوفية عام ١٩٢٢م، وتخرج في كلية الحقوق عام ١٩٤٤م، وعمل محاميًا في مكتب الأستاذ عبد القادر عودة، وتعرف على دعوة الإخوان المسلمين عام ١٩٤٠م، والتحق بالنظام الخاص، حكم عليه بالإعدام بعد حادثة المنشية، ونفذ فيه الحكم.

(٢) **يوسف طلعت**: ولد في الإسماعيلية في شهر أغسطس ١٩١٤م، وحصل على الكفاءة، وعمل نجارًا وتاجرًا، تعرَّف على الإمام البنا، واعتقل أكثر من مرة، قاد المجاهدين في حرب فلسطين، وصنع لهم كثيرًا من الأسلحة، كما قادهم في حرب القنال، وتولى قيادة النظام الخاص في عهد الهضيبي، وأعدم بعد حادثة المنشية.

شخصية عبد الناصر

جمال عبد الناصر

حكمت البلاد بالحديد والنار، وبدأت كل وسائل الإعلام تمجد في الزعيم الأوحد والمعلم الأكبر والعبقري الفذ، والذي خاب في كلّ مسعاه، ابتداءً من حرب اليمن، والتي أرسل فيها قوات الجيش لتقذف اليمنيين الأبرياء بالقنابل في حرب لا مبرر لها، ضد شعب عربي مسلم، ولقد هزم هناك شر هزيمة، واضطر للانسحاب بعد مئات الملايين التي أنفقت، وآلاف الشهداء الذين ماتوا بدون هدف أو مبرر، وأقام وحدة فاشلة بينه وبين سوريا لم تستمر طويلاً؛ لأنها قائمة على السيطرة والاستبداد، ومن مفاخره التي تغنى بها تأميم قناة السويس، والضجة التي أثارها، ولقد كان قد بقي عدة سنوات على انتهاء العقد بين مصر وشركة قناة السويس، ولو انتظر هذه السنوات القليلة لما دمرت مدن القناة الثلاث، ومصانع تكرير البترول ومنشآته، والتي تكلف مليارات الجنيهات، ثم تهدم كل شبر في السويس والإسماعيلية وبورسعيد، ثم أغرقت السفن في قناة السويس، وبقيت مغلقة لشهور طويلة، وخسرنا بسبب هذا التأميم الأحمق المتسرع مليارات الجنيهات غير آلاف الشهداء، واحتلال إنجلترا وفرنسا وإسرائيل شبه جزيرة سيناء.

ولولا تدخل الراعي الحقيقي لـ«جمال عبد الناصر» وانقلابه لما خرجت قوات الاحتلال الثلاث من سيناء، فلقد أمرت أمريكا حلفاءها الذين استغلوا انهماكها في الانتخابات الأمريكية، وأقاموا هذه الحرب الخاطفة -بالانسحاب عن مصر، فجلت القوات المحتلة، ما عدا إسرائيل، فقد بقيت في «أم الرشراش» (ميناء إيلات)، مع تمكينها من المرور من خليج العقبة حتى شرق أفريقيا مما فتح لها مجالاً ومتنفسًا تجاريًا في شرق أفريقيا.

وتحوّلت الهزيمة إلى نصر بواسطة وسائل الإعلام الإذاعة والصحف، وهلل المهللون عن الانتصار العظيم، وكلفت هذه اللحظات التي سعد بها الزعيم، وصفق

له الجماهير، كلفت مصر آلاف الملايين وآلاف الشهداء؛ لأنه تحدى العالم أجمع، فهنيئًا للزعيم هذا النصر الرخيص، ولقد بدى «جمال عبد الناصر» واضح الهوية بعد أن تدخلت أمريكا في أمر حلفائها بالانسحاب من مصر، منطقة نفوذها الجديد، وبعد أن أدى إليها كل طلباتها من ضرب الحركات الإسلامية بقسوة، وبفرض نفوذه على كلٍّ صغيرة وكبيرة رأت أمريكا أنها لا بدَّ وأن تزيل عنه هذه الشبهة حتى تبدو صورته ناصعة غير مشوهة بالتبعية لها، فعمدت إلى خدعة ذات أثر مزدوج بأن أمرته بإظهار العداء لأمريكا وللغرب، والتقرب إلى روسيا، والتعامل معها بنمطها الدكتاتوري، وتقرب إلى روسيا، واشترى أسلحة من البلاد التابعة لها، وأعلن أن أمريكا رفضت تمويل مشروع السد العالي، وأن روسيا قبلت تمويله، وأعدت روسيا لهذا المشروع الكبير، فإن أي مشروع ضخم كبير لا بدَّ وأن يدرس جيدًا، ويسمع رأي الخبراء العالميين والمصريين في السلبيات التي يمكن أن توجد في هذا المشروع المصيري، وإن النقد الكبير الذي وجهه خبراء ومهندسون مصريون قبل أن يبنى السد هو أن نفكر في خطره لعدم حرمان الأراضي المصرية من الطمي، وهو إكسير الحياة للأرض على مر العصور، لم يسمع أبدًا لهذا الرأي المخلص، وكان قد عرض الخبراء عدة أساليب فنية لعدم حرمان مصر من هذا الطمي، وهو الحياة الحقيقية للأرض، والذي حرمت منه الأراضي المصرية، والذي أخذ يترسب في بحيرة ناصر حتى إن الخبراء قدروا ٥٠٠ سنة على امتلائها بالطمي الذي حرمت منه الأراضي، واستبدلوا به السماد الكيماوي الذي يكلف الملايين، وقد ثبت ضرره على صحة الإنسان، وبدأت أمريكا وأوربا تدريجيًا في التخلي عن الاعتماد عليه، ولكن عقلية الزعيم المتصلبة لا تسمع لأي رأي ناصح أمين، بل رأيه هو الصواب والحق.

أما المأساة الكبرى التي أتحفنا بها الزعيم الأوحد والقائد العبقري هي مأساة حرب ١٩٦٧م، والتي هزم فيها الجيش المصري في ست ساعات، والحقيقة أن الجيش المصري لم يهزم؛ لأنه لم يحارب أصلاً، بل الهزيمة الكبرى يتحملها الزعيم الأوحد هو وقائده صاحب السمعة السيئة والغارق في الحشيش والممثلات

والمغنيات؛ حيث دخلنا الحرب، ونحن غير مستعدين لها، وفلول جيشنا مهزومة في حرب اليمن غير المبررة، وأمر الجيش المصري بالدخول إلى سيناء، ثم جاءه أمر معاكس بالانسحاب، وليس بالصمود والدفاع، وحدثت مهزلة لم ير التاريخ مثلها؛ فقد احتلت إسرائيل تلك الدولة الصغيرة الوليدة -احتلت سيناء بأكملها- والجولان والضفة الغربية، وكانت فضيحة أخزت الزعيم الأكبر، ولكنه وأعوانه سموا الهزيمة نكسة، وقال: إن غرض اليهود هو إسقاط الزعيم في مصر، ولكنهم قد فشلوا، والحق أن اليهود لا يهتمون بالزعيم الأوحد، ولكنهم يهتمون بالأرض وإذلال العرب والمسلمين، ولقد مكن لهم زعيمنا الأوحد كل ذلك في ساعات ست.

وبدأ المصريون والعرب يفيقون من غفوتهم، والآن فقط أحسوا بوجود أكبر دجال، وأفشل حاكم رأته مصر، ولكن أبواق المنافقين ما زالت تدوي لتحجب مصائبه، ولكن هيهات، فالفضيحة أكبر من أن تحجب، والمأساة أعظم من كل الطبول، وشاءت إرادة الله أن تفضح الزعيم في هويته قبل أن يموت، فقبِلَ مشروع «روجرز الأمريكي»، والذي هو اعتراف لأول مرة بإسرائيل التي كان يقول فيها: إنني سأضرب إسرائيل، ومن وراء إسرائيل.

وذهب الزعيم الفاشل إلى غير رجعة أمام حساب الله الشديد الذي سيحاسبه على هذه الأرواح التي أزهقت، وعلى هذه الأموال التي انتهبت، وعلى هذا الفساد الذي استشرى.

شخصية السادات

محمد أنور السادات

بعث الله لمصر نائبه «أنور السادات»، والذي حاول أن يهدم كل المفاسد التي أقامها الطاغية، وهدم سجن مصر، والسجن الحربي، وأفرج عن آلاف المعتقلين والسياسيين، وأعاد لأصحاب الحقوق حقوقهم، وهدأت النفوس، واطمأنت القلوب، وبدأت بشائر الحرية تظهر، وأخذ الناس يتكلمون بحرية غير مصدقين أنفسهم: هل زال هذا الكابوس عنهم حقًا، أم أنهم في حلم؟!

وتوج «السادات» أيامه بحرب أكتوبر المجيدة في العاشر من رمضان، حيث كسر شوكة اليهود، وعبر الجيش المصري إلى الضفة الشرقية للقناة، وحطم خط بارليف المنيع، وقامت معارك حقيقية هزم فيها الجيش الإسرائيلي شر هزيمة، حيث استنجدت «جولدا مائير» بأمريكا، التي أرسلت إليها على الفور جسرًا جويًا بالدبابات المجهزة والطائرات حتى تستطيع مقاومة هذا النصر الكبير لجيشنا المصري العظيم الذي حارب لأول مرة، وظهر معدنه الحقيقي.

المحنة والمعتقلات

لقد استرسلت بإجمال عن سرد هذه السنين والأيام الصعبة التي عاشتها مصر، وعانت منها، وسأعود بالذاكرة قليلاً إلى أيام الاعتقال والسجن؛ ليرى من لم يعش هذه الفترة المأساة الهائلة التي عاشها شعبنا في هذه الأيام من (١٩٥٢م، حتى سنة ١٩٦٧م، ثم سنة ١٩٧٠م) حيث أفقنا من هذا الكابوس الأليم.

لما قام الانقلاب العسكري سنة ١٩٥٢م، كنت طالبًا في كلية الآداب -جامعة القاهرة، قسم الفلسفة والاجتماع وعلم النفس- وكنت في العشرين من عمري، وكنت سعيدًا بدراستي وكليتي، ولكن كنت أيضًا أشترك في الندوات الثقافية والسياسية التي تبصر الشباب بحقيقة الأمور، وكنت كباقي الشباب أؤيد الانقلاب العسكري لخبرتنا القليلة بالحياة السياسية، ولكننا فوجئنا بتقييد الحرية وحل الأحزاب والبرلمان وتكميم الأفواه، ولكننا لم نقبل هذا، وعارضناه، وطالبنا بالحرية بالأساليب السلمية، فكان جزاؤنا -كما ذكرت- السجن الحربي والتعذيب، ثم الحكم بالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة، وكنت في حيرة من أمري، ماذا جنيت حتى يكون جزائي هذا الحكم القاسي (١٥ سنة أشغال شاقة)؟!

كنت أشعر أن تهمتي أنني اشتركت في حرب فلسطين، وعمري ١٧ سنة، ثم اشتركت في حرب الإنجليز بالقنال سنة ١٩٥١م، وكان عمري عشرين عامًا، ثم التهمة الأخيرة أننا نريد الحرية والديمقراطية، فلقد كانت هذه التهم الثلاث هي التي أدخلتني وأمثالي من طلبة ومحامين وقضاة وأساتذة جامعة وعمال وصفوة المجتمع - ليس الصفوة المادية- أصحاب المبادئ والقيم والرأي، ودخلت السجن الحربي، ورفضت أن أوقع على أي محضر باعتراف قصري عن تهم لا أعرف عنها شيئًا،

وذهبت إلى المحكمة المهزلة، وأصررت على أقوالي بأني لم أرتكب أي إثم، وكان الحكم ١٥سنة أشغال شاقة.

في سجن طرة

حمزة البسيوني

حولت مع زملائي وإخواني إلى «سجن طرة»، والحقيقة أن قلبي لم يضعف لحظة أو يرتاع لهذا الحكم الرهيب (١٥سنة أشغال شاقة في ليمان طرة) حيث القتلة والسفاحين، فلم يهتز قلبي أبدًا، بل قابلت الحكم بسخرية واستهزاء، وأحسست برغم القيود التي وضعوها في ساقي، ولباس الليمان الأزرق، ورفع الحجارة، أحسست أني أقوى من خصمي، وأنه لولا ضعفه وخوره لما وضع شباب مصر في هذا المكان، فأنا أقوى منه، وهو هزيل ضعيف هو وسجونه وزبانيته.

إن الهزيمة الحقيقية تكون من داخل النفس، وإن نفسي وقلبي مملوءان بالثقة في الله، وفي عدله، وإن دعاء المظلوم ليس بينه وبين الله حجاب، ولقد مرت الأيام، وأرانا الله في الظالمين أيامًا كالمعجزات ابتداءً من «حمزة البسيوني»[1] -قائد السجن الحربي- ووصولاً إلى كلّ المحققين والمشتركين في هذه المهازل؛ حيث إنهم ماتوا أشنع ميتة وأسوأ مصير على أيدي بعضهم البعض، فقد حطم «عبد الناصر» كل زبانيته من «حمزة البسيوني» إلى «عبد الحكيم عامر» إلى «صلاح سالم» إلى «جمال سالم» إلى قائد المخابرات «صلاح نصر» إلى قائد البوليس الحربي «عبد الكريم زغلول»، لقد أدخلهم جميعًا السجون، أو قتلهم، وأشاع أنهم انتحروا، وكنا نسمع كل هذه الأخبار، ورآها بعضنا في «سجن القلعة»، حيث رأوا بأعينهم «حمزة

(١) **حمزة البسيوني:** أحد طغاة هذا العصر، ولد في بشبيش غربية، وأصبح أشهر جلادي عبدالناصر، حيث قتل وعذّب الكثير، وكان قائدًا للسجن الحربي، وحبسه عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧م، وبعد خروجه مات في حادث بشع على طريق الإسكندرية القاهرة الزراعي، حيث دخلت أسياخ الحديد في جسده، ولم تخرج إلا بعد تقطيع الجسد، ولم يصل عليه في المسجد.

البسيوني» -جلاد عبد الناصر- في زنزانة مجاورة، وقد تحطم كبرياؤه، وأصبح خائفًا يترقب.

أعود مرة أخرى لأحكي عن دخولنا «سجن ليمان طرة»؛ حيث وضعوا قيودًا وسلاسل حديدية مربوطة بحزام خشن على وسطنا، وكان ثقلها حوالي ١٥كيلو جرامًا، ولكن إخواننا السابقين إلى «ليمان طرة» جهَّزوا لنا مفاجأة غير متوقعة، حيث أدخلوا علينا في زنازيننا حدادين من المسجونين أزالوا بمطارقهم قيود الحديد حول أقدامنا، واستبدلوا بها قيودًا ضعيفةً واسعةً نستطيع خلعها في أي وقت، بالإضافة إلى سلاسل ضعيفة لا تتعدى ٥ كيلو جرامات، ونستطيع أن نخلعها في أي وقت، واستبدلوا لنا بثياب اللومان الخشنة ثيابًا زرقاء، ولكنها رقيقة مهندمة، كان كلُّ شيء في الليمان يتم بـ«السيجارة».

ذهبنا للعمل في الجبل لنكسر الأحجار، وننقلها إلى قطار السكة الحديد، واستطاع بعضنا أن يتم العمل بواسطة مذنبين عتاة أقوياء، وكل ذلك نظير «سيجارة» عن كلِّ فرد، ونجلس نحن في ظل الجبل نتسامر، ونقرأ القرآن والكتب، ونتناقش، وكان ضباط السجن يعلمون كل هذا، ويتغاضون عنه؛ لأن بيننا ضباط زملاء لهم، وتوجد صلات قرابة، بل إخوة وأبناء عمومه وأبناء قرية واحدة، وكانوا يقدرون الظلم الواقع علينا، حولنا اللومان بقسوته وجبروته إلى معسكر للثقافة والمعرفة والتجارب الإنسانية الجديدة، كانت فترة غريبة، ولكنها ممتعة بما فيها ورغم ما فيها.

في سجن الواحات

وصلت الأخبار إلى الزعيم أن أعداءه المسجونين يضحكون ويمرحون، ولم يحطمهم السجن ولا اللومان ولا الحجارة، بل زادهم صلابةً وقوةً وترابطًا وتعارفًا وثقافةً؛ فقرَّر العبقري أن ينفينا إلى «الواحات» في الصحراء الغربية وسط الثعابين والعقارب والذئاب والضباع، ويا ليته كان مبنى يحمينا من وهج الشمس والزوابع والرمال، بل في خيام مهلهلة قديمة.

البنان في سجن الواحات

وجاء يوم الرحيل، فركبنا عربات لوريات مفتوحة إلى قطار الصعيد، حيث استغللنا هذه الرحلة المكشوفة وسط أحياء القاهرة في هتافات مدوية ضد الظلم وضد الطاغية، وأخذنا نكبّر الله ونحمده، والناس ينظرون إلينا، ويحيوننا من طرف خفي في خوف شديد، وركبنا قطار الصعيد إلى أسيوط، ثم قطار صغير إلى الواحات الخارجة، وكانت رحلة طويلة حوالي ١٢ساعة في هذا القطار العتيق البطيء؛ حيث يتوجه إلى المجهول، وأخيرًا وصلنا مع حرسنا من الجنود البسطاء، الذين قد تعرفنا عليهم في الطريق، وصارت بيننا وبينهم ألفة ومودة، فقد رأونا على حقيقتنا: أناس بسطاء، وليس كما صورنا لهم: إرهابيين خطرين، ووصلنا إلى الواحة الخارجة، وهي قرية بسيطة أهلها فقراء، وركبنا لوريات لتحملنا إلى حيث المنفى الذي أعدوه لنا بعيدًا في الصحراء على بعد حوالي عشرين كيلو مترًا عن الواحات الخارجة، وكان المعسكر محاطًا بالأسوار الشائكة حوله نقاط عالية للحراسة، وبه خيام عتيقة بالية منصوبة هنا وهناك، ولا يوجد بالمعسكر أي مرافق من مياه أو صرف صحي أو خدمات طبية.

وعلى الفور، وفي لحظات، كوّن أعضاء مكتب الإرشاد مجموعة لتنظيم المعسكر، وإسكانه في هذه الخيام حسب الرغبة، واجتمع الضباط من الإخوان المعتقلين مع زملائهم من حرس المعسكر، واتفقوا على إنشاء المرافق الناقصة من مد مواسير مياه من العين الغربية من المعسكر، وشراء طلمبات رفع، وعمل خزان، وإنشاء حمامات و«أدشاش»، وحفر بئر للصرف الصحي، وعمل فرن لتجهيز الخبز، ومطبخ لتجهيز الطعام، ولقد تمّ هذا العمل بواسطة الإخوان المعتقلين، والذي يوجد بينهم المهندسون والفنيون والأطباء والفلاحون والطلبة، وكل عناصر العمل، وكان سن الغالبية من الشباب يدور حول العشرين عامًا، وكان بيننا الشيوخ الحكماء من أعضاء مكتب الإرشاد وأساتذة الجامعة والعلماء والفنيون في كلّ المجالات، وإلى أن تمّ هذا العمل كنا نذهب طوابير إلى عين المياه، والتي تبعد عن

المعسكر بحوالي كيلو متر لنقل المياه بالجرادل، أما الخبز والطعام، فكان يأتي من الواحة على بعد حوالي ٢٠ كيلو مترًا، وكان في الغالب يتأخر ساعات طويلة لتعطل السيارات، ويكون مغطى بالرمال والأتربة.

مكتب الإرشاد في سجن الواحات: حامد أبو النصر والتلمساني وكمال خليفة وحسين كمال الدين

وبعد حوالي أسبوع من العمل المتواصل المنظم تمّ إنشاء مجمع للحمامات بالخشب والصاج، وروافع يدوية ترفع المياه إلى الخزان؛ ليغذي الحمامات والمرافق الأخرى، ونظم العمل بالتناوب لرفع المياه يدويًا، وكان الجميع يشتركون، وأقيم الفرن والمطبخ، وبدأنا نأكل الخبز الطازج النظيف والطعام المطبوخ الساخن، وتولى «علي معروف» -ذلك الرجل الذي لا ينسى -مطبخ المعسكر يساعده يوميًا مجموعة دوريًا لتنظيف الخضار، وتنقية الأرز وخلافه من أعمال المطبخ.

وأنشأنا مزرعة جماعية صغيرة، وزرعنا فيها كل أنواع الخضروات الطازجة، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى أصبحت عندنا المزرعة اليانعة، فالأرض رغم أنها رملية، ولكنها أرض بكر خصبة، وأنشأنا مكانًا لتربية الطيور من دجاج وحمام وورومي، واشتريناها من الأعراب من حولنا بأسعار زهيدة، وبعد شهور أنتجت هذه المزرعة من البيض واللحوم ما يكفي لهذا العدد الكبير، وكان كل هذا التطور الجميل بموافقة ضباط الحرس، الذين أنشأنا لهم أيضًا المرافق المريحة الخاصة بهم، وطبيعة الصحراء تجعل الجميع مترابطين متآخين، وبدأنا نقيم حفلات سمر ومباريات رياضية يحضرها الجنود والضباط، وعشنا فترة سعيدة، ولقد حوّلنا هذه الصحراء القاحلة إلى واحة خضراء ومركز إشعاع للعلم والثقافة والرياضة، وتوثقت العلاقات مع حراسنا، بالإضافة إلى الحراس الإضافيين من جنود الهجانة، والذين كانوا يسمعون الأذان وقراءة القرآن وإقامة الصلاة؛ مما أزال الفكرة السيئة التي صوروها لهم عن خروجنا عن الدين، وحضروا معنا الصلاة والدروس الدينية.

ولكن هذا أزعج المسئولين في مصر؛ فأرسلوا لنا بعثة من الزبانية القدامى الذين سعدنا بفراقهم مثل «حمزة البسيوني» -قائد السجن الحربي- ليحطم كل ما بنيناه، وفوجئنا بهذا الخبر المزعج (قدوم هذا الطاغية الغشوم إلى الواحات)، وأخبرنا قادة المعتقل على وجل بوصوله، وطلبوا منا إخفاء ما يمكن إخفاؤه من مظاهر الحياة الطيبة التي كنا نحياها، ولم نستطع بالطبع إخفاء أي شيء، ومر الغشوم مع عصابته الأشرار على الخيام، وقابلناه بوجوه متجهمة وقلوب تدعو الله عليه وعلى الظلم والظالمين، ووجه لومه إلى إدارة المعتقل عن هذا التسيب من وجهة نظره الحاقدة لحصولنا على هذه الحقوق الإنسانية الطبيعية، وكيف نحول هذه المقبرة التي أعدوها لنا لنموت ببطء من نقص الغذاء، والمعاناة في الجو القاسي الحار، بالإضافة إلى الحشرات والحيات القاتلة والذئاب التي تعوي من حولنا، وكيف، ولماذا تحول هذا الوضع الذي رسموه لنا إلى حياة رغدة ممتعة؟ وأمر الطاغية بتحطيم كل ما بنيناه، وانصرف الطاغية إلى غير رجعة، واجتمع مأمور المعتقل وضباطه مع قيادة المعسكر من الإخوان، وأخبروهم عن تهديداته لهم بوضعهم في المعتقل معنا؛ إذا لم يهدموا كل ما بني من مرافق.

ولكن هؤلاء الضباط كانوا متفهمين أن كلَّ ما أقيم من مرافق هي أشياء ضرورية لتستمر الحياة، وكان لبعد المسافة بيننا وبين القاهرة الأثر الكبير في بقاء الوضع على ما كان عليه، وكانت الخطة التي وضعها «حمزة البسيوني» هي تغير الضباط والجنود الذين عرفناهم وعرفونا، وسمعنا أن مأمورًا جديدًا مسيحيًا سيحضر مع مجموعة جديدة من الضباط والجنود ليعيدوا الوضع على ما كان عليه، فكنا نقابل كل هذه الأخبار السيئة بثقة كاملة في الله، فقد قاسينا كثيرًا، وعشنا في السجن الحربي، وذهبنا إلى «لومان طرة»، وكبلونا بالحديد، وحملنا الأحجار في الجبل، وتعوَّدنا على الحياة الشاقة والمتاعب والمضايقات، وتعوَّدنا الصبر والشكوى إلى الله.

وحضر الضابط المسيحي ومجموعة الضباط الجدد المتجهمين، ومروا على الخيام وعلى كلِّ مرافق المعسكر، وبدأ التضارب من الساعة الأولى، فهذا الضابط ابن عم

ولكن هذا أزعج المسئولين في مصر؛ فأرسلوا لنا بعثة من الزبانية القدامى الذين سعدنا بفراقهم مثل «حمزة البسيوني» -قائد السجن الحربي- ليحطم كل ما بنيناه، وفوجئنا بهذا الخبر المزعج (قدوم هذا الطاغية الغشوم إلى الواحات)، وأخبرنا قادة المعتقل على وجل بوصوله، وطلبوا منا إخفاء ما يمكن إخفاؤه من مظاهر الحياة الطيبة التي كنا نحياها، ولم نستطع بالطبع إخفاء أي شيء، ومر الغشوم مع عصابته الأشرار على الخيام، وقابلناه بوجوه متجهمة وقلوب تدعو الله عليه وعلى الظلم والظالمين، ووجه لومه إلى إدارة المعتقل عن هذا التسيب من وجهة نظره الحاقدة لحصولنا على هذه الحقوق الإنسانية الطبيعية، وكيف نحول هذه المقبرة التي أعدوها لنا لنموت ببطء من نقص الغذاء، والمعاناة في الجو القاسي الحار، بالإضافة إلى الحشرات والحيات القاتلة والذئاب التي تعوي من حولنا، وكيف، ولماذا تحول هذا الوضع الذي رسموه لنا إلى حياة رغدة ممتعة؟ وأمر الطاغية بتحطيم كل ما بنيناه، وانصرف الطاغية إلى غير رجعة، واجتمع مأمور المعتقل وضباطه مع قيادة المعسكر من الإخوان، وأخبروهم عن تهديداته لهم بوضعهم في المعتقل معنا؛ إذا لم يهدموا كل ما بني من مرافق.

ولكن هؤلاء الضباط كانوا متفهمين أن كلَّ ما أقيم من مرافق هي أشياء ضرورية لتستمر الحياة، وكان لبعد المسافة بيننا وبين القاهرة الأثر الكبير في بقاء الوضع على ما كان عليه، وكانت الخطة التي وضعها «حمزة البسيوني» هي تغير الضباط والجنود الذين عرفناهم وعرفونا، وسمعنا أن مأمورًا جديدًا مسيحيًا سيحضر مع مجموعة جديدة من الضباط والجنود ليعيدوا الوضع على ما كان عليه، فكنا نقابل كل هذه الأخبار السيئة بثقة كاملة في الله، فقد قاسينا كثيرًا، وعشنا في السجن الحربي، وذهبنا إلى «لومان طرة»، وكبلونا بالحديد، وحملنا الأحجار في الجبل، وتعوَّدنا على الحياة الشاقة والمتاعب والمضايقات، وتعوَّدنا الصبر والشكوى إلى الله.

وحضر الضابط المسيحي ومجموعة الضباط الجدد المتجهمين، ومروا على الخيام وعلى كلِّ مرافق المعسكر، وبدأ التضارب من الساعة الأولى، فهذا الضابط ابن عم

وفي عام سنة ١٩٥٦م أعلن «جمال عبد الناصر» تأميم قناة السويس، وأقيمت ندوة سياسية لتقييم هذا الإجراء، وكان هناك رأيان: رأي مؤيد لهذا القرار ومتحمس له أشد الحماس، ورأي آخر متحفظ يرى أن عقد شركة قناة السويس ينتهي بعد عدة سنوات[1]، وأن فسخ العقد من جانب واحد وتأميم القناة سيجر على مصر مشاكل دولية معقدة، وقد تتعرض البلاد لعدوان من جانب الدول صاحبة الشركة، وهي إنجلترا وفرنسا، ومرت أيام صعبة أخذنا نتتبع الإذاعات، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى حدث العدوان الثلاثي، وانضمت إسرائيل مع فرنسا وإنجلترا، واحتلوا شبه جزيرة سيناء، وضربوا مدن القناة (بورسعيد، والإسماعيلية، والسويس) ضربات عنيفة موجعة، وغرقت عدة سفن في قناة السويس؛ مما عطل فيها الملاحة لعدة شهور، ووقع المحظور، وأرسل بعض الإخوان من الشباب برقيات إلى «جمال عبد الناصر» يطلبون فيه التطوع للدفاع عن البلاد، ثم العودة إلى السجن مرة أخرى، وكان نص البرقيات مخلصًا مؤثرًا.

أما أعضاء مكتب الإرشاد، فكانت نظرتهم هي أن ما يحدث الآن في ذلك الوقت هو صراع بين فرنسا وإنجلترا أصحاب النفوذ في المنطقة، وبالأخص في مصر، وبين الولايات المتحدة، والتي أحست بعد الانتصارات التي حققتها في تحطيم قوة ألمانيا واليابان بعملية الإنزال الكبرى في «نورماندي»، ثم بانتهاء الحرب نهائيًا بإلقاء القنابل الذرية على «هورشيما» و«ناجازاكي»، وهي التي أعطت لـ«عبدالناصر» الضوء الأخضر لتأميم القناة، وطرد النفوذ الإنجليزي والفرنسي، وتمّ تنفيذ ذلك مستغلين الانتخابات الأمريكية، وكان هذا الرأي صعب التصديق في ذلك الوقت، ولكن الأيام القليلة القادمة صدقت هذا الرأي السياسي الغامض، وأصدرت أمريكا الإنذار الحاسم لحلفائها السابقين بالانسحاب فورًا من سيناء، وتحرك الأسطول الأمريكي؛ مما يؤكد الجدية في الإنذار، وهنا وبعد الإنذار الأمريكي الحازم -أصدرت روسيا إنذارًا أيضًا، ولكنه إنذار دعائي لإرضاء

(١) ينتهي عقد الشركة عام ١٩٦٩م، وقد افتتحت قناة السويس ١٨٦٩م، ومدة العقد ٩٩عامًا.

العرب، ولقد رضخت القوات الفرنسية الإنجليزية الإسرائيلية للإنذار الأمريكي، وبدأ الانسحاب الفعلي للقوات المعتدية، أما إسرائيل، فقد حصلت على «أم الرشراش المصرية» (ميناء إيلات)، ووضعت شروط تمكنها من المرور في خليج العقبة، وفتح أمامها ساحل أفريقيا الشرقي.

ولقد استغل «جمال عبد الناصر» هذا الانسحاب الثلاثي، وأعلن أنه هزم الدول الثلاث، وانتصر انتصارًا باهرًا، وأقيمت الاحتفالات والخطب والتمجيد في الزعيم الأوحد العبقري.

وإذا حللنا نتائج تأميم قناة السويس، وما تلاها من عدوان ثلاثي، وحسبنا المكاسب والخسائر؛ لوجدنا أن الكاسب الأكبر هو أمريكا، فقد طرد لها «جمال عبدالناصر» النفوذ الفرنسي والإنجليزي وغيره، وأصبحت هي صاحبة الكلمة الأولى؛ فهي التي أنقذت مصر من هذا العدوان الثلاثي، وبدأت الشركات الأمريكية تتربع في مصر، وبدأ الاقتصاد المصري يتحول للتبعية الأمريكية.

أما الكاسب الثاني، فهو إسرائيل؛ فقد حققت ضربة قوية للجيش المصري، واحتلت سيناء في عدة أيام، مما رفع الروح المعنوية عندهم، وأحسوا بالعزة والفخر لانتصارهم على أكبر جيش عربي، هذا بالإضافة إلى احتلالهم لـ«أم الرشراش»، وأخذوا حق المرور في خليج العقبة، كما أسلفنا من قبل، ولقد تكتم «عبد الناصر» وأجهزة إعلامه هذا الأمر الخطير، والذي لم يكتشف إلا في عام سنة ١٩٦٧م.

وأما الخاسر الأكبر، فكان الشعب المصري والجيش المصري؛ فقد تحطمت ثلاث مدن كبيرة عامرة، وصارت خرابًا، وضرب الجيش المصري ضربة موجعة من ثلاث دول، أما قناة السويس التي أممها «عبد الناصر»، فقد عطلت عدة شهور، وكانت خسارة للاقتصاد المصري، والذي عانى منها لسنوات عديدة.

أما أجهزة الإعلام الكاذبة، فقد مجدت الزعيم الأوحد بالقرار التاريخي العظيم، وأنه هزم الثلاث دول، وأنه البطل المغوار، وصدق أحمد شوقي حين قال في مسرحية كيلوباترا:

اسمـــــع الـــــشعب «ديـــون» كيـــــف يوحــــون إليــــــه
مـــــلأ الـــــدنيا هتافًـــــا بحيـــــاة قاتليـــــــه
أثـــــر البـــــهتان فيـــــه وانطلـــــى الـــــزور عليـــــه
يـــــا لـــــه مـــــن ببغـــــاء عقلـــــه في أذنيـــــه

وبدأ اللاجئون البؤساء في الرجوع إلى بيوتهم المهدمة، وبـدت مـشاكل الهجـرة الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية تظهر على مئات الألوف من المهاجرين.

محنة التاييد

البنان وسط إخوانه في سجن الواحات

أما نحن، هنا في سـجن الواحـات، فعشنا المأساة على البعد ساعة بـساعة، وكان من بيننا مَن أهله ومنزله وتجارته في هذه البلاد المنكوبة، ولا يدري مـاذا صـنع بهـم؟ وهـل هـم بـين الأحيـاء المشردين، أم تحـت الأنقـاض ميتـون؟ ورغم ذلك كانت الإذاعـة تهلـل عـن انتصار الزعيم، والمنافقون يتشدقون، والأغاني والأناشيد تملآن الأسماع، ولقد كان أثر هذه العملية واضحًا في اختلاف وجهات النظر في تقيم مـا تمَّ، كمـا ذكرنـا مـن قبل، فقد تحمس بعض الشباب مع الموجـة العارمـة في وسـائل الإعـلام، وأرسـلوا برقيات التأييد، وطلب المشاركة في المعركة، ثم العودة إلى السجن مرة أخرى، ولقد فوجئنا أن هناك كشفًا بترحيل الإخوة الذين أرسـلوا برقيـات التأييـد إلى القـاهرة، وعلمنا بعد ذلك أنه قد أفرج عنهم، وأكدت هذه الأخبار بعودة بعـضهم في زيـارة لنا في السجن.

لقد كان لهذه العملية الذكية -عملية الإفراج عـن المؤيـدين- الأثـر الكبير في وجود فجوة كبيرة في النفوس -لماذا لا نرسل برقيات التأييد، ونحصل على الحرية؟ وقال البعض: «إنها لعبة سياسية، وما في القلب في القلب»، أمـا الغالبيـة -والحمـد

الله- كانوا يحسون أن ما حدث هو مأساة، وأن التأييد هو نوع من النفاق لا يليق بأصحاب العقائد والأفكار، وكيف نؤيد عميلاً للاستعمار الجديد (أمريكا)، وسهلت الإدارة عملية إرسال برقيات التأييد، وجاءت الأوامر من القاهرة بعزل المؤيدين في خيام خاصة بهم، وإعطائهم امتيازات خاصة حتى تشجع الباقي على التأييد، ولقد كانت محنة -في الحقيقة- لا يصمد أمامها إلا كل من ثبّت الله أقدامه وقلبه، فالحرية مغرية للغاية، وتقيد الحرية صعب وقاس.

لقد كان غرض الحكومة هو صنع شرخ داخلي في الجماعة، وقد نجحت بعض الشيء، ولكننا لم نرد أن نوصلها إلى ما تصبو إليه، فكنا نتعامل مع إخواننا المؤيدين بكلّ تقدير وأخوة، ونعذرهم في تصرفهم هذا، فقد يكون الدافع لهم هو اقتناعهم بصدق ما حدث، وقد يكون بريق الحرية هو الدافع لهذا التأييد، وعلى كل حال، وكما قال حسن البنا -رحمه الله: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه».

وسارت الأمور روتينية، ولم يحدث أي ترحيل أو إفراج عن الدفعة الثانية من المؤيدين؛ مما دفع البعض في مراجعة موقفهم، والعودة مرة أخرى في صفوف المعارضين، وكان معنا مجموعة من ضباط الجيش والبوليس، مما كان لهم دور إيجابي في الانقلاب العسكري، ولقد كافأهم «عبد الناصر» بإدخالهم السجن؛ لأنهم من الإخوان المسلمين، وكان منهم «فؤاد جاسر» و«حسين حمودة» و«أحمد رمزي» من البحرية، و«رشاد المنيسي»، وغيره من البوليس، و«جمال ربيع» من الجيش، ولـ«جمال ربيع» قصة مثيرة، فبالإضافة إلى أن عنده موهبة فنية في الإخراج المسرحي، فقد أخرج عدة مسرحيات منها: الشريد، والبخيل، والفرسان الثلاثة، ومسرحية ممنوع أكل الملوخية، وغيرها -فقد كان له تطلعات جريئة في تدبير خطة محكمة للهرب من «سجن الواحات» إلى «السودان» عن طريق «درب الأربعين» في الصحراء الغربية، وأخذ يعد لهذه الخطة في سرية تامة، وأحضر خرائط للمنطقة، وبدأ يختار أفرادًا يثق بهم للمشاركة في تنفيذ خطة الهروب الكبيرة.

ولقد اختارني «جمال ربيع» من ضمن مجموعة صغيرة من الشباب، وعرض علينا خطته، فوافقته بكلِّ حماس وسعادة، وكانت الخطة تبدأ أثناء حفلة سمر، التي اعتدنا على تنظيمها، ودعوة الضباط والجنود وحرس الهجانة ممن يتولون حراستنا إليها، وتقديم الطعام والشاي إليهم؛ حيث نضع المنوم في الطعام والشاي، فينام الجميع طبعًا باستثناء الهاربين، وهي كل المجموعة، ثم نركب السيارات، وكل وسائل المواصلات المتاحة، حيث نتجه إلى «الواحات»، ونستولي على باقي السيارات، ونعطل أجهزة الاتصالات بالقاهرة، ونملأ السيارات بالوقود، ونحمل معنا من الطعام والبنزين والمياه ما يكفي عدة أيام في طريق الأربعين إلى السودان الشقيق، حيث اللجوء السياسي هناك، وأخذنا نناقش الخطة خطوة خطوة، ونحاول سدَّ جميع الثغرات، وسألنا «جمال ربيع» سؤالاً مباشرًا: «هل مكتب الإرشاد وقيادة المعسكر على علم بهذه الخطة أم لا؟»، فأجاب بالنفي؛ فقلنا له: «لا بدَّ من إخبارهم، وموافقتهم على هذه الخطة الجريئة»، فقال «جمال ربيع»: «هذا بالطبع ما سأفعله، ولا بدَّ من موافقتهم، ولكن أريد أن أضع بين أيديهم الخطة كاملة».

وبالفعل اجتمع «جمال ربيع» بمكتب الإرشاد، وعرض عليهم خطة الهروب الكبيرة، فلم يوافقوا عليها على الإطلاق، وكان رأيهم أنهم لا يعرضون هذه المجموعة التي هي من خلاصة الجماعة لخطر كبير محتمل، ونعطي خصومنا الفرصة لإفنائنا في مغامرة غير معلومة العواقب، فرجع إلينا «جمال ربيع»، وهو في غاية الألم لرفضهم الخطة، وطلب البعض أن ينفذ الخطة من يقتنع بها، ولكننا أجمعنا على أن هذا الرأي غير صائب، ولا بدَّ من الالتزام برأي القيادة مهما كان مخالفًا لآرائنا، وأخيرًا جاء كشف ثاني بترحيل المؤيدين إلى القاهرة تمهيدًا للإفراج عنهم، ولم يؤثر هذا الترحيل على باقي جماعة المعارضين، فقد استقرت النفوس، وهدأت الخواطر، وسلمنا أمرنا لله صاحب الأمر الأكبر.

البنان والأستاذ مهدي عاكف

وسارت الأمور سيرتها العادية، وكان يومنا حافلاً بالعمل والنشاط، يبدأ بصلاة الفجر جماعة، ثم الدرس الديني من الشيخ «أحمد شريت»، ثم التوجه إلى الخيام للإفطار بالفول الرائع الذي يجهزه «علي معروف» طوال الليل، والخبز الساخن الخارج لتوه من الفرن، وما تيسر من الخضروات المزروعة في المزرعة الخاصة حول كل خيمة، ويدور الحديث المرح حول مائدة الإفطار على أرض الخيمة.

وكان من الشخصيات الساحرة في المعسكر «عبد الحليم خفاجي»[1]، والذي كنا نلقبه بـ«الدكتور»، وهو شخصية بسيطة، ولكنها رائعة، أفكاره وأحاديثه وأمثاله تجعل الحياة مشرقة، ومن الشخصيات المميزة الرائعة «محمد مهدي عاكف»[2] والذي كان المسئول عن النوادي الرياضية، وتنظيمها، ومنهم أيضًا «أحمد إمام» كان من طنطا، وكان فنيًا رائعًا، أما «علي معروف»، ذلك المثال الشعبي لابن البلد الظريف الذكي، كان مسئولاً عن المطبخ، ولكنه كان ذا ذوق فني شعبي رفيع، فكان يكتب المسرحيات الشعبية الفكاهية، ويمثلها أيضًا، أما «مصطفى أبو طالب» و«علي الهواش»؛ فكانا أبطال مصارعة ورفع أثقال، والحقيقة أن جميع الشخصيات الموجودة في المعتقل شخصيات نادرة رائعة، صور للإيمان والصدق والتضحية

---

(١) عبد الحليم خفاجي: أحد الإخوان الذين سجلوا ما حدث في سجون عبد الناصر، وممن كان لهم دور كبير في السجن، وأخرج كتابه القيم «عندما غابت الشمس»، وله أيضًا كتاب «حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون».

(٢) محمد مهدي عاكف: من مواليد أجا دقهلية، التحق بالإخوان في بداية الأربعينيات، كما انضم للنظام الخاص، واعتقل ما يزيد على ثمانية وعشرين عامًا، وتولى مهمة المرشد العام للإخوان المسلمين بعد المستشار الهضيبي عام ٢٠٠٢م.

والوفاء، سواء «مصطفى دياب»، طالب الكلية الحربية، أو «جلال عبد العزيز»[١]، أو «جمال النهري»، ذلك المفكر المبدع الذي تركناه في «لومان طرة»، أو «الحاج محمد يوسف».. كلها أسماء وشخصيات كل منها تمثل القيم الجميلة في هذه الحياة.

جلال عبد العزيز

ومنهم أيضًا «علي صديق» ذلك البطل الأسطوري في فلسطين والقنال، و«فتحي البوز» الزعيم الجامعي البطل، و«حسن دوح» الذي تركناه في القاهرة -قائد كتيبة الجامعة والمفكر الكبير العظيم، و«حسن عبد الغني»، من أذكر، ومن أترك؛ فالجميع بحق صور مشرفة لأصحاب العقيدة والفكرة، كان المفروض أن تكون هذه العناصر الرائعة في المجتمع في حرية وأمان، تعمل للوطن، لا توضع خلف الأسوار.

وجاءتنا الأخبار من ضباط المعتقل، وبعض الجنود أن الحكومة تبني سجنًا في بلدة «المحاريق» في الصحراء لتنقلنا إليه؛ لأنهم شعروا أن وجودنا في الخيام يعطينا حرية في الحركة والتنقل برغم محاولاتهم المستمرة في تحطيم كل ما بنيناه من مرافق، فقد كان قصدهم تكبيلنا في زنازين مظلمة، بعد أن فشلت محاولتهم في القضاء علينا في هذه الصحراء شديدة الحرارة، وذات الزوابع الرملية التي قد تستمر عدة أيام، وتحمل معها الثعابين من الأنواع السامة والعقارب، وكل الهوام، ولكن الله سلم بفضله وكرمه، وحوّلنا الصحراء إلى روضة يانعة وواحة مملوءة بالأشجار والخضرة والزروع من كلِّ نوع وصنف، وربَّينا الأغنام والماعز والديوك الرومية والدجاج والحمام والأرانب، وكل طعامنا من نواتج ما نزرع، فماذا نفعل بكلِّ هذه الأشياء إنْ تحقق خبر ذلك السجن اللعين الذي سمعنا أنهم يبنونه لنا؟!

وتواتر الخبر، وتأكد، ولقد أخبرنا مأمور السجن بصراحة أنه تقرَّر نقلنا بعد

(١) **جلال عبد العزيز:** تعرف على الإخوان، والتحق بالنظام الخاص، واعتقل ما يقرب من عشرين عامًا، وعمل مدير عام لمصلحة التليفونات بكفر الشيخ.

أسبوع إلى «سجن المحاريق»، ونصحنا أن نتخلص من كلّ هذه الطيور؛ لأنه لن يسمح لنا بالطبع بكلّ هذه الأشياء في السجن الجديد، وراحت السكرة وجاءت الفكرة، كما يقال، ولم يبق إلا أسبوع واحد على رحيلنا من هذا النعيم، فبدأ الجميع في عمل الولائم من الدجاج والديوك الرومية والأرانب، لدرجة أننا كنا نسويها في آزانات كبيرة وصفائح مياه، وطعم الجميع منها، من ضباط وجنود ومعتقلين.

أما أنا و«عبد الحليم»؛ فقد قرَّرنا إطلاق عدة أزواج من الأرانب ذكورًا وإناثًا في الصحراء، حيث توجد بقايا المزرعة العامة والبئر القريبة، وأطلقنا أيضًا عدة أزواج من الحمام في الجو، وقد علمنا بعد ذلك بعدة شهور أن المنطقة ملئت بالأرانب التي تحولت إلى أرانب برية، وتكاثرت بكلّ حرية؛ فأمامها الماء والزرع وخيرات الله، وكذلك الحمام تكاثر في هذه المنطقة، والحمد لله، تركنا أثرًا جميلاً في هذا المكان.

سجن المحاريق

عبد الحليم خفاجي

حان موعد الرحيل، وكان المأمور في غاية اللطف، فسمح لنا بأخذ ملابسنا جميعها، وكتبنا وكل ما نملك من ساعات وأجهزة راديو وخلافه، وكانت أحمالنا ثقيلة، أما الصديق «عبد الحليم خفاجي»، فقد حمل فوق كتفيه حقيبة صغيرة ليس بها إلا قطعتين من الملابس الداخلية، وفوطة صغيرة، وقال كلمته المشهورة، وهو يرانا مشغولين بأحمالنا ومتأثرين بما تركناه وراءنا، كان يقول وهو لا يملك إلا هذه الأشياء القليلة: «يا فقر لك عوزة»، فهو لا يحمل مثلنا همًّا لما يحمل أو يترك، وكان يقول لنا دائمًا: «إنني أحب التغيير، ولو إلى الأسوأ»، ونقول له مازحين: «ها قد جاء التغير يا «عبد الحليم»، ولكنه إلى الجحيم»، فكان يضحك قائلاً: «سافر؛ ففي الأسفار سبع فوائد».

كنا -في الحقيقة- مهمومين كثيرًا، ونحن نتجه إلى المجهول، حيث الزنازين الكئيبة مرة أخرى، وحيث السوس بالفول والخبز الجاف وسيئ الطعام، والأسوأ من هذا كله الأبواب المغلقة، ولكننا ندرك قول الله -تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

تحركت السيارة بنا وبأحمالنا إلى المجهول، وأخيرًا بدا لنا عن بُعد السجن الكئيب ذو اللون الأصفر، ونوافذه الضيقة ذوات القضبان الحديدية التي تزيد المنظر كآبة وظلمة، ونزلنا من اللوريات، ودخلنا الزنازين، ومعنا كل أحمالنا من كتب وملابس وأحذية وساعات وغيرها، وأغلقت الزنازين، وكأنه أطبق على صدورنا، فلقد عشنا عدة سنوات في الصحراء الممتدة المفتوحة نرى السماء والنجوم والقمر والطيور والعصافير، وكل جمال الطبيعة التي خلقها الله، وأحاطنا بها، أما الآن، فقد تغير كل شيء، ولقد عرف -في الحقيقة- هؤلاء الخبثاء -أصحاب فكرة نقلنا إلى هذا السجن المغلق- كيف يقسون علينا ويقهروننا، كانت هذه المشاعر مؤقتة من التأثير والحزن، ولكن الله أودع في الإنسان المؤمن طاقات متجددة تحوّل السيئ إلى حسن، وتحوّل الحزن واليأس إلى رضاء وأمل في رحمة الله بعد أن جفت رحمة البشر.

وفي الصباح الباكر، فتحت الزنازين، وذهبنا إلى دورات المياه محدودة العدد، وتوضأنا، وصلينا، وحيا بعضنا بعضًا، وكانت مسحة من الحزن تكسو الوجوه، وإن كان البعض بدا باسمًا ومتفائلاً، وفجأة أدخلونا بسرعة إلى الزنازين، وأغلقوا الأبواب، وحدث هرج ومرج وحركة غير عادية خارج السجن، وأخذنا نتساءل عن سبب هذه الضجة الهائلة، وإذا بضابط شاب سمين الجسد، كان صديقًا لنا ويقضي أغلب وقته معنا في لعب الشطرنج والرياضة وغيرها، رأيناه من حديد الباب المغلق، فسألناه، فأخذ يلطم على وجهه بشكل هستيري: «دي مش تكديرة دي نيلة، دي مش تكديرة دي نيلة»، وأخذ يردد هذه الكلمات بصوت غريب، ورفعنا بعض الإخوة على أكتافنا حتى نستطلع ما يدور في الخارج، فرأينا مجموعة ضخمة من الجنود بالمدافع الرشاشة يأخذون مواقعهم حول السجن ومجموعات

أخرى أخذت مواقعها في الأماكن المرتفعة، مسلطة المدافع الرشاشة نحونا، يا الله لا شكَّ أنها مذبحة أخرى مثل «مذبحة طرة» التي جاءتنا أخبارها؛ فقد دخلت قوات الأمن إلى «اللومان طرة»، وأطلقوا الرصاص على المسجونين السياسيين العزل دون أي ذنب، ولقد كان الأولى أن يكون هذا الرصاص في صدور اليهود أعداء الوطن، ولكن الجبن والنذالة تفعل أكثر من ذلك، وكما يقال:

أسدٌ عَلَيَّ وَفي الحُروبِ نَعامَةٌ(١)

وها هو استعداد جديد لمذبحة جديدة، ماذا يكون شعور الإنسان الأعزل، وهو يرى جنود الظلم يحيطونه بالرشاشات والأسلحة من كلِّ نوع، إن المؤمن يستقبل الموت بكلِّ ثبات وشموخ، فالموت حقٌّ علينا جميعًا، ولكن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، فالتجأنا إلى الله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كانت لحظات صعبة للغاية، فلا ملجأ من الله إلا إليه، وإنها لحظات يختبر مدى إيمان الإنسان فيها، وفجأة فتحت الأبواب بعنف شديد، ووجدنا أنفسنا أمام «حمزة البسيوني» السفاح، ومعه ثلة من عمالقة الجنود يحملون الرشاشات، وبغلظة شديدة أمرنا أن نقف ووجوهنا للحائط، وانتظرنا الرصاصات تخترق ظهورنا، ونطقت بالشهادتين، وأغمضت عيني، وأحسست بسكينة وهدوء نفسي، وإنها لحظات وأنتقل إلى رب عادل رحيم.

ولكن الرصاصات لم تنطلق، وأمرنا أن نخلع ملابسنا المدنية، وألقوا أمامنا ملابس السجن الزرقاء، وكانت مستعملة قذرة وممزقة، فتساءلت في نفسي متعجبًا: هل لا بدَّ أن يقتلونا بهذه الملابس القذرة الممزقة؟ وأخذ الجنود يحملون كل الملابس المدنية والكتب والمصاحف والساعات، وكل ما نملك، ثم أغلقوا الباب بعنف، واتجهوا إلى بقية الزنازين.

---

(١) صدر بيت من الكامل، وهو لعمران بن حطان السدوسي في ديوانه من قصيدة البيت مطلعها، ويروى البيت بتمامه:

أسدٌ عَلَيَّ وَفي الحُروبِ نَعامَةٌ　　رَبداءُ تجفلُ مِن صَفيرِ الصافِرِ

تعجبنا أشد العجب من هذه الحملة الغاشمة، وعلمنا أن المقصود منها هو تجريدنا من كلِّ ما نملك، فلِمَ كل هذه الأسلحة، وكل هذا الحصار، وكأنها معركة حربية مع اليهود أعداء البلاد؟! وتسللنا إلى النوافذ العالية، ورفعنا بعض الإخوة بحذر شديد لنرى ماذا يحدث في الخارج، فوجدنا أكوام الملابس والكتب والساعات وكل المقتنيات في أكوام كبيرة في فناء السجن، وصبوا عليها البترول، وأشعلوا فيها النيران.

تعجبنا من هذه العقول الفارغة، ألم يكفيهم ظلمًا أن أدخلونا السجن، وحكموا علينا محاكمات صورية عسكرية، ونحن مدنيون، ثم ألقونا في «اللومان»، وحملنا الحجارة على ظهورنا، ثم نقلونا إلى «سجن الواحات»، ثم مرة ثالثة إلى «سجن المحاريق»، ألم يكفهم كل ما فعلوه بنا؟!

ولكن مسلسل الانتقام والحقد مستمر؛ لأن قلبه الحقود يشتعل نارًا، ولن يهدأ أبدًا إلا أن يحطمه الجبار العتيد، واستمر الحريق طوال اليوم، وسادت الدهشة ضباط السجن وحراسه، وكانوا مذهولين مثلنا؛ لأن هذه القوات الغازية ليست تابعة لهم، بل هي تابعة للسجن الحربي ولـ«حمزة البسيوني» السفاح الرهيب، والذي أخبرنا بهول ما حدث له من سيده «عبد الناصر»، ثم من المنتقم الجبار رب العالمين، وسيأتي ذكر هذه المعجزة في حينها بإذن الله، وانتهت الغمة بفضل الله، ورحل التتار إلى حيث لا رجعة بإذن الله.

وبعد أن تأكدت إدارة السجن وجنوده وضباطه بانصراف تلك الحملة التي نزلت عليهم كالطامة الكبرى، وأحدثت لهم اضطرابًا وإزعاجًا مثلنا تمامًا -فتحوا أبواب الزنازين لنا، وأحسسنا منهم بتجاوب وتعاطف كبيرين، وفتحوا فورًا مخازن السجن، وأحضروا لنا ملابس جديدة زرقاء، و«كابات»، وبطاطين جديدة نظيفة، ولقد أحسوا مثلنا بالظلم وسفاهة هذه التصرفات من حكومة المفروض أن تكون بمثابة الأب الحنون لا بمثابة المارد الشرير.

وكان لهذه الحملة الهوجاء رد فعل عكسي بالنسبة لإدارة السجن، فقد فتحوا

لنا الزنازين طوال النهار، ثم بعد ذلك طوال الليل والنهار، ولا يغلق إلا الباب الخارجي فقط، وفتح لنا «كنتين» لنشتري منه طلباتنا الضرورية، وأحسسنا بفضل الله بحرية تنقل، وبدأنا نزاول نشاطنا الثقافي من محاضرات وندوات لننسى أو نتناسى ما حدث.

ومع الوقت، ولنفوسنا الراضية بقضاء الله وقدره، شعرنا أن هذا المكان بدأ يكون أفضل من الخيام المهلهلة التي كانت لا تحمينا من حر أو عواصف رملية قاسية، أما الآن، فنحن في غرفات محكمة ونوافذ تغلق، وتفتح لتحمينا من العواصف الصحراوية إذا هبت، وكان لبعد المسافة بيننا وبين القاهرة السبب الأكبر في اطمئنان إدارة السجن وفتح المجال لنا لإقامة مباريات في فناء السجن، وبدأنا نمسك المرافق لمساعدة الإدارة كـ«الكنتين» والفرن والمطبخ، وكان لهذا الأثر الكبير في تحسين نوعية الطعام ونظافته.

ومضت الأيام، ويظن الجاهلون بأصحاب الفكر والعقائد أن السجن قاسٍ رهيب بالنسبة لهم، ولكن الواقع غير ذلك تمامًا، فإن أصحاب العقيدة يحولون الخوف والرهبة إلى أمان وسلام يملآن النفس والقلب، ويحسون أن هذا الفرعون الظالم هو أتفه من أية حشرة مؤذية، وإن الله يسخر أحيانًا جنود هذا الطاغية لتقديم كل الخدمات لنا من شراء طلباتنا، وإدخالها إلينا، وإرسال خطابات لنا، وإحضار ردود من أهالينا في أجازاتهم، وإحضار ما لذَّ وطاب من أمهاتنا وأهلنا، حيث عادت الولائم مرة أخرى إلى السجن.

وكان الأمل يملأ قلوبنا في زوال هذا الظالم الغشوم، ولقد تحقق كل ذلك في قادم الأيام، وكأنها معجزة من السماء، وتحقيقًا لوعد الله العادل الرحيم، ولقول رسول الله الكريم ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[1]، وكنا نتتبع

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «تَفْسِيرِ الْقُرآنِ»، باب: «قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»، ح(٤٣١٨)- ومسلمٌ في «الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالآدَابِ»، باب: «تَحْرِيمِ الظُّلْمِ»، ح(٤٦٨٠).

أخبار بلدنا العزيز، وعلمنا بخبر الوحدة مع سوريا، ثم فشلها؛ لأنها قائمة على غير أساس متين، وتتبعنا أخبار اليمن، وما حدث فيها من تدخلات لصالح أمريكا، وذلك لطرد النفوذ البريطاني من هناك، والاحتمالات القوية لوجود البترول هناك، وأن أمريكا بعد هزيمتها المريرة في فيتنام وكوريا، وخسارتها الفادحة هناك -اتبعت استراتيجية جديدة، وهي أن تحقق أطماعها الاستعمارية لا بجنودها، بل بجنود أتباعها مقابل إمدادهم بالأسلحة، ولذلك ورطت أمريكا «جمال عبد الناصر» في إرسال قواته إلى اليمن، واستمرار الحرب حوالي ست سنوات، استنزفت فيها ملايين طائلة، وكان الشعب المصري الذي يقف بالطوابير على رغيف الخبز، والزيت، وكل مواد التموين الضرورية -أولى بهذه الملايين المهدرة، ناهيك عن الأرواح المزهقة، وتأثير الهزيمة المرة التي كبدتها القبائل اليمنية الصلبة لقواتنا رغم استعمالها كل أنواع الأسلحة حتى النابالم (القنابل الحارقة)، ولكن الباطل لا يدوم، ولقد فشلت الحملة المصرية الغاشمة إلى اليمن، ذلك البلد العربي الشقيق الذي كان تدخلنا فيه عملاً بغيضًا ونقطة سوداء في تاريخ «عبد الناصر».

ومما زاد الطين بلة تلك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، وهي حرب سنة ١٩٦٧م، والتي كانت وما زالت غصة في قلوب كلّ المصريين؛ لأنها جعلتنا أضحوكة أمام العالم، حيث هزمتنا هذه الدولة الصغيرة إسرائيل، وكل الدول العربية في ست ساعات، واحتلت أراضي ضعف مساحتها عشر مرات، وهي سيناء والضفة العربية وقطاع غزة والجولان وجزء من الأردن؛ وذلك لسوء التخطيط، وسوء الإدارة، والفوضى، وعدم الاستعداد، حيث إن جيشنا ما زال متورطًا في حرب اليمن، هذا بالإضافة إلى الجعجعة الفارغة، والخطب الخالية من المضمون، والتي كان يقول فيها: «سأهزم إسرائيل ومن وراء إسرائيل»، هذا إلى أكاذيب وأضاليل وأجهزة الإعلام وصوت العرب بالذات -عن الانتصارات الكاذبة، وإسقاط طائرات العدو بالعشرات.

وما هي إلا ساعات قليلة حتى ظهرت الفضيحة الكبرى والهزيمة التي لم تحدث لأي بلد في التاريخ، وكان الضحية هو الجيش المصري غير المستعد، والأوامر

المتناقضة بالدخول والانسحاب، وفضيحة سلاح الطيران، والذي كان ضباطه وطياروه ساهرين للفجر في حفلة ماجنة صبيحة الهزيمة، ولم تشترك طائرة واحدة في صد الهجوم، بل ضربت جميع المطارات، وأحرقت أغلب الطائرات على الأرض، وانسحب جنودنا من سيناء بدون غطاء جوي يحمي انسحابهم، فأصبحوا بين نار الدبابات والمدافع التي تحصدهم والطائرات الإسرائيلية التي تعربد فوق رءوسهم، وتصليهم من نيرانها، وقتل الآلاف، ودمرت المدن الثلاث المنكوبة دائمًا، وهي السويس والإسماعيلية وبورسعيد، وتدفق آلاف المهاجرين إلى القاهرة والأقاليم، وتوقفت الملاحة في قناة السويس ذلك الشريان الحيوي لمصر، والذي يدر لها الملايين، وحطمت محطات التكرير والمصافي في السويس، وكانت الخسائر بمليارات الجنيهات، والأسوأ من ذلك كله أن ملأ اليأس والإحباط والذل نفوس المصرين جميعًا، بل العرب والمسلمين من هذه الفضيحة النكراء، أهذا هو الجيش المصري الباسل الذي دوَّخ به «محمد علي باشا» و«إبراهيم باشا» الإنجليز والفرنسيين؟! إن جيشنا لا يمكن أن يهزم بهذه الطريقة النكراء، ولكنها القيادة القاصرة، والتي يشك الإنسان لهول الهزيمة أنها متآمرة.

ورغم كراهيتنا لـ«عبد الناصر» ونظام حكمه المستبد، ورغم وجودنا في السجن والنفي -كان حزننا وجرح قلوبنا ينزف دمًا، وأحسسنا بالهوان الذي أوصلنا إليه، وأوصل بلدنا الغالية إلى سخرية العالم، فإن هذا العالم من حولنا لا يحترم إلا القوي، ويحتقر الضعيف المهزوم، وأقيمت الاحتفالات والأفراح في إسرائيل، أما هنا في مصر، فقد أقيمت المهزلة الكبرى والتمثيلية المفضوحة المدبرة بتنحي «عبدالناصر» المدبرة، وفي نفس الوقت أخرج تنظيماته وعمال المصانع لتطالبه بالعودة، وخرج كثير من المصريين، وكأن لسان حالهم يقول: أصلح ما أفسدته قبل أن تتنحى، وعاد الزعيم وهللت أجهزة الإعلام لعودته، وبدأ كلاب السلطة وألسنة النفاق تتحدث بمنطق معكوس، وتقول: إننا لم نهزم؛ لأن إسرائيل كانت تريد إزالة النظام و«عبد الناصر»، وها هو النظام قائمًا، وها هو الزعيم الأوحد على أكوام ما تهدم يقف ملوحًا للجماهير المرتزقة التي خرجت لتحيته، وكان لا بدَّ أن يجد

«عبدالناصر» كبشًا للفداء حتى يقدمه للناس الساخطة الذين تغلي صدورهم، فقدَّم لهم أعز وأقرب أصدقائه «عبد الحكيم عامر» و«شمس بدران»، ورئيس المخابرات «صلاح نصر»، وغيرهم، وأقام لهم محاكمة هزلية، وحملهم المسئولية، ولو كان ميزان العدل قائمًا لكان الأولى أن يكون هو أول مَن يحاسب؛ لأنه المسئول الأول والأخير، وكما قيل:

إن كُنتَ ما تَدري فَتِلكَ مُصيبَةٌ ... أو كُنتَ تَدري فَالمُصيبَةُ أعظَمُ[1]

قدَّم «جمال عبد الناصر» أقرب أنصاره إليه إلى المحاكمة، ودخلوا السجن والمعتقل، ومن عجائب القدر أن اجتمع في «معتقل القلعة» القاتل والمقتول والظالم والمظلوم، كانت أحداث كالأحلام، هل كنا نظن أو نتصور أن يكون «حمزة البسيوني» -قائد السجن الحربي، و«شمس بدران» -اليد اليمنى لـ«عبد الحكيم عامر» -في معتقل القلعة مع الإخوان المسلمين الذين عذَّبوهم في السجن الحربي، وحكم عليهم بعشرات السنين، بل حكموا عليهم بالإعدام، وأعدموا ستة أبرياء منهم القاضي «عبد القادر عودة»، والمحامي «إبراهيم الطيب».

لقد حدثت المعجزة من السماء لتطمئن المستضعفين في الأرض أن الله القادر القوي العظيم لا يرضى بالظلم، و«أنَّ اللَّهَ ﷻ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[2].

هل ما يحدث حلمًا، أم حقيقة؟! لقد غدر «عبد الناصر» بأعز أصدقائه ومعاونيه وزبانيته، وأدخلهم السجون، وقدَّم لـ«عبد الحكيم عامر» السم، وقتل «صلاح سالم»، وطرد «جمال سالم»، وأصابه الله بلوثة جنون، هذا الكافر الذي كان يسخر بآيات القرآن، حينما كان يحاكم الإخوان، فيقول لـ«يوسف طلعت» ساخرًا: «اقرأ الفاتحة بالمقلوب»، أما «حمزة البسيوني»؛ فقد كان يقول: هاتوا لي ربكم لأحاسبه في زنزانته في السجن الحربي، ولقد كانت نهايته مأساوية لا تصدق، فبعد

---

(١) البيت من الكامل، وهو لصفي الدين الحلي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

شَمسُ النَّهارِ بِحُسنِ وَجهِكَ تُقسِمُ ... إنَّ المَلاحَةَ مِن جَمالِكَ تُقسَمُ

(٢) سبق تخريجه.

محاكمته والإفراج عنه صحيًا حدث له حادثة رهيبة، فقد كان يقود سيارته مسرعًا، وكانت أمامه سيارة لوري محملة بأسياخ الحديد، فدخل فيها، فقطعت أسياخ الحديد رقبته، وتدحرجت رأسه تسيل منها الدماء، وحدث هذا أمام بعض المصلين (صلاة العيد) في الخلاء، وكان منهم بعض المعتقلين الذين عذّبهم «حمزة البسيوني»، تدحرجت رأسه، وكان شكل رأسه ضخمًا مميزًا بشعره الكثيف، أليست هذه معجزة من السماء إلى هؤلاء المظلومين الذين لا ملجأ لهم إلا الله، والذي كان دعاؤهم دائمًا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، هذا الدعاء الذي كان يقصف الجبارين؟!

لقد رأى «عبد الناصر» أيامًا من الذل لم يرها أحد، وبدأ الناس يرفعون رءوسهم التي أحناها لهم من الخوف، وبدأت النكات الساخرة تقال علنًا في المقاهي والمكاتب، وصارت سيرته والسخرية منه على كلِّ لسان، ويكفي أنه أوصل مصر إلى هذا المستوى من المهانة والهزيمة، ولكن الشعب المصري المسلم رفض هذه الهزيمة؛ لأنه على يقين أن جيشنا لم يحارب على الإطلاق، ولكنه دفع به من غير تدريب كافٍ، ومن غير أسلحة كافية، وكان منهكًا من حرب اليمن، وكان الأولى أن تصان هذه القوة لهذه المعركة، وكان مع «عبد الناصر» قليل من المخلصين مثل «كمال الدين حسين»، و«عبد اللطيف البغدادي»، و«أنور السادات»، وكانوا على خلاف دفين مع «عبد الناصر»، ولكن صوتهم كان ضعيفًا أمام سطوة «عبدالناصر» وجبروته.

أما أذكاهم! فقد كان «أنور السادات»، لقد كان هذا الرجل وطنيًا مخلصًا، وقدساير «عبد الناصر» بذكاء حتى وثق به، وجعله نائبًا له، وهذا من حسن حظ بلدنا الحبيب، فقد دارت الأيام، وذهب «عبد الناصر» إلى خالقه، ليحاسبه على ما فعل في شعب مسكين وبلد ذي حظ سيئ، تركه، وهو محتل من أجبن خلق الله -اليهود الأنذال- وتولى بعد ذلك السلطة «أنور السادات»، الذي أعاد لمصر كرامتها وعزتها بالعبور وتحطيم خط بارليف، وهزيمة اليهود هزيمة نكراء -وسيأتي ذلك في حينه بإذن الله- بدأت صورة «عبد الناصر» تهتز في أعين الناس، ولعله أحس في قرارة

نفسه بمقدار الظلم الذي أوقعه على عباد الله من قتل وتشريد وسجون ومعتقلات وتعذيب، لعله أحس بثقل ما فعل من ذنوب، فبدأ يفرج عن مجموعات من المسجونين السياسيين من إخوان مسلمين وشيوعيين وغيرهم.

لقد كان الحكم عليَّ -كما قلت سابقًا- خمسة عشر عامًا أشغال شاقة، ولقد أمضيت منها عشر سنوات بين «السجن الحربي»، و«لومان طرة»، و«سجن الواحات»، و«سجن المحاريق»، ثم أخيرًا «القناطر الخيرية».

سجن القناطر الخيرية

لقد سبقت الأحداث، وتحدَّثت عن مأساة سنة ١٩٦٧م، ولكنني أسترجع وأعود مرة أخرى إلى عام ١٩٦٣م؛ حيث كنا نقضي أيامًا طيبةً، عوضنا الله عن الواحات والانطلاق والحرية بمكان جديد نظيف بعيد عن الحيات والحشرات الضارة، ومضت الأيام هادئةً مستقرةً حتى فوجئنا بكشف كبير للترحيل إلى القاهرة، ولم نكن نعلم وجهتنا تمامًا، فهل إلى «السجن الحربي» مرة أخرى، أم إلى «لومان طرة» حيث الأحجار والقيود، ولكن مأمور السجن أخبرنا بالمكان الذي سنرحل إليه، وهو «سجن القناطر الخيرية»، وفي رحلة العودة ودعنا إخواننا وودعونا، ولم نكن نعلم بالضبط سبب ترحيلنا، فلم نكن مؤيدين حتى نتفاءل بأي خير، إذًا لا بدَّ أنها تكديرة جديدة، لكن لماذا هذه التكديرة؟! وهل «عبد الناصر» يسأل عما يفعل؟! فإننا لم نر منه خيرًا قط، فهو يعادينا كأننا قتلنا أباه، ولكنها الأوامر تصدر إليه من أعداء الإسلام، وهو ينفذ ونحن دائمًا الضحية، وركبنا اللوريات إلى محطة سكة حديد الواحات، وهي مكان مقفر، ورأينا قطارًا كالترام العتيق متهاوي يبدو أنه عتيق من أيام «محمد علي باشا»، وركبنا القطار، وافترشنا الأرض، وأخذنا نقرأ القرآن، وندعو الله، فليس لنا ملجأ من الله إلا إليه، ووصلنا بعد جهد وتعب، وبعد حوالي ١٢ساعة إلى محطة أسيوط، حيث وجدنا عربة ملحقة بقطار الصعيد المتجه إلى القاهرة في انتظارنا، وكان هناك عربتان للحراسة مرفقتان بعربتنا، وكنا في غاية الإجهاد من رحلة الصحراء الصعبة، وكنا نصلي الصلاة قصرًا.

وأخيرًا وبعد خمس ساعات مرهقة وصلنا إلى محطة مصر، وركبنا اللوريات التي كانت تنتظرنا، ولأول مرة بعد عدة سنوات من النفي والإبعاد وجدنا أنفسنا في ضجيج القاهرة وزحمة الناس والسيارات والترام، ولكن كانت الكآبة تعلو وجوه الناس الذين كانوا ينظرون إلينا ببلاهة واستغراب، وبعد حوالي الساعة وصلنا إلى «سجن القناطر»، حيث قابلنا المأمور بترحاب تعجبنا منه، وحيا ضباط السجن زملاءهم من المعتقلين، ورحبُّوا بهم!! ترى ماذا حدث في الأمور؟! يبدو أن هؤلاء الضباط ظنوا أننا جئنا إلى القناطر تمهيدًا للإفراج عنا، ولذلك قابلونا هذه المقابلة الطيبة، ولكن ثقتنا بـ«عبد الناصر» معدومةٌ تمامًا، فلم نتوقع خيرًا على الإطلاق.

ودخلنا عنبر سجن القناطر، وهو مكان يسع حوالي ألف سجين، ومكون من أربعة طوابق، وبه زنازين كثيرة عن اليمين واليسار بأبواب خشبية ثقيلة ومصفحة برقائق الحديد، وقضبان الحديد على النوافذ والأبواب، وكانوا قد جهَّزوا لنا دورين كاملين، أما الأدوار الباقية، فقد كان فيها مسجونون عاديون من مختلف القضايا: سرقة، ونشل، ونصب، ومن كلِّ التُّهم.

واخترنا زنزانة في آخر العنبر في مكان هادئ، وكانت الصحبة طيبة مع «عبد الحليم خفاجي»، و«مصطفى دياب» -ابن خالتي، والطالب السابق في الكلية الحربية، و«جلال عبد العزيز طه» -مهندس التليفونات، و«الحاج محمد يوسف» - من أعيان الشرقية، وكان شخصية مرحة أحاديثه طيبة جميلة، ويستشهد دائمًا بأمثال عامية حكيمة، فكانت مجموعة متجانسة متفاهمة، ولصلتنا الطيبة بالسجانين كانوا يفتحون لنا الزنازين طوال النهار، وتغلق عند أذان المغرب، وكانت لنا مخابئ سرية في الحائط السميك تحت شباك الغرفة حيث تفرغ حجرًا من أحجار الحائط، ثم نغطيه بطريقة خفية نضع فيه كل الممنوعات من «بابور» صغير يعمل بالجاز، وتموينه من الجاز، ثم الشاي والسكر، فإذا أغلقت الزنازين؛ بدأنا في إخراج البوابير من المخازن السرية، وبدأنا نجهِّز الطعام النظيف البسيط، ونعمل الشاي، وكانت روائح الطعام تفوح، وتملأ العنبر، فكلُّ الزنازين تجهز الطعام، وكان السجانة وإدارة السجن تعلم ذلك حق المعرفة، ولكنهم يعلمون أن الطعام الرديء السيئ لا نقربه أبدًا، وأحيانًا يأتي بعض الضباط السفهاء ليفتشوا الزنازين بعد إغلاقها، وفي هذه الحالة ينبهنا السجانين بإشارات معينة، وكذلك بعض المساجين يطلقون عبارات

متفق عليها، وبسرعة نطفئ البوابير، ونضع كلَّ شيءٍ في المخابئ السرية، فلا يجد أي شيء مخالف، فيتعجب أشد العجب من روائح الطعام المتصاعدة من الزنازين، ثم بعد ذلك لا يجد أثرًا لأي شيء ممنوع أو مخالف، وكانت تأتينا زيارات من الأهل كل شهر تقريبًا، وكانوا يحضرون إلينا الطعام المطهي الشهي، وكان بعض الضباط الفاضلين يسمحون لنا بدخول مثل هذه الوجبات، وكانت تحدث نوعًا من الرفاهية، وكنا ندعو الأصدقاء إلى ما لذَّ وطاب.

وفي صبيحة يوم من شهر نوفمبر سنة ١٩٦٤م سمعنا في ميكرفون العنبر من يقول: «اسمع النزلاء، أسماء الزيارة، فأنصتنا واستمعنا، فكان من ضمن الأسماء سعداء الحظ بالزيارة ابن خالتي «مصطفى دياب»، ثم سمعت اسمي كذلك، فقد كانت والدة «مصطفى دياب» ووالدتي يحضرون سويًا في كلِّ الزيارات حتى في زيارتنا في «سجن الواحات»، واستعددنا للزيارة بملابس نظيفة مكوية، وكاب جديد، ونزلنا في مكان الزيارة، وهو مكان يتسع لحوالي عشرين زائرًا يقفون جنبًا إلى جنب، ونقف نحن في الناحية الأخرى، وبيننا وبين الزوار سور حديد من القضبان المتقاربة، وكانت الزيارة لا تزيد على ربع الساعة، ورأينا أمي الحبيبة الغالية وخالتي والدة «مصطفى دياب»، وكانت هذه هي آخر زيارة لـ«مصطفى دياب»، فقد أمضي معنا عشر سنوات كاملة، ولم يبق له إلا أسبوعين، وتنتهي مدة حكمه (عشر سنوات)، أما أنا، فقد بقي لي من الحكم الظالم خمس سنوات كاملة.

لقد كانت مقابلة وزيارة غريبة، فأمي الغالية تملأ عيونها الحبيبة بالدموع؛ لأنها تعرف أن سنين طويلة باقية لي في هذا السجن، وأخذت تنظر إليَّ نظرات لن أنساها ما حييت، نظرات كلها حب واشتياق ويأس، وقالت لي والدموع تنزل على خديها: «أستحلفك بالله -يا عبد الرحمن- أن تكتب لهم ورقة، كما فعل فلان وفلان»، وتعدد لي أسماء إخوة أيدوا، وخرجوا بالفعل إلى الحرية، وإلى الحياة، قلت لها وأنا مشفق أشد الإشفاق على هذا القلب العطوف: «هل ترضين لي -يا أمي الغالية- أن أذل نفسي لهذا الظالم بعد أن صبرت عشر سنوات كاملة؟!» قالت لي ضارعة: «اكتب كما يكتبون، واللي في القلب في القلب»، قلت لها ولم أتمالك نفسي، ولم أستطع التحكم في دمعتين ساخنتين حزنًا وأسفًا على هذه الأم الحنون، وكانت هذه هي المرة الأولى التي اهتز فيها قلبي، وكاد ينخلع لا على نفسي، بل

على هذه الأم الباكية الضارعة، وحاولت خالتي، التي كان البشر والسعادة تملآن عينيها ووجهها؛ فابنها «مصطفى دياب» سيخرج بعد خمسة عشر يومًا، قلت لها بكلِّ حب وفرحة صادقة: «مبروك -يا خالتي العزيزة- على خروج «مصطفى» بعد ١٥يوم، جهِّزي له بدلة جديدة وعروسة جميلة»، ضحكت خالتي من كلِّ قلبها، واتجهت بنظراتها إلى أختها الباكية الحزينة، فكانت لحظة صعبة فيها التناقض؛ الفرحة الغامرة وبجانبها الأسى والحزن.

انتهت الزيارة، وكانت الغصة تملأ حلقي، والألم الشديد يهز كياني، لا على نفسي، وأقسم بالله على ذلك، بل لهذه الأم الباكية الحزينة، وعدت إلى العنبر، ومعنا الطعام الشهي الذي أحضرته أمي وخالتي، ولكني لم أستطيع أن أذوق شيئًا منه، وأغمضت عيني، ووضعت البطانية فوق وجهي، واستأذنت منهم بأنني لن آكل، وسأنام قليلاً، وغطيت وجهي لأبعد منظر أمي الباكية عن عيوني، ولكن هيهات، فالمنظر الحزين والبكاء الصامت والدموع المنسكبة والوجه الصبوح الحزين لا يفارق خيالي.

ولأول مرة في حياتي في السجن، دعوت الله بصدق وبحرقة شديدة، أن يهدئ قلب أمي، وأن يدخل السكينة عليها، وأنه قادر على كلِّ شيء، وتذكرت الآية الكريمة: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، ونزلت السكينة على قلبي، وأحسست أني أرى المولى ﷻ وأنه يراني ويعلم ما في قلبي، وغفوت عيني، ورأيت في المنام أني في منزلي في «حمامات القبة»، وأنني أحتضن أمي العزيزة، وأقول لها: «ها قد عدت إليك يا أمي؛ فلا تحزني»، واستيقظت من هذه الغفوة منشرح القلب، فقد أراني الله في منامي أمي مستبشرة فرحة، يعلو البشر وجهها الجميل كالملاك الطاهر.

الإفراج

مر يومان، وكنا نجهِّز حفلة لـ«مصطفى دياب» بمناسبة قرب الإفراج عنه، وكنت على معرفة معقولة بتجهيز الطعام، وأخذت أعد طعامًا خاصًا، وأرز بلبن كنوع من الحلويات تعبر عن فرحة الجميع بقرب الإفراج عن «مصطفى»، فما هي

إلا أيام حتى تنتهي مدة اعتقاله، وهي عشر سنوات كاملة، لا ندري كيف ألهمنا الله الصبر فيها، فهذه آية من آياته ﷻ، وبينما أنا منهمك في إعداد الطعام عصرًا، وقبل إغلاق الزنازين، فوجئنا بصوت الميكرفون يطلب من جميع النزلاء الدخول بسرعة، وإطفاء المواقد، وخبأنا كل الممنوعات في المخازن السرية، وأخذنا نستعد لتفتيش العنبر، كما يحدث أحيانًا، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل سمعنا صوت مأمور السجن في الميكرفون يقول: «اسمع المسجونين السياسيين»، فأنصت الجميع كأن على رءوسهم الطير، وهدأت الأصوات العالية، وساد السكون والتوتر في المكان، وسمعنا صوت مأمور السجن يقول: «اللي يسمع اسمه إفراج، كلُّ من يسمع اسمه إفراج يجهِّز نفسه للإفراج غدًا»، وبدأ يقرأ أسماء المفرج عنهم، وكانوا جميعًا ممن قضوا عشرة أعوام، وباقي لهم أيام قلائل، لم أسمع اسم ابن خالتي «مصطفى دياب» حتى الآن، وهو قد بقي له عشرة أيام فقط، يا للعجب!!

واستمر المأمور ينادي على أسماء المفرج عنهم من أصحاب السنوات العشر، و«مصطفى دياب» لم يسمع اسمه، يا للعجب!! والعجب الأكبر والمفاجأة الكبرى ومعجزة السماء العظمى، والتي لا تصدق -أنني سمعت اسمي (عبد الرحمن محمد البنان)، (محمد أبو مدنية)، ونحن الاثنان فقط أحكامنا ١٥سنة شككت في سمعي، وظننت أن خيالي أوحى إلى آذاني بهذا الخبر غير المعقول، ولكني فوجئت بإخواني: «عبد الحليم» و«الحاج محمد يوسف» و«مصطفى دياب» يأخذونني بالأحضان، ويهنئونني! هل هذا معقول، أنا في حلم، أم حقيقة؟! أنا أخرج، وقد بقي لي خمس سنوات كاملة أي: ٣٦٥ في ٥ سنوات، أي: ١٨٢٥يومًا كاملاً، و«مصطفى دياب» الباقي له عشرة أيام فقط لا يخرج، ثم أنا -والحمد لله- لم أخط بيدي أي تأييد أو التماس لهذا الطاغية، ليس لهذا إلا معنى واحد، وهو قول الله -تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ولقد دعوته سبحانه بكلِّ قلبي، فاستجاب لي أو دعت أمي الملاك الطاهر طيبة القلب، فاستجاب الله دعاءها، أو استجاب الله لكلانا، لقد كانت فرحة الجميع غامرة، أما أنا، فقد شابت فرحتي بعض الألم لعدم خروج «مصطفى دياب» معي، ولكن أزال حزني تأكدي أنها عشرة أيام سريعة، ويخرج هو أيضًا إلى الحرية، قلت لـ«مصطفى دياب»، بكلِّ

صدق: «كنت أتمنى أن تكون معي أو قبلي، ولكن شاء الله أن أخرج قبلك لأحضر لك بنفسي بدلة جديدة تخرج بها إلى الحرية»، وقد نفذت هذا حقًا بعد عشرة أيام!!

مضيت الساعات بفرحة غامرة، وفتحت الزنازين طوال الليل، وتبادل الجميع التهاني، وقدِّم الطعام الذي كنت أعده لـ«مصطفى دياب» لحفلة أقاموها لي أنا، وسمح مأمور السجن للمفرج عنهم بالاتصال بأهاليهم ليحضروا إليهم الملابس الجديدة في الغد، وكانت ليلة رائعة كلها صلاة وشكر لله ﷻ فهو صاحب الفضل الأول والأخير.

ونمنا ساعات قليلة بعد صلاة الفجر، وأخذ الإخوة يعطوننا خطابات لأهاليهم لتوصيلها إليهم وعناوينهم لطمأنة أهاليهم وأقاربهم، وكان يومًا جميلاً من ليالي نوفمبر، وكأننا في عرس، وكان الفرح يملأ القلوب، فقد هبت علينا نسمات الحرية، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

ومنذ الساعة العاشرة توافد الأهالي إلى «سجن القناطر»، وسمحت لهم الإدارة بالدخول لتسليم ذويهم الملابس المدنية، وكان هذا اليوم كيوم عيد.

ونودي علينا في الميكرفون حوالي الساعة الرابعة مساءً، ونزلنا ونحن نرتدي ملابسنا المدنية الجديدة، والجميع يهنئوننا ويودعوننا، ونحن ندعو لهم باللحاق بنا.

لحظات جميلة، ولكنها صعبة، وذهبنا إلى إدارة «سجن القناطر» والضباط وإدارة السجن، فهنئونا بكلِّ حبٍّ، وأسرعوا بالإجراءات الضرورية للإفراج، واستلمنا أماناتنا من الإدارة، وخرجنا من باب السجن، وتنفسنا لأول مرة نسيم الحرية؛ إنه يختلف تمامًا عن هواء السجن، وكأنه معطر بعطر خفي جميل، وركبنا اللوريات إلى وزارة الداخلية في «لاظوغلي»، فكنا ونحن في السيارة في ذهول شديد، فالناس حولنا يروحون ويغدون في حرية كاملة بدون أبواب مغلقة، هل هذا معقول؟! إن الحرية شيء عظيم رائع لا يحس به إلا من فقده، دخلنا إلى وزارة الداخلية، واستقبلونا بحفاوة غير معهودة فيهم، ووقعنا على أوراق روتينية بعدم الاشتغال بالسياسة، وهذا بالطبع يخالف الدستور وكل القوانين، المهم أننا نلنا حريتنا بفضل الله وحده، لا بفضل من أحد، وخرجنا من وزارة الداخلية، وكان الجو ساحرًا، والوقت قبل الغروب بقليل، والجو به لسعة هواء خفيفة من البرد،

والأشجار تزقزق عليها مئات العصافير، ومطر خفيف كالرزاز ينظف كل شيء حولنا، وينقي الجو الصافي البديع، وملأنا صدورنا من هذا الهواء النقي، هواء الحرية المعطر، وحان وقت فراق الأحباب الذي بقينا معهم الشهور والسنين في محنة الاعتقال حتى توثقت بيننا الروابط، فأصبحنا كالإخوة الأشقاء، وأخذنا عناوين بعضنا، وركب كلٌّ منا المواصلات التي توصله إلى بيته وأهله، وأخذت أتوبيسًا يوصلني إلى محطة «كوبري الليمون»، ثم ركبت القطار المتجه إلى «حمامات القبة»؛ حيث بيتنا الجميل في هذه الناحية الهادئة، وكنت وأنا جالس في القطار أنظر إلى كلِّ مَنْ حولي بولع شديد؛ فهذه محطة «الدمرداش»، ثم «منشية الصدر»، ثم «كبرى القبة»، وها هي محطة «حمامات القبة»، وكم تحمل لي من ذكريات الصبا والشباب، وهأناذا أعود بعد غيبة عشر سنوات كاملة كالحلم، عدت شخصًا آخر تعلَّمت من الحياة القاسية الصبر، وامتلأ قلبي وعقلي من تجارب الحياة الشيء الكثير، دخلت المعتقل في الثامنة عشرة من عمري في مقتبل العمر، مملوءًا بالحيوية والمرح وحب الحياة، وخرجت في الثلاثينيات، وقد امتلأ شعر رأسي بالشعر الأبيض، وصرت أكثر ميلاً للهدوء والصمت، ومسحة من الحزن تكسو وجهي، لا شكَّ أنني أحسست أني تغيَّرت كثيرًا عن ذي قبل، ولكني كنت -والحمد لله- راضيًا وشاكرًا لله؛ فقد أحاطني ﷻ بحفظه في هذه السنين الصعبة.

ونزلت من القطار، واتجهت إلى منزلي القريب جدًّا من المحطة، واستقبلني «سلطان البقال» -الموجود على ناحية شارعنا- بالأحضان والتحيات، واتجهت إلى منزلي الحبيب، وكان في الدور الأول من فيلا صغيرة جميلة بها حديقة صغيرة، ورأيت الأضواء مضاءة في كلِّ أرجاء البيت، والبيت مملوء بالضيوف، لقد علموا من أمي الحبيبة وإخوتي خبر الإفراج عني، فكانت لحظات لا تصدق من الحب الصادق، ودموع الفرح في عيون الجميع، وخاصةً أمي الغالية التي أخذتها في أحضاني، وهي غير مصدقة أنها ترى ابنها المغيب، ولا تصدق عودته بعد هذا الغياب الطويل، وأخذت أحكي لأقاربي وضيوفي عن المفارقات العجيبة حين زارتني مع خالتي والدة «مصطفى دياب»، وكانت الدموع تملأ عينيها الجميلتين؛ لأنها تصورت أنه باقي على مدتي خمس سنوات كاملة، وحدثت المعجزة،

وخرجت أنا، أما «مصطفى» الذي بقي على مدته عشرة أيام باقٍ هناك، قلت لأمي ضاحكًا: «كل هذا بسبب دعواتك التي ليس بينها وبين الله حجابٌ».

وكانت ليلة كلها عواطف صادقة، وتناولنا عشاءً فاخرًا، أعدته أمي وأختي الحبيبة «فاطمة» بيديهما، ما أجمل العودة إلى الأسرة وحنوها وعطفها! وانصرف الضيوف، وجلست مع أخي «عبد العزيز» نتحدث عن السنين العشر التي فارقته فيها، وكان «عبد العزيز» قد قضى معنا عدة شهور في السجن الحربي، ولكنه بفضل الله لم تنفذ عليه أي أحكام، وأفرج عنه بعد شهور، ووجدت «عبد العزيز» قد أعد لي بدلتين جديدتين من بدله الخاصة، وكان حجمي متقارب تقريبًا من حجمه، ونمت نومًا عميقًا، وصحوت في الفجر غير مصدق أني في منزلي، وفي غرفتي، ولأتأكد من ذلك ذهبت إلى غرفة أمي الغالية، وقبّلت رأسها، وتجوّلت في المنزل، ونزلت إلى الحديقة، وتنسمت نسيم الصباح الندي، وصليت الصبح وركعتين شكرًا لله على فضله وكرمه.

الحياة بعد المحنة

قدّمت لي أمي إفطارًا شهيًا، وأخذنا نتحدث عن تفكيري في المستقبل، لقد كان أهم شيء عندي البحث عن عمل، ولكن والدتي كان رأيها أن أكمل كليتي أولاً، واتفقت معها على الجمع بين الأمرين، فسأعمل -بإذن الله- وسأنتظم في الكلية كنظام الانتساب، وبدأت في إجراءات إعادة القيد في «كلية الآداب»، جامعة القاهرة، قسم الفلسفة وعلم النفس، انتساب -حتى يتسنى لي العمل، وذهبت إلى المهندس «محمد خليل شرف الدين»، وكان مديرًا لمصنع الأقلام، وقابلني مقابلة ممتازة، وطلبت منه أن يجد لي عملاً إداريًا، فقال لي بكلِّ صدق: «العمل موجود يا عبد الرحمن، ويسعدني أن تكون معي، ولكني أرى أن تتفرغ للدّراسة، فلمْ يبق إلا سنتين، وإنني على استعداد أدفع مرتبك بشرط أن تتفرغ للدراسة»، فشكرته، وهممت بالانصراف، ولكنه أخذ يؤكد لي أن المصنع بعيدًا -في شبرا الخيمة- وأنه سيأخذ منك ساعتين في المواصلات صباحًا وساعتين بعد الظهر، ومكانك موجود بعد انتهاء السنتين، وأمام إلحاحه الصادق، قلت له: «إنني سأفكر في الأمر»، وإن كنت قد اتخذت قرارًا في نفسي برفض هذه المساعدة التي لا تقبلها كرامتي،

وانصرفت شاكرًا له كرم خلقه، ورجعت إلى المنزل المشوار الطويل، ذي الثلاث مواصلات، وبدأت أراجع دروسي بشغف شديد، وأحضرت مراجع عدة، وبدأت أحضر محاضرات الجامعة الصباحية، مع إنني كنت انتساب، فقد كان العدد ضخمًا، ولم يكن هناك تدقيق كبير في المحاضرات.

وعدت إلى المنزل بعد انتهاء المحاضرات، فوجدت مكالمة تليفونية من أخي العزيز «فتحي البوز» المحامي؛ يهنئني بالإفراج، وسألني عن أحوالي، فأخبرته بانتسابي للجامعة، وبأنني أبحث عن عمل، فقال لي مرحبًا: «احضر لي غدًا في شركة «وولنكس»، ومعك صورة من شهادة الثانوية العامة، وشهادة الميلاد»، فكانت مفاجأة سعيدة لي، فما هي إلا أسبوعان اثنان، وقد عيِّنت مشرفًا في القسم الثقافي في المصنع، ومهمتنا بسيطة وسهلة، وهو تقديم كتب استعارة للموظفين والعمال، هذا بالإضافة إلى محاضرات تثقيفية، وباقي اليوم يوجد عندي فراغ كبير أسترجع فيه دروسي، فحمدت الله ﷻ أن حقق لي كل رغباتي في العودة إلى الكلية، ثم العمل؛ لأساعد أمي الحبيبة.

وجاء موعد الإفراج عن أخي وابن خالتي «مصطفى دياب»، فكنت عند وعدي بأنني سأزوره، وأحضر له حلة جديدة ليخرج بها إلى الحرية، وأخذنا السيدة والدته في سيارة، وذهبنا إلى «سجن القناطر»، ودخلنا إلى المأمور، وكان ومجموعة الضباط والجنود يعرفونني، وطلبنا «مصطفى دياب»؛ لأنه كان مجهزًا للإفراج عنه، ولبس بدلته الجديدة، وكان الجميع يلوحون لنا من بعيد، ونحن ندعو لهم بالإفراج القريب، ولبس «مصطفى» بدلته الجديدة، وكانت منظرها مختلفًا عن بدلة السجن البغيضة، وركبنا العربة مع الفرحة الغامرة والاستقبال الحافل من الأقارب والأحباب.

سارت الحياة بهدوء، وبدون تعكير صفو ما عدا الصعوبة الكبيرة في المواصلات، هذا بالإضافة إلى نقص المواد التموينية والطوابير المزدحمة في الجمعيات، وأمام المخابز، فكان هذا يمثل صعوبة، وتضيع وقت كبير في شراء الضروريات، ونشأت طبقة جديدة من السيدات يشترون المواد التموينية بالكراتين من الأبواب الخلفية بسعر أعلى، ثم يبيعونها بسعر أكبر لمن لا يريد الوقوف في الطوابير.

محنة سنة ١٩٦٥م والاعتقال

سارت الحياة هادئة، وطلبت مني الوالدة أن أفكر في الزواج، ولكن هذه الفكرة لم تكن ملحة عليَّ، وخاصةً أن وضعي السياسي غير مطمئن لكثير من الناس، وحمدت الله أنه لم يتم هذا الزواج، فقد فوجئنا في شهر أغسطس سنة ١٩٦٥م أي بعد تسعة شهور من خروجي إلى الحرية، بالزعيم الأوحد، وهو في زيارة إلى روسيا الشيوعية، فقد فاجأنا بخطبة عصماء من روسيا، ولم ينتظر عودته إلى مصر، فقد أعلن اعتقال كل من سبق اعتقاله، وهذه طبعًا رغبة الشيوعيين أعداء الإسلام، وبدأت حملة اعتقالات فورية بدون أي سبب أو مبرر لجميع من سبق اعتقاله، وأفرج عنه، وكانت حرية الشعب لعبة في يد هذا الإنسان، ولقد ورد عن عمر ﷺ مقولته الشهيرة: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، ولذلك قرَّرت ألا أسلم نفسي أبدًا، ولا أدخل هذا المعتقل بإرادتي أبدًا، ولذلك قرَّرت الاختفاء، فسافرت إلى الإسكندرية لأختبئ بشقة أختي هناك في «سيدي بشر»، وفعلاً ذهبت إلى هناك، واختفيت عدة أيام، غير أن النقود التي معي نفذت؛ فكان لا بدَّ من العودة إلى مصر، والعودة للعمل؛ حتى أستطيع أحصل على راتبي، لأنفق منه عدة شهور على الضروريات، وذهبت إلى العمل، وقابلت زملائي الذين أخبروني أن بعض المخبرين سألوا عني عدة مرات، فاضطررت إلى الانسحاب، وكان لا بدَّ أن أذهب إلى المنزل لسببين: أولها أن أطمئن أمي وإخوتي عليَّ، والأمر الثاني هو أن آخذ بعض النقود لأعيش بها في الإسكندرية، ودخلت منزلي مساءً في هدوء؛ فالبيت مراقب من غير شك، وقابلت أمي التي أخذت تدعو لي، وتدعو على الظالم المفتري الذي يأخذ الناس بغير ذنب، وتحققت دعوة هذه الأم الطاهرة، بل دعوات جميع الأمهات المظلومين المنتشرين في جميع البلاد.

سافرت مرة أخرى إلى الإسكندرية، وكنت أبقى في الشقة طوال اليوم، فطعامي بسيط جدًا: رغيف بالجبن أو الفول؛ حتى أستطيع أن ابعد وأبقى أطول فترة ممكنة بهذا المبلغ البسيط الذي معي، وأخيرًا نفذ المبلغ الذي معي، ولم يبق إلا ثمن تذكرة قطار العودة إلى القاهرة، تُرى هل أشتري طعامًا ضروريًا لعدة أسابيع أخرى، أم أنزل إلى مصر؛ لأقترض نقودًا من العائلة، والنقود في هذه الأيام قليلة،

ولا أريد أن أكون عبئًا على أقرب الناس إليّ، فاستخرت الله، فانشرح صدري للنزول إلى القاهرة مرة أخرى، وليفعل الله ما يريد وما يشاء.

ولقد انقضى شهر تقريبًا على بدء الاعتقالات، وكنت أقابل بعض الإخوة والزملاء، وأعرف منهم الأخبار، فقد كان أغلب الناس في خوف وترقب، ووصلت إلى القاهرة، ثم ركبت القطار إلى «حمامات القبة»، حيث منزلي، ولم يبق في جيبي غير ثلاث قروش فقط، وطمأنت الوالدة الغالية وجهزت لي عشاءً حافلاً عوَّض أيام الجوع والطعام الجاف الذي أحرق صدري ومعدتي، ولقد نمت هذه الليلة في منزلي، وفي غرفتي، فقد أجهدت من الاختفاء والهرب، واستيقظت في الصباح الباكر على صوت أمي الحنون ودائمة الدعاء لي، بعد أن اطمئن قلبي وارتاح جسدي من هذه الغفوة، وبعد هذا العشاء الدسم، وأحسست أنه آخر طعام لي مع أمي، ولقد صحَّ شعوري، ففي اليوم الثاني سمعت خبطًا شديدًا على الباب، فتأكدت أنهم زوار الليل قد حضروا لاعتقالي، وكنت قد جهَّزت شنطة صغيرة بها ملابس داخلية وفوطة وبيجامة وصابونة، وارتديت ملابسي بسرعة، وأخذت شنطة الملابس، وودعت أمي الباكية، وازدادت الضربات على الباب حتى كادوا أن يحطموه.

وذهبت لأفتح لهم الباب فوجدت ضابطًا وعدة جنود بالبنادق، فقال لي الضابط باسمًا: إننا نراك مستعدًا، يا عبد الرحمن؟ قلت له: إنني مستعد دائمًا، هل تحب أن تفتش المنزل، قال لي: لا إنما نريدك أنت، لقد انتظرناك طويلاً، وهذه أوامر نحن ننفذها، قالها لأمي، وقد رأى الدموع في عينيها، ودعت أمي، وكففت دموعها، وقلت لها مؤكدًا: سأعود إليك مرة أخرى -بإذن الله؛ فلا تحزني، وانتزعت نفسي من أحضانها، وذهبت معهم بكلِّ ثباتٍ، وقد رأيت آثار الألم على وجوه الضباط والجنود، ويكفيني هذه الأحاسيس من إخوان لي في الوطن، ينفذون الأوامر غير مقتنعين بها؛ لأنهم يحسون بالظلم، فلا بدَّ أن لهم إخوة وأبناء اعتقلوا مثلنا بدون ذنب جنوه، وانتهت أيام الحرية كالحلم الجميل.

وتذكرت حديث رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

وها هي أيام الضرر قد أقبلت، وسنصبر عليها، كما صبروا من قبل، وسنحولها بإذن الله ومشيئته إلى أيام خير، ويكفي أنني سألتقي بخير الإخوة الأعزاء، أما أمي الحبيبة وأسرتي جميعًا فلهم الله، وسيجزيهم الله المسبب في كلّ هذه الآلام بعدله خيرًا.

ركبت سيارة الشرطة، وكان فيها حوالي سبعة جنود بالبنادق، ووصلنا إلى مزرعة طرة، وأجرينا الإجراءات الروتينية، ودخلت عنبر كبير مكتظ بالمعتقلين، وكانت هناك وجوه جديدة من الشباب، ووجوه أعرفها جيدًا، فأوسعوا لي مكانًا صغيرًا في هذا المكان المزدحم، وكان المكان كعلبة السردين الضخمة، والهواء مكتوم فاسد، والحر شديد، فقد كنا حوالي ٢٠٠ شخص في مكان لا يتسع إلا لخمسين شخصًا على الأكثر، إنه أسلوب جديد في التعذيب، أسلوب خبيث، فإن الوضع لو استمر على هذه الحال؛ لأصيب الجميع بالأمراض المؤذية، ولكن الوضع لم يستمر إلا عدة أيام بعد وصولي، فقد كتب المأمور لرؤسائه يشكو هذا الوضع المزري، وقد مرض كثير من المعتقلين، وكانوا قد أمضوا حوالي شهرًا كاملاً قبل حضوري، وإن شهرًا في هذه الحالة البائسة يحطم أقوى الأجساد، وجاء كشف لترحيل عدد منا إلى معتقل «أبي زعبل»، وكان من حظي أن سمعت اسمي، وأنقذني الله من هذه المحنة الصعبة والزحام الشديد والحر والأمراض.

سجن أبي زعبل

ركبنا السيارات، وتنسمنا الهواء النقي، وهي أعظم نعمة خلقها الله، وحرمنا منها الزعيم، وامتلأت السجون جميعًا في أقصى البلاد، واكتظت الزنازين، ولم يعرف أحدًا سببًا لهذا الاعتقال الجديد الذي أعلنه، وهو في زيارة إلى روسيا الشيوعية، إلا أن تكون أوامر صدرت له، ولم ينتظر حتى يعود إلى مصر ليعلنها من هنا، ولكنه أعلنها مدوية من هناك من روسيا باعتقال من سبق اعتقالهم، ونفذ

---

(١) أخرجه مسلمٌ في «الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ»، باب: «الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ»، ح(٥٣١٨).

كلاب السلطة أوامر المجنون، وكان الزحام في عنابر «معتقل أبي زعبل» أقل بقليل، ولكن الذي خفف هذا الوضع وجودنا مع مجموعة أعرفها جيدًا مثل «علي صديق» و«فتحي البوز»، والذين أفرج عنهم بعد أن أرسلوا برقيات التأييد لتأميم القناة، ولكنهم لم يسلموا أيضًا من الاعتقال، ولقد سمعت أن الشهر الماضي كان شهرًا قاسيًا صعبًا على المعتقلين؛ فقد كان زبانية «عبد الناصر» يعذبونهم عذابًا شديدًا بدون أي مبرر ولا سبب.

ولقد كان ممن وقع عليه التعذيب طالب في كلية الزراعة اسمه «شكري مصطفى»، وكان من شباب الإخوان في الجامعة، وكان من الأوائل المتفوقين في دراستهم، ولما عذب هذا العذاب الأليم بدون ذنب جناه وصلت به الحال بفكر خطير، وهو ما يسمي الآن بـ«التكفير والهجرة»، ولقد نبتت هذه الفكرة لما رأوه من تعذيب وحشي لأناس مسلمين، فقالوا: لا يفعل ذلك مسلم أبدًا، إن من يفعل ذلك لا بدَّ وأن يكون كافرًا، ومن أمره بذلك، فهو كافر مثله، ومن سكت على هذا الظلم، فهو مثلهم، وتطورت الفكرة عند «شكري مصطفى» إلى أن هذا المجتمع كله مجتمع جاهلي كافر لا بدَّ من الهجرة منه، وإقامة مجتمع مسلم جديد، وبالطبع هذا الفكر خارج عن فكر الإخوان المسلمين، فهم لا يكفرون مسلمًا نطق بالشهادتين، وهم يؤمنون أن مجتمعنا في مصر مجتمع مسلم، وأن ما يحدث من ظلم أو فسق لا يسمى إلا باسمه، ولا يخرج الظالم عن دينه، وحسابه عند الله.

المهم أن هذا الفكر المتطرف خرج من معتقل «أبي زعبل»، وذلك فكر جماعة الجهاد، فقد كان رأيهم أن هذا الحكم الكافر لا بدَّ وأن يحارب بالسلاح وبالقوة، وأن أسلوب الإخوان المسالم، والذي يعتمد على هذه الآية الكريمة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، كان هذا المنطق لا يرضى به جماعة «الجهاد الإسلامي».

وإنني أسجل هنا، وقد عاصرت خروج هاتين الجماعتين «التكفير والهجرة» و«الجهاد» من الفكر المعتدل للإخوان؛ بسبب التعذيب والقهر والظلم الذي مارسته هذه الحكومة، وهذا الطاغية على أبناء شعبه، وأنه هو المسئول الأول والأخير عن نشوء كل الجماعات المتطرفة، فهي ظهرت كرد فعل عنيف لما حدث من تعذيب واضطهاد.

وكان الجزاء من جنس العمل، فإن الله لا يقبل الظلم، فقد تحدثت من قبل، ولا أريد أن أكرر ما كتبت، وذلك عن حرب اليمن، وفشله فيها، وعودته منكسرًا بعد أن مات آلاف المصريين الأبرياء، وكذلك عن خيبته في الوحدة مع سوريا، ثم حدثت المصيبة العظمى وهي نكسة ١٩٦٧م التي لم يحدث مثلها في التاريخ، ولو حدث لأي قائد في العالم لانتحر بعد تلك الهزيمة، إننا نفرق بين بلدنا الغالية، وما حدث فيها من احتلال ودمار، وبين سبب كل هذه المصائب والنكبات.

ولقد آمنا أن الله عادل لا يقبل الظلم، و«**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَـمْ يُفْلِتْهُ**»[(١)]، ولقد رأينا بأعيننا كل أعوان النظام الفاسد يأكل بعضهم بعضًا، وملئت السجون بزبانية الزعيم من أمثال: «حمزة البسيوني» -قائد السجن الحربي، و«صلاح نصر» -قائد المخابرات، و«شمس بدران»، و«جمال سالم»، وقتل «عبدالحكيم عامر» بالسم، وقتل «صلاح سالم» في السجن الحربي في الإسماعيلية، وأرانا الله فيهم يومًا، بل أيام لا يصدقها العقل، فإن الظلم عاقبته وخيمة.

اللهم لا شماتة، ولكنها قوانين خالق الكون الذي قال: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلا تَظَالَمُوا**»[(٢)]، وانكسرت شوكة الظالم الأكبر، وقد تخلص من أعوانه، وقدَّمهم كبشًا للفداء.

مكثنا أسابيع، ولاحظنا تغيرًا مفاجئًا من قيادة المعتقل، ولا ندري أكان ذلك بتعليمات من الرؤساء أم لسبب ما رأوه من انهيار النظام، وتوقعهم لخروجنا عن قريب، وقد صدق حدسهم، فقد جاءت الأوامر بترحيلنا إلى «سجن القناطر الخيرية»، وفتحت لنا الأبواب، وأحسسنا بفضل الله، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلمٌ في «الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالآدَابِ»، باب: «تَحْرِيمِ الظُّلْمِ»، ح(٤٦٧٤).

الخاتمة

الخاتمة

الإفراج والانطلاق

لن أتكلم كثيرًا عن فترة سجن القناطر، فقد أحسسنا فيها بتغير كامل في المعاملة، فقد انهار النظام، وأكل قيادته بعضهم بعضًا، وكان لا بدَّ أن تنتهي هذه المهزلة فورًا، ويخرج الأسرى إلى الحرية ليساهموا كل بقدر جهده في بناء ما تهدم من كيان اقتصادي ومعنوي وخلقي وديني، وبالفعل تمَّ ما توقعناه، وجاءت الكشوف تتلى، وأفرج عن الكثيرين، وكنت منهم، وعدت مرة أخرى إلى بيتي، وإلى كليتي، وإلى عملي، بعد أن قدمت شهادات بأنني كنت أثناء فترة غيابي في المعتقل، ووجدت الوالدة قد جمعت لي عدة مئات من الجنيهات جمعتها من مرتبي الذي كنت أصرفه بواسطة زميل لي مسيحي اسمه «جورج لباد»، وقد اخترته مسيحيًّا؛ حتى لا يمسه أحد بسوء، وكان في غاية الأمانة، وقد عملت له توكيل ليصرف مرتبي الصغير.

ولقد كانت هذه أول حسنة تعملها الحكومة في المعتقلين، فقد كانت تحرمهم طول السنين الماضية من أي مرتب أو معاش، ولذلك قامت مجموعة من شباب الإخوان لعمل تنظيم لجمع النقود، وتمويل الأسر كل حسب مرتبه، وأدخلت الحكومة هذا التنظيم السلمي الذي كان يقوم بمهمة إنسانية أخلاقية لأمهات وأطفال المعتقلين، والذي كان من المفروض أن تقوم به الدولة، ولكنهم قبضوا على هذا التنظيم، وأعطوه أحكام خمس سنوات لكلّ شابٍّ اشترك فيه، ورغم ذلك قام تنظيم جديد أكثر سريةً وتنظيمًا ليؤدي هذه المهمة الإنسانية التي تقاعست الدولة عامدة عن القيام بها أمام الأسر والأطفال، والتي اعتقلت ذويهم، ولقد تعلمت أنه ليس من مصلحتها ترك هذه الأسر جائعة بدون عائل لا شفقة عليها، بل حتى لا يوجد مبرر لقيام تنظيم يمول هذه الأسر، وقد يتحول هذا التنظيم إلى تنظيم معادٍ لما يرى من ظلم وجور.

لقد فكرت مليًا في الهجرة؛ حتى لا أكون تحت مزاج الزعيم يعتقلني حيث يشاء، ويفرج عني حين يريد، أريد أن أكون حرًا، ولا يمكن أن أكون حرًا -للأسف الشديد- في بلدي، وفي وجود هذا الزعيم المفتري، متقلب المزاج، المريض بـ«الشيزوفرنيا» (انفصام الشخصية)، ولقد كان الدكتور «المغني» -رحمه الله- هو صاحب هذا التشخيص، وكان الطبيب الخاص للزعيم، ولقد لاحظ عليه بخبرته الطويلة هذا الانفصام في الشخصية، فأفضى بهذا السر لأعضاء مجلس الثورة حرصًا كرجل وطني من تقلبات قراراته على مصير الوطن، ووصلت هذه المعلومات إلى «جمال عبد الناصر»؛ فقرَّر قتله بالسم في فنجان القهوة الذي قدِّم إليه، ولقد أفضى بهذا السر لزوجته، حينما ذهب إلى بيته، ورأت أثر السم في عينيه، وهو رجل خبير قدير، فقال لها: لقد أعطيت سمًّا، وسأموت خلال ٢٤ ساعة، وإن قاتلي هو «جمال عبد الناصر»، ولا تخبري أحدًا بهذا السر، وحدث ما توقعه «الدكتور المغني»، وتوفي إلى رحمة الله شهيدًا -بإذن الله، وكتمت زوجته السر الرهيب، ولم تبح به إلا بعد موت الزعيم القاتل بنفس المصير، كما سنحكي فيما بعد.

فكرت جديًا في الهجرة، وحاولت محاولات كثيرة، وقلت لنفسي: سأدخل البيت من بابه، أي: سأذهب إلى مباحث أمن الدولة لآخذ تصريحًا بذلك، وذهبت إلى وزارة الداخلية، وانتظرت بعض الوقت إلى أن سمح لي بمقابلة الباشا الضابط المختص، وقلت له ببساطة: أنا أريد أن أهاجر من مصر، قال لي: وما السبب؟ قلت له بصراحة: حتى لا أكون عرضة للاعتقال في أي وقت بدون أي سبب، قال: أنت السبب، وهل ممكن أن نعتقل أي إنسان بدون سبب، قلت له غير هياب، وأنا في عقر دارهم: وما السبب في اعتقالي طيلة هذه السنين، قل لي أية تهمة وجهت إليَّ؟ قال انتسابك لـ«جماعة الإخوان المسلمين»، قلت له: جماعة كانت تعمل في ظل القانون، ومصرح بنشاطها طيلة هذه السنين، وهل انتسابي لجماعة الإخوان برر اعتقالي وسجني طيلة هذه السنين؟ قال لي وهو يقرأ في ملفي الموجود أمامه: إن

التهمة الموجهة إليك هي ارتكاب أعمال ضد نظام الحكم، قلت له: قل لي ما هذه الأعمال، اذكر لي عملاً واحدًا؟ فصمت وقال لي: قل لي بصراحة، هل تكره «جمال عبد الناصر»؟ قلت له بعد لحظة تفكير سليم: وهل من المعقول أن أحب شخصًا سجنني ظلمًا، وحرمني من إكمال دراستي، وأضاع عليَّ أعز سنين حياتي؟ وهل تصدقني لو قلت لك: إنني أحبه، قلت له: هل أكمل كلامي، وأقول لك: لماذا أكرهه؟ فقال لي، وهو يطلب مني أن أصمت: كفى.. كفى، إنك تحمل في قلبك الكثير والكثير!!

أخذ يقلب في الملف الخاص بي، وقال لي: إننا نعرف كل شيء عنك، أولاً لقد اشتركت في حرب فلسطين، ثم في حرب القنال، قلت له: أجل، وهذا يشرفني، إلا إذا اعتبرتم هذه الأعمال من الذنوب والأعمال ضد نظام الحكم، قال لي: ألا تدري أن هذه الأفكار، وهذه الأحاسيس من الكراهية تهمة إضافية لك، إذا سجلت في ملفك، ولكني أعتبر نفسي وكأني لم أسمع منك شيئًا، قلت له: هل تريدني أن أكون منافقًا؟ قال: ألا يمكن أن تنسى وتسامح؟ قلت له: إن ذلك ممكن؛ إذا أعدتم لي فترة شبابي الذي قضيته في السجن بدون ذنب ولا مبرر، قال لي: إن خروجك سيسيء إلى سمعتنا، قلت له بابتسامة حزينة: وهل حالنا وما نحن عليه بعد احتلال اليهود لـ«سيناء» و«الجولان» و«الضفة الغربية»، وما نحن فيه من سوء حال لم يسئ إلى سمعتنا بعد؟

أطرق الضباط طويلاً، ونظر إليَّ طويلاً، وقال: إني أعذرك، ولعل الأيام تنسيك ما قاسيت، وإني أتمنى أن أخدمك، ولكن عندنا تعليمات بمنع سفر أي شخص كان معتقلاً، وإن هذا الأمر يحتاج إلى واسطة كبيرة، فهل تعرف أحدًا من الكبار يساعدك في هذا، قلت: له إن معي الله، وهو حسبي، وأشكرك على حسن استماعك لي، ومعذرة لانفعالي، فقام وحياني، وقال لي: لقد كنت صادقًا معي، ولذلك أنا أحترمك، وأتمنى لك التوفيق، وأطلب منك أن تنسى الإساءة.

انصرفت وأنا مصمم على الخروج من مصر من أية طرق الحدود: الحدود مع

ليبيا، أو الحدود مع السودان، أو عن طريق البحر إلى قبرص، وبدأت أسأل، وتأكدت أنها مغامرة غير مضمونة، وأن نسبة النجاح فيها لا تزيد على عشرة بالمائة.

وتقابلت بالصدفة مع شخص عزيز، قابلني في حرب فلسطين هو الأخ «نجيب جويفل»، وكان يمتاز بشجاعة وإقدام غير عاديين، ولقد علمت أنه لم يعتقل مثلنا؛ لأنه كان له صلة شخصية بـ«جمال عبد الناصر»، ولقد سمعت أنه يعمل معهم في المخابرات، ورحَّب بي «نجيب جويفل»، فهي زمالة الميدان، وكان -في الحقيقة- يعتبرني تلميذًا له، فقد خرجت معه عدة دوريات في فلسطين، وسألني «نجيب» باهتمام شديد عن أخباري، فقلت له: باختصار شديد، عندي رغبة في السفر بعد هذه المعاناة الطويلة، فسألني: عن أي بلد أريد السفر إليها؟ فقلت له: الكويت؛ حيث يعمل أخي هناك، فقال لي بثقة شديدة: اعتبر نفسك في الكويت، يا عبدالرحمن، جهِّز نفسك، واستخرج جواز سفر، وقابلني بعد أسبوع، ومعك جواز السفر، قلت له: لقد ذهبت إلى وزارة الداخلية ورفضوا، قال لي: لا عليك، اعتمد على الله، وكان يتكلم بثقة شديدة، وكنت أعلم عن «نجيب جويفل» أنه رجل صادق، ولكني رغم ذلك أعطيته كل البيانات الخاصة بي في ورقة، وانصرفت غير مصدق ما حدث، هل هذا حلم آخر؟!

وفي اليوم التالي ذهبت إلى المجمع في «التحرير»، وأخذت معي كل الأوراق المطلوبة من شهادة ميلاد وبطاقة وصور، ولكنهم أخبروني أنه لا بدَّ من شهادة بموافقة جهة العمل، أو استقالة، وفي جهة العمل رفضوا الموافقة على سفري، فأقدمت على تقديم استقالتي، وهي مغامرة غير محسوبة، اعتمادًا على كلمة «نجيب جويفل» لي، فماذا إذا لم يستطع «نجيب» إحضار التصريح لي بالموافقة على سفري، سأجد نفسي من غير عمل، ولا مورد، ولكني توكلت على الله، وقدمت استقالتي، وأعطوني ورقة بخلو الطرف، وقدمتها للجوازات في آخر يوم قبل موعدي مع «نجيب جويفل»، وقابلني بتجهم في وجهه، فأحسست أنه فشل في مهمته، وفي

وعده، وأنني خسرت عملي أيضًا، ولكنه عاد، وابتسم مطمئنًا لي، وقال لي: لقد أحببت أن أختبر أعصابك، يا عبد الرحمن، مبروك، تستطيع الآن أن تسافر، وتقدم هذه الورقة في المطار، ووجدتها مختومة بختم النسر، ومكتوب فيها: «يصرح لحاملها فلان بالخروج والسفر إلى دولة الكويت»، شكرته كثيرًا، وعدت إلى المنزل في غاية السعادة، وكانت أمي سعيدة مثلي، فهي تتمنى بقائي معها، ولكنها تحب حريتي وأماني أكثر، وهذا هو الحب الحقيقي حب الأم الصادق.

وجاء يوم السفر، وقد بقي على امتحان الجامعة أسبوعًا واحدًا، ولكنني لم أفكر أبدًا إلا في حريتي، أما التعليم، ففي المرتبة الثانية، ولقد سمعت نصائح كثيرة من أصدقائي وإخواني أن أنتظر حتى ينتهي امتحاني، وأجمع بين الحسنيين، ولكني لا أظن أبدًا أن يحدث ما لا يحمد عقباه، ويغدر صاحبنا بنا مرة أخرى، ولا أمان لمن لا إيمان له، وجهَّزت شنطة صغيرة، وكنت قد أرسلت خطابًا لأخي الكبير «علي البنان» بنيتي في السفر إليه، وأرسلت له برقية بموعد الطائرة ورقم الرحلة، وكان كلُّ شيءٍ يسير على ما يرام.

تُرى هل سيتم السفر بدون عقبات أو مفاجآت، وقد تعوَّدت في حياتي المفاجآت المذهلة؟ ففي المطار بعد وداع الأحباب، تُرى بماذا تجيء لي الساعات القادمة؟

* * *

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
مقدمة	٥
جولة في أعماق النفس	٧
الفصل الأول (من المهد إلى المعركة)	
طفولتي	١١
الكتّاب والرؤية الصالحة	١٢
حادثة الراديو	١٣
حادثة الثعبان	١٥
وفاة جدتي	١٧
على أعتاب السياسة	١٨
مع أحمد أفندي	٢٠
على أعتاب الموت	٢٢
الانتقال إلى حمامات القبة	٢٣
المدرسة وأول مراحل كره اليهود	٢٩
المدرسة الثانوية	٣٣
المراهقة وأفق جديدة	٣٦
عبد العزيز وكسر ساقه	٤٨
هواجس الموت	٤٩
في رحاب الحياة	٥١
فطرة مستقيمة وتربية قويمة	٥٣
على مفترق الطريق	٥٩

الموضوع	الصفحة
الأجازة وفراغها................................	٦٣
موقف عجيب................................	٦٥
الفصل الثاني (بين الصفوف المؤمنة)	
رحلة المقطم ومعرفة الإخوان المسلمين................................	٧١
نقطة التحول................................	٧٩
المنعطف إلى طريق الخير................................	٨٠
نحو الهدف................................	٨٣
رحلة إلى أعماق الإخوان المسلمين................................	٨٦
مواجهة مرض الكوليرا................................	٨٨
الفصل الثالث (الطريق إلى فلسطين)	
فلسطين والتفكير فيها................................	٩١
عقبات على طريق الجهاد................................	٩٤
اللقاء الأول بالإمام الشهيد حسن البنا................................	١٠٠
الخطوة الأولى نحو الجهاد................................	١٠٣
إلى فلسطين................................	١١٠
في معسكر البريج................................	١١٦
على خط النار................................	١٢٠
الحرب المضادة................................	١٢٦
مهمة جديدة................................	١٣٠
الاختبار الأول................................	١٣٢
على خط النار مرة ثانية................................	١٣٤
أخوة صادقة................................	١٣٦

الموضوع	الصفحة
الاختبار الثاني والعودة للقاهرة	١٣٧
في القاهرة	١٤٠
لقاء القلوب	١٤١
محاولة العودة للجهاد	١٤٥
محاولة فاشلة للسفر إلى فلسطين	١٤٧
من نقطة البداية ومحاولة أخرى	١٥١
على خط النار مرة ثالثة	١٥٥
خيانة الحكومة وحل الإخوان	١٥٩
التبة ٨٦	١٦٢
وقفة ونفرة	١٦٧
الفصل الرابع (محنة الاعتقالات)	
انتهاء المعارك والاعتقال	١٨٧
الخطوة الأولى في الاعتقال	١٨٩
إلى معتقل الهايكستب	١٩٢
في معتقل الطور	١٩٤
في معتقل أبي قير	٢٠٠
الإفراج ورحيل الوالد والعمل الدعوي	٢٠٢
الفصل الخامس (بين احضان القنال)	
حرب القنال ١٩٥١م	٢١١
عملية الموت ونسف القطار	٢١٦
عملية نسف الكوبري	٢٣٣
التجهيز لعمليات أخرى	٢٣٦

الموضوع	الصفحة
عمليات للفدائيين الإخوان........................	٢٣٩
أمريكا ودورها في المنطقة والثورة........................	٢٤٠
الفصل السادس (الثورة ومحنة الإخوان)	
مقدمات الثورة وقيامها........................	٢٤٥
حادثة المنشية والجزرة........................	٢٤٩
شخصية عبد الناصر........................	٢٥١
شخصية السادات........................	٢٥٣
المحنة والمعتقلات........................	٢٥٤
في سجن طرة........................	٢٥٥
في سجن الواحات........................	٢٥٦
محنة التأييد........................	٢٦٣
سجن المحاريق........................	٢٦٨
سجن القناطر الخيرية........................	٢٧٧
الإفراج........................	٢٨٠
الحياة بعد المحنة........................	٢٨٤
محنة ١٩٦٥م والاعتقال........................	٢٨٦
سجن أبي زعبل........................	٢٨٨
الخاتمة........................	٢٩٣
الإفراج والانطلاق........................	٢٩٣
الفهرس........................	٣٠١

* * *